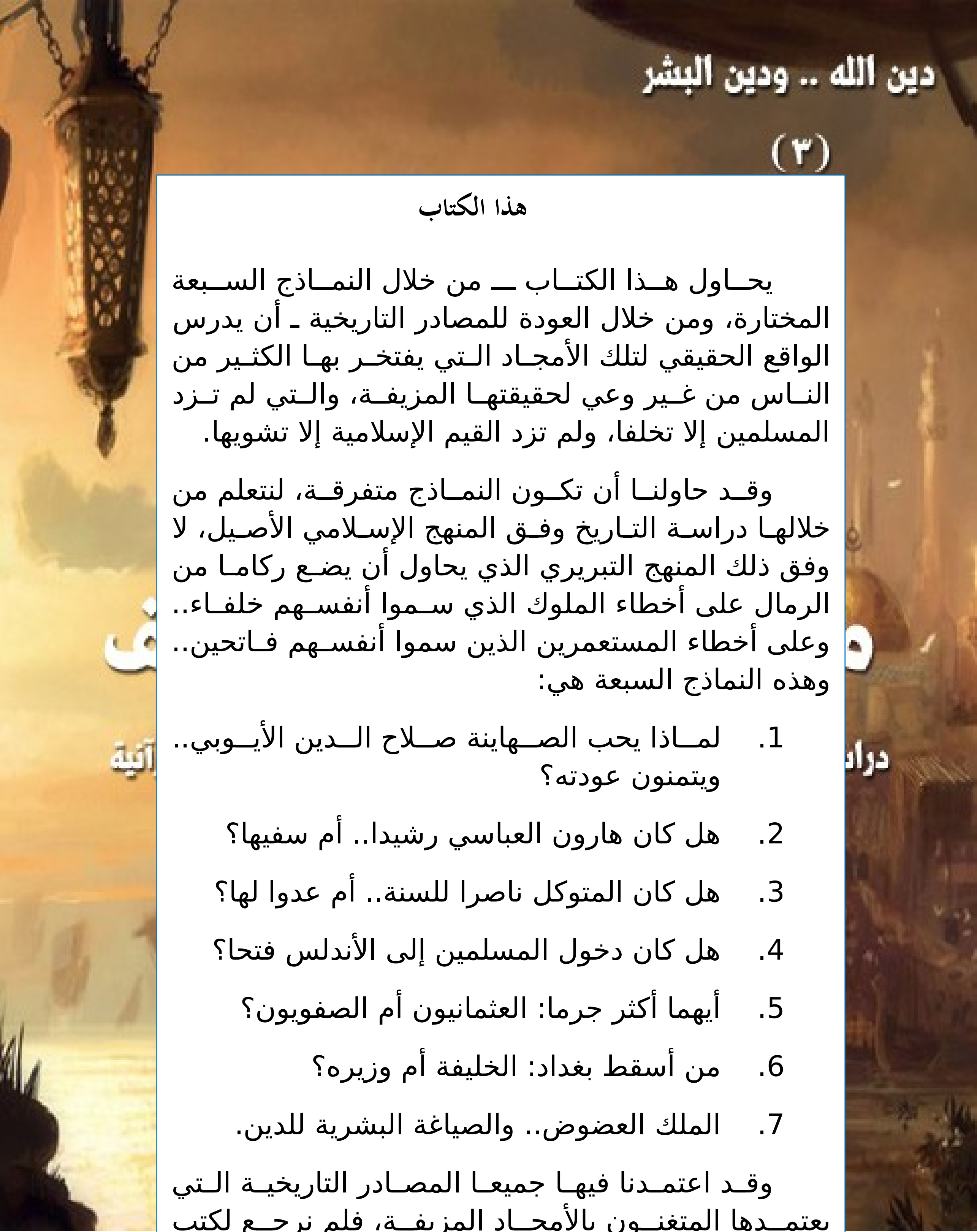


هذا الكتاب

يحــاول هــذا الكتــاب ــ من خلال النمــاذج الســبعة المختارة، ومن خلال العودة للمصادر التاريخية ـ أن يدرس الواقع الحقيقي لتلك الأمجـاد الـتي يفتخـر بهـا الكثـير من النـاس من غـير وعي لحقيقتهـا المزيفـة، والـتي لم تـزد المسلمين إلا تخلفا، ولم تزد القيم الإسلامية إلا تشويها.

وقـد حاولنـا أن تكـون النمـاذج متفرقـة، لنتعلم من خلالهـا دراسـة التـاريخ وفـق المنهج الإسـلامي الأصـيل، لا وفق ذلك المنهج التبريري الذي يحاول أن يضـع ركامـا من الرمال على أخطاء الملوك الذي سـموا أنفسـهم خلفـاء.. وعلى أخطاء المستعمرين الذين سموا أنفسـهم فـاتحين.. وهذه النماذج السبعة هي:

1. لمــاذا يحب الصــهاينة صــلاح الــدين الأيــوبي.. ويتمنون عودته؟
2. هل كان هارون العباسي رشيدا.. أم سفيها؟
3. هل كان المتوكل ناصرا للسنة.. أم عدوا لها؟
4. هل كان دخول المسلمين إلى الأندلس فتحا؟
5. أيهما أكثر جرما: العثمانيون أم الصفويون؟
6. من أسقط بغداد: الخليفة أم وزيره؟
7. الملك العضوض.. والصياغة البشرية للدين.

وقـد اعتمـدنا فيهـا جميعـا المصـادر التاريخيـة الـتي يعتمــدها المتغنــون بالأمجــاد المزيفــة، فلم نرجــع لكتب المستشرقين، ولا الحداثيين، ولا غيرهم، بل اكتفينا بكل

صفحات
من أسفار المجد المزيف

دراسة نقدية لأهم المحطات في التاريخ الإسلامي وفق رؤية قرآنية

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

2018 . 1439

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

يحاول هذا الكتاب ـ من خلال النماذج السبعة المختارة، ومن خلال العودة للمصادر التاريخية ـ أن يدرس الواقع الحقيقي لتلك الأمجاد التي يفتخر بها الكثير من الناس من غير وعي لحقيقتها المزيفة، والتي لم تزد المسلمين إلا تخلفا، ولم تزد القيم الإسلامية إلا تشويها.

وقد دفعنا إلى ذلك عوامل كثيرة منها:

أولا ـ نحن مطالبون شرعا وأخلاقا بأن نشهد بالحق، ولو على أنفسنا، وألا نطفف في الموازين، وألا نحكم إلا بالمعايير التي رسمتها لنا الشريعة، وقد رأيت أن كل ذلك للأسف قد غُيب في التعامل مع الأحداث التاريخية، مثلما غيب في غيرها، ذلك أن أكثر المسلمين يتغنون بأمجاد شخصيات كانت ـ كما تنص المصادر التاريخية ــ ممتلئة بالفسوق والفجور وجميع أنواع الانحلال الأخلاقي، في نفس الوقت الذي تمارس فيه كل أنواع الاستبداد والظلم والتشويه للحقائق، ومع ذلك نجد اعتبار كتمان تلك الحقائق دينا وعدلا.

ولست أدري كيف يكون الكتمان الذي وقع فيه بنو إسرائيل ونهينا عنه دينا، في نفس الوقت الذي نشيع فيه جرائم غيرنا، ونفخر عليهم بأننا أفضل منهم، وكل ذلك تزوير وكذب، فما وقع فيه غيرنا، وقعت فيه أمتنا، وبصورة لا تقل شراسة..

ولذلك كان العدل يقتضي منا ـ كما أشعنا الجرائم التي أثبتها التاريخ لغيرنا ـ أن نشيع الجرائم التي أثبتها التاريخ لنا.. فنحن لسنا أمة معصومة، ومن الخطأ أن نتعامل مع غيرنا بذلك الكبرياء المزيف الذي يمكن لأي عاقل يعود للمصادر أن يكشفه بسهولة.

ثانيا ـ أني رأيت أن التاريخ الإسلامي ـ بدل أن يكون مجرد أحداث وقعت في زمن ما ـ أصبح دينا يتعبد به الناس، وأصبحت شخصياته رموزا مقدسة، وذلك ما جعل الدين الإلهي في خطر، لأن الآخر عندما ينظر إلى تاريخنا وسواده واستبداده، ثم يرى

فخرنا به، يتصور أنه حقيقة الدين الذي نؤمن به مع المسافة الشديدة بينهما، ولهذا أدرجنا الكتاب ضمن سلسلة [دين الله .. ودين البشر]، والتي تحاول التمييز بين دين الله الأصيل، وبين ما زاده البشر من تلقاء أنفسهم.

ثالثا ـ أن المصادر المقدسة أخبرت بالانحراف الذي ستقع فيه الأمة، مثلما وقعت فيه الأمم قبلها، ولذلك كان هذا الكتاب محاولة لإثبات ما ورد فيها حول الواقع التاريخي للأمة الإسلامية في فترة الملك العضوض، أو في الفترة التي تتخاذل فيها عن تنفيذ وصايا نبيها ﷺ، أو في الدورة التاريخية التي تتحرك فيها باجتهادها بعيدا عن الوحي..

ونحن لا نعتقد أن هذه الدورة هي نهاية تاريخ المسلمين، بل نعتقد

أنها تجارب في تاريخ المسلمين .. ليصلوا بعد تدبرها والاعتبار بها إلى تصحيح مسيرتهم وفق المنهج القرآني الأصيل، لا وفق ذلك التاريخ المزيف.

رابعا ـ أن النصوص المقدسة كما دعتنا إلى اعتماد الصدق في الأخبار، دعتنا إلى الاعتبار بها، والاستفادة منها، ولذلك كان هذا الكتاب محاولة لعرض الأحداث التاريخية على المنهج القرآني في التعامل مع التاريخ.. بعيدا عن الهوى، وذلك الخيلاء الكاذب.

هذه أهم الدوافع التي جعلتنا نهتم بمثل هذه الأحداث التاريخية، والتي حاولنا أن تكون نماذج متفرقة، نتعلم من خلالها دراسة التاريخ وفق المنهج الإسلامي الأصيل، لا وفق ذلك المنهج التبريري الذي يحاول أن يضع ركاما من الرمال على أخطاء الملوك الذي سموا أنفسهم خلفاء.. وعلى أخطاء المستعمرين الذين سموا أنفسهم فاتحين.. وعلى أخطاء المجرمين الذين لبسوا لباس الإسلام، وهم يتصورون أنهم يدافعون عنه، بينما لهم يكن لهم من دور سوى تشويهه، وتحويله إلى الصورة التي نراه عليها اليوم.

وقد اخترنا هذه النماذج السبعة لتكون دليلا على غيرها، وقد

عنوناها كما يلي:

1. لماذا يحب الصهاينة صلاح الدين الأيوبي.. ويتمنون عودته؟
2. هل كان هارون العباسي رشيدا.. أم سفيها؟
3. هل كان المتوكل ناصرا للسنة.. أم عدوا لها؟
4. هل كان دخول المسلمين إلى الأندلس فتحا؟
5. أيهما أكثر جرما: العثمانيون أم الصفويون؟
6. من أسقط بغداد: الخليفة أم وزيره؟
7. الملك العضوض.. والصياغة البشرية للدين

وقد اعتمدنا فيها جميعا المصادر التاريخية التي يعتمدها المتغنون بالأمجاد المزيفة، فلم نرجع لكتب المستشرقين، ولا الحداثيين، ولا غيرهم، بل اكتفينا بكل تلك المصادر التي يعتبرونها تجمع أحداث التاريخ الإسلامي بإنصاف واعتدال.

لماذا يحب الصهاينة صلاح الدين الأيوبي.. ويتمنون عودته؟

ليس القصد من هذا العنوان كما قد يتوهم البعض الإثارة، بل هــو يعــبر عن الحقيقــة بــأجلى معانيهــا، فالصــهاينة والأمريكــان والأوروبيون لا يحلمون بشــيء كمــا يحلمــون ببطــل كرتــوني كبــير مثل صلاح الدين الأيوبي، ذلك أنه الوحيد الذي يحقق لهم أمجادهم وأحلامهم، وبأقصر الطرق، وأقل التضحيات.

ولذلك هم يرددون مع كــل المغفلين الــذين يســألون اللــه أن يعيــد صــلاح الــدين الأيــوبي إلى الحيــاة من جديــد، مؤمّــنين على دعائه.. فصلاح الدين هو حلمهم الأكبر الذي حــاولوا أن يســتعيدوه من خلال كل الأقــزام الــذين صــنعوهم، وأمــروهم على بلاد العــالم الإسلامي، لكنهم لحد الآن لم يفلحوا في إيجــاد شــخص يقــدم لهم من الخدمات ما قدمه صلاح الدين لهم.

وسأحاول هنا أن أخترق حجب الزمان الكاذبة، لأُدخــل صــلاح الــدين من جديــد إلى هــذا العصــر، وأري أولئــك الــذين يحلمــون بعودتــه، مــاذا ســيفعل لهم وبهم، وطبعــا لن أفــتري عليــه، بــل ســأحاول أن أرجــع للمصــادر المعتمــدة.. لا تلــك الــتي يعتمــدها الــروافض والمجــوس.. كمــا يســمونهم.. وإنمــا أعتمــد المصــادر الممتلئة بتعظيم السنة، والتي يستدل بها أسود السنة ونمورهم.

طبعا.. سيكون أول إنجاز لصــلاح الــدين العائــد من جديــد هــو تحرير القدس.. وهذا من المتفق عليه.. فلا يمكن أن يكــون هنــاك صلاح للدين دون أن تكــون هنــاك عــودة للقــدس.. فهــو مــا يجعــل القلوب كلها تحن إليه وتعظمه وتذكره في صلاتها وأدعيتها..

لكن اصبروا.. فالعبرة بالخواتم، وقد أخبرنــا رســول اللــه ﷺ، بل أقسم؛ فقال: (والذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهــل الجنة، حتى مــا يكــون بينــه وبينهــا إلا ذراع، فيســبق عليــه الكتــاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكــون بينــه وبينهــا إلا ذراع، فيســبق عليــه الكتــاب فيعمــل

بعمل أهل الجنة فيدخلها) [1]

فلذلك اصبروا؛ فذلك الذي حـرر مدينـة واحـدة، سـيبيع مـدنا كثيرة، وسيقسم أوطانا كثيرة، وستجري على يديه دمـاء كثـيرة، لا دماء الصليبيين، وإنما دماء المسلمين.

1 ـ صلاح الدين.. وتحرير بلاد الإسلام من المسلمين:

اصـبروا لتسـمعوا القصـة إلى آخرهـا؛ فلا يصـح أن نصـفق للأمجـاد قبـل أن تكتمـل.. فصـلاح الـدين الـذي حـرر القـدس من الصـليبيين هـو نفسـه الـذي حـرر بلادا كثـيرة، ومـدنا كثـيرة من المسلمين.. وأسال دماءهم في الطرقات، ليروي ظمـأه للسـلطة والحكم وممارسة الاستبداد.

لقـد ذكـر ابن العمـاد الحنبلي.. ركـزوا جيـدا فهـو حنبلي.. لا رافضـي ولا مجوسـي.. بعض البلاد الـتي حـرر صـلاح الـدين منهـا المسلمين؛ فقال: (أول ما فتح الدّيار المصـرية، والحجـاز، ومكّـة، والمدينـة، واليمن من زبيـد إلى حضـرموت، متّصـلاً بالهنـد، ومن الشام: دمشـق، وبعلبـك، وحمص، وبانيـاس، وحلب، وحمـاة. ومن السـاحل: بلاد القـدس، وغـزّة، وتـل الصـافية، وعسـقلان، ويافـا، وقيسـارية، وحيفـا، وعكّـا، وطبريـة، والشّـقيف، وصـفد، وكـوكب، والكرك، والشّوبك، وصيدا، وبـيروت، وجبلـة، واللّاذقيـة، والشّـغر، وصهيون، وبلاطنس، ومن الشرق: حرّان، والرّهـا، والرّقّـة، ورأس عين، وسنجار، ونصيبين، وسروج، وديـار بكـر، وميّافـارقين، وآمـد، وحصونها، وشهرزور، ويقال: إنه فتح سـتين حصـناً، وزاد على نـور الدّين بمصـر، والمغـرب، والحجـاز، واليمن، والقـدس، والسـاحل، وبلاد الفرنج، وديار بكر، ولو عاش لفتح الدّنيا شرقاً وغربـاً، وبعـداً وقرباً، ولم يبلغ ستين سنة) [2]

طبعـا هـو سـماها فتوحـا، مـع كونهـا بلادا إسـلامية، وأهلهـا

[1] () رواه البخاري 11/ 417 ، ومسلم رقم (2643)

[2] () شذرات الذهب في أخبار من ذهب 4/299..

مسلمون.. لكنه سماها كذلك لأنها أصبحت تحت سلطته وإمرته وملكه.. وهي بذلك دخلت الإسلام.. أما قبل ذلك؛ فقد كانت بلادا جاهلية.

هو فعل تماما ما كان يفعله آل سعود في دولتهم الأولى عندما كانوا يدخلون المدن، ويقتلون أهلها، ثم يذكر ابن غانم في تاريخ نجد أنهم كانوا يفتحونها.. ومثلما يفعلون الآن باليمن من تجويع وتقتيل وتدمير.. ثم يأتي الشعراء ليثنوا على جرائمهم، ويأتي رجال الدين، ليجعلوهم من العترة الطاهرة والصحابة السابقين، بل الأنبياء والمرسلين.

قد يحاول الكثير من الذين لم يحبوا أن تتشوه صورة البطل في عيونهم أن يصوروا تلك الجرائم بصورة مختلفة، ويذكروا أن صلاح الدين كان رحيما جدا، ولم يكن يقتل أحدا، وإنما كان يستلم المفاتيح ومعها الزغاريد والأهازيج، ولهذا سأنقل ما قال مؤرخ آخر هو أيضا من الطائفة المنصورة، وليس من الروافض ولا من المجوس.. وهو من المعاصرين لصلاح الدين الأيوبي.. لاشك أنكم تعرفونه.. إنه عز الدين أبوالحسن الجزري الموصلي (555-630 هـ) المعروف بـ [ابن الأثير الجزري]، ذلك المؤرخ الكبير، الذي كتب موسوعته الكبرى في التاريخ الإسلامي [الكامل في التاريخ]، كما كتب موسوعته الكبرى في أسماء الصحابة [أسد الغابة في معرفة الصحابة]

لقد قال ابن الأثير يصف منهجه في تحرير البلاد الإسلامية من المسلمين: (فغضب السودان الذين بمصر لقتل مؤتمن الخلافة حميّة، ولأنه كان يتعصّب لهم، فحشدوا وجمعوا، فزادت عدّتهم على خمسين ألفاً، وقصدوا حرب الأجناد الصلاحية، فاجتمع العسكر أيضاً، وقاتلوهم بين القصرين، وكثر القتل في الفريقين، فأرسل صلاح الدين إلى محلّتهم المعروفة بالمنصورة، فأحرقها على أموالهم وأولادهم وحرمهم، فلما أتاهم الخبر بذلك ولّوا منهزمين، فركبهم السيف، وأُخذت عليهم أفواه السكك، فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل، فأجيبوا إلى ذلك، فأُخرجوا من مصر إلى الجيزة، فعبر إليهم شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح

الدين الأكبر في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف، ولم يبق منهم إلا القليل الشريد)[1]

هذا موقف واحد من مواقف البطل.. نعم هو يشبه داعش تماما.. ولذلك داعش تحبه كثيرا.. ويحبه معهم كل مجرمي العالم، لأنهم لا يحبون حروبا بلا دماء.. بل كلما كثرت الدماء كلما كانت الحرب عندهم أحلى وألذ.. وخاصة إن كانت الدماء دماء مسلمين.

طبعا سيحاول العاشقون للبطل أن يبحثوا عن حلول لتلك المشكلة؛ فيصوروا الأمر بصورة أخرى.. يذكرون فيها أن تلك الدماء كانت ثمرة لتحقيق الوحدة الإسلامية، وأنه لا يمكن أن تتحقق الوحدة دون أن تسيل دماء.. هكذا قال صدام حسين حين راح يغزو إيران والكويت.. وهكذا قال قبله هتلر ونيرون.. وهكذا قال قبلهم فرعون الذي كان يقتل الرجال ويستحيي النساء، لأن وحدة مصر لن تتحقق من دون قتل كل صبي يمكن أن يتحول إلى معارض في المستقبل.

وهكذا قال دعاة الفتنة في سورية والعراق، والذين أرسلوا كل عشاق صلاح الدين الأيوبي من جميع أنحاء العالم ليحرروها من أهلها، لأن القدس عندهم لا تحتاج إلى تحرير، وإنما بلاد المسلمين هي التي تحتاج إلى تحرير.

وهكذا كان يفعل صلاح الدين الذي كان يحرر بلاد الإسلام من المسلمين، ليمكن لنفسه، ويزيد من مساحة الأرض التي يستحوذ عليها هو وبنو عمومته.

يقول مؤرخ آخر.. ليس رافضيا ولا مجوسيا.. هو عمر بن أحمد بن هبة الله المعروف بابن العديم (588 - 660 هـ) في كتابه عن تاريخ حلب: (وخاف صلاح الدين من نور الدين أن يدخل مصر فيأخذها منهم، فشرع في تحصيل مملكة أخرى لتكون عدّة له بحيث إن نور الدين إن غلبه على الديار المصرية سار هو وأهله إليها وأقاموا بها، فسيَّر أخاه الأكبر تورانشاه بإذن نور الدين له في ذلك، وسيَّره قاصداً عبد النبي بن مهدي، وكان دعا إلى نفسه،

[1] () الكامل في التاريخ 11/346.

وقطع خطبة بني العباس، فمضى إليها وفتح زبيد وعدن، ومعظم بلاد اليمن)[1]

فهذا النص مثال واحد عن ذلك الشغف بالسلطة، والذي جعله يحارب جميع الدول الإسلامية، لا لكونها كانت دولا مستبدة يريد أن ينشر فيها الديمقراطية والحرية، ولكن لكونها لم تكن تحت إمرته وسلطته وسطوته، وهو يريدها أن تكون كذلك.

2 ـ صلاح الدين.. وبيع فلسطين للصليبيين:

لذلك استعمل كل الوسائل في حروبه.. وكان أبشع تلك الوسائل بيع فلسطين للصليبيين.. لا تتعجبوا.. فالذي حرر القدس هو نفسه الذي باع فلسطين.. فلذلك لا تلوموا السادات على معاهدته مع الكيان الصهيوني، ذلك أن جريمته في تلك المعاهدة، وذلك التطبيع، لا تساوي شيئا أمام ما فعله صلاح الدين الأيوبي.

لقد قال المؤرخ الكبير الدكتور حسين مؤنس (1911 ـ 17 1996م) المصري ـ لا العراقي ولا الإيراني ـ: (ثم دخل الصليبيون في مفاوضات مع صلاح الدين انتهت بعقد صلح (الرملة)، الذي نصّ على أن يترك صلاح الدين للصليبيين شريطاً من الساحل، يمتد من صور إلى يافا، وبهذا العمل عادت مملكة بيت المقدس - التي انتقلت إلى طرابلس- إلى القوة بعد أن كانت قد انتهت، وتمكّن ملوكها من استعادة الساحل حتى بيروت.. وهنا وبعد عقد صلح الرملة اعتبر فيليب أغسطس أن مهمّته قد انتهت، وأنه برَّ بقسمه (أن يفتح الطريق إلى بيت المقدس)، وأقلع إلى بلاده من ميناء عكا في 8 يونيو 1192م. أما ريتشارد فقد بقي في بلاد الشام، وأتمَّ الاستيلاء على الموانئ الواقعة جنوب عكا حتى عسقلان، ثم عقد صداقة مع صلاح الدين الذي اعتبره من أعاظم ملوك المسلمين، وأتمَّ حجَّه إلى بيت المقدس ووضع يده على قبرص.. وبذلك تكون معظم المكاسب التي حقَّقها صلاح الدين - فيما عدا استعادته لبيت المقدس - قد ضاعت بسبب تنافس

[1] () زبدة الحلب من تاريخ حلب: 357.

الأمراء الأيوبيين واختلاف كلمتهم)[1]

هذه شهادة هذا المؤرخ الكبير، والتي تدل عليها كل المصادر التاريخية، والتي ذكرنا سابقا بعضها، ولمن شاء المزيد يمكنه أن يقرأ ما قاله شيخ المؤرخين العرب [أحمد بن علي المقريزي] المعروف بـ [تقي الدين المقريزي] (764 هـ ـ 845 هـ)، فقد قال في كتابه المشهور [الفتح القسي في الفتح القدسي]، والذي أرخ فيه لبطولات صلاح الدين الأيوبي: (وعاد إلى القدس، وعقد الهدنة بينه وبين الفرنج مدّة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، أوّلها حادي عشر شعبان، على أنّ للفرنج من يافا إلى عكا إلى صور وطرابلس وأنطاكية، ونودي بذلك، فكان يوماً مشهوداً)[2]

وقال عماد الدين الكاتب (519 هـ - 597 هـ) ـ مؤرخ وأديب وشاعر الدولة النورية والأيوبية والذي كان معاصراً لصلاح الدين ـ: (وجعل لهم من يافا إلى قيسارية، إلى عكاء إلى صور، وأبدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية والأعمال الدانية والنائية)[3]

ألا ترون من خلال هذه النصوص الخدمات الكبيرة التي قدمها صلاح الدين الأيوبي للصليبيين مجانا.. وكل ذلك حتى يتاح له أن يحرر بلاد الإسلام من المسلمين.. ويجعلها في كنفه وسلطته، لكونه أكثر رحمة بها من غيره من الحكام.

وحتى نيسر فهم ما فعله صلاح الدين الأيوبي في ذلك الحين، ونطبقه على هذا الحين لأولئك الذين يريدون عودة صلاح الدين من جديد.. تصوروا لو أن حاكما قويا من حكام المسلمين أتيح له بطريقة ما أن يحرر القدس.. ثم بعد سنوات قليلة يسلم سورية ولبنان وفلسطين والعراق للصهاينة.. ثم يقوم بحرب على كل

1() أطلس تاريخ الإسلام: 269.

2() المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي) 3/409.

3() الفتح القسي في الفتح القدسي: 316.

البلاد الإسلامية، فيدمرها جميعا، ويحولها إلى دويلات صغيرة تتصارع فيما بينها.. هل يمكن أن نعتبر هذا الحاكم حاكما صالحا، وهل ندعو الله أن يطيل عمره، لنذوق على يديه الكثير من كؤوس الألم والمعاناة.

تخيلوا الأمر فقط.. لتصابوا بعد ذلك بالغثاء.. فلعل ذلك الغثاء يزيل تلك الأوهام عن عقولكم.

3 ـ صلاح الدين.. وإجهاض مقاومة الصليبيين:

ولم يكتف صلاح الدين بتلك الجرائم مع كثرتها، وإنما كان يستعمل كل الوسائل لإجهاض أي مقاومة ضد الصليبيين، إذا ما أدت تلك المقاومة إلى إدخال البلاد المحررة إلى حكم آخر غير حكمه.. وهو يفعله تماما أولئك الذين يرددون الآن، وبكل وقاحة: (لا نريد فلسطين تحررها حماس أو حزب الله، أو تشارك إيران في تحريرها).. ويقولون: (نقبل بفلسطين اليهودية، ولا نقبل بفلسطين الشيعية الإيرانية)

وهكذا فعل صلاح الدين الأيوبي تماما عندما أعطى الفرصة للصليبيين، ووقف في وجه الجيش الذي يريد مقاومتهم، بل كان سندا لهم ليستمر وجودهم، وقد ذكر ذلك كل المؤرخين.. لا الرافضة المجوس.. وإنما المؤرخون من أهل السنة والجماعة، والذين يعتمد عليهم الجميع في كتبهم التاريخية.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة 567هـ؛ فقد قال: (في هذه السنة جرت أمور أوجبت أن تأثّر نور الدين من صلاح الدين، ولم يُظهر ذلك، وكان سببه أن صلاح الدين يوسف بن أيوب سار عن مصر في صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازياً، ونازل حصن الشوبك[1]، وبينه وبين الكرك يوم، وحصره، وضيَّق على مَنْ به من الفرنج، وأدام القتال، وطلبوا الأمان، واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك. فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج

---

[1] () الشَّوْبَك: قلعة حصينة بأطراف الشام بين عمَّان وأيلة والقلزم قرب الكرك. (معجم البلدان 3/370)

أيضاً؛ ليدخل إليها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال: أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريــق وأخــذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين، وإن جاء نور الدين إليــك وأنت ههنا، فلا بد لك من الاجتماع به، وحينئذ يكون هو المتحكّم فيك بما شاء، إن شاء تركك، وإن شـاء عزلـك، فقـد لا تقـدر على الامتنـاع عليه، والمصلحة الرجوع إلى مصر. فرحل عن الشوبك عائــداً إلى مصر، ولم يأخذه من الفرنج، وكتب إلى نور الـدين يعتـذر بـاختلال البلاد المصــرية لأمــور بلغتْــه عن بعض شــيعته العلــويين، وأنهم عازمون على الوثوب بها، فإنه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلهـا على من تخلّـف بهـا، فيخرجــوهم وتعـود ممتنعـة، وأطـال الاعتــذار، فلم يقبلهـا نــور الـدين منــه، وتغيَّر عليــه، وعــزم على الدخول إلى مصر وإخراجه عنها)(1)

ومن الأمثلة عليها مـا ذكـره في حـوادث سـنة 568هـــ، فقـد قال: (في هـذه السـنة في شـوال رحـل صـلاح الـدين يوسـف بن أيــوب من مصــر بعســاكرها جميعهـا إلى بلاد الفــرنج يريـد حصـر الكرك، والاجتمـاع مـع نـور الـدين عليـه، والاتفـاق على قصـد بلاد الفرنج من جهتين، كل واحد منهما في جهة بعسكره. وسبب ذلــك أن نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عـوده من بلاد الفـرنج في العام الماضي، وأراد نور الـدين قصـد مصـر وأخـذها منـه، أرسـل يعتــذر، ويعــد من نفســه بالحركــة على مــا يقــرِّره نــور الــدين، فاستقرّت القاعدة بينهما أن صلاح الدين يخرج من مصـر، ويســير نــور الـدين من دمشـق، فأيهمـا سـبق صـاحبه يقيم إلى أن يصـل الآخر إليه، وتواعدا على يوم معلـوم يكـون وصـولهما فيـه، فسـار صلاح الدين عن مصر لأن طريقه أصعب وأبعد وأشق، ووصل إلى الكرك وحصره. وأما نور الدين فإنـه لمـا وصـل إليـه كتـاب صـلاح الدين برحيله من مصر فـرَّق الأمـوال، وحصَّـل الأزواد ومـا يحتـاج إليــه، وســار إلى الكــرك فوصــل إلى الــرقيم، وبينــه وبين الكــرك مرحلتان، فلما سمع صـلاح الـدين بقربـه خافـه هـو وجميـع أهلـه، واتّفق رأيهم على العـود إلى مصـر، وتـرك الاجتمـاع بنـور الـدين؛

1() الكامل في التاريخ 11/371.

لأنهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نـور الـدين سـهلاً. فلمـا عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنـه كـان قد استخلف أباه نجم الـدين أيـوب على ديـار مصـر، وأنـه مـريض شديد المرض، ويخاف أن يحدث عليه حادث المـوت فتخـرج البلاد عن أيـديهم، وأرســل معــه [من] التحــف والهــدايا مــا يجــل عن الوصف، فجاء الرسول إلى نور الـدين وأعلمـه ذلـك، فعظم عليـه وعلم المراد من العود، إلا أنه لم يُظهر للرسول تأثّراً، بل قال لـه: حِفْظُ مصر أهم عندنا من غيرها)(1)

ونفس الشــيء ذكــره في حــوادث 569هــ، وحينهــا ارتفــع اللبس عن مقصد صلاح الدين من كل تلك التأجيلات، فقد قال ابن الأثير: (وكان نور الدين محمود بن زنكي قد شرع يتجهّـز للـدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب، فإنـه رأى منـه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، وكان يعلم أنـه إنمـا يمنـع صـلاح الدين من الغزو الخـوف منـه ومن الاجتمـاع بـه، فإنـه يـؤثر كـون الفــرنج في الطريــق ليمتنــع بهم على نــور الــدين، فأرســل إلى الموصل وديار الجزيرة وديـار بكـر يطلب العسـاكر للغـزاة، وكـان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غـازي صـاحب الموصـل بالشام، ويسير هو بعساكره إلى مصر، فبينما هو يتجهّز لذلك أتـاه أمر الله الذي لا مردَّ له)(2)

هذه بعض النصوص التي تبين الهدف الأكبر الـذي كـان يـدفع صـلاح الـدين في كـل حروبـه، وهـو الـذي يـدفع كـل المسـتبدين والظلمة في التاريخ.

ولذلك ليس لنا إلا أن نضحك ملء أفواهنا على تلك الأراجيف التي يرسلها الخطباء والوعاظ على منابر المساجد، وهم يرددون، والعــبرات تخنقهم: (كونــوا كصــلاح الــدين الأيــوبي الــذي لم يكن يبتسم، وكان يقـول لمن يعاتبـه في ذلـك: كيـف أبتسـم والأقصـى أسـير؟.. واللـه إني لأسـتحيي من اللـه أن أبتسـم وإخـواني هنـاك

(1) المرجع السابق، 11/392.

(2) المرجع السابق، 11/402.

يعذّبون ويُقتلون.. كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المنام، وبيتُ المقدس بأيدي الصليبيين؟)

أو كما عبر خطيب آخر، فقال: (سأحدثكم عن فارس شجاع.. فارس نبيل.. إذا أقسم أبر بقسمه..فارس قلما يجود الزمان بامثاله.. إنه (صلاح الدين الأيوبى).. الفارس النبيل الذى كان يجلس ذات يوم مع رجاله يتسامرون.. فأطلق أحدهم طرفة تبسم لها كل من تواجد بالخيمة السلطانية إلا هو ظل متجهماً..فوقفت الضحكات فى الأفواه.. وخيم الصمت المشوب بالرهبة..وسأله أحدهم لماذا لم تضحك يا صلاح الدين؟.. وجاء الجواب..قسم تزلزلت له القلوب..واهتزت له جنبات الكون: (كيف أضحك أو أبتسم وبيت المقدس أسير.. يئن فى أسره.. أقسم بالله العظيم ألا أضحك أو أبتسم.. طالما ظل بيت المقدس أسيراً)، وقد أبر بقسمه.. وفك أسر بيت المقدس من أسره.. وارتسمت ابتسامة الرضا على وجهه.. وسجد شكراً.. لمن بيده ملكوت السموات والأرض سبحانه وتعالى.. وكم نحن فى أشد الحاجة لفارس مثله، ونحن نعيش فى زمان فرسان الوهم)

وراح آخر يزيد في القصيدة أبياتا كثيرة، فيرسم هذا المشهد الأسطوري، فيقول: (عندما كان صلاح الدّين الأيوبي صغيرا ويلعب مع الصّبية فى الشّارع شاهده أبوه فأخذه من وسط الأطفال ورفعه عاليًا بيديه، وكان أبوه رجلا طويل القامة، وقال له: (ما تزوجت أمك وما أنجبتك لكي تلعب مع الصبية، ولكن تزوجت أمك وأنجبتك لكي تحرّر المَسجد الأقصَى)، وتركه من يده فسقط الطفل على الأرض، فنظر الأب إلى الطفل فرأى الألم على وجهه فقال له: آلمتك السقطة، قال صلاح الدين: آلمتني! قال له أبوه: لِمَ لم تصرخ ؟ فقال: ما كان لمحرر الأقصى أن يصرخ)[1]

وهكذا يضعون على لسانه ما شاءت لهم أهواؤهم من أحاديث، وكأنهم يتحدثون عن صلاح آخر، ربما يكون من الملائكة،

---

[1] انظر مقالا بعنوان: صلاح الدين.. علمهم سماحة الإسلام، محمد عطية، موقع صدى البلد، 23/مايو/2017 ..

وليس ذلك الصلاح الذي تحدث عنه المؤرخون، وأجمعوا على جرائمه في سبيل تحقيق نزوة التسلط والملك.

4 ـ صلاح الدين.. وتقسيم البلاد الإسلامية:

لا بأس.. يمكنكم أن تدافعوا عن كل تلك الجرائم بما شئتم؛ فتذكروا ما تعودنا على سماعه من الخيارات التكتيكية والاستراتيجية، وأن الأمر مرتبط بالنواحي العسكرية، وأن ذلك البطل الذي حرر القدس يستحيل أن يحول دون تحرير غيرها.

لكن هل يمكنكم أن تفسروا لي ما قام به في آخر حياته؛ فهو لا يرتبط بخيارات عسكرية ولا سياسية..ولا بالتكتيك، ولا بالاستراتيجية.. وإنما يرتبط بالبلاد الإسلامية التي يتوهم الكثير أن صلاح الدين قضى كل حياته من أجل توحيدها.. ثم ختمها بتمزيقها.. لأنه وحّدها أصلا من أجل نفسه، وعند موته راح يقسمها كما تقسم التركات على أصحاب الفروض والعصبات.

لا تتعجبوا من ذلك.. فهو قد قام بما عجز عنه مؤسس الدولة السعودية الحالية [عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود]، والذي وزع الحكم على أولاده، بعد حكمه لأكثر من عشرين سنة، لكنه كان حكيما في توزيعه، فقد طلب منهم أن يتداولوا الحكم أخا بعد أخ.. لكن صلاح الدين لم يرضه هذا، وإنما راح يقطع بلاد الإسلام بين أولاده، ليملكوا جميعا، وفي نفس الوقت.

نعم هو قام بنفس ما قام به عبد العزيز آل سعود حين سمى المملكة السعودية باسمه، وحولها جميعا إلى ضيعة لأسرته.. لكن موقف صلاح الدين الأيوبي كان أخطر، ولهذا تمنى الصليبيون والصهاينة وكل أشرار العالم أن يعود من جديد.

فلو أن الملك عبد العزيز بدا له أن يقوم بدور صلاح الدين عند كتابته لوصيته، فسيقسم مملكته التي قام بكل حروبه من أجل توسيعها بحسب عدد أولاده إلى ست وثلاثين قطعة.. ثم تقسم بعد ذلك، وفي مرحلة لاحقة، وبعد ولادة الأحفاد وأولادهم إلى مئات أو آلاف القطع، لأن عدد أمراء آل سعود في الفترة الحالية بلغ هذا العدد، وهو يتزايد كل حين.

هكذا فعل صلاح الدين الذي تتمنون عودته بالضبط.. وهذا ما ذكره مؤرخو الفرقة الناجية، لا الفرق الهالكة؛ فاقرأوا ما يقوله أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، فلاشك أنكم تعرفونه، وتعرفون ميوله الأموية؛ وتعرفون شدة بغضه للرافضة، والفرق الهالكة؛ فقد قال يتحدث عن حكمة صلاح الدين الأيوبي في تقسيم مملكة الإسلام على أولاده، وعدله بينهم: (وكان قد قسَّم البلاد بين أولاده، فالديار المصرية لولده العزيز عماد الدين أبي الفتح، ودمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين علي، وهم أكبر أولاده، والمملكة الحلبيّة لولده الظاهر غازي غياث الدين، ولأخيه العادل: الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدان كثيرة قاطع الفرات، وحماة ومعاملة أخرى معها للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر ابن أخي السلطان، وحمص والرحبة وغيرها لأسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير، نجم الدين أخي أبيه نجم الدين أيوب. واليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، أخي السلطان صلاح الدين، وبعلبك وأعمالها للأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه، وبصرى وأعمالها للظافر بن الناصر)[1]

وهذا ما ذكرته كل المصادر لا ابن كثير وحده، وقد نقل أقوالهم الدكتور حسين مؤنس، ثم قال متأسفا: (قسَّم صلاح الدين الامبراطورية ممالك بين أولاده وإخوته وأبناء أخويه، كأنها ضيعة يملكها، لا وطناً عربيًّا إسلاميًّا ضخماً يملكه مواطنوه)[2]

5 ـ صلاح الدين.. والصراع بين البلاد الإسلامية:

ولم يتوقف الأمر عند ذلك التقسيم، بل دب الشقاق بين الملوك الجدد، وراح كل واحد منهم يحلم بتوسيع مملكته، ليطبق ما فعله والده طول حياته.. وهو تحرير بلاد الإسلام من المسلمين الذين لا يخضعون لحكمه.. وسالت دماء جديدة..وفرح الصليبيون

1() البداية والنهاية 13/7.

2() عن كتاب: صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين: 132.

كثيرا، وامتد حكمهم طويلا.

لا تتصوروا أن الأمر كان مرتبطا بدويلة صغيرة، مثل قطـر أو البحرين أو الإمـارات يمكن أن تتوحـد في حـال تقسـيمها بطريقـة ما.. الأمر أخطر من ذلك.. فصلاح الدين لم يقسم الإمارات فقط، وإنمـا قسـم سـورية ولبنـان وفلسـطين والأردن ومصـر واليمن وغيرها..

كلها قسمها قبل سـايكس بيكـو، وإلى أجـزاء أقـل بكثـير من تلك الأجزاء التي نلعن بسببها تقسيمات سايكس بيكـو.. وللأسـف فـإن الـذين يلعنـون سـايكس بيكـو هم أنفسـهم الـذين يـترحمون ويترضون على صـلاح الـدين، ويسـألون اللـه أن يعيـده من جديـد، حتى تتحول بلاد الإسلام إلى قطع حلوى.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، بل صار من أهل تلك القطع الممزقة من بلاد الإسـلام من يطـالب بعـودة الصـليبيين لـيرحمهم من سـيوف الأيوبـيين، وصـار من أولئـك الأمـراء من يتحـالف مـع الصليبيين ليحمي ملكه من جشع إخوانه وبني عمومته.

لقـد ذكـر كـل المـؤرخين هـذا، فلا تتهربـوا.. ولا تحـاولوا أن تحتـالوا على أنفسـكم، فالحقيقـة لا يمكن تغطيتهـا، ولا الهـروب منها، فلكل جريمة آثارها..

لقد قال ابن كثير يذكر ذلـك: (ثم شـرعت الأمـور بعـد مـوت صلاح الدين تضطرب وتختلف في جميع هذه الممالك)[1]

وقال بعض المعاصرين من المغـرمين بصـلاح الـدين الأيـوبي في مقال له بعنوان [وفاة صلاح الدين الأيـوبي.. محـرر القـدس]: (تـرك صـلاح الـدين بعـد وفاتـه في عـام (589هــ) دولـة واسـعة الأرجاء، وسبعة عشر ولدًا وبنتًا واحدة، وكان صلاح الدين قد وزَّع خلال حياتـه السياسـية البلاد الواقعـة تحت سـيطرته على أفـراد عائلته؛ مانحًا إيـاهم سـلطات فعليـة لممارسـة السـيادة؛ فتقاسـم هؤلاء التركة الصلاحية بعد وفاته في ظل ما حدث من المـؤامرات

---

[1]() البداية والنهاية 13/7.

والحروب بينهم، إذ أن كلاّ منهم يطمع في أن يكون نصيبه يضارع نصيب جاره أو يفوقه، بالإضافة إلى تَزَعُّمِ العائلة الأيوبية)[1]

ثم ذكر هذا المغرم العاشق لصلاح الدين محرر القدس بعض ما حصل بعد وفاته، فقال: (وقد أخذت الجبهة الإسلامية في التداعي بعد وفاة صلاح الدين عام (589هـ)، ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي، فاتفق أمراء الشام على ألا يعترفوا بسيادة العزيز عثمان صاحب مصر الذي اتصف بالطموح السياسي، وزعم أن له السيادة عليهم جميعًا، وكان هذا الرفض نابعًا من أهمية دور دمشق في توجيه السياسة الأيوبية، غير أن الأفضل عليّ صاحب دمشق اتصف بسوء السيرة؛ فقد احتجب عن الرعية، واشتغل بلهوه مما أدى إلى كراهية الناس له؛ فقد وضع ثقته في وزيره ضياء الدين بن الأثير، فأساء التصرف في أمور الرعية، وخالف نهج والده في الحكم؛ فأقصى أمراء والده ومستشاريه بتأثير من وزيره؛ فهرب هؤلاء إلى القاهرة مستنجدين بالعزيز عثمان الذي رفعهم وأعزهم، فالتفوا من حوله، واعترفوا به زعيمًا على الأيوبيين)[2]

وهكذا ذكر كل المؤرخين تلك الجرائم التي حصلت في جميع البلاد الإسلامية بسبب تنافس الأسرة الأيوبية على الحكم، اقتداء منها بسنة صلاح الدين، وما قام به من حروب لأجل السلطة.

ومن الأمثلة على ذلك الصراع الذي راح فيه عشرات آلاف من قتلى المسلمين، ما عبر عنه المقريزي بقوله: (وتنكر ما بينه [يعني الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان] وبين أخيه الأفضل، فسار من مصر لمحاربته، وحصره بدمشق، فدخل بينهما العادل أبو بكر، حتى عاد العزيز إلى مصر على صلح فيه دخل، فلم يتم ذلك، وتوحّش ما بينهما، وخرج العزيز ثانياً إلى دمشق، فدبّر عليه عمّه العادل حتى كاد أن يزول ملكه وعاد خائفاً، فسار

---

[1] () وفاة صلاح الدين الأيوبي.. محرر القدس، د. راغب السرجاني، موقع قصة الإسلام، 15/03/2011.

[2] () المرجع السابق.

إليه الأفضل والعادل حتى نزلا بلبيس، فجرت أمور آلت إلى الصلح، وأقام العادل مع العزيز بمصر، وعاد الأفضل إلى مملكته بدمشق، فقام العادل بتدبير أمور الدولة، وخرج بالعزيز لمحاربة الأفضل، فحصراه بدمشق حتى أخذاها منه بعد حروب، وبعثاه إلى صرخد، وعاد العزيز إلى مصر، وأقام العادل بدمشق حتى مات العزيز في ليلة العشرين من محرّم سنة خمس وتسعين وخمسمائة، عن سبع وعشرين سنة وأشهر، منها مدّة سلطنته بعد أبيه ست سنين تنقص شهراً واحداً، فأقيم بعده ابنه السلطان الملك المنصور ناصر الدين محمد، وعمره تسع سنين وأشهر بعهد من أبيه، وقام بأمور الدولة بهاء الدين قراقوش الأسدي الأتابك، فاختلف عليه أمراء الدولة، وكاتبوا الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، فقدم من صرخد في خامس ربيع الأوّل، فاستولى على الأمور، ولم يبق للمنصور معه سوى الاسم، ثم سار به من القاهرة في ثالث رجب يريد أخذ دمشق من عمّه العادل بعدما قبض على عدّة من الأمراء، وقد توجه العادل إلى ماردين، فحصر الأفضل دمشق، وقد بلغ العادل خبره فعاد وسار يريده حتى دخل دمشق، فجرت حروب كثيرة آلت إلى عود الأفضل إلى مصر بمكيدة دبّرها عليه العادل، وخرج العادل في أثره، وواقعه على بلبيس فكسره في سادس ربيع الآخر سنة ست وتسعين)[1]

أظن أن تحليل هذا النص وحده كاف للتعريف بتلك الآثار التي خلفها البطل الكبير صلاح الدين الأيوبي في البلاد الإسلامية.. وحتى تفهموا كيف وصلت شهوة السلطة لدى أسرة صلاح الدين أعيدوا قراءة هذه العبارة التي ذكرها المقريزي: (وأقام العادل بدمشق حتى مات العزيز.. فأقيم بعده ابنه السلطان الملك المنصور ناصر الدين محمد، وعمره تسع سنين وأشهر بعهد من أبيه)

هل هذا هو الحكم الإسلامي يا من تتغنون كل حين بصلاح الدين، وتطلبون عودته، وتطلبون معه عودة الشريعة الإسلامية للحكم.. هل أوصانا رسول الله ﷺ بأن نبايع لابن تسع سنين،

---

[1]() المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار (خطط المقريزي) 3/409.

إرضاء لوالده.. ونقيم الحروب من أجل حماية عهدنا وبيعتنا؟

ألم يعتبر رسول الله ﷺ كل ذلك من الحكم الظالم المستبد، فقد ورد في الحديث الشريف: (إذا اقترب الزمان كثر لبس الطيالسة وكثرت التجارة وكثر المال وعظم رب المال وكثرت الفاحشة وكانت إمرة الصبيان)(1) ؟

6 ـ صلاح الدين.. وإعادة القدس للصليبيين:

لا أريد بعد كل هذا أن أنسى دور صلاح الدين الأيوبي في تحرير القدس؛ فنحن مطالبون بأن نشهد بالعدل، وقد قال تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا} [المائدة: 8]

ولكن العدل كذلك يقتضي منا أن نذكر الحقائق بكل أجزائها وتفاصيلها، وألا ندع الأهواء تتحكم فينا؛ فنختار من الفلم أجمل أجزائه، ونقص ما بقي منه، لنحافظ على صورة البطل في أذهان المغرمين بالأمجاد الكاذبة.

وهذا ما حصل بالضبط، فعشاق صلاح الدين الأيوبي المطالبين بعودته، راحوا يقصون كل أجزاء الفلم التي تذكر عودة الصليبيين للقدس بعد وفاته، وبعد أداء أدواره التخريبية في العالم الإسلامية.

وقد عادوا إليها أشرس ما كانوا، بسبب الخطط الاستراتيجية التي وضعها صلاح الدين الأيوبي، والتي تمكن لهم عودة آمنة وقوية، بعد أن تحررت منهم لسنين معدودة.

لقد عادوا إليها ـ كما يذكر المؤرخون ــ من دون حرب، بعد أن أهداها لهم السلطان الكامل ابن أخي صلاح الدين، والذي تولى حكم مصر سنة 615 هـ، وذلك بعد أن خشي أن يسلبوه حكمه على مصر، فاتصل بهم ليفاوضهم، وعرض عليهم أن يتنازل عن بيت المقدس مقابل أن يخرجوا من دمياط.

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط، (مجمع الزوائد) (7/ 274)

وطبعا لم يتردد الامبراطور الصليبي فريدريك في قبـول هـذا العـــرض الســخي، لكن البابـــا في رومـــا رفض العـــرض، ووبخ الامبراطور فريدريك على قبوله.. فتنازل السلطان الأيوبي، وقـدم عرضا أسخى، وهو أن يتنازل عن نابلس وصيدا وعسقلان وطبريـة واللاذقية وسائر المدن الساحلية التي حررها صلاح الدين الأيوبي..

وهكذا كانت البلاد الإسـلامية يتلاعب بهـا الملـوك والبـابوات، الذين لا يزال يلعنهم أئمة المسلمين في مساجدهم، ويدعون اللـه أن يزلـزل الأرض من تحتهم، ويجمـد الـدماء في عـروقهم، لكنهم ينسون أن يدعوا على كل من تسبب في كل ذلـك الخنـوع، وتلـك المذلة، بل إنهم بدل أن يلعنوه، ويلعنوا ما فعله بالأمـة الإسـلامية، يترضون عنه، ويمجدونه، ويمجدون معه كل الظلمة.. وينســون أن يـذكروا ولـو بكلمـة حـزن وألم أولئـك المستضـعفين الـذين كتب عليهم أن يعيشـوا بين مطرقـة الصـليبيين، وسـندان الأيوبـيين أو غيرهم من المستبدين.

لقد ذكر ابن الأثير كيف تحـولت أفـراح أولئـك المستضـعفين من المسلمين إلى أحزان، بعد أن عاد الصليبيون إلى القــدس من جديد، وسكنوا مساكنهم التي أفنوا أعمـارهم في بنائهـا، وامتلكـوا بسـاتينهم الـتي قضـوا حيـاتهم جميعـا في استصـلاحها وزراعتهـا؛ فقال: (وتسلم الفرنج البيت المقدس، واستعظم المسلمون ذلــك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه)[1]

ووصــفه المقريــزي، فقــال: (ونــودي في القــدس بخــروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج، فكـان أمـرا مهـولا من شـدّة البكـاء والصـراخ، وخرجـوا بـأجمعهم فصـاروا إلى مخيم الكامـل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان، فشق عليه ذلـك وأخـذ منهم الستور وقناديل الفضة والآلات وزجـرهم، وقيـل لهم امضـوا حيث شئتم، فعظم على المسلمين هذا وكثر الإنكار على الملك الكامـل وشنعت المقالة فيه)[2]

---

[1] الكامل في التاريخ (10/ 435)

[2] المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (4/ 222)

ووصفه بعض المؤرخين المعاصرين[1]، فقال: (أثار تسليم مدينة القدس للفرنجة موجة عارمة من السخط والأسى في العالم الإسلامي. وكانت ردة الفعل شديدة، خصوصاً عند أهل المدينة، ولعل من المفارقة أن نشير إلى ما أحدثه تسليم مدينة القدس وإعادتها إلى حظيرة المسيحية من استنكار واستياء يصل إلى درجة الغضب لدى الأوساط الفرنجية، الدينية منها والدنيوية في بلاد المشرق، فرأى بعضهم أن كرامة النصرانية كانت تقضي بأن تنتزع المدينة عنوة بحد السيف من أيدي المسلمين لا عن طريق التذلل التي توسل بها الإمبراطور إلى الملك الكامل، وكانوا يرون أن استيلاء الصليبيين على المدينة دون استيلائهم على مقدسات المسلمين أمر مرفوض لا تقبل به نفوس الفرنجة الأبية، وذهبت فئة صليبية أخرى إلى القول إن الحصول على القدس من دون استعادة الكرك والشوبك والأردن لا قيمة له، ولو كان هذا مقبولاً لقبل الصليبيون ما عرضه عليهم المسلمون أيام حصار دمياط)[2]

وقد وصف قبل ذلك دور صلاح الدين في إعادتها للصليبيين، بعد أن حررها منهم؛ فقال: (إذا كان تنافس أبناء صلاح الدين في شأن المُلك دفعهم للبحث عن مهادنة الفرنجة في فلسطين، وأدى أحياناً إلى محاولة الاستعانة بهم للتصدي بعضهم لبعض، فإن الأمر بلغ ذروة غير مسبوقة في عهد الملوك من أبناء الملك العادل الأيوبي، إذ لم تقتصر علاقتهم بالفرنجة الجاثمين على أرض فلسطين ولبنان وسوريا على المسالمة والمهادنة فحسب، بل تعدت ذلك أيضاً إلى التخلي عن فريضة الجهاد ضد الأوروبيين الغزاة، والتي لولاها لما وضعوا التيجان على رؤوسهم وتربعوا على عروش مصر وبلاد الشام، إذ بات أبناء الملك العادل وورثة عرشه يرون في الفرنجة قوة سياسية إقليمية لا يتورعون عن

---

[1] هو الدكتور خليل عثامنة، المؤرخ الإسلامي الفلسطيني وأستاذ التاريخ بجامعة (بير زيت) الفلسطينية، في كتابه (فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي).

[2] فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، خليل عثامنة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص137.

مهادنتها والتحالف معها مقابل تنازلات إقليمية من دار الإسلام، إما ثمناً للحفاظ على عروشهم وكراسيهم، وإما تعززاً بهم لتصفية الحسابات الصغيرة فيما بينهم، وإما لتحقيق مطامح إقليمية في دول بعضهم البعض)[1]

أظن أن هذه الاقتباسات من المصادر التاريخية المعتمدة لدى عشاق صلاح الدين والمطالبين بعودته وحدها كافية لإعادة الوعي، وترك ذلك التغني بالأمجاد الكاذبة، بل ذلك المديح الذي يكال للمستبدين والظلمة، والذين أمرنا بالإنكار عليهم أحياء وأمواتا، كما قال تعالى: { وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود: 113]

7 ـ صلاح الدين.. والشؤون الداخلية للدولة:

لم تكن تلك جرائم صلاح الدين الأيوبي وحدها.. فلا يمكننا في هذا المقال القصير أن نعدد ما ارتكبه من جرائم، ولكننا نشير فقط إلى أمهاتها وأخطرها، والمشكلة في تهوين تلك الجرائم هو عدم كوننا قد عشنا تلك الفترة، ولم نكتو بنيرانها، ولو أنا كنا كذلك، لكان موقفنا مختلفا تماما.

ولذلك نحاول أن نتقمص بعض رعية ذلك العصر، لنعيش المأساة التي عاشوها، وهم في كل لحظة يحملون أبناءهم على أكفهم ليقدموهم لصلاح الدين أو إخوته أو أبنائه، لا ليقدموا أرواحهم في سبيل الله، ويطردوا المعتدين الصليبيين من بلادهم، وإنما ليقدموهم فداء للسلطان المبجل، وإرضاء لغريزته في التسلط، والإستحواذ على أكثر المناطق.

ولم يكن السلطان صلاح الدين يكتفي منهم بذلك.. بل إنه قام باستعباد الفلاحين الأحرار، كما ذكر المقريزي ذلك، فقال: (ويسمى المزارع المقيم بالبلد: فلاحا قرارا، فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق بل هو قنّ ما بقي، ومن ولد له كذلك، بل كان من اختار زراعة أرض

[1] () المرجع السابق، ص136.

يقبلها كما تقدّم، وحمل ما عليه لبيت المال، فإذا صار مال الخراج بالديوان أنفق في طوائف العسكر من الخزائن)(1)

وقد ذكر الدكتور حسين مـؤنس بعض مـا فعلـه صـلاح الـدين من جرائم في حق عامة الناس؛ فقال: (وكانت مشاريعه ومطالبه متعدّدة لا تنتهي، فكانت حاجته للمال لا تنتهي أيضـاً، وكـان عُمّالـه وجباته من أقسى خلق الله على الناس، ما مرّ ببلد تاجر إلا قصــم الجُباة ظهره، وما بدت على إنسان علامة من علامات اليســار، إلا أُنذِر بعذاب من رجال السـلطان، وكـان الفلاحـون والضـعفاء معـه في جُهد، ما أينعت في حقولهم ثمـرة إلا تلقّفهـا الجبـاة، ولا بـدت سنبلة قمح إلا استقرت في خزائن السـلطان، حـتى أملـق النـاس في أيامـه، وخلّفهم على أبـواب محن ومجاعـات حصـدت النـاس حصدا)(2)

مع العلم أن حسين مؤنس ليس مثل يوسف زيـدان أو غـيره من الذين يعتبرون صلاح الدين مجرما من مجرمي العـالم الكبـار، بل هو يدافع عنه، ويحاول أن يسوغ ما أطاق جرائمه، ليخففهـا، أو يجعل لها بعض القابلية.

وزيادة على ذلك كله، فقد قام ـ بواسطة وزيـره الـذي عينـه نائبا عنه على مصر بهاء الـدين قراقـوش ــ بتكليـف الرعيـة بهـدم العديد من الأهرامات الصغيرة، وحمل حجارتها لبناء قلعة القــاهرة وأسـوار عكـا وغيرهـا، مثلمـا فعـل الفراعنـة تمامـا حينمـا كلفـوا المصريين بحمل الحجارة على ظهورهم لبناء تلك الأهرامات.

وقـد ذكـر ذلـك المقريـزي، فقـال: (اعلم أنّ الأهـرام كـانت بأرض مصر كثيرة جدّا، منها بناحية بوصير شيء كثير، بعضها كبار، وبعضها صغار، وبعضها طين ولبن، وأكثرها حجـر، وبعضـها مـدرج، وأكثرها مخروط أملس، وقد كان منها بالجيزة تجـاه مدينـة مصـر، عـدّة كثـيرة كلهـا صـغار هـدمت في أيـام السـلطان صـلاح الـدين

(1) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (1/ 161)

(2) صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والصليبيين: 157.

يوسف بن أيوب على يد قراقوش، وبنى بها قلعة الجبل والسور المحيط بالقاهرة، ومصر والقناطر التي بالجيزة)[1]

وهذه جريمة لا ترتبط بأولئك المستضعفين الذين حملوا تلك الحجارة على ظهورهم فقط، وإنما تشير إلى جرائمه في حق الثقافة والتراث الإنساني.. ولو أن عمره امتد لقضى على كل الآثار التاريخية في مصر، ونقل كل الأهرامات، ولم تعد مصر تلك التي نعرفها، والتي حفظت الأهرام وغيرها من آثارها الكثير من تاريخها، بل تاريخ الإنسانية جميعا.

8 ـ صلاح الدين.. والشؤون الدينية والثقافية:

أما جرائم صلاح الدين في حق الثقافة والدين؛ فلا عد لها ولا حصر، ذلك أنه حاصر الثقافة والمثقفين، ونكل بهم، وأحرق الكتب، وقام بحرب طائفية خطيرة كانت أسوأ نموذج للحكم الإسلامي.

وقد أشار محمد كامل حسين إلى بعض جرائمه في هذا الجانب، فقال: (وكانت الحياة في مصر الفاطمية كما رأينا جانباً منها تدعو إلى ازدهار الشعر وإلى كثرة ما أنتجه الشعراء في كل فن من فنون الشعر وكل موضوع من موضوعاته، ولكن هذه الموجة الفنية التي طغت على مصر، سرعان ما أبادها الأيوبيون فيما أبادوه من تراث هذا العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامية، فضاع الشعر ولم يبق منه إلا اسم الشاعر أحياناً إن قُدِّر لاسمه البقاء، ونحن لا نتردّد في اتّهام الأيوبيين بجنايتهم على تاريخ الأدب المصري؛ لتعمدهم أن يمحوا كل أثر أدبي يمت للفاطميين بصلة، فقد أحرقوا كتبهم بما فيها من دواوين الشعر خوفاً من أن يكون بالشعر مديح للأئمة وهو كفر بزعمهم.. فضاع أكثر شعر مصر الفاطمية بسبب هذا التعصب المذهبي)[2]

---

[1] () المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (1/ـ 210)، وذكره أيضا: عبد اللطيف البغدادي في كتابه (الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدات والحوادث المعاينة بأرض مصر)

[2] () في أدب مصر الفاطمية: 168.

وأشار باحث معاصر آخر إلى بعض تلك الجرائم؛ فقال: (إن صلاح الدين الأيوبى دمر مصر كلها، ولم يقم بتدمير تاريخ الفاطميين والشيعة فقط، حيث إن تدميره لمكتبة دار الحكمة والتي كانت تحوى أكثر من مليوني كتاب، وبيعه لكتب الفاطميين بالبخس يعد بمثابة جريمة حضارية في حق المصريين جميعاً، كما قام ذاك المجرم بهدم أهرامات الجيزة، والتي كان عددها 18 هرماً بجوار الأهرامات الثلاثة الموجودة حالياً، والتي لم يتمكن من هدمها)[1]

وقال آخر بعد أن ذكر بعض مظاهر جرائمه في حق الثقافة: (ولكن ما يهم في الخبر هو إحراقه لمكتبة دار الحكمة والتي احتوت على مليوني كتاب، بما فيها من كنوز ونفائس علمية وفلسفية لا تقدر بثمن وهذا بحد ذاته جريمة حرب لا تختلف كثراً عما فعله التتار في بغداد حين رموا بكل كتبها ونفائسها الفكرية في نهر دجلة الذي يقال بأنه بقي سبعة أيام أسود اللون بسبب حبر الكتب التي صبغته وتعبيراً رمزياً عن حزن أنهر على تلك الجريمة التتارية الهمجية)[2]

ثم تساءل بصدق قائلا: (ماذا تفرق جريمة صلاح الدين عن جريمة التتار؟.. وهل جرائمه مباحة وجرائم الغير مدانة؟.. لماذا ندين التتار ونشتمهم ليل نهار، ونمجد هذا المجرم وننتج عنه مسلسلات تضعه في مراتب قدسية بين الناس؟.. ولماذا لا ننتج نفس المسلسلات عن هولاكو وتيمورلنك باعتبار أن ما فعلوه لا يختلف كثيراً عما فعله هذا المجرم الأفاك السفاك للدماء؟ كما أن تدميره لمعالم حضارية وأوابد تاريخية عظيمة كأهرامات مصر، يعتبر جريمة حرب موصوفة وبربرية وهمجية ضد الإنسانية، باعتبارها أصناماً، ومعالم حضارية، وكلنا علم ودراية بحقد وكراهية واحتقار الثقافة البدوية لكل ما هو حضاري وجمالي وشريف

---

[1] انظر مقالا بعنوان: صلاح الدين الأيوبي كمجرم حرب، نضال نعيسة، الحوار المتمدن ، 2010 / 12 / 27 ..

[2] المرجع السابق.

ونبيل، وليأتي بعد حاولي ثمانيـة قـرون من الـزمن من يقلـده في ذلك من أحفاده من الطالبان في تدمير تماثيل بوذا في باميان في العام 2000) (1)

وما ذكره البـاحث صـحيح بالنسـبة للـذين يسـتعملون معـايير واحدة في مناقشة القضايا، ولا يطففون المـوازين، أمـا الـذين لا يفعلون ذلك؛ فهم متناقضـون لدرجـة لا يمكن تصـورها، حيث أنهم يمدحون شخصا بما يذمون به غيره، وهذا ما أدى إلى انفصـام في شخصية من يحاول إقناع عقله بالمتناقضـات.. ففي الـوقت الـذي يزعمون فيه أن الإسلام دين رحمة، يقدمون للتعريف به كل أنواع الوحشـية والقسـوة الـتي ورثوهـا من الشخصـيات الـتي عاشـوا حياتهم كلها يدافعون عن جرائمها.

يقول نفس الكـاتب معلقـا على تلـك الجـرائم الثقافيـة الـتي ارتكبها صـلاح الـدين: (لا يمكن تـبرير وتجميـل وتقـديس كـل ذاك القتل والإجرام والتدمير والحرق والسحل والهمجية وزهق الأرواح لأي كان وتحت أية ذريعة، ولا يمكن النظر إليه، وفـق مبـدأ وحـدة المعايير القيمية والأخلاقية، إلا وفق إجرام متأصل ونفوس مأزومة ومنحرفة وشاذة ومريضة عندها عشق غريب لرائحة الـدم ونـزوع فطـري وشـبق حسـي لسـماع أنين الأرواح المزهوقـة والنفـوس المسحوقة، ولا يجب استثناء أي كان منها، وإلا لـوجب علينـا أيضـاً تصديق مزاعم ومبررات كل القتلة والسفاحين ومجـرمي الحـرب الكبار في التاريخ من قابيل وحتى ميلوزوفيتش) (2)

وفوق ذلك كله قام صلاح الدين بإحيـاء سـنة قتـل المفكـرين والفلاسفة والباحثين الذين يختلف معهم، ولـذلك نـال اهتمامـا من السلفيين والحركيين الذين لا يؤلمهم شـيء، كمـا تـؤلمهم الحريـة الفكرية، وقد قال بعض هؤلاء يشيد بجرائمه في هـذا المجـال في

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

مقـال تحت عنـوان [صـلاح الـدين يقتـل السـهرَوردي الزنـديق]: (لصلاح الدين الأيوبي الكثـير من الأعمـال والفضـائل منهـا مـا هـو عسـكري، ومنهـا مـا هـو ديـني وثقـافي، وغـير ذلـك، وإذا كـانت شخصية صلاح الـدين انطبعت في ذهن النـاس بمظهـر العسـكري والمجاهـد، الـذي يقـارع الصـليبيين، ويفتح البلـدان وخاصـة بيت المقـدس، ويـدافع عن بلاد المسـلمين، فـإن جـوانب أخـرى في شخصـية صـلاح الـدين جـديرة بالدراسـة والتأمـل.. إحـدى تلـك الجـوانب تتمثـل باهتمامـه بنشـر مـذهب أهـل السـنة، وإقامـة المدارس والأوقاف لذلك، خاصة في مصـر، الـتي عـانت أكـثر من قرنين من الزمان من حكم الدولة العبيديـة الفاطميـة، وهي دولـة شـيعية إسـماعيلية. ومـع حـرص صـلاح الـدين على مـذهب أهـل السنة، ومحاربة ضلالات العبيديين، اهتم بمحاربة الأفكار المنحرفة المنضوية تحت لواء أهل السنة، كما تمثل ذلك في مصـادقته على حكم الإعدام بحق أحد الزنادقة المتصوفة، المعروف بالسهروردي المقتول سنة 587هـ)[1]

وهكذا أصبح قتل الفلاسـفة والمفكـرين منقبـة من المنـاقب، وكيف لا تكون كـذلك، وهم ورثـوا من أسـلافهم من الفئـة الباغيـة تلك الجرائم التي يندى لها الجبين في قتل المثقفين بحجـة الـردة والزندقة.

وقـد ذكـر صـلاح الـدين خليـل بن أيبـك الصـفدي (المتـوفى: 764هـ) الجنابة التي جناها السهروردي على نفسـه عنـدما حـدثها بالجلوس إلى أولئك الظلمـة، فقـال: (ودخـل ــ أي السـهروردي ـ إلى حلب، واجتمـع بالظـاهر غـازى ابن صـلاح الـدين، واسـتماله، وأراه أشياء، فارتبط عليـه؛ فبلـغ الخـبر صـلاح الـدين، فكتب إليـه يأمره بقتله ـ طبعا من دون محاكمة ـ وصـمم عليـه، فاعتقلـه في قلعة حلب؛ فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة سلخ ذي الحجة سـنة سبع وثمانين وخمسماية أخرجـوه ميتـا من الحبس؛ فتفـرق عنـه أصحابه، وقيل صلب أياما)[2]

---

[1] انظر مقالا بعنوان: صلاح الدين يقتـل السـهرَوردي الزنـديق، مجلـة الراصـد، العـدد التاسع والثلاثون - رمضان 1427 هـ.

أي أنه قتله بإحدى الطريقتين: إما صبرا بحبسه وتجويعه إلى أن مات حتف أنفه، وإما بصلبه.. والعجيب أن هؤلاء الذين يروون هذه القتلة البشعة التي قتل بها السهروردي هم أنفسهم الذين يروون قوله ﷺ: (عُذّبت امرأة في هرّة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها، ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)(1)

وهكذا فعل صلاح الدين وابنه بالسهروردي، والذي ذكر المؤرخون أنه بعد أن عاين ما عاين من تلك القلوب القاسية راح يردد نادما:

أرى قدمى أراق دمي.. وهان دمي فها ندمي

إلى حتفي سعى قدمي.. أرى قدمي أراق دمي

فلم أنفك من ندم.. وليس بنافعي ندمي)(2)

ونحب أن نذكر بأن السهروردي الذي قتل هذه القتلة الشنيعة هو نفسه صاحب القصيدة التي لا تزال تردد في المجامع الصوفية، ويردد معها للأسف الترضي على قاتله صلاح الدين الأيوبي، والتي يقول فيها:

*أبدا تحن إليكم الأرواح =ووصالكم ريحانها والراح

وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم= وإلى لذيذ لقائكم ترتاح

وا رحمة للعاشقين تكلفوا= ستر المحبة والهوى فضاح

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم =وكذا دماء العاشقين تباح

وإذا هم كتموا تحدث عنهم =عند الوشاة المدمع السفاح*

2() الوافي بالوفيات (2/ 237)

1() رواه البخاري 6 / 254.

2() الوافي بالوفيات (2/ 237)

ولم يكن السهروردي سـوى ضـحية من ضـحايا صـلاح الـدين وأبنائه وأسرته.. ومن شاء أن يسأل عن المزيد فيمكنه أن يــذهب إلى جبـال العلــويين، ويســألهم عن ســر هــربهم لتلــك الجبــال، وسيجيبونه عن المآسي التي فعلها بهم صلاح الـدين، لا لشــيء إلا لكـونهم يخـالفون طائفتـه، والـتي لم يكن يهمهـا منهـا إلا سـلطته واستبداده.

يقول أحد الباحثين العلويين المعاصـرين معـبرا عن بعض مـا حصل لهم في عهد صلاح الدين: (قام صلاح الدين الأيــوبي، بحبس بقايـا العلــويين في مصــر، وفــرّق بين الرجـال والنســاء حـتى لا يتناسلوا، وأبادَ المكتبات العلميـة وأتى على محتوياتهـا، وحين ضـمّ الشام إلى ملكه سنة 569 هـ، سـاءت في عصـره حالـة العلـويين أكثرهم، وذلك لحرمانهم إعلان حرية اعتقـادهم فخلـدوا حينهـا إلى السكينة والهدوء حفاظاً على أنفسهم من الإبـادة والتنكيـل، وبقي بعـدها الأيوبيـون يُضـيّقون على العلـويين الخنـاق ويُبعـدونهم عن مـوارد الحُكم، حـتى لجـأوا حينهـا إلى العَيش في أكنـاف الجبـال، لضعفهم عن المقاومة)[1]

9 ـ صلاح الدين.. والتسامح مع الصليبين:

في مقابل تلك الشدة مع الفلاسفة والمفكـرين والفـاطميين والعلويين وعامة النـاس من المستضـعفين تـذكر لنـا كتب التـاريخ المدى الذي بلغه تسامحه مع الصليبيين إلى الدرجـة الـتي جعلتهم يشيدون به، بل يذكرونه في أشـعارهم؛ بـل إن الشـاعر الإيطـالي الكبـير دانـتى اعتـبر صـلاح الـدين الأيــوبي في ملحمتـه الكـبرى (الكوميديا الإلهية [2]) من أنبـل نبلاء العصـور كلهـا، واسـتثناه فى ملحمته من دخول النار هو، والاسكندر الأكبر.

ونحن لا ننكـر قيمـة التسـامح، ولكن ننكـر توجيههـا إلى غـير

1() كتاب تاريخ العلويين، محمد امين غالب الطويل، اللاذقية سنه 1924.

2() الكوميديا الإلهية ملحمة شعرية طويلة للشاعر الإيطالي دانتي أليجيري، عرفت في الأدب العالمي بهذا الاسم، بدأها دانـتي عـام 1308م وانتهى منهـا عـام 1321م وموضـوعها الرئيسي هو الحياة بعد الموت، ودانتي هو الشخصية الرئيسية فيها.

محلها، وحرمان محالها منها؛ فقد كان أولى الناس بتسامحه أولئك المستضعفين الذين قهرهم، وأولئك الفلاسفة الذين قتلهم، وأولئك الشباب الأغرار الذين قضى عليهم في حروبه التي خاض أكثرها مع المسلمين لا مع الصليبيين، ومن أجل نفسه لا من أجل شيء آخر.

وهذا يدل على ضعف الارتباط بالقيم القرآنية، وتطبيقها في جميع شؤون الحياة، فقد وصف الله تعالى المؤمنين بالرحماء مع المسالمين، والأشداء مع المستكبرين، الذين عبر عنهم بلفظ الكافرين، فقال: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح: 29]

وقد كان الصليبيون كما يذكر المؤرخون يمثلون قمة الطغيان والاستكبار والظلم، وأول دلائل ذلك هو استعمارهم لبلاد العالم الإسلامي، وكان الأصل محاربتهم والتشدد في ذلك، لا توفير المدد لهم ليبقوا، بل ليستمر بقاؤهم فترة طويلة، وقد كان من أهم الركائز التي اعتمدوا عليها في بقائهم ذلك الصراع الداخلي بين المسلمين، والذي كان صلاح الدين يشكل ركنا مهما من أركانه.

ولكن مع كل ذلك نجد العاشقين لصلاح الدين الأيوبي لا يكفون عن الثناء عليه في هذه الناحية، متغافلين عن السلبيات المرتبطة بها، في نفس الوقت الذي يثنون فيه قضاءه على الفاطميين، ومحاولته استئصالهم، بل يذكرون من حسناته منعه لتزاوجهم حتى يقطع نسلهم[1]، وحرقه لكتبهم، وكل ما يرتبط بهم حتى لا يبقى لهم أدنى وجود.

وهذا يبين مدى تغلغل الطائفية والأحقاد المرتبطة بها بالنفوس المريضة إلى الدرجة التي تفضل فيها السماحة مع العدو الذي لا شك فيه، في نفس الوقت الذي يحارب فيه المسلم الذي

---

[1] () أشار المقريزي إلى استعمال الأيوبيين لهذا الأسلوب، فقال: (ولما مات العاضد لدين الله في يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، احتاط الطواشي قراقوش على أهل العاضد وأولاده، فكانت عدّة الأشراف في القصور: مائة وثلاثين، والأطفال خمسة وسبعين، وجعلهم في مكان أفرد لهم خارج القصر، وجمع عمومته وعشيرته في إيوان بالقصر، واحترز عليهم، وفرّق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا، وليكون ذلك أسرع لانقراضهم)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (2/ 448)

لا شك فيه.. وهو ما يمارسه الآن الدعاة والمفكرون من أعداء إيران الذين اشتغلوا بعداوتها عن عداوة إسرائيل وأمريكا.

وقد كتب بعضهم في مقال له بعنوان [صلاح الدين الأيوبي أنموذج باهر للتسامح الإسلامي] يقول: (رغم تعدد وتنوع صور وصفحات التسامح في تاريخنا الإسلامي، فإن معاملة صلاح الدين الأيوبي للصليبيين في الحرب والسلم تقدم أنموذجا باهراً لسمو التسامح الإسلامي ومقاصده في الحضارة الإسلامية، وهو ما يؤكد أن هذا التسامح هو الذي جعل الحضارة الإسلامية الحلقة الذهبية في سلسلة الحضارات الإنسانية التي حققت للبشرية ما تصبو إليه من العيش الكريم في رحاب الطمأنينة والأمن والأمان.. وقد اتسم صلاح الدين في معاملته للصليبيين بالالتزام الدقيق بالتعاليم الإسلامية التي تنادي بتكريم الإنسان واحترام مشاعره، وذلك انطلاقاً من إيمانه العميق بأن البشر أبناء أسرة واحدة عملاً بقول الحق سبحانه وتعالى: { يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13])

ثم ضرب نموذجا لذلك التسامح بما فعله مع أخطر حصون الصليبيين في بلاد الشام وهو حصن الكرك، وسننقل ما قاله حرفيا، لنرى نوعية الناس الذين يتسامح معهم في نفس الوقت الذي يقتل فيه الصوفية والفلاسفة والعلويين.

يقول صاحب المقال: (وتنقل لنا كتب التاريخ ما حدث في الحصن وموقف صلاح الدين الأيوبي فتقول: شيد الصليبيون هذا الحصن سنة 1141م في إقليم شرق الأردن، وذلك في مكان منيع يقوم على تل يعرف باسم حجر الصحراء يقع إلى الجنوب من البحر الميت، وكان لموقعه أهمية كبرى في مضايقة المسلمين، إذ يسيطر على الطرق الممتدة من مصر وغربي بلاد العرب إلى بلاد الشام، وتولى الإشراف على هذا الحصن أخطر أمراء الصليبيين وهو رينالد دي شاتيون الذي عرف عند العرب باسم أرناط، واشتهر بأنه لا يقيم للعهود والمواثيق وزناً أو احتراماً، كما دأب على قطع الطريق من هذا الحصن على قوافل

المسلمين التجارية بين العراق وبلاد الشام ومصر، فضلاً عن مهاجمة قوافل الحجاج المسلمين الذين يتجهون لأداء فريضة الحج في مكة والمدينة المنورة، لذلك كان من أهم أهداف صلاح الدين الأيوبي الدفاعية والوقائية تدمير هذا الحصن وسيده الجاحد الغادر، فطالما بقي هذا الحصن في يد رينالد دي شاتيون (أرناط) فلا أمن ولا أمان للمسلمين في تصريف تجارتهم وأداء فريضة الحج. وأتم صلاح الدين استعداده للهجوم على هذا الحصن وعسكر أمام أسواره فعلاً في نوفمبر سنة 1183م)[1]

وكان الأصل ـ كما هو معلوم في الحروب ــ أن يهجم على الحصن في أقرب فرصة ممكنة، لكنه لم يفعل، وترك جنوده ينتظرون، ويرهقون، بسبب بسيط وهو إتاحة الفرصة لأهل هذا الحصن الظالم بأن يحتفلوا ببعض الأعراس، في نفس الوقت الذي حرم فيه السهروردي الفيلسوف والصوفي من الطعام، وتركه يموت جوعا، وحرم الفاطميين والعلويين من التزاوج أصلا.

يقول كاتب المقال يصور مدى تسامح صلاح الدين مع أولئك الذين كانوا يقطعون طرق المسلمين، ويقتلونهم، ويستولون على أموالهم: (وتصادف في هذا الشهر أن الصليبيين كانوا قد قرروا عقد حفل زواج مهيب في هذا الحصن الشهير وأعدوا العدة وهيّؤوا كل مظاهر الفخامة والأبهة للاحتفال بالعرس.. وأخذ كبار المدعوين من الصليبيين يتوافدون إلى حصن الكرك لحضور حفل الزفاف دون أن يدروا أن صلاح الدين في الطريق لحصار هذا الحصن المنيع، وما كاد الصليبيون يبدؤون مراسم الاحتفال وتعزف الموسيقى، وتأخذ الراقصات في إدخال البهجة على نفوس الحاضرين، حتى أفزعتهم الأنباء عن الوصول المفاجئ لقوات صلاح الدين تحت قيادته شخصياً وإلقائه الحصار على الحصن، وأن مجانيقه أخذت ترمي الأبراج الأمامية للحصن، وسيطر الفزع على الصليبيين وبخاصة حين هرب سيد الحصن نفسه أرناط، وهنا أقدمت والدة العريس على خطوة تعرف وقعها على صلاح الدين الأيوبي بما اشتهر عنه من روح إنسانية نبيلة وإيثاره التسامح في

[1] صلاح الدين الأيوبي أنموذج باهر للتسامح الإسلامي، صحيفة الخليج، ملحق الدين للحياة، 18/06/2010.

جميع أعماله حتى في العمليات الحربية نفسها، إذ أعدت صحونا من طعام العرس، وبعثت بها إلى صلاح الدين، وأرسل صلاح الدين مقابل ذلك يسأل بأي الأبراج ينزل العروسان؟ ثم أصدر الأوامر بألا يتعرض هذا البرج للقصف من أدوات الحصار، وبرغم سيطرته الكاملة على الموقف وقدرة قواته على تحقيق أهدافها وتدمير الحصن الذي يسبب إزعاجاً مستمراً للمسلمين، ويعطل مصالحهم ويقف في طريق أدائهم لعبادة الحج.. فإن إنسانية صلاح الدين وحرصه على تطبيق كل قيم ومبادئ التسامح، فرضت عليه أن يستجيب لطلب الصليبيين عقد هدنة تتيح لضيوف العرس الحرية في العودة إلى ديارهم)[1]

ولسنا ندري ما نذكره عن هذا الموقف، وكيف يمكن أن يكون الحصن محاصرا في نفس الوقت الذي يقدم فيه أهله على القيام بعرس بالأوصاف التي ذكرها الكاتب؟.. وهل يمكن لقائد عسكري أن يقبل طعاما ـ قد يكون مسموما ــ من عدوه ؟.. ولم لم يعمم ذلك التسامح مع المسلمين المستضعفين؟، وأسئلة كثيرة كان ينبغي للكاتب أن يجيب عنها قبل أن يكتب قصيدته عن هذا المجد المزيف.

ولم يكن الأمر قاصرا على ذلك التسامح الذي قد نقبله على مضض، لكن المشكلة الأكبر هي تسامحه مع المحاربين، ليستعيدوا عافيتهم وقدرتهم من جديد، وقد رأينا كيف عادت القدس بعد فترة وجيزة من تحريرها إلى الصليبيين، لأن الحروب التي كان يقيمها صلاح الدين لم يكن هدفها طرد الصليبيين أو استئصالهم عن بكرة أبيهم كما فعل مع الفاطميين، وإنما كانت مجرد معارك محدودة، وفي أماكن ترتبط بمصالحه، وحتى يعطي لنفسه بعض المصداقية، وإلا فإن الحرب التي لا تقضي على العدو ستزيد في قوته، وهو ما حصل بالفعل.

يقول صاحب المقال مثنيا على تسامحه مع المحاربين من الصليبيين: (وتتجلى أيضاً إنسانية صلاح الدين الأيوبي في التعامل مع أسرى الصليبيين والاستجابة لمطالبهم المشروعة وعدم إهدار

[1] المرجع السابق.

حق واحد من حقوقهم) [1]

ثم ينقل عن الدكتور عبدالمقصود باشا ــ أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر ـ قوله: (لم تكن فكرة الانتقام تسيطر أبداً على صلاح الدين الأيوبي وقواته كما كان الأمر في القوات المعادية، بل كان يقدم للصليبيين كل ألوان السمو في التسامح، خاصة حين سار بعد انتصاره في حطين إلى بيت المقدس لاستردادها، إذ أكرم كل من استسلم له من كبار الصليبيين الذين كانوا يمتلكون مدن الساحل الفلسطيني ومن بين هؤلاء كونتيسة طرابلس، فقد سلمت له مدينة طبرية وعاملها صلاح الدين بما يليق بها من الحفاوة والتشريف، حيث أذن لها ولحاشيتها بالتوجه إلى طرابلس. وتحرك صلاح الدين بعد ذلك إلى مدينة عسقلان، وكانت تقف عقبة في طريق مصر والشام، وهناك اجتمع مع أخيه الملك العادل، ومن معه من عسكر مصر، وحاصروا المدينة، وكان ملك بيت المقدس أسيراً عند السلطان منذ موقعة حطين، فأرسل إلى السلطان في أن يطلقه مقابل نصحه للصليبيين الموجودين في عسقلان بترك المقاومة وتسليم المدينة، فوافق صلاح الدين على ذلك وقد استجاب الصليبيون للنصح بعدما تأكدوا من حرج موقفهم وطلبوا الأمان وتسليم المدينة، فأجابهم صلاح الدين وخرجوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم إلى بيت المقدس آمنين، وتسلم صلاح الدين المدينة بعد احتلال صليبي لها مدته خمسة وثلاثون عاماً) [2]

ولو أن صلاح الدين أمرهم بالعودة إلى البلاد التي جاءوا منها، لكان ذلك مقبولا، لكنه تركهم يعودون إلى بلاد أخرى يحتلونها من بلاد المسلمين، ليستعيدوا قوتهم، ويبدؤوا الغارات من جديد، وقد حصل ذلك بالفعل، بل إن الكتاب الولهان بصلاح الدين نفسه يذكر ذلك، فقد قال: (وتسجل صفحات التاريخ أن صلاح الدين أوفى بوعده مع ملك بيت المقدس، إذ أطلق سراحه في أثناء

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق.

حصاره لحصن الأكراد، وشرط عليه ألا يشهر في وجه السلطان سلاحاً أبداً، فوافق على ذلك، لكنه ما إن بلغ مأمنه في صور حتى نسي العهد وانضم هناك إلى الصليبيين في قتال صلاح الدين. وسمح صلاح الدين لأهل عسقلان بعد استسلامهم بأن يغادروها وأن يحملوا معهم أمتعتهم، وتولى عساكر صلاح الدين حراستهم إلى مصر حيث جرى توفير أسباب الراحة لهم في أثناء مقامهم بالإسكندرية حتى يتم ترحيلهم إلى بلادهم في أوروبا) [1]

وبناء على هذا نرى مدى حب الغربيين لصلاح الدين الأيوبي، وحق لهم ذلك، فقد كان سببا من الأسباب الكبرى لبقائهم وتمددهم في البلاد الإسلامية فترة طويلة، ولو أنه استمر في الحكم هو وأسرته لما خرجوا منها أبدا.

ومن الأمثلة على تلك الأقوال التي يوردها في العادة الممجدون لصلاح الدين الأيوبي، والمشيدون بسماحته مع الصليبيين ما قاله كولونيل البريطاني الذي اتجه في نهاية عمره لدراسة الإسلام: (لما غزا الصليبيون الأرض المقدسة سنة (1099م)، خلفوا وراءهم في كل مكان الموت والدمار، بيد أنه لما رد صلاح الدين الصليبيين على أعقابهم، لم يلجأ إلى وسائل الانتقام، ولم يخرب المسلمون الأماكن التي فتحوها، كما فعل المقاتلون الدينيون السابقون لهم من الممالك الأخرى، فأينما وضعوا أرجلهم نشأ شيء جديد أسمى وأفضل مما كان قبلا)[2]

ويقول المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون: (لم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش، فيبيد النصارى عن بكرة أبيهم؛ فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعا سلب شيء منهم)[3]

---

[1] المرجع السابق.

[2] الرسول: حياة محمد، رونالد ف بودلي، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، (القاهرة: مكتبة مصر، بدون تاريخ)، ص147..

وتقول المستشرقة الألمانية المعروفة زيجريد هونكه: (حين تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس (583هـ ـ 1187م) التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل (492هـ ـ 1099م) بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها مذبحة وحشية وقسوة؛ فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقاما لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضاربا المثل في التخلق بروح الفروسية العالية، وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي تجاه كلمة الشرف أو الأسرى)(1)

ويقول جون فيفر: (إن الصليبيين ادعوا أن العرب المسلمين المشارقة كانوا قساة متوحشين في جوهرهم على نحو لا مثيل له، حتى على الرغم من أن المجازر الرهيبة التي ارتكبت في القدس والقسطنطينية وجزيرة قبرص، ما فتئت تشكل نقيضا صارخا لتاريخ الفتوحات الإسلامية في تلك الحقبة. فقبل أربعمائة سنة من إغراق الصليبيين القدس في الدماء، لم يأمر الخليفة عمر بقتل أحد عندما تولى أمر المدينة.. وفي وقت لاحق، عندما استرد القائد الإسلامي الشهير صلاح الدين القدس من الصليبيين في عام 1187، اقتدى بعمر وحذا حذوه، فلم يكتف بالسماح للبطريرك المسيحي بمغادرة المدينة مع أتباعه، بل سمح لهم إلى ذلك بحمل ثرواتهم معهم)(2)

وغيرها من المقولات الكثيرة التي لا ندري في أي محل نصنفها، هل في خانة التسامح الديني، أم في خانة الغفلة والغباء السياسي والعسكري، ذلك أن تلك الأموال التي سمح لهم بأخذها

---

(3) حضارة العرب، جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م)، ص329.

(1) الله ليس كذلك زيجريد هونكه، ترجمة د. غريب محمد غريب، القاهرة: دار الشروق، ط2 (1996م)، ص34..

(2) الحرب الصليبية الثانية حرب الغرب المستعرة مجددا ضد الإسلام ، جون فيفر، ، ترجمة: محمد هيثم نشواتي، الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية، 2015م، ص43.

هي التي كانت سندا لهم في إعادة احتلالهم للقدس من جديد، بالإضافة لكون تلك المعاملة سببا في رفع الهيبة من الجندي المسلم الذي يتقن فن التسامح مع الآخر في نفس الوقت الذي لا يبدي فيه أدنى شفقة لأخيه المسلم.

10 ـ صلاح الدين.. والتسامح مع اليهود:

لم يكتف صلاح الدين الأيوبي بكل ذلك التسامح الذي مارسه مع الصليبيين في مقابل التشدد الذي مارسه مع المخالفين له من المسلمين، بل إنه أضاف إلى ذلك إضافة خطيرة لا نزال نعيش آثارها إلى اليوم.. وبسببها يحبه اليهود، وخصوصا الصهاينة منهم، كما تذكر ذلك كتبهم، وهي التمكين لهم في القدس التي كان الصليبيون يحرمونهم من السكن فيها.

وقد بدأت علاقة صلاح الدين باليهود من اختياره لطبيبه ومستشاره الخاص الطبيب والفيلسوف اليهودي المعروف موسى بن ميمون القرطبي (1135 ـ 1204)، والذي اختاره ليكون بجنبه دائما في نفس الوقت الذي كان يقتل فيه فلاسفة المسلمين وأطباءهم.

ولسنا ندري سر اختياره ليهودي يكون طبيبا خاصا به، وهل ذلك لقلة أطباء المسلمين، وهو غير صحيح؛ فقد ازدهر الطب في مصر وغيرها إبان الحضارة الفاطمية، التي كانت تعنى عناية كبيرة بالطب وغيره، وهذا بشهادة جميع المؤرخين، وقد قال بعض الباحثين في ذلك: (كان الحكام الفاطميون أئمة للمسلمين.. تمتعوا بازدهار واحترام كبير نتيجةً للإدارة الماهرة والإستقرار الإقتصادي لحكومتهم، أسسوا المشافي والمكتبات والمساجد والمدارس بالإضافة لمرصد فلكي، ودعموها بسخاء، ومن بين ما أسسوه كانت جامعة الأزهر الشهيرة (970 م) في القاهرة، ودار العلم (1005 م). وكان تعلم وممارسة الفنون العلاجية قد تطور بسرعة مع إحياء العلوم التطبيقية والفنون الأخرى. يبدو هذا ملحوظاً بشكل أكبر عندما ينظر المرء إلى اتساع الإمبراطورية الفاطمية، والتي امتدت من الساحل الأطلسي للمغرب مروراً بمصر، وسورية وفلسطين شرقاً، وشبه الجزيرة العربية واليمن

جنوباً. تطورت الأنشطة التقنية والفنية بشكل رائع في كنـف هـذه الحضارة الرائعة، وتمت رعاية التعليم بسـخاء، كمـا كُـرمت المهن الصحية بشكل كبير)(1)

أم أن سـبب ذلـك يعـود لعـدم ثقتـه في أطبـاء المسـلمين، وخشيته منهم، لكثرة حروبه معهم، أم يعود لما ذكره الذهبي عنــه حين قال: (وكان صلاح الدين شحنة دمشق، فكان يشرب الخمــر، ثم تاب، وكان محبَّباً إلى نور الدين يلاعبه بالكرة)(2)

ومثلـه قـال كمـال الـدين ابن العـديم: (فأرسـل العاضـد إلى صلاح الدين، وأحضره عنده، وولَّاه الوزارة بعـد عَمِّه، وخلـع عليـه، ولقَّبه بالملك الناصـر، فاسـتتبَّت أحوالـه، وبـذل المـال، وتـاب عن شرب الخمر، وأخذ في الجد والتشمير في أموره كلها)(3)

ومثلهما نقل أبو القاسم شهاب الـدين المقدسـي الدمشـقي المعروف بأبي شامة عن قاضيه ورفيقه ابن شدَّاد(4): (كـان أسـد الدين كثير الأكـل، شـديد المواظبـة على تنـاول اللحـوم الغليظـة، تتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد معاناة شدّة عظيمــة، فأخـذه مـرض شـديد، واعـتراه خـانوق عظيم فقتلـه، رحمـه اللـه تعالى، وفُوِّض الأمر بعـده إلى صـلاح الـدين، واسـتقرت القواعـد،

(1) انظـر مقـالا بعنـوان: الطب والصـيدلة في عهـد الفـاطميين، مجلـة العلم، المجلـد التاسع، العدد الثاني، الصفحات 24- 26 في عام 1985.

(2) سير أعلام النبلاء 22/282.

(3) زبدة الحلب في تاريخ حلب: 351.

(4) قــال الــزركلي في الأعلام 8/230: يوســف بن رافــع بن تميم بن عتبــة الأســدي الموصلي، أبو المحاسن، بهاء الدين ابن شداد (539 - 632 هـ): مؤرخ، من كبار القضاة. ولد بالموصل، ومات أبوه وهو صغير، فنشأ عند أخواله (بـني شـدّاد) وشـدّاد جـدّه لأمـه، فنُسـب إليهم. وتفقـه بالموصـل، ثم ببغـداد، وتـولى الإعـادة بالنظاميّـة نحـو أربـع سـنين، وعـاد إلى الموصل، فدرّس وصنّف بعض كتبه، وسافر إلى حلب، فحدَّث بهـا وبدمشـق ومصـر وغيرهـا، ولما دخل دمشق، كان السلطان صلاح الدين محاصراً قلعة (كوكب) فدعاه إليه، وولّاه قضاء العسكر وبيت المقدس والنظر على أوقافه، واستصحبه معه في بعض غزواته، فدوّن وقائعـه وكثيراً من أخباره.

واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذل الأموال، وملك الرجال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله تعالى عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمّص بلباس الجـد والاجتهـاد، وما عاد عنه، ولا ازداد إلا جدًّا إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته) (1)

وطبعـا هـذه الشـهادة الأخـيرة خصوصـا لا تعجب الممجـدين لصلاح الدين الأيوبي، ذلك أنهم يصورونه بصورة مختلفة تماما عن تلـك الصـورة الـتي يصـوره بهـا المؤرخـون، ونحن لا يعنينـا شـربه للخمر، أو عدم شربه لها، ولكن يعنينا الخطر اليهودي الذي تسـلل إليه، والذي قد يكون له دور في توجيه معاركه.

فـــالكثير من المحققين الـــذين تخلصـــوا من الكـــذب على أنفسـهم يـذكرون الـدور الـذي قـام بـه ابن ميمـون اليهـودي في توطين اليهـود في فلسـطين، ليكـون نـواة لمـا نعيشـه اليـوم من احتلال وظلم.

بل إن اليهود أنفسـهم يشـهدون بـذلك، ويقـرون بـه، ولـذلك ذكرنا أنهم يؤمنون على كل من يدعو بعودة صلاح الـدين الأيـوبي، لأنه الوحيد الذي يتيح لهم تحقيق أحلامهم بإسرائيل الكـبرى، وقـد قال بعضهم يشيد بالخدمات التي قـدمها صـلاح الـدين لليهـود في كتابه [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهـود]: (إن فضـل صـلاح الدين على الطوائف اليهودية أولا فى مصـر، ثم فى أجـزاء أخـرى من امبراطوريتـــه الـــتى ازدادت اتســـاعا، لا يرجـــع الى صـــفاته الشخصـية فى التسـامح والاحسـان والحكمـة السياسـية العميقـة وحسب، بل يرجع أيضا إلى صعوده للسلطة كقائد متمرد لجيـوش مرتزقة حديثة العهد فى مصر، وبعدئذ كمغتصـب لسـلطة الأسـرة التى خدمها هو ووالده وعمه من قبل) (2)

1() المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية) 2/292.

2() كتاب الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، شاحاك, إسـرائيل، ترجمـة وتحقيـق: حسن خضر، سينا للنشر، 1994، ص99.

ويقـول: (من المؤكـد أن شخصـية صـلاح الـدين، فى سـياق الفـترة الـتى عـاش فيهـا، تسـتوجب الاحـترام العميـق، ومـع هـذا الاحترام لا أنسى من جـانبى أن الامتيـازات الـتى منحهـا للطائفـة اليهودية فى مصر، واختياره لابن ميمون رئيسـا لهـا قـد أدت على الفور لاضطهادات دينية حادة للخطاة اليهود على يـد الحاخامـات، مثلا، كان من المحظور على الكهنة اليهـود (الـذين يفـترض بـأنهم ينحدرون من أصلاب الكهنة القدامى الـذين خـدموا الهيكـل) ليس الزواج من العاهرات وحسب، بل والمطلقات أيضا، وقد انتهك هذا الحظر الاخير، الذى طالما سـبب المشـاكل، خلال فـترة الفوضـى فى عهد أواخر الحكام الفاطميين (حـوالى 1130 – 1180)ـ من جانب أولئك الكهنة الذين خلافا للشـريعة الدينية اليهودية، تزوجـوا من مطلقات يهوديات على يد قضاة فى محاكم إسلامية، وقد أتاح التسامح الاكبر، الذى أبـداه صـلاح الـدين تجـاه اليهـود عنـد توليـه الحكم لابن ميمـون اصـدار أوامـر للمحـاكم الحاخاميـة فى مصـر لإلقاء القبض على جميع اليهـود، الـذين تزوجـوا زيجـات محظـورة كهذه، وجلدهم حتى الموافقة على تطليق زوجاتهم)[1]

وجاء في مقال آخر عن ابن ميمون، ودوره في سياسة صلاح الدين الأيوبي، وتحت عنوان [ابن ميمـون سياسـيًّا مُحنكًـا.. اليهـود في دولـة الخلافـة]: (إلى جـانب تميّـز موسـى بن ميمـون في النـواحي الطبيـة، والدينيـة، والفلسـفية، لم يكن الحـبر اليهـودي الفيلسوف أقل تميزًا في الناحيـة السياسـية. تُشـير بعض روايـات المـؤرخين أن الصـلة الـتي جمعت بين ابن ميمـون وصـلاح الـدين الأيـوبي ووزيـره القاضـي الفاضـل، لا ترجـع فقـط إلى تقـدير السلطان الأيوبي ووزيره لقيمة ابن ميمون في الطب والفلسـفة، بل أيضًا لمعرفتهما بمدى مهارته، وحذقه، وحنكته السياسية)[2]

والأخطر من ذلـك كلـه هـو مـا أشـارت إليـه صـاحبة المقـال

1() المرجع السابق، ص99.

2() انظر مقالا بعنوان: موسى بن ميمون.. أن تكون يهوديًّا في دولة الخلافة الإسلامية، فاطمة ندى، موقع ساسة بوست، 2018..

بقولها: (تُشير تراجم ابن ميمون إلى أن صلاح الدين كان ينتفع بما لدى الحبر اليهودي من لطف التدبير، والمكانة، والقبول عند يهود اليمن في تهدئة الثورات، التي كانت تنشب في تلك البلاد. أيضًا استخدم ابن ميمون نفوذه في بلاط السلطان لحماية يهود مصر، وعلاوة على ذلك، عندما فتح صلاح الدين فلسطين؛ أقنعه ابن ميمون بالسماح لليهود بالإقامة فيها من جديد)

ثم قالت معقبا: (مكنت علاقة ابن ميمون الوثيقة بالسلطان الأيوبي صلاح الدين، من إقناعه بالسماح لليهود بالإقامة في القدس بعد تحريرها، وبناء المعابد والمدارس الخاصة بهم، بعدما حظر الصليبيون عليهم الإقامة فيها، أثناء احتلالهم المدينة. بالإضافة إلى ذلك، تُشير بعض المصادر التاريخية إلى دور ابن ميمون في إقناع صلاح الدين بمحاربة دولة بني مهدي في اليمن والقضاء عليها، بعد أن علم بما يفعله به حكامها من اضطهاد ليهود اليمن، وإجبارهم على اعتناق الإسلام)

أظن أن ما ذكرنا من أمثلة ونماذج عما قام به صلاح الدين الأيوبي في خدمة الصليبيين واليهود، في نفس الوقت الذي قام فيه بتدمير العالم الإسلامي وتقسيمه وإشاعةالفوضى فيه، كافية للإجابة على السؤال الذي طرحناه عن سبب حب الصهاينة وغيرهم له.

وهي موجهة طبعا لأصحاب العقول الذين يفكرون ويبحثون، لا الذين يريدون الكذب على أنفسهم وعلى التاريخ، ولا يريدون لعقولهم أن تتخلى عن الأكاذيب التي نشرها المستبدون لتكون سندا لهم في استبدادهم.

ومن العجيب أن أولئك الذين ينكرون على الشيعة أو صوفية المسلمين انتظارهم للإمام المهدي، وشعورهم بالأمل عند ذلك الانتظار هم أنفسهم الذين يقبلون تلك الصيحات التي تدعو صلاح الدين للعودة، بل هم أنفسهم يدعون معهم لعودته.

ولست أدري أيهما أكثر خرافة، هل ذلك الذي ينتظر الموعود الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ، بل أخبر عنه القرآن الكريم، بل

أخبر عنه جميع الأنبياء.. والذي يمثل كل القيم النبوية النبيلة.. أم ذلك الذي رأينا بعض أعماله وبطولاته في الفتنة وسفك الدماء وتقسيم البلاد؟

وطبعا نحن لا ندعو إلى قبول كل ما ذكرناه في هذا المقال، وإنما ندعو فقط إلى التخلص من ذلك التقديس المزيف، والهالة الكاذبة، والقيام بالبحث الجدي للتعرف على الحقائق من مصادرها، لأنه لا يمكننا أن نصحح واقعنا، ونحن نعيش عالم الأوهام.

هل كان هارون العباسي رشيدا.. أم سفيها؟

من الشخصيات الكبرى التي راحت تزاحم النبوة والأئمة والصالحين، مع جرائمها الكثيرة في حق الحكم الإسلام والقيم المرتبطة به شخصية أبي جعفر هارون بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور (149 هـ - 193 هـ)، الخليفة العباسي الخامس، والذي صار الخطباء والوعاظ والأكاديميون وعوام الناس يرددون اسمه بكل تقديس وتبجيل، ويتبعونه بالترضي والترحم وسؤال الفردوس الأعلى، ويتمنون لو أنهم عاشوا ذلك الزمن الذهبي الذي كان فيه حاكما على الرعية.

وهم يقفون هذه المواقف من غير بحث أو تنقيب أو دراسة، أو عرض لأعماله على قيم الشريعة، ليروا مدى تناسبها معها، ولكن العلمانية الفكرية جعلت الشريعة والقيم المرتبطة بها آخر شيء يمكن أن يفكر فيه هؤلاء.

ولذلك بمجرد أن تذكر لهم اسم هارون، ينسون هارون النبي، ويتذكرون هارون الملك، ويضيفون إلى اسمه بتلقائية، ومن غير شعور لقب [الرشيد]، لا باعتباره لقبا ارتجاليا، وإنما باعتباره وصفا من أوصافه، بل إنهم أحيانا يكتفون بلقبه دون اسمه؛ فتحول الرشد عندهم من قيمة إيمانية رفيعة لا يمثلها في كمالها إلا الأنبياء والصالحون إلى شخص بعيد عنهم تماما هو هارون.. ولذلك صار من يبحث عن الرشد لا يذهب إلى الأنبياء والأولياء، وإنما يذهب إلى هارون.

وهم يوردون عليك لإثبات ذلك تلك المقولات الكثيرة التي ذكرها المؤرخون عنه، وأنه ـ كما يقول السيوطي ـ: (كان من أجلّ ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج، كما قال فيه أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يرده.. فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض العدوّ على طمر.. وفي أرض الترفه فوق كور

وأنه كان (يصلي في خلافته في كل يـوم مائـة ركعـة إلى أن مات، لا يتركها إلا لعلة، ويتصـدق من صـلب مالـه كـل يـوم بـألف درهم)

وأنه (كان يحب العلم وأهله، ويعظم حرمات الإسلام، ويبغض المراء في الدين، والكلام في معارضة النص)

وأنه (بلغه عن بشر المريسـي القـول بخلـق القـرآن، فقـال: لئن ظفرت به لأضربنّ عنقه)

وأنه (كان يبكي على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه، وسـيما إذا وعظ، وكان يحب المديح، ويجيز عليه الأموال الجزيلة، وله شعر)

وأن ابن السماك الواعظ، دخل عليه مرة، فبالغ في احترامه، فقال له ابن السماك: (تواضعك في شرفك أشـرف من شـرفك)؛ ثم وعظه فأبكاه.

وأنه عندما مر بالفضيل بن عياض قال عنه: (الناس يكرهــون هذا، وما في الأرض أعز عليّ منه، لو مات لرأيت أمورًا عظامًا)

وأن أبا معاوية الضرير قال عنه: (ما ذكرت النبي ﷺ بين يدي الرشيد إلا قال: صلى الله على سيدي، وحدثته بحديثـه ﷺ: (وددت أني أقاتل في سبيل اللـه فأقتـل، ثم أحيـا فأقتـل)[1]، فبكى حـتى انتحب[2].

وغير ذلك من المقولات التي حـولت منـه صـنما من الأصـنام الكبرى في عقول أكثر المسلمين؛ فلـذلك لا يرضـون أن يسـمعوا عنه كلمة تجريح أو نقد، حتى لا تتبخـر تلـك الأمجـاد الكاذبـة الـتي منعتهم من التفكير، وجعلتهم يعيشون هلوسات الأحلام والأوهام.

والمشكلة الأكـبر من ذلـك كلـه هي إعراضـهم عن النصـوص المقدسـة الـتي تتحـدث عن هـارون وغـيره من أصـحاب الملـك

1() رواه الخطيب في تاريخه، 7/4.

2() تاريخ الخلفاء (ص: 210)

العضوض الـذين حولـوا الحكم الإسـلامي إلى قيصـرية وكسـروية، وحولوا العدالة الإسلامية إلى عدالة مزاجية، يصرفها الخليفـة لمن شاء، ويمنع منها من شـاء، وحولـوا الفتح الإسـلامي الـذي مارسـه الأنبيـاء عليهم السـلام بـالحوار والحكمـة والموعظـة إلى معـارك عسكرية توسعية لا تختلف عن معارك الإسكندر المقدوني، وهتلـر النازي.

وبناء على هذا، وجوابا على ذلك السؤال الذي جعلنـاه عنوانـا لهذا الفصل، سنضع بين يدي القارئ الكـريم بعض أفعـال هـارون، ليحـدد بعـدها اللقب المناسـب لـه، والـذي يسـتحقه عن جـدارة، وليس ذلـك اللقب الـذي أملي علينـا، وأمرنـا بحفظـه وترديـده كالببغاءات من غير أن تتساءل عن مدى انطباقه فيمن نصفه به.

1 ـ هارون.. ووراثة الملك العضوض:

من أول العبارات التي تصادفنا في ترجمـة هـارون العباسـي مقولة بعض الممجدين لـه في الليلـة الـتي ولي فيهـا على رقـاب المسلمين: (هذه الليلة ولد فيها عبـد اللـه المـأمون، ولم يكن في سائر الزمان ليلة مات فيها خليفـة، وقـام خليفـة، وولـد خليفـة إلا هذه الليلة)[1]

وهكذا قيل قبل ذلك عن فاطمة بنت عبـد الملـك بن مـروان امرأة عمر بن عبد العزيز أنها:

بنت الخليفة والخليفة جدها.. أخت الخلائف والخليفة بعلها

فرحت قوابلها بها وتباشرت.. وكذاك كانوا في المسرة أهلها

وقـال بعضـهم شـارحا لهـذا، ومثنيـا عليهـا بسـببه: (لا يعـرف امرأة تستحق هذا البيت غيرها، وكان لها ثلاثة عشـر محرمـا كلهم خليفة: جدها مروان بن الحكم، وأبوها عبد الملك، وإخوتها الأربعـة الوليد، وسـليمان، ويزيـد، وهشـام، وهي عمـة ثلاثـة من الخلفـاء: الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليـد، وجـدها لأمهـا يزيد بن معاوية، وزوجها عمر بن عبد العزيز، ولم يتفق هذا لغيرها

[1] () تاريخ الخلفاء (ص: 210)

فيما تقدم)[1]

وهكذا قيل في عاتكة بنت يزيد، فقد كان من مناقبها ــ لا من مثالبها ـ كما يذكرون، أنها كانت (تضع خمارها بين يدي اثني عشر خليفة، كلهم لها محرم: أبوها يزيد، وجدها معاوية، وأخوها معاوية بن يزيد، وزوجها عبد الملك، وزوج ابنتها عمر بن عبد العزيز، وابنها يزيد بن عبد الملك، وابن ابنها الوليد بن يزيد، وبنو زوجها: الوليد، وسليمان، وهشام، وابنا ابن زوجها يزيد وإبراهيم المخلوع ابنا الوليد بن عبد الملك)[2]

وهكذا يقال في كل أولئك الخلفاء الذين ملأوا تاريخ المسلمين دماء من أجل عروشهم، وتثبيتها، وبقاء الحكم بينهم وبين أولادهم وبني عمومتهم.. وهو ما نراه في واقعنا اليوم في الممالك العربية التي يتزاحم فيها أبناء الأسرة الواحدة على الملك، ويبذلون كل شيء في سبيل تثبيته لهم ولأولادهم، ولو وهبوا كل ما وهب الله دولتهم الله من خيرات الأرض والسماء.

ولذلك لم تُسم تلك الدول التي حكمت بلاد المسلمين قرونا طويلا باسم الإسلام، وإنما تسمت باسم الأسر الحاكمة ابتداء من الأمويين وانتهاء بالعثمانيين.

وكل ذلك لا صلة له بالإسلام، فلا شرعية لحاكم في الإسلام لم تتوفر فيه شروط الخلافة الشرعية من العلم والاجتهاد والكفاءة، ولا شرعية لحاكم لا يبايعه الناس اختيارا لا كرها، فالشرعية مرتبطة بالقابلية الشعبية بالبيعة الشرعية، لا بالبيعة الوراثية.

لذلك كان من أول الاختبارات التي اختبر بها هارون ليثبت كونه رشيدا أو سفيها هو أن يرد الأمر إلى نصابه، ويطبق الحكم الشرعي في هذه المسألة على نفسه قبل أن يدعي تطبيق الشريعة على غيره.

1() تاريخ دمشق لابن عساكر (70/ 30)

2() مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (8/ 306)

وله في ذلك طرق عديدة كان يمكنه أن يمارسها، لكنه للأسف لم يفعل:

كان في إمكانه أن يجمع خيار المسلمين من علمائهم وصالحيهم، وما أكثرهم في ذلك الوقت، ويؤسس من خلالهم برلمانا إسلاميا يكون له الأمر والنهي، مثل البرلمانات التي كانت موجودة في روما قبل الإسلام.. ولا بأس أن يبقى حينها رمزا للوحدة على المسلمين على أن يترك الأمر بعده لاختيار المسلمين.

وكان في إمكانه أن يبحث عن أكثر الناس أهلية في ذلك العصر ليسند الأمر إليه، فلا يصح أن يحكم المفضول في وجود الفاضل.

وكان في إمكانه ألا يقوم بكل تلك الحروب التي قام بها من أجل تثبيت ملكه، ويقوم بدلها بإجراء حوار مع تلك الثورات والمعارضة التي كانت في عصره ليؤسس من خلالها حكما يقوم على المؤسسات لا على الفرد، وعلى الشورى لا على الاستبداد.

لكنه للأسف لم يفعل كل ذلك، مع أنه كان بإمكانه أن يفعله إن أراد أن يكون رشيدا لا سفيها.. لذلك انطبق عليه ما انطبق على كل من هو على شاكلته، فهو ملك، وليس خليفة.. وهو من أصحاب الملك العضوض الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ، وليس حاكما راشدا، ولا رشيدا.

وقد ورد في الأحاديث التي هجرتها الأمة، ولم تحكّمها عند دراستها للتاريخ، التصنيف الصحيح لهارون العباسي، فقد قال ﷺ: (تكونُ النبوةُ فيكُم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعُها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافةٌ على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكونُ مُلكاً عضُوضاً، فتكونُ ما شاء الله ثم يرفعها الله إذا شآء أن يرفعها، ثم مُلكٌ جبرية، ثم خلافةٌ على منهاج النبوة)[1]

---

[1] رواه الطبراني وأحمد البزار والروياني، انظر: جمع الجوامع: 2/1191..

وفي رواية أخرى تحديد للفترة التي يمكن أن يطلق عليها فترة الخلفاء، وهي لا تتجاوز الثلاثين عاما، فقد قال ﷺ: (الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون الملك العضوض)[2]

وبذلك فإن هارون وغيره لا يسمون في الحقيقة ـ بحسب الأحاديث النبوية الشريفة ـ باسم الخلفاء، وإنما بسم الملوك، ولم تكن خلافتهم خلافة عباسية أو أموية، وإنما كانت ملكا عباسيا أو أمويا، وليس للملك أدنى شرعية في الإسلام.

فنظام الحكم في الإسلام قائم على كفاءة الحاكم ونزاهته وتوفر قدرات الحكم فيه، لا على كونه ابن فلان، أو منتميا لأسرة من الأسر، ولذلك كان الصالحون يسمون هؤلاء الحكام باسم الظلمة، ولم يسموهم أبدا باسم الخلفاء، ولا حتى الملوك.

ومن العجيب أن يدافع الإسلاميون الذين يدعون إلى الحكم الإسلامي عن هارون وغيره من أصحاب الملك العضوض، ولا يتبرؤون منهم، ولا يعتبرونهم من المشوهين لقيم الحكم الإسلامي، وذلك ما يجعلهم في نظر العلمانيين في غاية التناقض؛ فالذي يدافع عن الحكم الملكي الاستبدادي الذي ترجع فيه كل الصلاحيات للفرد، لا يحق له أبدا أن ينادي بالقيم الإسلامية، ذلك أن كلا الندائين خطان متوازيان، لا يجتمعان أبدا.

فالعاقل هو الذي يضع موازين للحكم الإسلامي، ثم يطبقها على جميع من حكموا في التاريخ، ليرى مدى اتصافهم بحقيقة ذلك الحكم والقيم المرتبطة به، حتى لا يكون كلامه متناقضا، ومجرد دعاوى.

ومن العجيب أن هؤلاء الذين ينكرون على آل سعود بطشهم وبعثرتهم للأموال، يتناسون أن تلك الخلافة التي ينادون بها، وأولئك الخلفاء الذين يمجدونهم، لم يكونوا أقل شرا من آل سعود، بل كانوا أكثر شرا منهم بكثير.. فلئن قامت الدنيا الآن من أجل تقطيع شخص واحد، ففي عهد أولئك الخلفاء كان اللعب

---

[2] سنن الترمذي: 4/ـ 436 ـ سنن أبي داوود: 5/ـ 36، فضائل الصحابة- للامام أحمد بن حنبل ص 17، مسند احمد ج 5 ص 221.

بـالرؤوس، كـاللعب بـالكرة تمامـا؛ فمـا أسـهل أن يقطـع رأس المعارض، ويقدم هدية للخليفـة، وينشـد الشـعراء قصـائدهم أمـام ذلك الرأس المقطوع.

وقد أشار الشيخ حسن بن فرحان المالكي ـ فك الله أسـره ـ إلى بعض السنن التي سنها معاوية، ومن سـار خلفـه من أصـحاب الملك العضوض، فذكر منها: (التغيير في أعلى الهرم (السـلطة).. انتهـاك واسـع للحقـوق.. الإقطاعيـة.. العصـبية القبيلـة.. الملـك العضوض.. الوراثة.. إبطـال الشـورى.. اسـتخدام الاسـلام لخدمـة السلطة.. عقيدة الجبر.. الطاعة الطلقة.. الغلو في الخلفاء.. سب الأنبياء والصالحين.. التكفير.. تفريـق المسـلمين طوائـف وفـرق.. تشريع المظالم.. استهداف المقدسات.. فرض العقائد والأحكـام.. الرشـوة والفسـاد.. اصـطناع الرجـال بـالمكر والمـال والمنزلـة.. الاسـتئثار والاسـتغلال والاسـتحواذ على أخصـب الأراضـي وأنفـع الأمـوال.. فـرض الضـرائب على كـل شـيء حـتى أصـبحت بلاد المسلمين مزرعة كبيرة.. إذلال الناس، مثل ختم الأعنـاق والأيـدي حصل مـع كبـار من الصـحابة وعامـة الفلاحين.. كراهيـة الشـعوب وظلمهم أسلموا أو لم يسلموا.. احتقـار المهن.. تحويـل بيت مـال المسلمين إلى خزينة للسلطان.. شن الحـروب من أجـل الغنيمـة والتوسـع.. التعـذيب وأصـنافه المختلفـة مثـل تعليـق النسـاء من أثدائهن، وتسـليط الحيوانـات المفترسـة على المعـذبين، وتقطيـع الجسد قطعة قطعـة، والـدفن حيـاً، وسـمل الأعين (ونسـبوا ذلـك للرسول ﷺ حتى يشرعنوه)، وبتر الأطـراف، والإلقـاء من المبـاني العالية، وقطـع الألسـنة، وسـبي المسـلمات، وذبح الأطفـال أمـام والديهم عمداً، وإجبار الـبربر على بيـع نسـائهم وأبنـائهم في حـال التقصير في ضريبة غير واجبة، وحمل رؤوس الصحابة) [1]

وقد علق الشيخ حسن على هـذه الجـرائم وغيرهـا، بقولـه: (كيـف يتخـذ الغلاة هـؤلاء الظلمـة أئمـة هـدى، وينـافحون عنهم ويحتجون بمظالمهم في كتب العقائـد، ويتعبـدون اللـه بمظـالمهم وكذبهم وفجـورهم.. كيـف يتخـذ الغلاة هـؤلاء قـدوة لهم، ويتبعـون

---

[1] خلاصات أموية، حسن المالكي..

سنتهم ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ مع أن هؤلاء الظلمة لم يكونوا يؤمنوا بأن الله سيحاسب الخليفة)(1)

وكل ما ذكره الشيخ حسن بن فرحان المالكي ينطبق تماما على ما قام به هارون بناء على كونه ركنا مهما من أركان الملك العضوض..

فلذلك لا يمكن لمن يقدس الشريعة، ويعتبرها الحكم الأعلى أن يتنازل عن قيمها في سبيل ذلك المجد الكاذب الذي ملئت به كتب التاريخ، والذي يحتاج منا إلى البراءة منه، لا الفخر به أو الدعوة إليه.

2 ـ هارون.. والتلاعب بالمال العام:

من عجائب الكثير من العقول وتناقضها مع نفسها أنها عندما تقرأ قوله تعالى: {وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً} (النساء: 5) تربطه فقط بالسفيه الذي يبذر ما أوتي من ثروة خاصة محدودة في لهوه ولعبه، ولذلك تطالب بالحجر عليه، وترفع عنه لقب الرشد، لتسميه بالسفيه.

لكنها مع الحكام الذين لا يملكون الثروات المحدودة الخاصة فقط، بل يعتقدون أنهم يملكون كل ثروات الأمة، وأن لهم فوق ذلك حق التصرف فيها، نرى نفس تلك العقول التي حجرت على ذلك الذي يبذر ماله الخاص تتساهل مع الحاكم الذي يبذر المال العام، بل تعتبره فوق ذلك كريما، وتصنف بعثرته للأموال ضمن مناقبه وأخلاقه.

ولذلك نرى للأسف وصف هارون وتبذيره للأموال بكونه رشدا لا سفها، وهو خلاف ما نطق به القرآن الكريم، ذلك أن هارون ـ كما تدل الروايات المتواترة عنه ــ كان يوزع مال الأمة مجانا لكل من يمدحه بقصيدة، أو يضحكه بنكتة، في نفس الوقت الذي كان لا يجد فيه العلماء وعامة الناس ما يقتاتون به.

وبما أن التفاصيل المرتبطة بهذا المجال، لا يهتم بها عادة

---

(1) خلاصات أموية، حسن المالكي..

المؤرخـون للتـاريخ السياسـي، فقـد اهتم بهـا المؤرخـون للتـاريخ الحضاري، وخصوصا الأدب منـه، ذلـك أننـا نجـد فيـه وصـفا دقيقـا للواقـــع الاجتمـــاعي من خلال تلـــك المقطوعـــات النثريـــة أو المنظومات الشعرية أو الأخبار الأدبية.

ولا يصـح أن نسـتبعد تلـك المصـادر مـع اشـتهارها وكثرتهـا واعتمادهـا على الأسـانيد، وإلا تعاملنـا نفس المعاملـة مـع كتب التـاريخ، ذلـك أن المـؤرخ عـادة لا يهتم بالتفاصـيل على خلاف الأديب.

ولا يمكننـا هنـا أن نـذكر هنـا كـل مـا رواه الـرواة عن تلاعب هارون بأموال الأمة، وإنما نذكر نمـاذج عنهـا فقـط، لنكتشـف من خلالها شخصيته، وهل هي أميل للرشد، أم أنها أميل للسفه.

ونبـدأ بمـا ذكـره السـيوطي في كتابـه [الإنبـاء في تـاريخ الخلفاء]، والذي وصفه بكونه (أسـمح النـاس بمـا تحويـه يـده)، ثم روى أنه لما دخل بغداد، دخل إليه سلم الخاسر وأنشده:

موسى المطـر غيث بكـر ثم انهمـر.. وكم قـدر ثم غفـر خـير البشر

فرع مضر بدر بدر لمن نظر.. هو الوزر لمن حضـر والمفتخـر لمن غبر

فأمر له بمائة ألف درهم، ثم علق عليها بقوله: (وهو أول من وصل بـذلك. وهي أول مائـة ألـف وصـل بهـا شـاعر في ولـد بـنى العباس)(1)

ثم روى رواية أخرى وهي أن أعرابيا دخل إليه وأنشده:

يا خير من عقدت كفاه حجزته.. وخير من قلّدته أمرها مضر

فقطـع عليـه ومـا تركـه يتم وقـال لـه: إلّا من؟ ويلـك! فقـال الأعرابي:

---

(1) الإنباء في تاريخ الخلفاء (ص: 74)

إلا النبي رسول الله إن له.. فخرا وأنت بذاك الفخر تفتخر

فأعجبته بديهته وقوله، وأمر له بمائة ألف درهم(1).

وحتى نبسط فهم الروايتين اللتين ذكرهما السيوطي، وأثنى بسببهما على هارون، واللتين نجد أمثالهما كثير، نذكر أن ذلك المبلغ الذي دفعه له، وهو مائة ألف درهم من الفضة، يساوي عشرة آلاف دينار من الذهب، وكل دينار يساوي تقريبا 4.25 غرام من الذهب، أي أنه أعطاه في ذلك المجلس، وبتلك الكلمات القليلة التي ذكرها 42500 غرام من الذهب، أي 42 كيلو غرام ذهب.

ومن تلك النماذج ما رواه الأصمعي قال: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فأنشده:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري.. فليس إلى ما تأمرين سبيل

فعالي فعال المكثرين تجمّلا.. ومالي كما قد تعلمين قليل

فكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى.. ورأي أمير المؤمنين جميل

فقال له الرشيد: لله درّ أبيات تأتينا بها! ما أحسن أصولها وأبين فصولها، وأقلّ فضولها! يا غلام أعطه عشرين ألفا. قال: والله لا أخذت منها درهما واحدا! قال:

ولم؟ قال: لأن كلامك والله يا أمير المؤمنين خير من شعري! قال: أعطوه أربعين ألفا. قال الأصمعي: فعلمت والله أنه أصيد لدراهم الملوك مني (2).

فهذه الرواية لا تشير فقط إلى إعطائه ذلك المبلغ الضخم، وإنما تشير فوق ذلك إلى أن المجتمع كان يتصور ــ من غير أن

1() المرجع السابق، (ص: 74)

2() العقد الفريد، (1/ 217)

يشعر ـ أن بيد حاكمه خزائن الرزق، وأن مال الأمة ملك له، ولذلك يكفي أن يرضى الحاكم عنه، لينال ما اشتهى من مال، سواء استحقه أو لم يستحقه، ولذلك صدق الأصمعي في تسمية هارون بالملك، ذلك أن الملك هو الذي يعتقد ذلك الاعتقاد، بخلاف الخليفة الذي يعتقد أنه مستخلف على مال الأمة، وليس له الحق في التصرف فيه.

وهكذا ورد في روايات أخرى في كتاب خصص للمشهورين بالكرم، بعنوان [المستجاد من فعلات الأجواد]، والذي اعتبر هارون من كبار الأجواد، وكيف لا يفعل ذلك، وخزائن الأمة بيده، تجبى إليه الأموال من كل الأرض، ولذلك كان يخاطب السحاب في السماء بكل غرور قائلا: (امطري حيث شئت، فإن خراجك سيأتيني)

ومن تلك الروايات ما روي أن يزيد بن مزيد دخل على هارون، فقال له: يا بن مزيد من الذي يقول فيك:

لا يعبق الطيب خديه ومفرقه.. ولا يمسح عينيه من الكحل

قد عود الطير عادات وثقن بها.. فهن يتبعنه في كل مرتحل

فقال: لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين فقال له هارون: أيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله؟ فخرج من عنده خجلاً؛ فلما صار إلى منزله دعا حاجبه فقال: من بالباب من الشعراء؟ قال مسلم بن الوليد قال: وكيف حجبته عني ولم تعلمني بمكانه، قال: أخبرته أنك مضيق، وأنه ليس في يدك شيء تعطيه، وسألته الإمساك والمقام أياماً إلى أن تتسع قال: فأنكر ذلك عليه وقال: أدخله إلي فأدخله إليه فأنشد قصيدة يقول فيها:

صدقت ظني وصدقت الظنون به.. وحط جودك عقد الرحل عن جملي

فقال له: قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها واعذر، فخرج الحاجب، فقال: قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم خمسون ألفاً منها لك وخمسون ألفاً لنفقته

فأعطـاه إياهـا، وكتب صـاحب الخـبر بـذلك إلى هـارون، فـأمر لـه بمـائتي ألـف درهم، وقـال: (اقض الخمسـين الألـف الـتي أخـذها الشـاعر، وزده مثلهـا، وخـذ مائـة ألـف لنفسـك)، فأفتـك ضـيعته، وأعطى مسلماً خمسين ألفاً أخرى(1).

ويمكننا من خلال الحساب السابق أن نحسب المبلغ الضـخم الذي أعطاه إياه، لا لاختراع اخترعـه، أو كتـاب علمي ألفـه، وإنمـا لأبيات شعرية مدحه بها، وقـد كـان في إمكانـه بـذلك المبلـغ أن لا يبقي في بغداد جميعا فقيرا واحدا.

وهكـذا روي في روايـة أخـرى عن إبـراهيم الموصـلي قـال: دخلت على هارون الرشيد فلما رأيته قد أخذ في حـديث الجـواري وغلبتهنّ على الرجال، غنيته بأبيات التي يقول فيها:

ملك الثّلاث الآنسات عناني.. وحللن من قلبي بكلّ مكان

مالي تطاوعني البريّة كلّها.. وأطيعهنّ وهنّ في عصياني

ما ذاك إلا أنّ سلطان الهوى.. وبه قوين أعزّ من سلطاني

فارتاح وطرب، وأمر لي بعشرة آلاف درهم (2).

وهكذا كان يشـتري الجـواري والمحظيـات بالمبـالغ الضـخمة جدا، والتي تأسى بـه فيهـا الأمـراء والملـوك العـرب المعاصـرون، ومن الأمثلة على ذلك أنه اشترى جاريـة بيعت في المـزاد العلـني بمائتين وخمسين ألف درهم(3)، وهو مبلغ ضخم جـدا، ويمكن لمن شاء أن يحسبه، ويرى المشاريع التي يمكن أن ينفذ بها ذلك المبلغ الذي لم يكن له من دور سوى إرضاء نزوات الخليفة الذي أجمعوا

1() المستجاد من فعلات الأجواد (ص: 27)

2() العقد الفريد، (7/ 49)

3() الإماء الشواعر، أبـو الفـرج الأصـبهاني، دار النشـر : عـالم الكتب - بـيروت/لبنـان - 1404ه - 1984م، الطبعـة : الأولى، تحقيـق : د.نـوري حمـودي القيسـي، د.يـونس أحمـد السامرائي (ص: 46)

على تسميته رشيدا.

لكن الصالحين لم يكونوا يسمونه كـذلك، بـل كـان يرفضـون أخذ ماله، اعتقادا منهم بأنه ينفق ممـا لا يملـك، ومن الأمثلـة على ذلك ما روي أنه لما دخل الكوفة خرج النـاس للنظـر إليـه، فنـاداه بهلول[1] ثلاثاً، فقال: من المجترىء علي في هذا الموضـع؟ قيـل: بهلول المجنون. فرفع السجافة وقال: بهلول؟ قال: لبيـك يـا أمـير المؤمنين، روينا عن أيمن بن نائل قال: حدثنا قدامـة عن ابن عبـد الله العـامري قـال: رأيت رسـول اللـه ﷺ يـرمي جمـرة العقبـة لا ضرب ولا طرد ولا قيل بين يديه إليك إليك؛ وتواضعك في سـفرك هذا خير لك من تجبرك وتكبرك، قـال: فبكى الرشـيد حـتى جـرت دموعه على الأرض، وقال: أحسنت يا بهلول، زدنا يرحمك الله.

قال: وروي أن النبي ﷺ قال: أيما رجل آتاه الله مـالاً وجمـالاً وسلطاناً فأنفق في ماله وعف في جماله وعدل في سلطانه كتب في خالص ديوان الله من الأبرار. قال: أحسنت يا بهلول، وأمر لـه بجائزة سنية، فقال: (يا أمير المؤمنين؛ ردها على من أخذتها منـه؛ فلا حاجة لي بها)، فقـال: يـا بهلـول؛ إن كـان عليـك دين قضـيناه. قال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء أهل الرأي بالكوفـة أجمعـوا على أن قضاء الدين بالدين لا يجوز، قال: فنجري عليـك مـا يكفيـك؛ فرفـع رأسه إلى السماء وقـال: (يـا أمـير المؤمـنين؛ أنـا وأنت في عيـال الله، ومحال أن يذكرك وينساني)[2]

وللأسف، فـإن الممجـدين لهـارون، لا ينظـرون إلى المعـاني التي ذكرها الرجل الصالح في وعظه لهـارون، وإنمـا يلتفتـون إلى بكائه، وهم لا يعلمون أن ذلك البكاء كان في أحسن أحواله مجـرد حركة عاطفية عابرة ولم يكن لها أي أثر في حياته.

1() قال في [جمع الجواهر في الملح والنوادر، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصـاري، أبـو إسحاق الحصـري، دار المناهـل للطباعـة والنشـر والتوزيـع، (ص: 62)] تعقيبـا على الروايـة: (وقيل: إن بهلولاً كان يستعمل الجنون ستراً على نفسه)

2() طبقات الفقهاء الشافعية، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الـدين المعـروف بابن الصلاح، المحقق: محـيي الـدين علي نجيب، دار البشـائر الإسـلامية – بـيروت، الطبعـة: الأولى، 1992م (1/ 134)

وهكذا روي أن أنه أرسل لبعض العلماء كيسا من المال، فقال لمن أوصله له: (أقرئ أمير المؤمنين السلام وقل: قد وقعت مني بحيث يحب أمير المؤمنين وأنا عنها مستغن، وفي رعية أمير المؤمنين من هو أحوج إليها مني، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصرفها إلى من أحب)(3)

هذه مجرد نماذج محدودة عن مدى تلاعب هارون بمال الأمة، مثله مثل سائر الملوك الذين نسميهم خلفاء، وهي كافية واحدة لإدراجه ضمن السفهاء، لكن الدين البشري الذي صاغه الملوك ومن أيدهم من العلماء حول كل ذلك السفه إلى رشد، وبمعايير بشرية تماما لا علاقة لها بدين الله؛ فدين الله أسمى من أن يؤيد ظالما أو متلاعبا بالمال العام في نفس الوقت الذي يدين فيه من يصرف دينارا واحدا في غير محله.

3 ـ هارون.. والصراع مع الصالحين:

من العجائب التي لا يمكن تفسيرها قدرة الكثير من العقول، وخاصة عقول الملتزمين المتدينين، من أصحاب الورع البارد، ذلك الجمع العجيب بين المتناقضات، والتي ينص المنطق أنه لا يمكن أن تجتمع معا، أو تتفرق معا، لكنها للأسف تجتمع عند تلك العقول وتتناسق، وتتآخى، وكأنه لا تنافر بينها.

وما أكثر الأمثلة على ذلك، وقد سبق أن ذكرنا في كتابنا عن مجزرة بني قريظة كيف استطاع الكثير أن يسوغ ما ذكره المدلسون من أن النبي ﷺ ذبح زهاء 900 رجل وشاب من بني قريظة، في نفس الوقت الذي عفا عن بني قينقاع وبني النضير وقريش وكبار المنافقين مع أن ذنب من عفا عنهم أكبر بكثير من ذنب بني قريظة، وبإقرار تلك العقول نفسها.

وهكذا يقال في هارون العباسي، الذي يترضون عنه في نفس الوقت الذي يترضون عن الذين قتلهم من العلماء

---

(3) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني، المحقق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى 1426 هـ - 2005 م، (ص: 116)

والصالحين الذين لا يزالون يعتبرون الطاعن فيهم طاعنا في الدين نفسه، ولسنا ندري كيف نجمع بين الترضي على القاتل والضحية في نفس الوقت.

والعجب الأكبر أن هؤلاء الذين يستعملون كل الوسائل لستر جرائم هارون في هذا المجال، يتباكون على قتل جمال خاشقجي، ويطالبون بدم قتلته حتى لو كانوا ملوكا، مع أن الخاشقجي لا يساوي شيئا أمام تلك الشخصيات العظيمة التي قام هارون بقتلها، وبدم بارد.

فقد ذكر كل المؤرخين وباتفاق منهم جميعا على أن هارون هو الذي قتل إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (127 هـ - 177 هـ)، ذلك الذي يلقب في المغرب العربي باسم إدريس الأكبر، وينتسب إليه أكثر سادة وأشراف المغرب العربي، ويذكرون أنه كان السبب في إسلام الكثير من القبائل الأمازيغية التي لم يقنعها الفتح العسكري بالإسلام، وإنما أقنعتها طروحات المولى إدريس كما يطلقون عليه.

وهم يتفقون على الشهادة له بالصلاح والتقوى، ويزورون ضريحه، ويحيون كل المناسبات التي ترتبط به، وبالكثير من أولاده وحفدته، ولكنهم للأسف، وفي نفس الوقت يترضون عن قاتله هارون، ويذكرون مناقبه، ولست أدري كيف يوفق بين هذا وذاك.

فإن كان موقف هارون صالحا وعادلا، فإن إدريس الأكبر كان مستحقا لما حصل له، ولذلك لا يصح أن يعتبر من الأولياء، ولا من الصالحين.. وإن كان العكس، فإن حكم هارون حكم إجرامي واستبدادي، ولا يصح حينها السكوت عن هذه الجريمة حتى لو تعلقت بقتل مسلم واحد، وكيف وهارون قتل المئات بل آلاف من الصالحين، وهذا ما تذكره كل المصادر التاريخية.

وحتى نعرف فداحة الجريمة التي قام بها هارون بقتله لإدريس الأكبر ندعو القارئ ليبحث في ترجمته، ليرى دوره الدعوي الكبير في الشمال الإفريقي، حيث استطاع أن يدعو القبائل اليهودية والوثنية إلى الإسلام، ويعرفهم به، ويدخلوا فيه

أفواجا، ذلك أن الفاتحين العسكريين لم يكن لهم الوقت للجلـوس للناس وتعليمهم، وإنما اكتفوا بالتوسع العسـكري عن الـدعوة إلى الله تعالى.

ولـذلك كـان دور إدريس الأكـبر الـدعوي هـو الفتح الحقيقي، وقد التفت به القبائل الأمازيغية بعد أن رأت فيه النموذج الحقيقي الـذي يمثـل الإسـلام، لكن هـارون الـذي لم يكن يفكـر في نشـر الإسلام، وإنما كان يفكـر في ملكـه وفي الإتـاوات الـتي تأتيـه من المغرب والمشرق، ولذلك راح يرسل له من يقوم بقتلـه، متجـاهلا تلك الأدوار الدعوية العظيمة التي كان يقوم بها هناك.

فقد ذكر المؤرخون أن قبائل زناتة وزواغـة وسـدراتة وغياثـة ومكناسة وغمارة وكافة القبائل الأمازيغيـة في المغـرب الأقصـى، وبعد أن رأوا صفات إدريس الأكبر وأخلاقه العاليـة وعلمـه العظيم راحوا يبايعونه، ويقومون معه بنشر الإسلام وتعريف الناس بـه في كل المناطق التي لم تدخل الإسلام بعد.. لكن حقـد هـارون وصـل إليه عبر إرسال من قتله.

وقد قال حينها بعض الشعراء من الموالين لبني العباس يذكر قتله، ويصور في نفس الوقت اليد الإجرامية لبني العبـاس، والـتي لم تكن تتوقف أبدا [1]:

أتظن يا إدريس أنك مفلت.. كيد الخليفة أو يقيك فرار

فليدركنّك أو تحلّ ببلدة.. لا يهتدي فيها إليك نهار

إن السيوف إذا انتضاها سخطه.. طالت وتقصر دونها الأعمار

ملك كأن الموت يتبع أمره.. حتى يقال تطيعه الأقدار

وصـدق الشـاعر فيمـا قـال، فلم يكن المـولى إدريس أول أو آخر قتيل من آل بيت النبوة يقوم هارون بقتله، وإنما قتـل الكثـير، ومنهم الإمام موسى الكاظم الذي تتفق الأمة جميعـا على صـلاحه وتقواه وعلمه الغزير، وكونه إماما من أئمة بيت النبوة، وكونـه في

---

[1] مقاتل الطالبيين (ص: 408)

نفس الـوقت من المظلـومين الـذي شـملهم بطش هـارون ليس بالقتل فقط، وإنما بالسجن قبل ذلك.

ففي الـوقت الـذي كـان الشـعراء يتمتعـون فيـه بالصـلات والجوائز كان الإمام موسى الكاظم وغيره من الصالحين يسكنون غياهب السجون، في انتظار لحظة المـوت الـتي يحـددها السـفاح الذي سمته العقول المتناقضة رشـيدا، يقـول الشـيخ محمـد جـواد مغنية معبرا عن محنة الإمام الكاظم: (أرسل الرشيد جلاوزته إلى الإمام موسى بن جعفر، وكان يتعبد عند قبر جده، فـأخرجوه منـه، وقيدوه، وأرسله الرشيد إلى البصرة، وكان عليها عيسى بن جعفر بن المنصور، فحبسه عنده سـنة، ثم كتب عيسـى إلى الرشـيد أن خذه مني، وسلمه إلى من شئت، وإلا خليّت سبيله، فقـد اجتهـدت أن آخذ عليه حجة فما قدرت على ذلك. فحبسه ببغداد عند الفضل بن الربيع، ثم عند الفضل بن يحـيى، ثم عنـد السـندي بن شـاهك، وأخيراً تخلص منه بالسم)(1)

ولم يكتف هارون بذلك، بل راح يمارس جرائمـه في كـل من له صلة به من أهـل بيت النبـوة أو غـيرهم حـتى النسـاء لم ينجين من جرائمه، يقول السيد محسن الأمين: (بعد وفاة الإمام الكـاظم أرسل الرشيد أحد قـواده إلى المدينـة، وهـو الجلـودي، وأمـره أن يهجم على دور آل أبي طــالب، ويســلب نســاءهم ولا يــدع على واحدة منهن إلا ثوباً واحداً، فامتثل الجلـودي، حـتى وصـل إلى دار الإمام الرضا، فجعـل الإمـام النسـاء كلهن في بيت واحـد، ووقـف على باب الـبيت، فقـال الجلـودي: لابـد من دخـول الـبيت وسـلب النساء فتوسل إليه وحلـف لـه أنّـه يأتيـه بكـل مـا عليهن من حلي وحلل على أن يبقى الجلودي مكانه ولم يزل يلاطفـه حـتى أقنعـه، ودخل الإمام، وأخذ جميع ما على النساء من ثياب ومصـاغ وجميـع ما في الدار من أثاث، وسلمه إلى الجلودي، فحملـه إلى الرشـيد) (2)

---

(1) الشيعة والحاكمون، مغنية، ص 162.

(2) أعيان الشيعة، ج 1، ص 29..

وهكذا كانت جرائم هارون في حق أهل بيت النبوة كثيرة لا يمكن حصرها، فمنذ تسلم زمام الحكم من سنة 170 هـ حتى سنة 193 هـ أدار صراعات مختلفة مع العلويين فقتل، وعذّب الكثير منهم، مستنا في ذلك بسنة أهل الملك العضوض ابتداء من معاوية وابنه يزيد.

ولم يكن الأمر قاصرا على جرائمه في حق أهل بيت النبوة، بل إنه مارسه مع كل من يخشى أن يلتف به الناس بسبب تقواه وصلاحه، والتهمة التي تسوق له ليست الزندقة كما كان الأمر في عهد والده، وإنما كونه من العلويين أو الشيعة أو الروافض، مثلما هو حاصل الآن.

ومن الأمثلة على ذلك أن محمد بن إدريس الشافعيّ (150-204هـ) ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وصاحب المذهب الشافعي المعروف، والذي قال فيه الإمام أحمد: (كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس)، اتهم بالتشيع في عصر هارون، وكاد يحصل له ما حصل لغيره من الآلاف الذين اتهموا بالتشيع أو موالاة أهل بيت النبوة.

فقد ذكر أبو زهرة في كتابه عن الشافعي المحنة التي تعرض لها، وكاد يقتل بسببها، لولا احتياله لذلك ببعض الحيل الشرعية، وفي نفس الوقت شهادة محمد بن الحسن الشيباني له.

وللأسف مع اتفاق المؤرخين على هذه الحادثة، والمحن التي أصابت أهل بيت النبوة في ذلك العصر إلا أن أكثر الناس يتجاهلونها في نفس الوقت الذي يصورون فيه محنة الإمام أحمد في عهد المأمون، وكأنها غزوة بدر أو فتح مكة، حتى قال بعضهم: (لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها لذهب الإسلام)[1]، وقال علي بن المديني: (أيد اللَّه هذا الدين برجلين لا ثالث لهما أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل فِي يوم المحنة)[2]

---

[1] طبقات الحنابلة (1/ 13)

مع العلم أننا نعتبر كلا من هارون وابنه المأمون من الظلمـة، ونعتبر كلا المحنتين من المحن التي يجب الإنكار على الذين قاموا بها، كما ننكر في نفس الوقت على العقول الـتي تستسـيغ جـرائم هارون في نفس الوقت الذي تنكر فيه على جرائم ابنـه المـأمون، مع أن جرائم المأمون لم تكن لتحصل لولا توريث أبيه العرش لـه، ولأخيه، وتدريبه على كيفية امتحان الناس في عقائدهم وأفكارهم، حتى لا تكون سببا في الثورة او المعارضة.

يقول أبـو زهـرة: (لمـا نـزل الشـافعي بـاليمن، ومن أعمالهـا نجران، كان بهـا والٍ ظـالم، فكـان الشـافعي يأخـذ على يديـه، أي ينصحه وينهاه، ويمنع مظالمه أن تصل إلى من تحت ولايته، وربمـا نال الشافعي ذلك الوالي بالنقد، فأخذ ذلك الوالي يكيد له بالـدس والسـعاية والوشـاية. وفي ذلـك الزمـانِ الـذي كـان فيـه الحكمُ للعباسـيين، كـان العباسـيون يُعـادون خصـومَهم العلـويين، لأنهم يُدلون بمثل نسبهم، ولهم من رحم الرسـول محمـد مـا ليس لهم، فـإذا كـانت دولـة العباسـيين قـامت على النسـب، فأولئـك يَمُتُّون بمثله، وبرحم أقرب، ولذا كانوا إذا رأوا دعـوة علويـة قضـوا عليهـا وهي في مهـدها، ويقتلـون في ذلـك على الشـبهة لا على الجـزم واليقين، إذ يرون أن قتـل بـريء يسـتقيم بـه الأمـر لهم، أولى من تـــرك مُتَّهمٍ يَجـــوز أن يُفســـد الأمنَ عليهم.. وجـــاء والي نجـــران العباسـيين من هـذه الناحيـة، واتهم الشـافعي بأنـه مـع العلويـة، فأرســل إلى الخليفــة هــارون الرشــيد: (إن تسـعة من العلويــة تحرَّكوا)، ثم قال في كتابـه: (إني أخـاف أن يخرجـوا، وإن هـا هنـا رجلاً من ولد شافع المطلـبي لا أمـر لي معـه ولا نهي)، وقيـل أنـه قال في الشافعي: (يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه)، فأرسل الرشيد أن يَحضرَ أولئك النفرُ التسـعةُ من العلويـة ومعهم الشافعي. ويقال أنه قتـل التسـعة، ونجـا الشـافعي؛ بقـوة حجتـه، وشـهادة القاضـي محمـد بن الحسـن الشـيباني، أمـا قـوة حجتـه فكانت بقوله للرشيد وقد وجه إليه التهمةَ بين النطع والسيف: (يـا أمير المؤمنين، ما تقـول في رجلين أحـدهما يـراني أخـاه، والآخـر يراني عبـده، أيهمـا أحب إلي؟)، قـال: (الـذي يـراك أخـاه)، قـال:

---

(2) المرجع السابق، (1/ 13)

(فذاك أنت يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد علي، ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم، وهم يروننا عبيدهم، وأما شهادة محمد بن الحسن الشيباني فذلك لأن الشافعي استأنس لما رآه في مجلس الرشيد عند الاتهام، فذكر بعد أن ساق ما ساق أن له حظاً من العلم والفقه، وأن القاضي محمداً بن الحسن يعرف ذلك، فسأل الرشيدُ محمداً، فقال: (له من العلم حظٌ كبير، وليس الذي رُفع عليه من شأنه)، قال: (فخذه إليك حتى انظرَ في أمره)، وبهذا نجا)[1]

وقد عبر الشافعي عن هذه التهمة التي اتهم بها في تلك الأبيات المشهورة عنه، والتي رواها الربيع بن سليمان عنه في قوله: (خرجنا مع الشافعي من مكة نريد منى فلم ننزل واديا ولم نصعد شعبا إلا وهو يقول

يا راكبا قف بالمحصب من منى.. واهتف بقاعد خيفها والناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى.. فيضا كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضا حب آل محمد.. فليشهد الثقلان أني رافضي[2]

ولم يكن كل ذلك سوى أمثلة عن بعض المشاهير ممن وصل إلينا خبر مقتلهم في عهده وبأمر منه، أما من لم يصل إلينا خبره، فالله أعلم بهم، وقد ورد في المصادر التاريخية أن حميد بن قحطبة الطائي الطوسي قال: طلبني الرشيد في بعض الليل، وقال لي فيما قال: خذ هذا السيف، وامتثل ما يأمرك به الخادم، فجاء بي الخادم إلى دار مغلقة، ففتحها وإذا فيها ثلاثة بيوت وبئر، ففتح البيت الأول، وأخرج منه عشرين نفساً عليهم الشعور والذوائب، وفيهم الشيوخ والكهول والشبان، وهم مقيدون بالسلاسل والأغلال وقال لي: يقول لك أمير المؤمنين اقتل هؤلاء،

[1] () الشافعي، محمد أبو زهرة، ار الفكر العربي – القاهرة، ص22.

[2] () طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (1/ 299)

وكانوا كلهم من ولد علي وفاطمة فقتلتهم الواحد بعد الواحد، والخادم يرمي بأجسامهم ورؤوسهم في البئر، ثم فتح البيت الثاني، وإذا فيه أيضاً عشرون من نسل علي وفاطمة، وكان مصيرهم كمصير الذين كانوا في البيت الأول، ثم فتح البيت الثالث، وإذا فيه عشرون، فألحقهم بمن مضى، وبقي منهم شيخ، وهو الأخير، فقال: تباً لك يا ميشوم أي عذر لك يوم القيامة عند جدنا رسول الله ﷺ.. فارتعشت يدي، وارتعدت فرائصي، فنظر إليّ الخادم مغضباً، وهددني، فقتلت الشيخ، ورمى به في البئر (1).

4 ـ هارون.. وصراع الأسرة المشؤومة:

لم تكن دماء الصالحين فقط هي التي سالت بغزارة في الفترة التي ولي فيها هارون، بل كانت هناك دماء كثيرة أخرى، سفكت في حياته زورا وبهتانا، ثم ورّثها بعد ذلك لمن بعده من أبنائه، فسالت دماء أخرى كثيرة كلها في سبيل تحقيق نزوات هارون وأسرته المشؤومة.

لا تستعجلوا في الحكم علي قبل أن تسمعوا القصة، وتعوها، فقد تجدون أنفسكم وبلاد المسلمين ضحايا تلك الأسرة المشؤومة التي شربت هوى السلطة، فراحت تضحي بكل شيء في سبيلها، وبسببها تمزقت بلاد المسلمين، ودخل الصليبيون، ثم دخل الاستعمار، ثم صرنا إلى ما صرنا إليه.

وقبل أن أذكر لكم بعض مشاهد الدماء المسفوكة في عهد هارون، أضرب لكم هذا المثال حتى تستوعبوا مقدار الجرائم التي تسبب فيها.

تصوروا لو أن حاكما أتيح له أن تتوحد الدول الإسلامية جميعا تحت سلطته، وكان في إمكانه أن يجعل من المسلمين قوة عظمى، ممتلئة بالعلم والحضارة، وتؤسس لمستقبل صالح للبشرية جميعا في ظل القيم القرآنية العظيمة.. لكنه لم يفعل ذلك، لسبب بسيط، وهو أن له ولدين من زوجتين مختلفتين، ولم

---

(1) عيون أخبار الرضا، الصدوق، ج 1، ص 101..

يرد أن يؤذيهما؛ فراح يقسم الدولة الإسلامية بين كلا الولدين، لأحدهما مشرق الأرض، وللآخر مغربها.

ثم ما لبثت نزوة السلطة أن ركبت كلا الولدين، حيث طلب كل واحد منهما من أخيه أن يتنازل له عن نصيبه حتى تصبح الأرض كلها بين يديه.. وطبعا كلاهما ربي على حب السلطة، وغذي بلبانها، فلذلك لم تسمح له بذلك.

وبعد أخذ ورد لم يجد الطرفان سوى أن يحضرا كل ما لديهما من جند، ويقوما بتجنيد إجباري للرعية، ويشكلا من خلال ذلك كله جيوشا قوية، ليحارب بعضهما بعضا.. ويتفرج حينها الفرنجة وغيرهم على الأسرة المتصارعة، ويفرحون كثيرا، ويقومون بكل التحضيرات التي توفر لهم القدرة على اختراق العالم الإسلامي وحربه.

ولم تكن الحرب الدائرة بين أعضاء الأسرة المشؤومة يوما أو يومين.. بل استمرت خمس سنوات كاملة.. حصد فيها الكثير من الضحايا.. وقتل فيها الكثير من الأبرياء.

بربكم.. من يمكن اعتباره المتسبب في هذا الخراب والدمار وسفك الدماء؟.. أليس ذلك الوالد الذي تعتبرونه رشيدا، بينما هو السفه بعينه؟.. وهل الدولة الإسلامية قطعة حلوى حتى يقسمها بين أولاده؟.. وهل كان ما فعله بسيطا إلى الدرجة التي نعتبرها مجرد سلبية بسيطة من سلبياته، أم أنها الطامة الكبرى التي كانت سببا بعد ذلك في تخلف المسلمين، وطمع غيرهم فيهم؟.. وهو ما حصل بعد ذلك، وبعد فترة قصيرة جدا.

المشكلة في أن هؤلاء الذين يدافعون عن أمثال هؤلاء المجرمين هو عدم قراءتهم الواقعية للقرآن.. هم يقرؤون حروفه دون معانيه، ولو أنهم طبقوا ما قرؤوا عما حصل لبني إسرائيل، وأسقطوه على ما حصل في عهد هارون.. لوجدوا المسلمين حينها لم يكونوا سوى بني إسرائيل..

فقد قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84)

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: 84، 85]

أليس هذا نفسه ينطبق على هذه الأمة؟.. بل إن القتلى الذين قتلوا في عهد الأسرة المشؤومة لا يمكن مقارنته بقتلى بني إسرائيل.. فهل فتح المسلمون فارس والروم من أجل أن يعرضوا عليها الإسلام، أم من أجل أن يستخدموا أهلها وقودا لحروبهم الأهلية، وصراعاتهم العشائرية التي أحيوا بها داحس والغبراء؟

سأقص عليكم القصة كما ذكرها المؤرخون الذين تعتبرونهم.. وفكروا في أنفسكم قبل أن تقوموا بأي دفاع عن الظلمة.. ولا تنسوا أن تعتبروا، فالتاريخ كله عبر..

وبداية أذكر أن هذه الحرب الأهلية التي تسبب فيها هارون.. تسمى في التاريخ الإسلامي باسم [الفتنة الرابعة] أو [الحرب الأهلية العباسية الكبرى]، ويذكرون ـ باتفاقهم جميعا ـ أن سببها ليس الروافض المجوس، ولا ابن سبأ، ولا ابن العلقمي، ولا نصير الدين الطوسي، وإنما هو هارون الذي تسمونه رشيدا.

فقد ذكروا أن تلك الحرب الطويلة كانت بسبب النزاع بين الأخوين الأمين والمأمون على خلافة العرش العباسي، ذلك أن والدهما هارون الذي يطلق عليه لقب الرشيد، كان (قد اختار الأمين كأول خليفة له، لكنه أيضاً اختار المأمون كخليفة ثاني ومنحه خراسان كإقطاعية، بينما ابنه الثالث، القاسم، خليفة ثالث، من غير أن يحسب حسابا للعواقب التي تنجر وراء هذا التقسيم) (1)

وبعد وفاة هارون، حصل النزاع بين الأخوين.. وبدأ على شكل

(1) في التاريخ العباسي والأندلسي: أحمد مختار العبادي، دار النهضة، ص88.

مراسلات وسفارات متبادلة بين الأخوين حول مشكلة العهد المعلق في الكعبة، والذي كتبه هارون، وضمنه ذلك التقسيم المشؤوم.

وما لبثت تلك المراسلات أن تحولت إلى مناوشات، ففي أوائل سنة 195 هـ أمر الأمين بوقف الدعاء للمأمون وأعلن البيعة لابنه موسى، ولقبه بالناطق بالحق، ونقش اسمه على السكة وكان هذا بمثابة خلع المأمون، ثم بعث من سرق الكتابين بالكعبة وحرقهما، وأمام هذا الاعلان رأى المأمون أن يستعد للحرب فجهز جيشا كبيرا وحشده على حدود خراسان في منطقة الري، وولى عليه قائدين من أتباعه المخلصين وهما طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين الذي يرجع اليه الفضل في اعداد جيش المأمون اعدادا قويا، أما الأمين فقد اختار علي بن عيسى بن ماهان أحد كبار رجال الدولة الذي كان واليا على خراسان في عهد هارون.

تقدم ابن ماهان نحو الري لقتال طاهر بن الحسين دون أن يستعد له استعدادا كافيا وذلك لأنه كان يستهين بشأن طاهر لحداثته، وانتهت المعركة بانتصار جيش طاهر بن الحسين ومقتل علي بن عيسى بن ماهان سنة 195 هـ، حينها أرسل الأمين جيوشا أخرى عديدة إلى الري، ولكن مصيرها كان الهزيمة إلى الدرجة التي استنفذت هذه الجيوش موارد الأمين فلم يستطع تحريك جيوشا أخرى [1].

وهنا تحولت الحرب من مداخل خراسان إلى مداخل العراق، حيث تقدم الجيش الخراساني نحو بغداد، واتفق طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين على أن يقوم الأول بمهاجمة بغداد من الغرب بينما يهاجمها الثاني من ناحية الشرق، وتقدم الجيشان حتى بلغا أرباض بغداد حيث حدثت معارك مختلفة بين قوات الأمين وقوات المأمون ولم يكن جيش الأمين قويا كما لم يكن قواده في حالة معنوية عالية، فقد استمالت قوات المأمون بعض قادة جيش الأمين بالهدايا والهبات فانضموا اليه واحدا بعد الاخر.

---

[1] المرجع السابق، ص97.

غير أن الذين قاوموا هذا الحصار هم أهل بغداد وبالأخص [جماعة العيارين] أو الفتيان وهي مجموعة من الناس كان أغلبهم من أبناء الأسر الفقيرة، وقد دافع العيارون عن بغداد (ببسالة نادرة وضربوا أمثلة رائعة في الصمود والشجاعة، وعلى الرغم من مقاومة هذه المجموعة، فقد استطاعت جيوش المأمون أن تضرب حصارا على حول بغداد، فاشتد الجوع بالأهالي لدرجة أن الأمين صرف كل ما لديه من أموال على جنوده واضطر إلى طلب الأمان والتسليم)[1]

و(فضل الأمين أن يسلم نفسه للقائد هرثمة لكبر سنه من جهة ولقسوة طاهر بن الحسين من جهة أخرى، وخرج الأمين وأتباعه عابرين نهر دجلة في سفينة صغيرة لم تلبث بفعل الزحام أو بفعل طاهر أن انقلبت واستطاع الأمين أن يسبح إلى الشاطيء وهناك أسره الجنود الخراسانيون وقتلوه بأمر من طاهر، وبذلك تنتهي خلافة الأمين، وتولى المأمون الخلافة) [2]

ليست الحرب بهذه الصورة البسيطة التي اختزلناها في هذه الفقرات، نقلا عما ذكره المؤرخون المعاصرون، بل إن المؤرخين ذكروا مآسي كثيرة حصلت فيها، حتى أن بعض المعاصرين من الذين يمجدون هارون، ويعتبرونه من أبطال الإسلام قال في مقال له عن الأمين بن هارون: (كان محمد الأمين ضحية فتنة من أكبر الفتن التي شهدها التاريخ الإسلامي على مر العصور، وهي ثالث فتنة يتعرض لها المسلمون بعد الفتنة الكبرى، التي ثارت في عهد الخلفاء الراشدين، والتي انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان، وكانت الفتنة الثانية في عهد الأمويين، وذلك بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان.. فقد سقط محمد الأمين ضحية نظام ولاية العهد الثنائي، الذي ذهب ضحيته الخليفة الوليد من قبل، وكانت النتيجة واحدة في الحالتين: حياة قلقة مضطربة لخليفة مضطهد، تنتهي بصورة درامية مفزعة بحز رأسه، ثم لا يبقى من ذكراه سوى

1() المرجع السابق، ص98.

2() المرجع السابق، ص100.

سطور مبهمة وأقوال متضاربة في سجل التاريخ)[1]

وللأسف، فإن هذا الباحث آلمه أن يحز رأس الأمين من طرف أخيه، ولم يؤلمه تلك الرؤوس الكثيرة التي حزت على مدى خمس سنوات، والتي كان سببها الأخوان المتقاتلان، وكان سببها قبل ذلك أب سفيه راح يتلاعب برؤوس رعيته، كما تلاعب قبل ذلك بأموالها.

وسنورد هنا بعض المشاهد البسيطة من تلك الحرب، ومن خلال كتاب الذهبي المسمى للأسف [تاريخ الإسلام]، وإن كان الأولى أن يسميه [تاريخ المستبدين]

ومن تلك المشاهد مشهد التجنيد الإجباري والحيل المستعملة لتحريض المسلمين بعضهم على بعض، وهو نفس ما نراه في الواقع اليوم؛ فقد ذكر الذهبي أنه كان (في حبس الرشيد عبد الملك بن صالح بن علي، فأطلقه الأمين وقربه، فدخل عليه هذه الأيام، وقال: يا أمير المؤمنين إني أرى الناس قد طمعوا فيك، وقد بذلت سماحتك، فإن بقيت على أمرك أبطرتهم، وإن كففت عن البذل أسخطتهم، ومع هذا فإن جندك قد داخلهم الرعب وأضعفتهم الوقائع، وهابوا عدوهم، فإن سيرتهم إلى طاهر غلب بقليل من معه كثيرهم، وأهل الشام قوم قد ضرستهم الحروب، وأدبتهم الشدائد، وجلهم منقاد لي مسارع إلى طاعتي، فإن وجهتني أتخذت لك منهم جندا تعظم نكايته في عدوه)[2]

وبعد أن قال له هذا ولاه الأمين الشام والجزيرة، و(استحثه بالخروج، فلما بلغ الرقة أقام بها، وأنفذ رسله وكتبه إلى رؤساء الأجناد بجمع الأمداد والرجال والزواقيل والأعراب من كل فج، وخلع عليهم، ثم إن بعض جنده الخراسانية نظر إلى فرس كانت أخذت منه في وقعة سليمان بن أبي جعفر بالشام تحت بعض

1() محمد الأمين ضحية الفتنة الثالثة (في ذكرى توليه الخلافة 3 من جمادى الآخرة 193 هـ)، سمير حلبي، موقع إسلام أون لاين..

2() تاريخ الإسلام (4/ 1040)

الزواقيل، فتعلق بها، فتنازعا الفرس، واجتمعت الناس وتلاحموا، وأعان كل فئة صاحبها، وتضاربوا بالأيدي، فاجتمعت بعض الأبناء إلى محمد بن أبي خالد الحربي، فقالوا: أنت شيخنا، وقد ركب الزواقيل منا ما سمعت، فاجمع أمرنا وإلا استذلونا، فقال: ما كنت لأدخل في شغب، ولا أشاهدكم على مثل هذه الحال، فاستعد الأبناء، وأتوا الزواقيل وهم غارون، فوضعوا فيهم السيف، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فتنادى الزواقيل، ولبسوا لأمة الحرب، وشبت الحرب بينهم، فوجه عبد الملك رسولا يأمرهم بالكف، فرموه بالحجارة، وكان عبد الملك مريضا مدنفا، فقال: واذلاه! تستضام العرب في دورها، وبلادها وتقتل؟! فغضب من كان أمسك عن الشر من الأبناء، وتفاقم الأمر)(1)

ثم ذكر كيف (قام بأمر الأبناء الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، وأصبح الزواقيل وقد جيشوا بالرقة، واجتمع الأبناء والخراسانية بالرافقة، وقام رجل من أهل حمص، فقال: يا أهل حمص، الهرب أهون من الغضب، والموت أهون من الذل، النفير النفير قبل أن ينقطع الشمل ويعسر المهرب، ثم قام آخر من كلب فقال نحو ذلك، فسار معه عامة أهل الشام، وتفللوا.. ثم حمل هو وأصحابه، فقاتل قتالا شديدا، وكثر القتل والبلاء في الزواقيل، وحملت الأبناء فانهزمت الزواقيل) (2)

ومن مشاهد تلك الحرب ما ذكره في أحداث سنة 197 هـ، فقال: (وفيها نزل زهير بن المسيب الضبي بكلواذا، ونصب المجانيق، واحتفر الخندق، وجعل يخرج في الأوقات عند اشتغال الجند بحرب طاهر، فيرمي بالمجانيق والعرادات من أقبل وأدبر، ويعشر أموال التجار، وجعل يؤذي المسلمين، فأتوا طاهرا يشكون منه، وبلغ ذلك هرثمة بن أعين، فأمده بالجنود، ثم نزل هرثمة نهر تير وبنى عليه حائطا وخندقا، وأعد المجانيق، وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية، ونزل طاهر بن الحسين البستان الذي بباب

---

(1) المرجع السابق، (4/ 1041)

(2) المرجع السابق، (4/ 1041)

الأنبار، فضاق الأمين ذرعا، وتفرق ما كان في يده من الأموال العظيمة، فأمر ببيع ما في الخزائن من الأمتعة، وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم لينفقها، ثم أمر برمي الحربية بالنفط والمجانيق، وهلك جماعة، وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسن بغداد، وعملت فيها المراثي، ولم يزل طاهر مصابرا للأمين وجنده، حتى مل أهل بغداد قتاله، فاستأمن إلى طاهر الموكلون للأمين بقصر صالح، وسلموا إليه القصر بجميع ما فيه في جمادى الآخرة في منتصفه، ثم استأمن إلى طاهر صاحب شرطة الأمين محمد بن عيسى، فضعف ركن الأمين واستسلم. وقتل داخل قصر صالح: أبو العباس يوسف بن يعقوب الباذغيسي، وجماعة من القواد، وقتل خلق من أصحاب طاهر، ثم لحق بطاهر عبد الله بن حميد الطائي، وإخوته، وابن الحسن بن قحطبة، ويحيى بن علي بن ماهان، ومحمد بن أبي العباس الطائي، وكاتبه قوم في السر من العباسيين، ولما كانت وقعة يوم قصر صالح أقبل محمد على اللهو والشرب، ووكل الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الهرش، فأقبل أصحاب الهرش يؤذون الرعية وينهبونهم، فلجأ خلق ونزحوا إلى طاهر، فرأوا من أصحابه الأمن والخير، وبقي الناس في بغداد بأسوأ حال، وطال الأمر) [1]

ومن مشاهد تلك الحرب ما ذكره الطبري من سوء الحال وصل بالأمين ـ لاحظوا جيدا هذا اللقب الذي أطلق عليه ـ احترف السلب والنهب مستعينا بالحسن الهرش زعيم قطّاع الطرق أو العيارين، فقد قال في ذلك: (وذكر عن عمرو بْن عبد الملك أن محمدا أمر زريحا غلامه بتتبع الأموال وطلبها عند أهل الودائع وغيرهم، وأمر الهرش بطاعته، فكان يهجم على الناس في منازلهم، ويبيتهم ليلا، ويأخذ بالظنة، فجبى بذلك السبب أموالا كثيرة، وأهلك خلقا، فهرب الناس بعلة الحج، وفر الأغنياء، فقال القراطيسي في ذلك:

أظهروا الحج وما ينوونه.. بل من الهرش يريدون الهرب

كم أناس أصبحوا في غبطة.. وكل الهرش عليهم بالعطب

[1] المرجع السابق، (4/ 1046)

كل من راد زريح بيته.. لقى الذل ووافاه الحرب [1]

إلى آخر ما ذكـره من أحـداث.. وهي كثـيرة جـدا، وقـد عـبر بعضهم عن بعض ما حددث حينذلك شعرا، فقال[2]:

بكيت دما على بغداد لما.. فقدت غضارة العيش الأنيق

أصابتها من الحساد عين.. فأفنت أهلها بالمنجنيق

وعبر آخر عن تلك المشـاركة العامـة في الحـرب، والـتي لم تقتصر على الجند؛ فقال[3]:

خرجت هذه الحروب رجالا.. لا لقحطانها ولا لنزار

معشرا في جواشن الصـوف يغـدو.. ن إلى الحـرب كالأسـود الضواري

وعليهم مغـافر الخـوص تجزيــ.. ــهم عن الـبيض والـتراس البواري

ليس يدرون ما الفرار إذا الأبـ.. ـطال عاذوا من القنا بالفرار

واحد منهم يشد على ألـ.. ـفين عريان ما له من إزار

كم شريف قد أخملته وكم قد.. رفعت من مقامر عيار

هذه مجرد مشاهد عن تلك الحرب الدامية الـتي تسـبب فيهـا موقف واحد من مواقف هارون، وللأسف فإن ذلك الموقـف علـق على جدار الكعبة.

وللأسف، فإن الغارقين في أوحال الطائفيـة من المعاصـرين لم يرجعوا السبب فيها لسفه هارون، وعدم معرفته بعـواقب ذلـك

---

[1] تاريخ الطبري، (8/ 463)

[2] المرجع السابق، (4/ 1046)

[3] المرجع السابق، (4/ 1047)

التوريث الخطير، وإنما أرجعوا سببه للروافض المجوس ــ كما يسمونهم ـ لأنهم وحدهم المتآمرون على الإسلام، فقد قال في مقال له بعنوان [بين الأمين والمأمون وسقوط بغداد] في أكبر موقع من مواقع السلفية: (تجدُّ فتنة السبئية بكيدها حتى توقع بين الأخوين الأمين والمأمون فتشتعل الحرب بينهما، وتحمل السبئية سلاحها ضد الأمين؛ لأنه عربي خالص، أما المأمون ففيه شائبة، ثم إنه مضيع الفكر واليقين بثقافة غير إسلامية، فهو إذن صيد ثمين يسهل عليهم صيده، وتحصد نار الحرب آلاف القرابين من العرب وتقضى على الأمين، غير أن المنهزمين والمنتصرين من العرب يتناسون جراح المعركة وآلامها ويقفون دون المأمون يذودون عنه السبئية حتى لا تطبق عليه بكل مكائدها)(1)

5 ـ هارون.. والصراع مع غير المسلمين:

لم يكتف هارون بكل تلك الجرائم التي ارتكبها في حق الأمة التي ينتمي إليها، والتي كانت كافية لتشويه الإسلام، ووضع الحجب التي تحول دون الاقتناع به، وإنما راح يضيف إليها جرائم أخرى لا تقل عنها، وهي تلك المعاملة القاسية مع غير المسلمين سواء كانوا من الذين يقيمون ببلاد الإسلام، أو من الذين لا يقيمون خارجها.

وللأسف؛ فإن هذا الموقف الذي يخالف الشريعة التي أمرت المسلمين أن يكونوا شهداء على الناس بإعطائهم صورة حسنة عن الإسلام، لقي إعجابا كبيرا من كثير من العلماء ومن تبعهم من الدهماء المقلدين الذين نظروا إلى المسألة من باب عزة الإسلام، لا من باب الدعوة إليه.

ولو أنهم قرؤوا القرآن الكريم، لرأوا كيف أمر الله تعالى باستعمال كل الوسائل لتأليف قلوب غير المسلمين، حتى يكون ذلك مقدمة نفسية لهم للبحث في الإسلام، وربما الاقتناع به والدخول إليه، كما قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ

(1) بين الأمين والمأمون وسقوط بغداد، الشيخ عبدالرحمن الوكيل، موقع الألوكة، 10/11/1434 هـ.

يُقَــاتِلُوكُمْ فِي الــدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُــوكُم مِّن دِيَــارِكُمْ أَن تَبَــرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ إِنَّمَـا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَـاتَلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَأَخْرَجُـوكُم مِّن دِيَـارِكُمْ وَظَـاهَرُوا عَلَى إِخْـرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَـوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [سـورة الممتحنة: 8 - 9]

بل إن الله تعالى أعطى نصـيبا من الزكـاة للمؤلفـة قلـوبهم، فقـال: {إِنَّمَـا الصَّـدَقَاتُ لِلْفُقَـرَاءِ وَالْمَسَـاكِينِ وَالْعَـامِلِينَ عَلَيْهَـا وَالْمُؤَلَّفَـةِ قُلُـوبُهُمْ وَفِي الرِّقَـابِ وَالْغَـارِمِينَ وَفِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة:60)

وقد طبق رسول الله ﷺ هذه المعاملة الطيبة مع ألـد أعدائـه من المشركين أو المنافقين، وفي الفترة الـتي كـان فيهـا الإسـلام في أوج عزتـه، حـتى أن بعض المسـلمين تـأثر لـذلك، فقـال لهم رسـول اللـه ﷺ: (أترضـون أن يـذهب النَّاس بالشَّـاة والبعـير، وتذهبون بالنَّبيِّ ﷺ إلى رحالكم؟)[1]

لكن هـذه النصـوص جميعـا، لم تُعتـبر أثنـاء دارسـة التـاريخ، وتقييم الشخصيات التاريخية، بـل إن الثنـاء كـان أعـرض على من اسـتعمل كـل الوسـائل للإسـاءة لغـير المسـلمين بحجـة العـزة الإسلامية، والتي تحولت بعد فـترة قصـيرة إلى ذلـة، عنـدما دخـل الصـليبيون والاسـتعمار إلى بلاد الإسـلام، وكـان في إمكـانهم ألا يدخلوا لو أن المسلمين عرفوا كيف يؤلفوا قلوبهم، ويطرحـوا لهم الإسلام بالصورة الجميلة التي ترغبهم فيه.

لكن للأسف لم يكن الأمر كذلك.. وما حصل في عهد هـارون وصراعه مع غير المسلمين، سواء في بلاد الإسلام أو غيرهـا أكـبر شاهد على ذلك..

أما صراعه مع غير المسلمين في بلاد الإسلام، فقد عـبر عن بعض مظاهره ابن القيم في كتابه الذي خصصه لفقـه أهـل الذمـة وتاريخهم، عندما ذكر معاملة هارون لهم، وأثنى عليها، بل اعتبرهـا نموذجا لتطبيق الحكم الشرعي في حقهم، فقد روى عن الحسـن

[1] () رواه البخاري 8/ 37 - 42، ومسلم رقم (1061)

البصري قولـه: (من السـنة أن تهـدم الكنـائس الـتي في الأمصـار القديمة والحديثة)، ثم علق عليه بقولـه: (وكـذلك هـارون الرشـيد في خلافته أمر بهدم ما كان في سواد بغداد)(1)

ثم اعتبر ذلك سنة من السنن التي طبقها الخلفاء الصالحون، والذين سماهم بقوله: (فصل في حال خلفاء المسـلمين مـع أهـل الذمة، ودرج على ذلك الخلفـاء الـذين لهم ثنـاء حسـن في الأمـة، كعمـر بن عبـد العزيـز والمنصـور والرشـيد والمهـدي والمـأمون والمتوكل والمقتدر)(2)

ومع كون هذه السلوكات مخالفة لما ورد في القرآن الكـريم الذي أشار إلى حرمة المعابد التي يتخذها أهل الديانات المختلفـة، فقال: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُـدِّمَتْ صَـوَامِعُ وَبِيَـعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُـذْكَرُ فِيهَـا اسْـمُ اللَّهِ كَثِـيرًا وَلَيَنْصُـرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُـرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيـزٌ } [الحج: 40] إلا أنهم يصـورون أن الأمر اختلف بعد التوسع العسـكري الإسـلامي، وأن الإسـلام صـار عزيزا، يعلو ولا يعلى عليه.

وبناء على هـذا أفـتى ابن القيم وابن تيميـة وغيرهمـا بحرمـة بناء الكنـائس، وعـدم تمكين المسـيحيين من بنـاء الجديـد، بـل ولا ترميم القديم، ولعل أهم وثيقـة تـدل على هـذا، بـل تضـع خارطـة للكنائس التي يجب هدمها في القاهرة أو في الشام أو في غيرهـا من البلاد رسـالة لابن تيميـة تحت عنـوان (مسـألة في الكنـائس)، أجاب فيها على سؤال هـذا نصـه: (مـا تقـول السـادة العلمـاء في الكنائس التي بالقاهرة وغيرها الـتي أغلقت بـأمر ولاة الأمـور، إذا ادعى أهـل الذمـة: أنهـا غلِّقت ظلمـاً، وأنهم يسـتحقون فتحهـا، وطلبـوا ذلـك من ولي الأمـر.. فهـل تقبـل دعـواهم؟ وهـل تجب

---

(1) أحكام أهل الذمة (3/ 1194)

(2) المرجع السابق،(1/ 456)

إجابتهم أم لا؟!)[1]

وقد أجاب ابن تيمية على هذه المسألة بقوله: (أما دعواهم أن المسلمين ظلموهم في إغلاقها فهذا كذبٌ مخالفٌ لأهل العلم، فإن علماء المسلمين من أهل المذاهب الأربعة: مذهب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وغيرهم من الأئمة، كسفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وغيرهم، ومن قبلهم من الصحابة والتابعين، متفقون على أن الإمام لو هدم كل كنيسةٍ بأرض العنوة كأرض مصر والسواد بالعراق، وبر الشام ونحو ذلك، مجتهدًا في ذلك، ومتبعًا في ذلك لمن يرى ذلك، لم يكن ذلك ظلماً منه؛ بل تجب طاعته في ذلك.. وإن امتنعوا عن حكم المسلمين لهم، كانوا ناقضين العهد، وحلت بذلك دماؤهم وأموالهم) [2]

وهذا ما أكده ابن القيم في كتابه عن أحكام أهل الذمة، فقد قال: (كل كنيسة في مصر والقاهرة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد ونحوها من الأمصار التي مصرها المسلمون بأرض العنوة فإنه يجب إزالتها إما بالهدم أو غيره، بحيث لا يبقى لهم معبد في مصر مصره المسلمون بأرض العنوة، وسواء كانت تلك المعابد قديمة قبل الفتح أو محدثة؛ لأن القديم منها يجوز أخذه ويجب عند المفسدة، وقد نهى النبي ﷺ أن تجتمع قبلتان بأرض فلا يجوز للمسلمين أن يمكنوا أن يكون بمدائن الإسلام قبلتان إلا لضرورة كالعهد القديم، لا سيما وهذه الكنائس التي بهذه الأمصار محدثة يظهر حدوثها بدلائل متعددة، والمحدث يهدم باتفاق الأئمة.. وأما الكنائس التي بالصعيد وبر الشام ونحوها من أرض العنوة، فما كان منها محدثا وجب هدمه، وإذا اشتبه المحدث بالقديم وجب هدمهما جميعا؛ لأن هدم المحدث واجب وهدم القديم جائز، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.. وما كان منها قديما فإنه يجوز

[1] () مسألة في الكنائس، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق : علي بن عبدالعزيز الشبل، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة: الأولى 1416هـ، (ص: 99)

[2] () المرجع السابق، (ص: 102)

هدمه ويجوز إقراره بأيديهم، فينظر الإمام في المصلحة: فإن كانوا قد قلوا والكنائس كثيرة أخذ منهم أكثرها، وكذلك ما كان على المسلمين فيه مضرة فإنه يؤخذ أيضا، وما احتاج المسلمون إلى أخذه أخذ أيضا)(1)

ثم لخص هذه الأحكام بقوله: (فإذا عرف أن الكنائس ثلاثة أقسام: منها ما لا يجوز هدمه. ومنها ما يجب هدمه - كالتي في القاهرة مصر والمحدثات كلها - ومنها ما يفعل المسلمون فيه الأصلح كالتي في الصعيد وأرض الشام)

وهذه النصوص والتفاصيل الكثيرة اللاحقة لها تجعل المواطن المسيحي في البلاد الإسلامية بين أمرين: إما أن يبقى محروما من محال للتعبد طول حياته، أو القتل، ذلك أنه يستحيل أن تفي المعابد القديمة قبل الإسلام بالعدد الكثير من المتدينين من المسيحيين أو غيرهم، بالإضافة إلى أن في القول بحرمة ترميم القديم من المعابد يجعل أهل الديانات أخرى في بلاد الإسلام محرومين من كل مكان للتعبد، لأنه يستحيل بقاء المعابد القديمة قبل الإسلام إلى اليوم من غير حاجة إلى ترميم.

وأمثال هذه الفتاوى هي التي تنطلق منها بعض الجماعات المسلحة في هدم الكنائس المسيحية كما حصل ذلك في مصر ونيجيريا وبلاد أخرى كثيرة، وهو أعظم تشويه لسماحة الإسلام، وأعظم خدمة للعلمانيين الذين لا يرون صلاحية الإسلام للحكم.

ولم يكتف هارون بذلك، وإنما راح يتدخل في شؤون المسيحيين وغيرهم الشخصية، وقد وصل الأمر إلى اللباس الذي يلبسونه، وقد أثنى عليه بسبب هذا الموقف المخالف للإسلام ابن القيم، فقال ـ في فصل تحت عنوان [فصل هارون الرشيد وأهل الذمة] ـ: (وأما هارون الرشيد؛ فإنه لما قلد الفضل بن يحيى أعمال خراسان، وجعفرا أخاه ديوان الخراج، أمرهما بالنظر في مصالح المسلمين، فعمرت المساجد والجوامع والصهاريج والسقايات، وجعل في المكاتب مكاتب لليتامى، وصرف الذمة

---

(1) أحكام أهل الذمة،(3/ 1195)

عن أعمـــالهم، واســـتعمل المســـلمين عوضـــا منهم، وغـــير زيهم ولباسهم وخرب الكنائس، وأفتاه بذلك علماء الإسلام)[1]

وللأسف، فإن الـدليل الـذي تعتمـد عليـه تلـك الفتـاوى الـتي استحل بها هارون تلك الجرائم في حــق المســيحيين وغــيرهم من الذين أمرنا بالإحسان إليهم وتأليف قلوبهم، هي [عـزة المسـلمين وعلوهم]، أو كما عبر ابن القيم عن ذلـك؛ فقـال: (والـذي تقتضـيه أصول المذهب وقواعد الشرع أنهم ـ أي المسيحيون ـ يمنعون من سـكنى الـدار العاليـة على المسـلمين بإجـارة أو عاريـة أو بيـع أو تمليك بغير عوض، فإن المانعين من تعليـة البنـاء جعلـوا ذلـك من حقـوق الإسـلام واحتجـوا بالحـديث وهـو قولـه: (الإسـلام يعلـو ولا يعلى)[2] [3]

ولسنا ندري علاقة الحديث الشريف بالموضوع، فالحديث دل على علـــو المســـلم، وهـــذا العلـــو يـــدل على المعـــاني لا على المحسوسات، فالمسلم يعلو بخلقه وعلمـه وتفكـيره ومنهجـه في الحياة، لا بالتطاول بالبنيان على غيره.

وللأسف نجد التطبيق الخاطئ لهذا الحديث ساريا في الكثـير من المسـائل حـتى في المجـالس الـتي يجلسـون فيهـا، قـال ابن القيم: (واحتجوا بأن في ذلك إعلاء رتبة لهم على المسلمين وأهل الذمة ممنوعـون من ذلـك.. ولهـذا يمنعـون من صـدور المجـالس ويلجـؤون إلى أضـيق الطـرق فـإذا منعـوا من صـدور المجـالس والجلوس فيها عارض فكيـف يمكنـون من السـكنى اللازمـة فـوق رؤوس المسلمين) [4]

---

[1] () المرجع السابق،(1/ 464)

[2] () سنن الدارقطني، أبو الحسن علي البغدادي الدارقطني ، حققه وضبط نصـه وعلـق عليه: شعيب الارنؤوط، حسـن عبـد المنعم شـلبي، عبـد اللطيـف حـرز اللـه، أحمـد برهـوم، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م، ج4، ص371.

[3] () أحكام أهل الذمة (3/ 226)

وهكذا راح ابن القيم يبرر ما مارسه هارون من تعسف وظلم للمسيحيين، حتى في اختيار الألبسة التي يلبسونها، مع مناقضة ذلك لكل المصادر الشرعية، وقد نقل عن أبي القاسم الطبري قوله: (وجوب استعمال الغيار لأهل الملل الذين خالفوا شريعته صغارا وذلا وشهرة وعلما عليهم ليعرفوا من المسلمين في زيهم ولباسهم ولا يتشبهوا بهم)(1)

ومن مقتضيات هذا الغيار الذي هو نوع من التمييز العنصري منعهم من اللباس الطيب الجميل، فقال: (ولا يترك أهل الذمة يلبسون طيالسهم فوق عمائمهم، لأن هذا يفعله أشراف المسلمين وعلماؤهم للتمييز عمن دونهم في العلم والشرف وليس أهل الذمة أهلا لذلك فيمنعون منه)(2)

ومن مقتضياته أن (تكون نعالهم مخالفة لنعال المسلمين ليحصل كمال التمييز وعدم المشابهة في الزي الظاهر ليكون ذلك أبعد من المشابهة في الزي الباطن فإن المشابهة في أحدهما تدعو إلى المشابهة في الآخر بحسبها وهذا أمر معلوم بالمشاهدة)(3)

ومن مقتضياته ما نقله ابن القيم عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أمصار الشام: (لا يمشي نصراني إلا مفروق الناصية ولا يلبس قباء ولا يمشي إلا بزنار من جلد ولا يلبس طيلسانا ولا يلبس سراويل ذات خدمة، ولا يلبس نعلا ذات عذبة ولا يركب على سرج ولا يوجد في بيته سلاح إلا انتهب ولا يدخل الحمام يوم الجمعة يهودي ولا نصراني حتى تصلى الجمعة)(4)

4() المرجع السابق، (3/ 226)

1() المرجع السابق،(3/ 249)

2() المرجع السابق،(3/ 262)

3() المرجع السابق،(3/ 257)

أما المـرأة، فينقـل ابن القيم عن أبي القاسـم الطـبري هـذا الاجتهاد الغريب، الذي عـبر عنـه بقولـه: (وأمـا المـرأة إذا خـرجت فيكون أحد خفيها أحمر حتى يعرف بأنها ذمية)(1)

بل إن الأمر لم يقتصر على الشروط المرتبطة باللبـاس، بـل تعداه إلى شؤون خاصة جدا كتسريحة الشعر، فقد عقـد ابن القيم فصلا حول أحكام شعر أهل الذمة جـاء فيـه: (والمقصـود أن أهـل الذمـة يؤخـذون بتميـيزهم عن المسـلمين في شـعورهم إمـا بجـز مقادم رؤوسهم وإما بسدلها، ولو حلقوا رؤوسـهم لم يعـرض لهم)(2)

هذا نمـوذج عن المظـالم الـتي اتفـق على تشـريعها الحكـام المسـتبدون، مـع أعـوانهم من الفقهـاء، والإسـلام بـريء منهـا، فالإسـلام دين السـماحة والسـلام والقيم الرفيعـة، ويسـتحيل أن يفـرض مثـل هـذه الأحكـام الجـائرة، الـتي لا تختلـف عن أنظمـة التمييز العنصري.

ولم يكتف هارون بذلك أيضا، بل راح إلى غير المسـلمين في البلاد غـير الإسـلامية يعلن عليهم الحـرب، ويملـؤهم حقـدا على المسلمين والإسلام.

وربما يعرف الكثـير من النـاس مـا يـذكره الخطبـاء وغـيرهم بفخر واستعلاء، من أن من حسنات هـارون أنـه كـان يغـزو عامـا، ويحج عاما، ولم يسألوا أبدا من يغـزو، ولمـاذا يغـزو، وهـل الأصـل في الإسـلام السـلم أم الحـرب، وهـل الحـاكم الصـالح هـو الـذي يسعى لحل المشاكل بينه وبين الـدول الأخـرى بالسـلم، أم الـذي يعتمد على العنف؟

وسأنقل هنا حادثة ذكرها ابن كثير وغيره من المؤرخين، وهي

4() المرجع السابق،(3/ 254)

1() المرجع السابق،(3/ 269)

2() المرجع السابق،(3/ 261)

محل إعجاب الكثير من الناس، وخاصة أولئك الخطباء الذين يرددونها وهم في غاية النشوة والاستعلاء والكبرياء، فقد قال في تأريخه لأحداث 187 هـ: (وفيها نقضت الروم الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين، الذي كان عقده الرشيد بينه وبين رني ملكة الروم الملقبة أغسطة.. وذلك أن الروم عزلوها عنهم وملكوا عليهم النقفور، وكان شجاعا، يقال إنه من سلالة آل جفنة، فخلعوا رني وسملوا عينيها.. فكتب نقفور إلى الرشيد: (من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد إلي ما حملته إليك من الأموال وافتد نفسك به، وإلا فالسيف بيننا وبينك)؛ فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه، ولا يستطيع مخاطبته، وأشفق عليه جلساؤه خوفا منه، ثم استدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام)، ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئا كثيرا، وخرب وأحرق، فطلب نقفور منه الموادعة على خراج يؤديه إليه في كل سنة، فأجابه الرشيد إلى ذلك)[1]

فعند قراءة هذا النص برؤية قرآنية نشعر بألم كبير لذلك الطرح السيء للإسلام، والذي حوله من دين هداية إلى دين جباية؛ فالحاكم القوي ـ وفق هذا الدين الجديد ـ هو الذي يفرض الإتاوات على غير المسلمين، لا الذي يقدم لهم من المال والإعانات ما يؤلف به قلوبهم.

ذلك أن تلك الجزية التي فرضها هارون على الدول المجاورة له، لن تؤخذ من خزائن الملوك، وإنما تؤخذ من الرعية، ويقال لها حينها: إن هذه الضريبة ستؤخذ للمسلمين.. ولملك المسلمين

---

[1] البداية والنهاية، (10/ 209)

ليصل به الشعراء، ويشتري به الجواري.. فهل يمكن لهؤلاء الـذين تؤخذ منهم تلك الإتاوات الظالمة أن يبحثوا عن الإسلام، أو يفكروا في الدخول إليه؟.. وهل يمكن لأحد من الناس أن يقنعهم بعد ذلك بأن الإسلام دين سماحة ورحمة؟

وللأسف فإن هذا الموقف غير الشـرعي من هـارون، والـذي كان يأكل فيه أموال جيرانه بالباطل كان محل اسـتحباب وتعظيم، لا من عامة الناس فقط، بل من علمـاء المسـلمين أيضـا، ولسـت أدري كيـف يوفقـون بين هـذا وبين تلـك الـدعاوى العريضـة الـتي يعللون بها فرض الجزية، وأن القصد منها حمايـة أهـل الذمـة، مـع أن نقفورا ودولته لم يكونوا من أهل الذمة، ولم يكلف المسـلمون بحمايتهم.

وهؤلاء الذين يبررون موقف هارون ويفخرون بـه، لا يكتفـون بالفخر بتلك الرسالة البذيئة التي لا تمثل أخلاق المسـلمين، وإنمـا يفخرون أيضا بذلك التخريب الذي قـام بـه هـارون، وتلـك الغنـائم التي عاد بها، بما فيها اسـتعباده لابنـة ملكهـا، وضـمها إلى جواريـه ومحظياته؛ فهل هذا هو الإسلام؟.. وهل هـذا هـو الحـاكم المسـلم الذي يعد العدة، ويسير الجيوش ليحقق ذلك الهـدف الأعظم وهـو تخريب البلاد واستعباد العباد؟

لقد كان في إمكان هارون ـ لو كان رشيدا ـ أن يفتح صـفحة جديدة مع هذا الملك، أو الملكة الـتي قبلـه، ويـوفر لهم الخـدمات والإعانات التي تـتيح للمسـلمين الانتشـار بينهم للـدعوة إلى اللـه، والتعريف بالإسلام الإلهي، لكنه لم يفعل.. لأن ذلك لن يتيح له تلك الغنائم ولا تلك المحظيات والجواري.

وأحب أن أذكـر في الأخـير للـذين يفخـرون بتلـك الحادثـة، ويعتبرونها نموذجا للعـزة الإسـلامية أن يخففـوا من فـرحهم قليلا، ذلك أن ابن كثير نفسه بعد إيـراده للحادثـة قـال: (فلمـا رجـع من غزوته، وصار بالرقة نقض الكافر العهد وخان الميثاق، وكان الـبرد قد اشتد جدا، فلم يقدر أحد أن يجئ فيخبر الرشيد بـذلك لخـوفهم

على أنفسهم من البرد، حتى يخرج فصل الشتاء)[1]

وهكـذا لم تحقـق تلـك الغـزوة أهـدافها.. لكن هـارون حقـق أهدافه.. فهو لم يذهب إلى هناك إلا لأجل تلك الأموال، ومعها تلك المحظيات.. وهذا ما يفسر لنا سر الغـزوات الـتي كـانت مفتوحـة دائما.

6 ـ هارون.. والصراع مع القيم:

بالإضـافة إلى كـل مـا سـبق؛ فـإن أخطـر جريمـة لهـارون ونظرائه من المستبدين تلك الصـورة المشـوهة الـتي صـوروا بهـا الشخصية الإسلامية؛ والتي تبعهم فيها للأسـف الكثـير من العلمـاء والوعاظ الذين اعتبروه قدوة ونموذجا مع ما مارسه في حياته من جرائم أصابت الإنسانية جميعا، ابتداء من المسلمين.

ومن الأمثلـة على ذلـك أنـك إذا ذكـرت لأحـدهم تلـك الفتنـة الكبرى التي أوقعها في الأمة بسبب تقسـيمه البلاد الإسـلامية بين أولاده، والتي انجر عنها حرب أهلية طويلة حصدت أرواح عشـرات الآلاف من المسلمين، صادر على المطلوب، وراح ردد عليك بكـل برودة ما قاله الشيخ ابن جبرين في فتاواه ـ عندما سئل عمـا ورد في كتب التـاريخ والأدب من لهـوه وشـربه الخمـر ــ: (هـذا كـذب صريح، وظلم قبيح، فإن هذا الخليفة من خيرة الخلفاء، وكـان يحج عامـاً، ويغـزو عامـاً، وقـد فتح اللـه في زمنـه الكثـير من البلـدان، واتسعت رقعة الإسلام، واستتب الأمن، وعم الرخاء، وكـثر الخـير، بما لا نظير له، ثم إن هذا الخليفة كان حسـن السـيرة والسـريرة، يجـالس العلمـاء، ويأخـذ منهم، ويسـمع المواعـظ ويبكي، ويخشـع ويكـثر العبـادة والتهجـد والقـراءة والـذكر، كمـا ذكـر في سـيرته المشهورة التي أفردت بالتـأليف، فأمـا هـذا الكتـاب فإنـه أكـاذيب مختلقة، لا حقيقة لها، وإنما لَفَّقَه شخص لا أمانـه لـه، وأراد بـذلك شغل الأمة عن واجباتها، وإضاعة الأوقات في قراءة أو سماع تلك الخرافات، فلا يغتر به) [2]

[1] المرجع السابق، (10/ 209)

أو ما ذكره قبله ابن خلدون عندما راح يستعمل كل الحيل ليكذب كل تلك الروايات التي تتحدث عن انحرافاته الأخلاقية مع كثرتها، ومع كونها من نفس المصادر التي يستند إليها في إثبات صلاحه، مختصرا دفاعه فيما روي من روايات تدل على عبادته، من غير أن يعرض لمن قتلهم من الصالحين، ولا لما سببه في الأمة من بعده من فتن، يقول في ذلك: (وأمّا ما تموّه له الحكاية من معاقرة الرّشيد الخمر واقتران سكره بسكر النّدمان فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء، وأين هذا من حال الرّشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدّين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السّماك والعمريّ ومكاتبته سفيان الثّوريّ وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكّة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصّلوات وشهود الصّبح لأوّل وقتها. حكى الطّبريّ وغيره أنّه كان يصلّي في كلّ يوم مائة ركعة نافلة، وكان يغزو عاما ويحجّ عاما ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرّض له بمثل ذلك في الصّلاة لمّا سمعه يقرأ، { وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي } [يس: 22]، وقال والله ما أدري لم؟ فما تمالك الرّشيد أن ضحك ثمّ التفت إليه مغضبا، وقال: يا ابن أبي مريم في الصّلاة أيضا إيّاك إيّاك والقرآن والدّين ولك ما شئت بعدهما)(3)

وهكذا راح يستدل بأمثال هذه الروايات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولكنه بعد أن وجد نفسه غير قادر على رد تلك الروايات الكثيرة في معاقرة الخمر، راح يدافع عنه بقوله: (إنّما كان الرّشيد يشرب نبيذ التّمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة، وأمّا الخمر الصّرف فلا سبيل إلى اتّهامه بها، ولا تقليد الأخبار الواهية فيها فلم يكن الرّجل بحيث يواقع محرّما من أكبر الكبائر عند أهل الملّة، ولقد كان أولئك القوم كلّهم بمنحاة من ارتكاب السّرف والتّرف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدّين الّتي

---

(2) فتاوى إسلامية: (4/487)

(3) تاريخ ابن خلدون (1/ 24)

لم يفارقوها بعد فما ظنّك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن الحلّة إلى الحرمة) (1)

ونحن لا يعنينا صدق تلك الروايات ولا كذبها، ولو أنه بدأ خلافته سكرانا، وانتهى بها كذلك، لما اعتنينا به واهتممنا له، بل ربما مدحنا ذلك فيه باعتباره صارفا له عن دماء المسلمين وغيرهم، والتي أزهق عشرات الآلاف منها بغير حق.

وللأسف تناسى ابن خلدون وابن جبرين وعشرات بل مئات العلماء الذين دافعوا عنه ـ عند إيرادهم للروايات الدالة على عبادته ـ أحكام وفتاوى رسول الله ﷺ في هذا الشأن، فقد ورد في الحديث أنه قيل له ﷺ: (يا رسول الله، إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها)، قال: (هي في النار)، فقيل له: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها، قال:(هي في الجنة)(2)

فرسول الله ﷺ لم يكتف من الحكم على الشخصية المسلمة من خلال تلك الممارسات التعبدية، ولا من خلال ذلك الخشوع الكاذب، وإنما حكم عليها من خلال سلوكها في حياتها، بل اعتبر ﷺ مجرد إذيتها لجيرانها بلسانها سببا لدخول النار، فكيف بمن يقتل الآلاف وعشرات الآلاف.. ويقتل الصالحين بدم بارد، ويتلاعب بأموال المسلمين، ويقف حجابا بين غير المسلمين والإسلام.

وهكذا تراهم يذكرون غزواته وكثرتها، ويعتبرونها من دلائل صلاحه، ولست أدري هل قاموا بدراسة لتلك الغزوات وفق المعايير الشرعية، أم أنهم اكتفوا بكونه يقتل غير المسلمين، وكأن المسلمين طولبوا بقتل غيرهم، ولم يطالبوا بدعوتهم إلى

1() المرجع السابق، (1/ 24)

2() قال المنذري في الترغيب (2/ـ 356) وقال: رواه أحمد والبزار وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ورواه أبو بكر بن أبي شيبة. وقال بإسناد صحيح أيضا..

الدين الحق، وإعطائهم النموذج الصالح عنه.

ومع ذلك، فإنهم لـو عـادوا للسـنة المطهـرة، وقـرأوا مـا ورد فيها من حكمه ﷺ على ذلك الرجل الذي غـل الشـملة، لكفـوا من ذلك المديح الكاذب؛ فقد قال ﷺ مخاطبا من شهد له بالجنة، وراح يهنئه بها، معتبرا إياه شهيدا: (كلا! والذي نفسي بيـده، إن الشـملة التي أخـذها يـوم خيـبر من المغـانم لم تصـبها المقاسـم: لتشـتعل عليه نارًا)، وعندما سمع ذلـك النـاس، جـاء رجـل منهم بشـراك أو شراكين إليه ﷺ،فقال: (شراك من نار، أو شراكان من نار)[1]

وهكذا نجد النصوص المقدسة ترسم صورة أخرى للشخصـية الإسلامية غير تلك الصورة التي يعرضها أصحاب الملك العضـوض، والذين تصوروا أنه يكتفى من المسـلم بـدموع يجريهـا، أو ركعـات يصليها.

ولهذا اعتبر ﷺ سلوك المؤمن مع إخوانه والبشرية هو المعبر عن حقيقة إيمانه، فقال: (والله لا يـؤمن، واللـه لا يـؤمن، واللـه لا يـؤمن). قيـل: ومن يـا رسـول اللـه؟ قـال: (الـذي لا يـأمن جـاره بوائقه)[2]

وفي حديث آخر حذر ﷺ من تلـك الفئـة الـتي تهتم بالشـعائر التعبدية، وتمارس معها كل ألوان الموبقات، وهو ما ينطبـق تمامـا على هارون، فقد قال ﷺ: (سيخرج قـوم في آخـر الزمـان، حـدثاء الأسنان، سـفهاء الأحلام، يقولـون من قـول خـير البريـة، يقـرؤون القرآن، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كمـا يمـرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة)[3]

---

[1] () رواه البخاري (4234)، ومسلم (115)، وأبو داود (2711)، والنسائي في الكبرى (8763)، وفي المجتبى (7/ 24)

[2] () البخاري- الفتح 10 (6016) ..

[3] () رواه البخاري 9/ 86..

وبناء على هذا كله اعتبر الغزالي كل أولئك الذين يشيدون بأمثال هذه الشخصيات من المغرورين الذين يكذبون على أنفسهم، ذلك لأنهم قلدوا بني إسرائيل في الأخذ ببعض الكتاب، وترك بعضه، كما قال تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ} [البقرة: 85]

وانطلاقا من هذه الآية الكريمة ذكر في رسالته حول [أصناف المغرورين] الكثير من النماذج التي ترد على ذلك الدفاع المستميت الذي يحاول المدافعون عن الظلمة أن يلمعوا من خلاله صورة هارون، فقد قال ـ عند حديثه عن الفرقة التاسعة من فرق المغرورين من العُبّاد ـ: (وفرقة أخرى حرصت على النوافل، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض.. فتارة يفرح بصلاة الضحى، وصلاة الليل.. وأمثال هذه النوافل، فلا يجد لصلاة الفريضة لذة ولا خير من الله تعالى، لشدة حرصه على المبادرة فى أول الوقت.. ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الغرور.. بل قد يتعين على الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت.. أو نفلان أحدهما يضيق وقته والآخر متسع وقته.. فإن لم يحفظ الترتيب كان مغرورا.. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى.. فإن المعصية ظاهرة.. وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض.. كتقديم الفرائض كلها على النوافل.. وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات التى لا قائم بها على ما قدم بها غيره.. وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه.. وتقديم ما يفوت مثل تقديم حق الوالدة على الوالد.. وتقديم الدين على القروض غيره.. وما أعظم العبد أن ينفذ ذلك.. ويرتبه.. ولكن الغرور فى الترتيب دقيق خفى لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون فى العلم رضى الله عنهم وغفر لهم)[1]

وقال ــ عند حديثه عن الفرقة الخامسة منهم ــ: (وفرقة أخرى اغتروا بالصوم.. وربما صاموا الدهر.. وصاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم من الغيبة.. ولا خواطرهم

---

[1] () أصناف المغرورين (ص: 59)

من الربا.. ولا بطونهم من الحرام عند الافطار ولا من الهذيان من أنواع الفضول.. وذلك غرور عظيم.. وهؤلاء تركوا الواجب.. وأبقوا المندوب.. فظنوا أنهم يسلمون.. وهيهات.. إنما يسلم من أتى الله بقلب سليم)[1]

وقال ــ عند ذكره للفرقة الأولى من المغرورين أرباب الأموال ـ: (فرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والصهاريج للماء.. وما يظهر للناس.. ويكتبون أسماءهم بالآجر عليه.. ليتخلده ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم.. وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك.. وقد اغتروا فيه من وجهين.. أحدهما: أنهم قد اكتسبوها من الظلم والشبهات والرشا والجهات المحظورة.. وهم قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها.. فإذن قد عصوا الله فى كسبها.. فالواجب عليهم فى التوبة ردها إلى ملاكها إن كانوا أحياء أو إلى ورثتهم.. فإن لم يبق منهم أحد وانقرضوا فالواجب صرفها فى أهم المصالح.. وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين.. وأى فائدة فى بنيان يستغنى عنه ويتركه ويموت.. وإنما غلب على هؤلاء الرياء والشهرة ولذة الذكر.. والوجه الثانى: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير فى الانفاق.. وعلو الأبنية.. ولو كلف أحد منهم أن ينفق دينارا على مسكين لم تسمح نفسه بذلك.. لأن حب المدح مستكن فى باطنه)[2]

ونحب أن نذكر في الأخير أن ما يذكره الكثيرون من أن الصورة السلبية لهارون ومجونه، كانت وليدة كتاب [ألف ليلة وليلة] أو كتب الأدب فقط، بأن ذلك غير صحيح، بل إننا نجدها في كتب التاريخ نفسها، بل نجدها في تلك الكتب التي تعتمدها أشد المدارس الإسلامية ولاء وحبا لهارون، ومنها تاريخ الطبري، فقد ورد فيه عند ذكره لقتل هارون للبرامكة: (وذكر الكرماني أن بشارا التركي حدثه أن الرشيد خرج إلى الصيد وهو بالعمر في

---

[1] المرجع السابق، (ص: 55)

[2] المرجع السابق، (ص: 61)

اليوم الذي قتل جعفرا في آخـره، فكـان ذلـك اليـوم يـوم جمعـة، وجعفر ابن يحيى معه قد خلا به دون ولاة العهد، وهو يسـير معـه، وقد وضع يده على عاتقه، وقبل ذلك ما غلفه بالغاليـة بيـد نفسـه، ولم يـزل معـه مـا يفارقـه حـتى انصـرف مـع المغـرب، فلمـا أراد الدخول ضمه إليـه، وقـال لـه: لـولا أني على الجلـوس الليلـة مـع النساء لم أفارقك، فأقم أنت في منزلك، واشـرب أيضـا واطـرب، لتكون أنت في مثل حالي، فقال: لا والله ما أشتهي ذلك إلا معك، فقال له: بحياتي لما شربت، فانصـرف عنـه إلى منزلـه، فلم تـزل رسـل الرشـيد عنـده سـاعة بعـد سـاعه تأتيـه بالانفـال والأبخـرة والرياحين، حتى ذهب الليـل ثم بعث إليـه مسـرورا فحبس عنـده، وأمر بقتله وحبس الفضل ومحمد وموسى، ووكـل سـلاما الأبـرش بباب يحيى بْن خالد، ولم يعرض لمحمد بْن خالد ولا لأحد من ولده وحشمه)[1]

[1] تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (8/ 299)

هل كان المتوكل ناصرا للسنة.. أم عدوا لها؟

من أهم الخلفاء الذين يحبهم التيار السلفي خصوصا، وينتصر لهم، أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن هارون بن المهدي بن المنصور (205-247 هـ)، فهو لا يلقب عندهم فقط بلقب المتوكل، وإنما يلقب أيضا بـ [ناصر السنة]، مع كونه ـ وباتفاق المؤرخين ــ كان أسوأ نموذج مثّل جميع الانحرافات الأخلاقية، والجرائم الإنسانية، والإبادات الطائفية.

لكنهم لم ينظروا إلى كل ذلك، واكتفوا بما فعله قبله قسطنطين الأول أو القديس قسطنطين، الذي حكم الإمبراطورية اليونانية من 306 م إلى 337 م، واستطاع أن يفعل ما فعله المتوكل بعده من تحريف للمسيحية، وتحويلها من دين إلهي ممتلئ بالتنزيه والعقلانية إلى دين بشري ممتلئ بالتجسيم والخرافة، ولذلك نال هو الآخر لقبا لا يقل عن لقب [ناصر السنة] الذي لقب به المتوكل؛ فالكنيسة الأرثوذكسية الشرقية تسميه إلى الآن [القديس قسطنطين العظيم]، وتجعله في مرتبة واحدة مع رسل المسيح.

وهو نفس ما قام به التيار السلفي من اعتباره المتوكل أحد الثلاثة الذين حفظوا الدين؛ فقد قال بعضهم: (الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق في قتل أهل الردة، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم، والمتوكل في إحياء السنة وإماتة التجهم)[1]

وقال آخر ناظما ذلك شعرا:

وبعد، فإن السنة اليوم أصبحت.. معزّزة حتى كأن لم تذلل

تصول وتسطو إذ أقيم منارها.. وحط منار الإفك والزور من عل

---

[1] تاريخ الخلفاء (ص: 252)

وولّى أخو الإبداع في الدين هاربًا.. إلى النار يهوى مدبرًا غـير مقبل

شفى الله منهم بالخليفة جعفر.. خليفته ذي السنة المتوكل

خليفة ربي وابن عم نبيه.. وخير بني العباس من منهم ولي

وجـامع شـمل الـدين بعـد تشـتت.. وفـاري رءوس المـارقين بمنصل

أطال بنا رب العباد بقاءه.. سليمًا من الأهوال غير مبدل

وبوّأه النصر للدين جنة.. يجاور في روضاتها خير مرسل[1]

وسبب ذلـك كلـه هـو نصـرته للتجسـيم، وتقريبـه للمجسـمة، وإتاحــة الفرصــة لهم لنشــر رواياتــه ووضــع أحاديثــه والخرافـات المرتبطة به في الأمة، وهو ما لا نزال نعيش آثاره إلى اليوم.

وفي مقابل ذلك راح يقتل الصالحين، ويمثل بهم، بـل إنـه لم يكتف بالأحياء منهم، وإنما راح لقبورهم يسويها بالأرض حتى يمنـع الزائرين لهم، أو المتعلقين بهم من زيارتهـا، وهـو مـا زاد في حبـه وتقريب السلفية له.

ولهذا كله نجدهم في كتبهم يمجدونـه، ويعظمونـه، ويعتبرونـه مثـالا للحـاكم العـادل، والخليفـة الناصـح، وناصـر السـنة، وقـامع البدعة، كما قال الحــافظ خليفـة بن خيـاط: (اسـتخلف المتوكــل فـأظهر السـنة، وتكلــم بهـا في مجلسه، وكتب إلى الآفـاق برفـع المحنة، وبسط السنة، ونصر أهلها)[2]

وقال الـذهبي: (وفي سـنة 234 هــ أظهـر المتوكــل السـنة، وزجـر عن القـول بخلـق القـرآن، وكـتــب بذلــك إلى الأمصــار، واسـتقدم المحدثـين إلى سـامراء، وأجـزل صلاتهم، ورووا أحاديث

---

[1] المرجع السابق، (ص: 252)

[2] سير أعلام النبلاء (12/ 32)

الرؤية والصفات)[1]

وقال ابن كـثير: (وكان المتوكـل محببـا إلى رعيته، قائمـا في نصرة أهل الســنة، وقــد شـبهه بعضـهم بالصـديق في قتلـه أهـل الردة لأنـه نصر الحق، ورده عليهم، حتى رجعوا إلى الدين، وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بـني أمية، وقــد أظهـر الســنة بعـد البدعة، وأخمـد أهـل البـدع وبـدعتهم بعـد انتشـارها واشـتهارها، فرحمه الله)[2]

ولم يكتفوا بالثناء عليـه في حياتـه، وإنمـا راحـوا يـذكرون أن الله تعالى غفر له كل جرائمه، وأنه مباشرة بعد انتهائه منها، وقتل ولده لـه، ذهب إلى الجنـة، بلا حسـاب، ولا عقـاب، وهم يسـتدلون لهـذا بمـا رآه الإمـام أحمـد في بعض رؤاه الصـادقة، والـتي اتفـق الرواة على حفظها عنه، والتي يقول فيها: (سـهرت ليلـة ثم نمت، فرأيت في نومي كأن رجلًا يعرج بي إلى السماء وقائلًا يقول:

ملك يقاد إلى مليك عادل.. متفضل في العفو ليس بجائر

ثم أصبحنا فجاء نعي المتوكل من سر من رأى إلى بغداد)[3]

ولم تكن تلك الرؤيا الوحيدة الـتي يسـتدل بهـا السـلفية على المنزلة الرفيعـة الـتي نالهـا، وإنمـا يـذكرون أن عمـرو بن شـيبان الجهنمي رآه في رؤيــا أخــرى، وفي نفس الليلــة الــتي رآه فيهــا الإمام أحمد، فقد حفظ عنه الـرواة قولـه: (رأيت في الليلـة الـتي قتل فيها المتوكل في المنام قائلًا يقول:

يا نائم العين في أوطار جسمان.. أفض دموعك يـا عمـرو بن شيبان

---

[1] المرجع السابق، (21/ 34) .

[2] البداية والنهاية (10/ 387)

[3] تاريخ الخلفاء (ص: 255)

أما ترى الفئة الأرجاس ما فعلوا.. بالهاشمي وبالفتح بن خاقان؟

وافى إلى الله مظلومًا تضج له.. أهل السموات من مثنى ووحدان

وسوف يأتيك أخي مسومة.. توقعوها لها شأن من الشان

فابكوا على جعفر وارثوا خليفتكم.. فقد بكاه جميع الإنس والجان)[1]

وهكذا صاروا يذكرون أن السماء ضجت لموته، وأن الحزن شمل الخلائق جميعا، حتى أولئك الجان الذين يذكرون أن المتوكل كان يقرهم بالرقاة، حزنوا عليه، وتألموا لما فعله ولده به.

وحرصا على الرؤى المتواترة التي تضمن له الجنان، وتجعله من المعصومين الذين لا يحل نقدهم، ولا الاقتراب من ساحتهم، تلك الرؤيا التي يروونها عن الإمام أحمد، والتي رآها بعد أشهر من قتل المتوكل، وحينها سأله عن حاله والحساب الذي حوسب به، وما فعل الله به، فقال: (غفر لي بقليل من السنة أحييتها)، فسأله الإمام أحمد: (فما تصنع ههنا؟(، فقال: (أنتظر محمدًا ابني أخاصمه إلى الله)[2]

وكما استولى المتوكل على قلوب الحنابلة، راح يستولي على قلوب الشافعية، ولم يفعل سوى أن ردد على مسامعهم هذه العبارات التي يتقن الساسة ترديدها ليستخفوا رعاياهم؛ فقد قال مخاطبا لهم: (واحسرتا على محمد بن إدريس الشافعي، كنت أحب أن أكون في أيامه فأراه وأشاهده، وأتعلم منه، فإني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول: أيها الناس إن محمد بن إدريس المطّلبي قد صار إلى رحمة الله وخلف فيكم علمًا حسنًا فاتبعوه تهدوا)

---

[1] () المرجع السابق، (ص: 255)

[2] () المرجع السابق، (ص: 255)

ثم ردد بعدها بخشوع: (اللهم ارحم محمد بن إدريس رحمة واسعة، وسهل علي حفظ مذهبه، وانفعني بذلك)[1]

وقد أعجب السيوطي المتمذهب بمذهب الشافعي بهذه الرواية إعجابا كبير، وراح يستنبط منها ما عبر عنه بقوله: (استفدنا من هذا أن المتوكل كان متمذهبًا بمذهب الشافعي، وهو أول من تمذهب من الخلفاء) [2]

متناسيا أنه هو نفسه الذي روى عنه قوله مخاطبا يزيد المهلبي: (يا مهلبي، إن الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني) [3]

لكن هذا المنهج لم يعتمده مع الجميع، بل اعتمده مع من يريد تحويلهم إلى مطايا يستعملها لضرب خصومه، والتمكين لنفسه.. ولذلك نال منه الحنفية والمعتزلة والشيعة كل ألوان البلاء..

وسنحاول هنا أن نذكر بعض ما قام به في فترة خلافته، لنجيب على ذلك السؤال الذي جعلناه عنوانا لهذا المقال، ونعرف من خلاله حقيقة انتصاره للسنة، وأي سنة انتصر لها، وأي بدع أخمدها أو حاول إخمادها.

1 ـ المتوكل.. وتحريف الدين:

من أكبر جرائم المتوكل التي لا تزال تتابعنا إلى هذا العصر ما وفره من أجواء ساعدت على تحريف الإسلام المحمدي الأصيل، وتحويله من دين ممتلئ بالعلمية والعقلانية والحضارة إلى دين ممتلئ بالدجل والخرافة والتخلف.

---

[1] المرجع السابق، (ص: 256)

[2] المرجع السابق، (ص: 256)

[3] المرجع السابق، (ص: 256)

ولـذلك، فـإن المدرسـة السـلفية الـتي لقيت الحظـوة لديـه، انتشرت في عصره انتشارا شديدا، بـل كـان لـه الـدور الأكـبر في تحويلها إلى كيان قائم بذاته، لا يـزال ممتـدا إلى اليـوم، بـل يمكن اعتبار السلفيين المعاصرين المعجبين به ضحية من ضحاياه.

وقد أشار الشيخ حسن بن فرحان المالكي إلى ذلـك، فقـال: (أتى المتوكل عام 232 هـ؛ ومال مع العامة ضد الأتـراك والثقافـة السـابقة برمتهـا؛ فعظم أهـل الحـديث ــ وعلى رأسـهم أحمـد ـ واضطهد المعتزلة والشيعة؛ وتعـرض المعتزلـة ومن شـايعهم؛ من أهـل الفلسـفة والمنطـق وعلـوم اليونـان؛ لاضـطهاد أيضـاً؛ حيث أحرقت كبتهم؛ ولاحقتهم السلطات؛ وكان الأثر على العامة كبـيراً؛ وما زال أثر المتوكل قائماً إلى اليوم في التيار السلفي والأشعري معـاً؛ فقـد عظم المتوكـل أهـل الحـديث؛ وأجـزل لهم العطايـا؛ وتشكلت العقائد من أيامه.. فالدين والعقائد والمـذاهب، من آثـار عصر المتوكل)[1]

ثم ذكر تلك النشوة التي أصابت السلفيين في ذلك العهد بعد أن أعطـاهم المتوكـل كـل السـلطات للقضـاء على من يتهمـونهم بالبدعة، فقال: (المتوكل لم يكن رجلاً صالحاً؛ حتى بمقيـاس أهـل الحديث؛ فقد كـان غارقـاً في الشـهوات، مبغضـاً لعلي والحسـين، قاتلاً ظالماً؛ إلا أنه نصر الإمام أحمد.. وأهـل الحـديث ــ وسـط مـا يشعرون به من انتصار سياسي ـ نسوا مظـالم المتوكـل، وسـموه (ناصر السنة)؛ ونشـطوا في هـذه المرحلـة؛ وغلـوا وتطرفـوا ضـد الجميع؛ فهذه المرحلة هي التي دونت تكفير أبي حنيفة؛ وكان فيها الظلم كله؛ ونبش قـبر الحسـين؛ وأعلن بغض الإمـام علي؛ وأهـل الحديث ساكتون لأنه نصر أحمد!)[2]

وما ذكره الشيخ حسن بن فرحان المالكي ـ فك الله أسـره ـ هو الحقيقة التي دلت عليها كل الوثائق التاريخية؛ والتي جمعت له

1() انظر مقالا بعنوان: لسـان حـال السـلطة : اعطـوهم من هـذا الـدين حـتى يشـبعوا وينسوكم: المتوكل ناصر السنة، حسن بن فرحان المالكي، 22/10/2016.

2() المرجع السابق.

بين الانحــراف الأخلاقي، والتحــريض الطــائفي والصــراع مــع الصالحين وقتلهم بدم بارد، والإساءة لغير المسـلمين.. ومـع ذلـك كله قبله السلفية لسبب بسيط، وهو أنـه كـان يقـول بـأن القـرآن كلام الله خرج من فمه، وأنـه جـالس فـوق عرشـه، بالإضـافة إلى كونه من المعتقدين بتلك الخرافات التي وجـد السـلفيون الفرصـة لنشــرها في عصــره، والــتي تمتلئ بهــا كتب الحــديث والتفســير والعقائد وغيرها.

وهو لذلك يشبه كثيرا آل سعود الذين يعرف السلفية بــذخهم وترفهم وجرائمهم في حق الأمة، وكونهم أبعـد النـاس عن الـدين، ومع ذلك يقبلونهم، ويبايعونهم، ويدعون جميع المسلمين لذلك، بل منهم من يعتبرهم من الخلفاء الراشدين، لكونهم يمثلون المتوكـل في عقائـده وجرائمـه، كمـا قـال أبـو بكـر جـابر الجزائـري يصـف السـعودية باعتبارهـا الدولـة الوحيـدة الممثلـة للإسـلام: (لا يوجـد مسـلم صـحيح الإسـلام، ولا مـؤمن صـادق الإيمـان وفي أي بلـد إسلامي، كان، إلاّ ويتمنّى بكلّ قلبه أن يحكمه ابن السعود وإنّه لــو يدعى إلى مبايعته مَلِكاً أو خليفةً للمسلمين لما تـردد طرفـة عين، كان ذلك من أجل أنّ هذه الدّولة تمثّل الإسـلام وتقـوم بـه وتـدعو إليه...)(1)

ويقول عن دورها في تهديم الآثار والأضرحة: (وهيهات هيهات أن يتنكر آل سعود لمبدأ الحق الذي أقـاموا ملكهم عليـه، ووقفـوا حياتهم على حمايته ونصرته ونصرة الـدّاعين إليـه!! والهـادين إلى مثله!! إنه لو لم يبق إلاّ عجوزٌ واحدة من آل سعود لم يكن لهـا أن تتنازل عن مبدأ الحقّ)(2)

ولذلك لا غرابة أن يقبل سلف السلفية المتوكـل على الـرغم من كل الروايات التاريخية التي تذكر انحرافاته الأخلاقية، وجرائمه

1() الإعلام بأن العزف والغناء حرام. أبوبكر جـابر الجزائـري، مكتبـة دار الوفـاء للنشـر، 1407 ه ، ص 57.

2() وجاءوا يركضون مهلاً يا دعاة الضلالة، أبو بكر جابر الجزائري، دار الحـرمين، 1413، ص17.

التي قام بها، ذلك أن القيمة الوحيدة عندهم هي العقائد التجسيمية، أما السلوك الأخلاقي، فلا قيمة له، وقد قال بعضهم: (قبور أهل السنة من أهل الكبائر روضة، وقبور أهل البدع من الزهاد حفرة، فساق أهل السنة أولياء الله، وزهاد أهل البدع أعداء الله)[1]

بناء على هذا سأذكر هنا نموذجين عما قام به المتوكل من توفير للأجواء التي ساعدت على تحريف الدين، وتحويله إلى الدجل والخرافة، أولهما في نشر روايات التجسيم، والثاني في الاهتمام بالرقية والخرافات المرتبطة بها.. وكلاهما لا نزال نراه إلى اليوم.

أ ـ المتوكل ونشر روايات التجسيم:

من المعروف أن ذلك العصر الذي عاش فيه المتوكل كان عصرا من عصور تدوين الروايات التي أسست للعقائد والتفسير وجميع العلوم الإسلامية، وهنا كانت خطورة المتوكل إذ أنه حاصر جميع المدارس الإسلامية، ولم يترك سوى المدرسة السلفية ـ ممثلة فيمن يسمون أنفسهم [أهل الحديث] ــ لتبث عقائدها في الأمة، وتركز خصوصا على المواضع التي تختلف فيها مع الشيعة والمعتزلة اللتين يبغضهما المتوكل بغضا شديدا.

وبما أن كلا من المعتزلة والشيعة كانا مهتمين بتنزيه الله تعالى عن التشبيه والتجسيم؛ فقد كان اهتمام سلفية ذلك العصر ـ بتحريض من المتوكل ـ نحو بث عقائد التشبيه والتجسيم، ولذلك شبهناه بقسطنطين الأول في المسيحية، والذي نصر التثليث على التوحيد، كما نصر المتوكل التجسيم على التنزيه.

وقد ذكر ابن كثير، ذلك مثنيا عليه بسببه، وإن كان يعترف في نفس الوقت بانحرافاته الأخلاقية، فقال: (وارتفعت السنة جدا في أيام المتوكل عفا الله عنه، وكان لا يولي أحدا إلا بعد مشورة الإمام أحمد، وكان ولاية يحيى بن أكثم قضاء القضاة موضع ابن أبي دؤاد عن مشورته، وقد كان يحيى بن أكثم هذا من أئمة

[1] كتاب المنهج الأحمد، 296..

السنة، وعلماء الناس، ومن المعظمين للفقه والحديث واتباع الأثر، وكان قد ولى من جهته حيان بن بشر قضاء الشرقية، وسوار بن عبد الله قضاء الجانب الغربي)([1])

ومن عجائب الصدف أن آل السعود الذين يؤثرون في الفتوى ومناصب الدين أمثال ابن باز وعبد العزيز آل الشيخ، يقعون في نفس ما وقع فيه المتوكل، فقد كان كلا الشخصيتين اللتين انتدبهما لتلك المناصب الحساسة مصابين في بصرهما، حتى قال بعض أصحاب الحديث ـ كما يذكر ابن كثير ـ:

رأيت من العجائب قاضيين.. هما أحدوثة في الخافقين

هما اقتسما العمى نصفين قدا.. كما اقتسما قضاء الجانبين

ويحسب منهما من هز رأسا.. لينظر في مواريث ودين

ونحن لا يعنينا ـ طبعا عورهما أو عماهما المرتبط بالبصر ـ وإنما يعنينا عمى البصيرة؛ والذي دلت عليه الوثائق التاريخية التي ذكرت تلك المحاكمات الجائرة التي أصابت المعتزلة أو الشيعة أو الحنفية أو غيرهم ممن لم يؤمن بدين التجسيم والتشبيه، ولم يستسع عقله تلك الخرافات التي كان ينشرها مشايخ السلفية في ذلك الوقت.

وقد أشار الذهبي إلى هذا عندما ذكر ما حصل لأحمد بن أبي دؤاد، والذي انتقم منه المتوكل شر نقمة، فقال: (وغضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد، وصادره وسجن أصحابه، وحمل ستة عشر ألف درهم، وافتقر هو وآله)([2])

وهكذا لم يكتف بأحمد بن أبي دؤاد، وإنما راح للمعتزلة يسجنهم، ثم يصادر أموالهم، إلى أن افتقروا.. وهم يذكرون هذا، ويشمتون بهم، دون أن يذكروا مصادرهم الشرعية في هذه

---

[1]() البداية والنهاية (10/ 348)

[2]() سير أعلام النبلاء (12/ 36)

الأحكام الجائرة.

والعجيب أنهم يعتبرون ما حصل للمعتزلة والشيعة من تنكيل عقوبة من الله لهم، ويظهرون الشماتة بهم، في نفس الوقت الذي يعتبرون فيه ما حصل لأحمد بن حنبل وغيره في عهد المأمون محنة إلهية، وأنه ابتلي كما ابتلي الأنبياء والأولياء، وهذا دليل على ازدواجية العقل السلفي، وميله مع الهوى الطائفي، وإلا فإن العاقل هو الذي ينكر امتحان الجميع في أفكارهم، لأن الدين لم يحجر على الفكر، وإنما حجر على الجريمة.

ويذكر الذهبي وكل المؤرخين أمرا أخطر من ذلك، وهو التشجيع على رواية أحاديث التجسيم ولو من غير الثقاة، وهو ما وفر لها الكثير من الوضاعين الكذابين الذين لم يجدوا مناسبة لنشر تضليلاتهم إلا في ذلك العصر، وتحت حماية السلطة الحاكمة، يقول الذهبي: (وفي سنة 234: أظهر المتوكل السنة، وزجر عن القول بخلق القرآن، وكتب بذلك إلى الأمصار، واستقدم المحدثين إلى سامراء، وأجزل صلاتهم، ورووا أحاديث الرؤية والصفات)[1]

وقال ابن كثير: (فلما ولي المتوكل على الله الخلافة استبشر الناس بولايته، فإنه كان محبا للسنة وأهلها، ورفع المحنة عن الناس، وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن، ثم كتب إلى نائبه ببغداد - وهو إسحاق بن إبراهيم - أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه، فاستدعى إسحاق بالإمام أحمد إليه فأكرمه وعظمه، لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه، وسأله فيما بينه وبينه عن القرآن فقال له أحمد: سؤالك هذا سؤال تعنت أو استرشاد، فقال: بل سؤال استرشاد، فقال: هو كلام الله منزل غير مخلوق، فسكن إلى قوله في ذلك، ثم جهزه إلى الخليفة إلى سر من رأى ثم سبقه إليه)[2]

---

[1] العبر في خبر من غبر، شمس الدين الذهبي، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، (1/ 325)

[2] البداية والنهاية (10/ 371)

وذكر ابن كثير وشاية حصلت من بعضهم على الإمام أحمد، وأنهم أرادوا أن يوقعوا بينه وبين المتوكل، لكنه نجا، بل زاد ذلك في تكريمه، وتكريم أهل الحديث، وسنذكر الحادثة كما ذكرها حرفيا، لنرى من خلالها السبب الذي جعل المتوكل يفضل أهل الحديث على غيرهم، فقد قال: (ثم إن رجلا من المبتدعة يقال له ابن البلخي وشى إلى الخليفة شيئا فقال: إن رجلا من العلويين قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل وهو يبايع له الناس في الباطن. فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل أحمد من الليل. فلم يعشروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطحة، فوجدوا الإمام أحمد جالسا في داره مع عياله فسألوه عما ذكر عنه فقال: (ليس عندي من هذا علم، وليس من ذا شئ ولا هذا من نيتي، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية، وفي عسري ويسري ومنشطي ومكرهي، وأثرة علي، وإني لأدعو الله بالتسديد والتوفيق، في الليل والنهار، في كلام كثير)، ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئا، فلما بلغ المتوكل ذلك وعلم براءته مما نسب إليه علم أنهم يكذبون عليه كثيرا، فبعث إليه يقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة - وهو أحد الحجبة - بعشرة آلاف درهم من الخليفة، وقال: هو يقرأ عليك السلام ويقول: استنفق هذه، فامتنع من قبولها. فقال: يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه، والمصلحة لك قبولها، فوضعها عنده ثم ذهب فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله وبني عمه وعياله وقال: لم أنم هذه الليلة من هذا المال، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من أهل بغداد والبصرة، ثم أصبح ففرقها في الناس ما بين الخمسين إلى المائة والمائتين، فلم يبق منها درهما)(3)

فهذه الرواية تبين سر موقف المتوكل، وأنه سياسي لا عدم علاقته بالدين، فقد كان هدفه الحفاظ على السلطة في وجه المعارضين، وقد وجد أن أكثر الناس خدمة له في هذا الجانب هذا الاتجاه، وخاصة مع ما ينشره من خرافات ودجل، وما ينشره

---

(3) البداية والنهاية (10/ 371)

معهما من تحذير من البحث العقلي.

وما ورد في الرواية أيضا يشير إلى أن الأموال والمناصب كانت تغدق على من يتبنى أمثال تلك الأفكار، وهو ما ساهم في انتشارها، فالناس ـ كما يقال ـ على دين ملوكهم.

وقد أشار الخطيب البغداد إلى هذا، فقال: (سنة أربع وثلاثين ومائتين فيها أشخص المتوكل الفقهاء والمحدثين، فكان فيهم مصعب الزبيري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإبراهيم بن عبد الله الهروي، وعبد الله، وعثمان ابنا محمد بن أبي شيبة الكوفيان، وهما من بني عبس وكانا من حفاظ الناس، فقسمت بينهم الجوائز وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس وأن يحدثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية وأن يحدثوا بالأحاديث في الرؤية، فجلس عثمان بن محمد بن أبي شيبة في مدينة أبي جعفر المنصور، ووضع له منبر واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا من الناس، فأخبرني حامد بن العباس أنه كتب عن عثمان بن أبي شيبة، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة، وكان أشد تقدما من أخيه عثمان، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا)[1]

ونحب أن نذكر أن عثمان بن محمد بن أبي شيبة هو صاحب كتاب العرش، المملوء بأحاديث التجسيم والخرافة، والذي لقي عناية كبيرة من المدرسة السلفية الحديثة، ومن الروايات الواردة فيه، والتي كان ينشرها في عهد المتوكل ما أورده في تفسير قوله تعالى: { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} (هود:7) من روايات، ومنها: (ثم رفع بخار الماء ففتقت منه السموات، ثم خلق النون فدحيت، الأرض على ظهر النون، فتحرك فمادت، فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر عليها)[2]، وهي المعلومات التي لا يزال الكثير يتبناها، وعلى أساسها ينكر المعلومات الفلكية الحديثة.

---

[1] تاريخ بغداد (11/ 259)

[2] العرش وما روي فيه (ص: 304)

وهكذا روى عن العباس بن عبد المطلب قال: كنا بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت سحابة، فقال: تدرون ما هذه، قالوا: سحاب، قال: والمزن، قا لوا: والمزن، قال: والعنان، ثم قال: تدرون كم بعد ما بين السماء والأراضين، قالوا: لا، قال: إما واحدة أو اثنتين أو ثلاث وسبعين سنة، ثم السماء فوق ذلك، حتى عد سبع سموات، ثم فوق السابعة بحر بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك كله ثمانية أملاك أوعال، ما بين أظلافهم إلى ركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء إلى سماء، والله تعالى فوق ذلك)(3)

وغيرها من الروايات التجسيمية الكثيرة التي ذكرنا بعضها في كتاب [السلفية والوثنية المقدسة]

ب ـ المتوكل والتشجيع على الدجل:

إلى جانب ما قام به المتوكل من توفير لأجواء التشبيه والتجسيم والخرافات المرتبطه بهما، شجع المتوكل ظاهرة الرقية والدجل المرتبط بها، وهو مما لا نزال نعيشه إلى اليوم.

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه القاضي أبو الحسن بن أبي يعلى بن الفراء الحنبلي قال: سمعت أحمد بن عبيد الله قال: سمعت أبا الحسن علي بن علي بن أحمد بن علي العكبري قدم علينا من عكبرا في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثمائة قال: حدثني أبي عن جدي قال: كنت في مسجد أبي عبدالله أحمد ابن حنبل، فأنفذ إليه المتوكل صاحبا له يعلمه أن له جارية بها صرع وسأله أن يدعو الله لها بالعافية، فأخرج له أحمد نعلي خشب بشراك من خوص للوضوء فدفعه إلى صاحب له وقال له: امض إلى دار أمير المؤمنين وتجلس عند رأس هذه الجارية وتقول له - يعني للجني - قال لك أحمد: أيما أحب إليك تخرج من هذه الجارية أو تصفع بهذه النعل سبعين، فمضى إليه وقال له مثل ما قال الإمام أحمد، فقال له المارد على لسان الجارية: السمع والطاعة لو أمرنا أحمد

(3) المرجع السابق، (ص: 314)

أن لا نقيم بالعراق ما أقمنا بـه.. وبـه قـال: خـرجت أنـا والصـبيان ولي سبع سنين أو ثمان سنين نبصر أحمد ابن حنبل كيف يضـرب. وخرج من الجارية.. وهدأت ورزقت أولادا، فلما مات أحمد عاودها المـارد فأنفـذ المتوكـل إلى صـاحبه أبي بكـر المـروزي وعرفـه الحال.. فأخذ المروزي النعل ومضى إلى الجارية فكلمه العفـريت على لسانها: لا أخرج من هذه الجاريـة ولا أطيعـك ولا أقبـل منـك، أحمد بن حنبل أطاع الله فأمرنا بطاعته)[1]

وهذا ما شـجع على هـذه الظـاهرة الـتي انتشـرت بعـد ذلـك انتشـارا شـديدا، وكـان أكـثر النـاس اهتمامـا بهـا، واسـتعمالا لهـا، ودعوة إليها الطائفة السلفية، التي اعتبرت هـذه الروايـة وأمثالهـا دينا تتعبد الله به.

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الشـيخ عبـدالعزيز بن عبداللـه بن باز جوابا لمن سـأله عن جـواز الضـرب والخنـق والتحـدث مـع الجن لمن يعالج المرضى بقراءة القرآن؟ فأجـاب: (هـذا قـد وقـع شيء منه من بعض العلماء السابقين مثل شيخ الإسلام ابن تيميـة - يرحمه الله تعـالى - فقـد كـان يخـاطب الجـني ويخنقـه ويضـربه حتى يخرج، وأما المبالغة في هـذه الأمـور ممـا نسـمعه عن بعض القراء فلا وجه لها)[2]

وقال الأستاذ وائل آل درويش مبينا كيفيـة التعامـل مـع الجن قبـل عقوبتـه: (والحاصـل أنـه يـؤمر – يعـني الجـني الصـارع – بـالمعروف وينهى عن المنكر فتبـدأ معه بـالترغيب والـترهيب والنصح والإرشاد والعلم والتعريف ثم الزجر ثم قد يصل الأمر إلى الضرب والعقاب ثم الحرق بآيات الكتاب، إلا أنـه ينبغي أن يتفطن المعـالِج فلا يسـتخدم الضـرب إلا عن بصـيرة وقلب حاضـر ونظـر ثاقب، إذ من الجن من يفر ويهرب، وقد يترك الجسم ويخرج عنـد نزول الضرب عليه، فيقع الضرب على المريض فيشـعر بـه، وهـذا

---

[1] () أحكام الجان - نقلا عن طبقات أصحاب الإمام أحمد - ص 152..

[2] () الدعوة – العدد 1456- فتاوى العلاج بالقرآن والسنة - ص 69..

واقع مشاهد)[1]

2 ـ المتوكل.. والتنفير من الدين:

لم يكتف المتوكل ومن شايعه من رافضة الدين المحمدي الأصيل، والمتبعين لأهواء التجسيم والتشبيه، بتلك التحريفات التي حرفوا بها الدين، وحولوه من دين العلم والعقل والحضارة إلى دين الجهل والدجل والتخلف، بل أضافوا إلى ذلك تلك المعاملات القاسية التي عاملوا بها غير المسلمين، لينفروهم من الإسلام، وليضربوا سماحته في الصميم.

وللأسف فإن شيعة المتوكل المعاصرين، يثنون عليه ممارسته لتلك السلوكات، ويعتبرونها رمزا للولاء والبراء، ويضربون بها المثل في التطبيق المثالي للإسلام مع المخالفين.

وقد سبقهم إلى ذلك ابن القيم الذي عقد فصلا خاصا بالمتوكل، وموقفه من أهل الذمة، قال فيه: (وأما المتوكل فإنه صرف أهل الذمة من الأعمال، وغير زيهم في مراكبهم وملابسهم)[2]، واعتبر ذلك من حسناته.

ثم ذكر السبب الذي جعله ينتهج هذا المنهج معهم، فذكر أن شيخا من الصالحين لقيه في الحج، ربما لا يختلف كثيرا عن الحويني أو محمد حسين يعقوب أو غيرهم، ممن لا نزال نراهم، وقال له ناصحا: (قد اكتنفت دولتك كتاب من الذمة أحسنوا الاختيار لأنفسهم، وأساءوا الاختيار للمسلمين وابتاعوا دنياهم بآخرة أمير المؤمنين، خفتهم ولم تخف الله وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا مسئولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أخسر الناس صفقة يوم القيامة من أصلح دنيا غيره بفساد آخرته، واذكر ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة، وأول

---

[1] () منة الرحمن في العلاج بالقرآن ص 44، 45..

[2] () أحكام أهل الذمة، (1/ 467)

ليلة يخلو المرء في قبره بعمله)[1]

وذكر أن المتوكل حين سمع هذه النصيحة بكى إلى أن غشي عليه، ثم طلب الرجل فلم يوجد، وكان الأصل ــ إذا أراد أن يطبـق حقيقة تلك النصـيحة ــ أن ينظـر في أهـل الذمة[2]؛ فيحسـن إلى محسنهم، ويعدل مع مسيئهم، لكن القرار الـذي اتخـذه حين أفـاق من غشيته بعد بكائه الطويل هو ما عبر عنه ابن القيم مثنيـا عليـه بقوله: (فخرج أمره بلبس النصـارى واليهـود الثيـاب العسـلية، وألا يُمكنــوا من لبس الثيــاب لئلا يتشــبهوا بالمســلمين، ولتكن ركبهم خشبا، وأن تهدم بيعهم المسـتجدة، وأن تطبـق عليهم الجزيـة، ولا يفسح لهم في دخول حمامات المسلمين، وأن يفرد لهم حمامـات خدمها ذمة، ولا يستخدموا مسلما في حـوائجهم لنفوسـهم، وأفـرد لهم من يحتسب عليهم) [3]

ومـا ذكـره ابن القيم باختصـار، ذكـره الطـبري بتفصـيل في مواضع من تاريخه، وسنذكرها لـنرى مـدى الظلم الـذي عامـل بـه المتوكل من أمرنـا بتـأليف قلـوبهم، وإعطـائهم صـورة جميلـة عن الإسلام، ترغبهم فيه، ولا تنفرهم منه.

ومن ذلك ما ذكره في أحداث عام 235 هـ ــ وللتـذكير، فـإن عمر المتوكل حينذاك كان لا يتجاوز الثلاثة سنة ـ حيث قال: (وفي هذه السنة أمر المتوكـل بأخـذ النصـارى وأهـل الذمـة كلهم بلبس الطيالسـة العسـلية والزنـانير وركـوب السـروج بـركب الخشـب، وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون، وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخـالف لونهمـا

1() المرجع السابق، (1/ 471)

2() سميناهم بهذه التسمية بناء على العرف الجاري في ذلـك الحين، وإلا فـإن الإسـلام يعتبرهم مواطنين عاديين كسائر الناس، فلا فرق بين مسلم في الدولة الإسـلامية المحمديـة الأصيلة، وبين غيره.

3() المرجع السابق،(1/ 471)

لون الثوب الظاهر الذي عليه، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره والأخرى منهما خلف ظهره، وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونهما عسليا. ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلي، ومن خرج من نسائهم، فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي، وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير، وبمنعهم لبس المناطق) (1)

ولم يكتف بكل هذه القوانين المنافية لكل القيم الأخلاقية، بل ذكر الطبري أنه راح يهدم كنائسهم، ويفرض عليهم غرامات كثيرة تنوء بها ظهورهم، فقال: (وأمر بهدم بيعهم المحدثة، وبأخذ العشر من منازلهم، وإذا كان الموضع واسعا صُيِّر مسجدا، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجدا صير فضاء، وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة، تفريقا بين منازلهم وبين منازل المسلمين، ونهى ان يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين، ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين، ولا يعلمهم مسلم، ونهى أن يظهروا في شعانينهم صليبا وأن يشمعلوا في الطريق، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين)(2)

ولم يكتف بكل تلك الإجراءات التعسفية، بل إنه أمر في عام 239 هـ ـ كما يذكر الطبري ـ (بأخذ أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين على الأقبية والدراريع في المحرم منها، ثم أمر.. بالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمر دون الخيل والبراذين) (3)

وذكر في أحداث عام 242 هـ أنه: (قتل عطاردا، رجلا كان

1() تاريخ الطبري، (9/ 171)

2() المرجع السابق، (9/ 172)

3() المرجع السابق، (9/ 196)

نصرانيا، فأسلم فمكث مسلما سنين كثيرة ثم ارتد، فاستتيب فأبى الرجوع الى الإسلام، فضربت عنقه لليلتين خلتا من شوال، وأحرق بباب العامة) (1)

وهذا ما يبين المصادر التي تأخذ منها الجماعات الإرهابية أعمالها الإجرامية، ذلك أن المتوكل عندهم هو ناصر السنة، وهو الذي أثنى عليه ابن تيمية وابن القيم وجميع سلفهم وخلفهم، ولذلك صار قيامه بالحرق سنة متبعة.

ولم ينج من جرائم المتوكل عامة النصاري ولا خاصتهم، فقد ذكر الطبري أن الطبيب النصراني المشهور بختيشوع نال حظه من إضطهاد المتوكل، فقد ذكر في أحداث عام 244 هـ أن المتوكل (غضب على بختيشوع، وقبض ماله، ونفاه إلى البحرين) (2)، وذكر أن أعرابيا حينها راح يشمت بالطبيب، ويمدح المتوكل قائلا:

يا سخطة جاءت ... ثار له الليث على
منه وبختيشوع في ... لما سعى بالسادة
بالأمراء القادة ... ولاة عهد السيد
وبالموالي وبني ... رمى به في
بساحل البحرين للصغار

ولم يكتف بما فعله به في تلك السنة، بل أضاف إليه بتشجيع من المحيطين به، عام 245 هـ ما ذكره الطبري بقوله: (ضُرب بختيشوع المتطبب مائة وخمسين مقرعة وأثقل بالحديد وحبس في المطبق في رجب) (3)

---

(1) المرجع السابق، (9/ 208)

(2) المرجع السابق، (9/ 211)

(3) المرجع السابق، (9/ 218)

هذه بعض مظاهر التشويه التي قام بها المتوكل لصرف غــير المسلمين عن الإسلام في البلاد الإسلامية، أما مـا فعلـه خارجهـا، فلا يقل عما فعله هـارون وغـيره من المسـتبدين، الـذين تصـوروا أنهم شـعب اللـه المختـار، وأن علاقتهم بغـيرهم هي أن يغـزوهم، ليستولوا على أموالهم ونسـائهم، متصـورين أنهم بـذلك يجاهـدون في سبيل الله، بينما هم يجاهدون في سبيل شهواتهم.

وقــد روى الطــبري بعض مــا فعلــه من جــرائم خــارج بلاد المسلمين، يندى لها الجـبين، ومنهـا إحراقـه لمدينـة تفليس، وهي عاصمة جورجيـا اليـوم؛ والـذي تسـبب في إحـراق خمسـين ألـف ساكن بها، يقول الطبري في أحداث عـام 238هــ: (.. ووقـف بغـا على تل مطـل على المدينـة ممـا يلي صـغدبيل، لينظـر مـا يصـنع زيرك وأبو العبـاس، فبعث بغـا النفـاطين فضـربوا المدينـة بالنـار، وهي من خشــب الصــنوبر، فهـاجت الـريح في الصــنوبر، فأقبــل إسحاق بن إسماعيل إلى المدينة لينظر، فإذا النـار قـد أخـذت في قصـره وجواريـه، وأحـاطت بـه النـار، ثم أتـاه الأتـراك والمغاربـة فأخذوه أسيرا، وأخذوا ابنه عمرا، فأتوا بهما بغا، فأمر بغا به، فــرد إلى باب الحسك، فضربت عنقه هناك صبرا، وحمل رأسه إلى بغا، وصـلبت جيفتـه على الكـر، وكـان شـيخا محـدودا ضـخم الـرأس، يخضــب بالوســمة، آدم أصــلع أحــول، فنصــب رأســه على بــاب الحسك، وكان الـذي تـولى قتلـه غـامش خليفـة بغـا، واحـترق في المدينة نحو من خمسين الف انسان، واطفئت النار في يوم وليلة، لأنها نار الصنوبر، لا بقاء لها، وصبحهم المغاربة، فأسـروا من كـان حيا، وسلبوا الموتى)[1]

هذا هو ناصر السنة بالمفهوم السـلفي، وهكـذا تنصـر السـنة عنـدهم، ولـذلك لا نعجب ممـا تفعلـه الجماعـات المسـلحة، الـتي خرجت من رحمهم؛ فهي ليست سوى ضحية للمتوكـل والمحطين به من السلفية القدماء والمعاصـرين، والـذين تصـوروا أن كـونهم مسلمين يخول لهم أن يقضوا على كل شيء يخالفهم، وبمــا تملي عليهم غرائزهم المملوءة بالحقد والعدوانية.

1() المرجع السابق، (9/ 192)

3 ـ المتوكل.. والصراع مع الصالحين:

يتصور الكثير من المغترين بتاريخ المجد المزيف، أن من حسنات المتوكل، والتي جعلته يتحول إلى ناصر للسنة ذلك التقريب الذي قام به للعلماء، حيث أنه كان يستشيرهم في مصادره وموارده، وأنه لذلك كان يطبق الشريعة الإسلامية جراء تطبيقه لنصائحهم؛ وهذا وهم كبير، فلم يكن أحد من بني العباس أو بني أمية أو غيرهم يفعل ذلك.

بل كان الجميع ينتقون من العلماء من يعزف لهم الألحان التي يشتهون، ويُبعدون في أحسن أحوالهم من لا يشتهون، أما في أسوئها، وما أكثرها، فإنهم يحبسون أو يقتلون من لا يشتهون.

وقد كان من الألحان التي يشتهيها المتوكل بغض أهل بيت النبوة، أو ما اصطلح عليه بالنصب، مثلما كان يفعل جده هارون، أو غيره من بني العباس وبني أمية؛ فقد كانوا يعتبرون أهل بيت النبوة سواء من مات منهم أو ما زال حيا، شخصا ثقيلا يزاحمهم محبة الناس، ويزاحمهم قبل ذلك في الورقة التي تقدموا بها ليحكموا الناس، وهي النسب، فهم يذكرون للرعية أنهم بنو عمومة رسول الله ﷺ، بينما أهل بيت النبوة يذكرون أنهم أبناؤه وأحفاده.

وقد نص على كون المتوكل ناصبيا مبغضا لأهل بيت النبوة كل المؤرخين بمن فيهم أولئك الذين أثنوا عليه من أمثال الذهبي[1]، وابن العماد الحنبلي [2]وغيرهما.

ولم يكن بغضه قاصرا على الأحياء منهم، وإنما تعداه لموتاهم وشهدائهم، وأولهم الإمام علي الذي أخبر رسول الله ﷺ

1() سير أعلام النبلاء، ج10 ص 37 و47 و109.

2() شذرات الذهب، ج2 ص 86 و 114.

أن حبه إيمان، وبغضه نفاق[1]، وقد قال ابن الأثير معبرا عن ذلك: (وكـان المتوكـل شـديد البغض لعلي بن أبي طـالب، ولأهـل بيتـه، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى عليا وأهله بأخذ المال والــدم)[2]

ثم ذكـر من دلائـل ذلـك البغض وأمثلتـه أنـه (كـان من جملـة ندمائه عبادة المخنث، وكان يشـد على بطنـه، تحت ثيابـه، مخـدة، ويكشف رأسه، وهو أصلع، ويرقص بين يـدي المتوكـل، والمغنـون يغنون: قـد أقبـل الأصـلع البطين، خليفـة المسـلمين، يحكي بـذلك عليـا، والمتوكـل يشـرب، ويضـحك، ففعـل ذلـك يومـا، والمنتصـر حاضر، فأومأ إلى عبادة يتهدده، فسكت خوفا منه، فقال المتوكل: ما حالك؟ فقام، وأخبره، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين إن الذي يحكيه هذا الكاتب، ويضحك منه الناس، هو ابن عمك، وشـيخ أهـل بيتك، وبه فخرك، فكل أنت لحمه، إذا شئت، ولا تطعم هـذا الكلب وأمثاله منه! فقال المتوكل للمغنين: غنوا جميعـا: غـار الفـتى لابن عمه رأس الفتى في.. أمه)[3]

وقد ذكر ذلك في أسباب قتله ابنه له، لأنه كــان على العكس من أبيه في هـذا الجـانب، فقـال: (فكـان هـذا من الأسـباب الـتي استحل بها المنتصر قتل المتوكل)[4]

وهكــذا ذكــر المؤرخــون أن ســبب قتلــه للعــالم الأديب أبي يوسف يعقـوب بن إسـحاق السِـكّيت الأهـوازي (186 ــ 244 هــ،

---

[1] () ففي الحديث عن الإمام علي عهد إلي النبي ﷺ (أنه لا يحبـك إلا مـؤمن، ولا يبغضـك إلا منافق)، وفي رواية: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنـه لعهـد النـبي الأمي ﷺ إلي: أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق، رواه الحميدي (58) وأحمـد 1/ـ 84 (642) ومسـلم 1/ 60 (152) والنسائي 8/ 115 وغيرهم..

[2] () الكامل في التاريخ (6/ 130)

[3] () الكامل في التاريخ (6/ 130)

[4] () المرجع السابق، (6/ 130)

مؤلف كتاب [إصلاح المنطق] وغيره من الكتب القيمة، تعلقه بأهل بيت النبوة، فقد روي أن المتوكل ألزم ابن السكيت تعليم ابنيه المعتز والمؤيد، ثم سأله بعد فترة بعد أن فطن لتعلقه بالإمام علي: (أيّهما أحبّ إليك ابناي هذان: المعتز والمؤيّد، أو الحسن والحسين؟) فقال ابن السكيت: (والله إن قنبرًا خادم علي بن أبي طالب خير منك ومن ابنيك)، فقال المتوكل للأتراك: (سلو لسانه من قفاه)، ففعلوا، فمات(1).

وقال ياقوت الحموي يذكر الحادثة، وينتصر للمتوكل: (وكان يعقوب يتشيع، فأمر المتوكل الأتراك فسلوا لسانه وداسوا بطنه وحمل إلى بيته فعاش يوما وبعض آخر)(2)

وللأسف فإن الذين يبالغون في محنة الإمام أحمد، يتغاضون عن محنة ابن السكيت، مع كونه تعرض لأضعاف الأذى الذي تعرض له الإمام أحمد، وكونه كذلك لا يقل عن الإمام أحمد في الخدمات العلمية الكبرى التي قدمها للأمة(3)، ولكن ازدواجية المعايير هي الحاكمة في المتعلقين بالمجد المزيف.

والمشهد الذي نقلناه عن المؤرخين في قتل ابن السكيت لا تقتصر العبرة فيه فقط على قتل المتعلقين بأهل بيت النبوة، فما أكثر من فعل ذلك من أهل الملك العضوض، ولكن العبرة فيه في التفنن في طريقة القتل، وهو ما يشجعه التيار السلفي خصوصا، حتى يشفي غليله وأحقاده، والتدين العدواني الذي ورثه من أسلافه.

ولهذا نجدهم عند حديثهم عن المخالفين لا يكتفون بالتحريض على قتلهم، وإنما يضيفون إليه الكيفية البشعة لذلك، كما روى

1() انظر: وفيات الأعيان، ج 6 ص 400-401.؛ بغية الوعاة، السيوطي، ج 2 ص 349؛ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص 202..

2() معجم الأدباء (6/ 2841)

3() قال الذهبي في السير(12/ـ 16): (شيخ العربية، يعقوب بن إسحاق البغدادي النحوي المؤدب مؤلف كتاب إصلاح المنطق دّين خيّر ، حجة في العربية)

ابن تيمة بسنده عن ابن خزيمة قوله: (من لم يقـر بـأن اللـه على عرشه قد استوى فوق سـبع سـمواته، فهـو كـافر بـه، حلال الـدم يستتاب، فإن تاب، وإلا ضـربت عنقـه، وألقى على بعض المزابـل) (1)

وهكذا فعل مع بعض المحدثين لأنه روى حديثا في فضل أئمة أهل الـبيت، وكـاد يقتلـه لـولا أن تـدخل بعضـهم؛ فشـفع لـه، قـال الخطيب البغـدادي بعـد أن روى قـول رسـول اللـه ﷺ (أخـذ بيـد الحسن والحسين، وقال: من أحبني وأحب هـذين وأباهمـا وأمهمـا كان معي في درجتي يوم القيامة)(2): (قال أبو عبد الـرحمن عبـد الله: لما حدث بهذا الحـديث نصـر بن علي، أمـر المتوكـل بضـربه ألف سوط، فكلمـه جعفـر بن عبـد الواحـد وجعـل يقـول لـه: هـذا الرجل من أهل السنة، ولم يـزل بـه حـتى تركـه، وكـان لـه أرزاق فوفرها عليه موسى)(3)

والعجيب أن الخطيب البغــدادي في تعليقــه على الحادثــة، معتـذرا عن ضـرب المتوكـل لـه، قـال: (قلت: إنمـا أمـر المتوكـل بضربه لأنه ظنه رافضيا، فلما علم أنه من أهـل السـنة تركـه) (4)، أي أنه لو فعل ذلك مع الشيعة لكـان فعلا مشـروعا، بـل مسـتحبا، بل واجبا.

وهذه الحادثة تشير إلى ذلك التضييق الـذي مارسـه المتوكـل في حـق الورايـات المرتبطـة بأهـل بيت النبـوة، في نفس الـوقت الذي فتح فيه المجال لروايات التشبيه والتجسـيم والخرافـة، وقـد قال الشيخ حسن بن فرحان المالكي يذكر ذلك: (كان أثر المتوكل

1() شرح حديث النزول (ص: 50)

2() رواه أحمد 1/ 77 ورواه في فضائل الصحابة، 2/ 693..

3() تاريخ بغداد ، (15/ 389)

4() المرجع السابق، (15/ 389)

واضحاً في هجر أحاديث أهل البيت؛ فعصر المتوكل نقطة تحول في الافتراق بين السنة والشيعة بسبب عصبية السياسة؛ لا بسبب المذهبين؛ ودراسة عصر المتوكل سيجيب على الأسئلة الكبيرة؛ مثل: لماذا أهل الحديث تركوا أحاديث أهل البيت؟ لماذا افترقت رواية السنة والشيعة؟ وغيرها) (1)

وبعد أن ذكر مدى صحة ذلك الحديث الذي ضرب بسببه محمد بن نصر قال: (وهذا السند المسلسل بأهل البيت؛ هم ثقات أثبات عند أهل الحديث؛ متقدميهم ومتأخريهم؛ ولكنهم قللوا من الرواية عنهم بسبب الضغوط السياسية الناصبية؛ وقد بدأت المرحلة الأولى الشفوية في عهد معاوية.. ولو أن علماء السنة والشيعة؛ سلموا من السياسات الفاصلة بينهما؛ لكانوا إلى اليوم مذهباً واحداً؛ ولما شاعت الأحاديث الضعيفة والخرافات والتباعد؛ فالأثر السياسي كان كبيراً جداً على الثقافة وأهل الحديث والرواية؛ من جميع المذاهب؛ وإلا؛ فالأصل؛ أن المسلمين مذهبهم واحد؛ هو الإسلام)(2)

وهكذا، فإن الحقد الذي امتلأ به صدر المتوكل لآل بيت النبوة، جعله لا يكتفي بالقتل، وإنما ذهب لقبورهم يهدمها، ويسويها بالأرض، مثلما تفعل شيعته من السلفية تماما، يقول أبو الفرج الأصفهاني (المتوفى: 356هـ) في كتابه [مقاتل الطالبيين]، مصورا بعض ما حصل من ذلك: (كان المتوكل شديد الوطأة على آل أبي طالب، غليظاً على جماعتهم، مهتماً بأمورهم، شديد الغيظ والحقد عليهم، وسوء الظن والتهمة لهم، واتفق له أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزيره، يسئ الرأي فيهم، فحسَّن له القبيح في معاملتهم، فبلغ فيهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بني العباس قبله، وكان من ذلك أن كَرَبَ قبر الحسين وعَفَّى آثاره، ووضع على سائر الطرق مسالح له، لا يجدون أحداً زاره إلا أتوه به،

1() انظر مقالا بعنوان: لسان حال السلطة : اعطوهم من هذا الدين حتى يشبعوا وينسوكم: المتوكل ناصر السنة، حسن بن فرحان المالكي، 22/10/2016.

2() المرجع السابق.

فقتله، أوأنهكه عقوبة)(1)

وذكـر سـبب ذلـك، وهـو يشـير إلى مـدى انحرافـه الأخلاقي، بالإضافة لانحرافه الديني، فقال: (حدثني أحمـد بن الجعـد الوشـاء وقد شاهد ذلك، قال: كان السبب في كرب قبر الحسـين أن بعض المغنيـات كـانت تبعث بجواريهـا إليـه قبـل الخلافـة يغـنين لـه إذا شرب، فلما وليها بعث إلى تلك المغنية فعرف أنهـا غائبـة، وكـانت قد زارت قبر الحسـين، وبلغهـا خـبره، فأسـرعت الرجـوع، وبعثت إليه بجارية من جواريهـا كـان يألفهـا فقـال لهـا: أين كنتم؟ قـالت: خرجت مولاتي إلى الحج وأخرجتنـا معهـا وكـان ذلـك في شـعبان، فقـال: إلى أين حججتم في شـعبان؟ قـالت: إلى قـبر الحسـين. فاستطير غضباً وأمر بمولاتها فحبست، واستصفى أملاكها) (2)

وذكـر جرائمـه في حـق المقـام، فقـال: (وبعث برجـل من أصحابه يقال له: الـديزج وكـان يهوديـاً فأسـلم، إلى قـبر الحسـين وأمره بكرب قبره ومحوه، وإخـراب كـل مـا حولـه، فمضـى ذلـك وخرب ما حوله وهدم البنـاء وكـرب مـا حولـه، نحومـائتي جـريب، فلما بلغ إلى قـبره لم يتقـدم إليـه أحـد، فأحضـر قومـاً من اليهـود فكربوه! وأجرى الماء حوله، ووكل بـه مسـالح بين كـل مسـلحتين ميل، لا يزوره زائر إلا أخذوه ووجهوا به إليه) (3)

وذكـر الطـبري (المتـوفى: 310هــ) هـذه الجريمـة البشـعة، فقال: (ذكر خبر هدم قبر الحسين بن علي: وفيها (سنة ٢٣٦) أمـر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي، وهـدم مـا حولـه من المنـازل والدور، وأن يحرث ويبذر ويسقى موضـع قـبره، وأن يمنـع النـاس من إتيانه. فذُكر أن عامل صاحب الشرطة نـادى في الناحيـة: من وجدناه عند قـبره بعـد ثلاثـة بعثنـا بـه إلى المطبـق [سـجن مظلم

1() مقاتل الطالبيين (ص: 478)

2() المرجع السابق (ص: 478)

3() المرجع السابق (ص: 478)

تحت الأرض]، فهرب الناس، وامتنعوا من المصير إليه، وحُرث ذلك الموضع، وزُرع ما حواليه) (1)

وقد اتفق على ذم هذه الفعلة الشنيعة كل المسلمين ما عدا الطائفة الوهابية، التي أثنت على المتوكل بسبب هذه الجريمة وغيرها، واعتبروه ناصرا للسنة، وهو على خلاف ما ذهب إليه أهل السنة أنفسهم في ذلك العصر وبعده، فقد قال جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) بعد ذكره للحادثة: (فتألم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد، وهجاه الشعراء، فمما قيل في ذلك(2):

بالله إن كانت أميةُ قد أتت ... قتلَ ابن بنت نبيِّهَا مظلوما
فلقد أتاهُ بنو أبيه بمثله ... هذا لعمري قبرُه مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتلهِ فَتَتَّبعُوهُ رميما

لكن مع ذلك، ومع كل تلك التحذيرات والجرائم، ظل المسلمون يزورون القبر الشريف، وكل ما أحاط حوله من مشاهد، ويتحدونه على الرغم من المآسي الكبيرة التي حصلت لهم بسبب ذلك، وقد ذكر الطوسي ذلك، فقال في أماليه: (بلغ المتوكل جعفر بن المعتصم أن أهل السواد يجتمعون بأرض نينوى لزيارة قبر الحسين، فيصير إلى قبره منهم خلق كثير، فأنفذ قائداً من قواده، وضم إليه كتفاً من الجند كثيراً، ليشعب قبر الحسين، ويمنع الناس من زيارته والإجتماع إلى قبره، فخرج القائد إلى الطف وعمل بما أمر، وذلك في سنة سبع وثلاثين ومائتين، فثار أهل السواد به، واجتمعوا عليه وقالوا: لوقتلنا عن آخرنا لما أمسك من بقي منا عن زيارته، ورأوا من الدلائل ما حملهم على ما صنعوا، فكتب بالأمر إلى الحضرة، فورد كتاب المتوكل إلى القائد بالكف عنهم والمسير إلى الكوفة، مظهراً أن مسيره إليها في مصالح أهلها، والإنكفاء إلى المصر! فمضى الأمر على ذلك حتى

(1) تاريخ الطبري (٩ / ١٨٥)

(2) تاريخ الخلفاء، ص ٣٧٤.

كانت سنة سبع وأربعين، فبلغ المتوكل أيضاَ مصير الناس من أهل السواد والكوفة إلى كربلاء لزيارة قبر الحسين، وأنه قد كثر جمعهم كذلك وصار لهم سوق كبير، فأنفذ قائداً في جمع كثير من الجند، وأمر منادياً ينادي ببراءة الذمة ممن زار قبر الحسين، ونَبَشَ القبر وحرث أرضه، وانقطع الناس عن الزيارة. وعمل على تتبع آل أبي طالب والشيعة رضي الله عنهم، فقتل ولم يتم له ما قَدَّر)(1)

وقد عاصر هذه الأحداث الأليمة الإمام الهادي، ووقف في وجهها حاضا مواليه على الزيارة، مبينا أهميتها وضرورتها، وقد كان يقول لهم: (علامات المؤمن خمس: صلاة الإحدى والخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم)(2)

ولم يكتف بكل ذلك، بل راح يستعمل كل وسائل التضييق على الأحياء من أهل بيت النبوة، وخصوصا من تعلق الناس بهم، ومن الأمثلة على ذلك ما قام به من إيذاء وتضييق على الإمام علي الهادي، بالإضافة إلى قتله الكثير منهم من أمثال محمد بن صالح بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن بن جعفر بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين بن أبي طالب، والقاسم بن عبدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وغيرهم من الذين ذكرهم الأصفهاني في مقاتل الطالبيين.

وقد ذكر الأصفهاني بعض ما حصل لمن لم يقتله منهم، فقال: (واستعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرج الرخجي فمنع آل أبي طالب من التعرض لمسألة الناس، ومنع الناس من البر بهم، وكان لا يبلغه أن أحدا أبر أحدا منهم بشيء وإن قل إلا أنهكه عقوبة وأثقله غرما، حتى كان القميص يكون بين جماعة من

(1) أمالي الطوسي / ٣٢٨.

(2) الحبل المتين: ص ٢٢٨، ومصباح المتهجد: ص ٧٨٨.

العلويات يصلين فيه واحدة بعد واحدة ثم يرقعنه ويجلسن على معازلهن عواري حواسر، إلى أن قتل المتوكل، فعطف المنتصر عليهم وأحسن لهم)(1)

4 ـ المتوكل.. والتحريض الطائفي:

لم يكن الأمر في ذلك العصر الذي ولي فيه المتوكل قاصرا على بغض أهل بيت النبوة، ومن شايعهم، وانتصر لهم، بل إنه شمل الجميع ما عدا من يسمون أنفسهم أهل الحديث، وخاصة من غلب عليه النصب منهم، أما من عداهم؛ فقد أوذوا إيذاء شديدا، ليس من المتوكل فقط، وإنما من أولئك العلماء الذين أسند إليهم المتوكل أمور الدين، وخول لهم أن يعاقبوا من شاءوا بما شاءوا.

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه البيهقي في [مناقب أحمد] عن محمد بن أحمد بن منصور المروذي أنه استأذن على أحمد بن حنبل، فأذن له، فجاء أربعة رسل المتوكل يسألونه فقالوا: الجهمية يستعان بهم على أمور السلطان قليلها وكثيرها أولى أم اليهود والنصارى؟ قال أحمد: (أما الجهمية فلا يستعان بهم على أمور السلطان قليلها وكثيرها، وأما اليهود والنصارى فلا بأس أن يستعان بهم في بعض الأمور التي لا يسلطون فيها على المسلمين حتى لا يكونوا تحت أيديهم، قد استعان بهم السلف)، قال محمد بن أحمد المروذي: أيستعان باليهود والنصارى وهما مشركان، ولا يستعان بالجهمي؟ قال: (يا بني يغتر بهم المسلمون وأولئك لا يغتر بهم المسلمون) (2)

ونحب أن نذكر أن المراد من الجهمية هنا كل منزهة الأمة، بدليل أن القضايا التي ينكرونها على الجهمية هي نفس القضايا التي ينكرونها على جميع المدارس الكلامية بما في ذلك إثبات الجهة والمكان لله تعالى، أو إثبات الصورة والأعضاء وغيرها، مما

1() مقاتل الطالبيين، ص 599.

2() نقلا عن الآداب الشرعية والمنح المرعية (1/ 256)

ذكرناه بتفصيل في كتاب [السلفية والوثنية المقدسة]

وبما أن الأشاعرة والماتريدية لم يظهرا بعد في ذلك العصر[1]، فقد كان التشدد كبيرا مع الطائفتين اللتين تمثلان المنزهة ذلك الحين، وهما الشيعة والمعتزلة.

بل إن التشدد بلغ حتى أصحاب المذاهب الأربعة غير المذهب الحنبلي، وقد كان متوجها خصوصا للمذهب الحنفي، وإمامه أبي حنيفة، والذي كان يفتى في ذلك العصر بتكفيره.

وقد أورد عبد الله بن أحمد بن حنبل (213 هـ- 290 هـ) المعاصر للمتوكل في كتابه [السنة] نصوصا كثيرة في تكفيره، عنون لها بهذا العنوان [ما حفظت عن أبي وغيره من المشايخ في أبي حنيفة]، ونحب أن نذكر بعضها هنا كنموذج لتلك الروايات التي كانت تنتشر في ذلك العصر، لتقسم الأمة إلى طوائف يقتل بعضها، ويحتقر بعضها بعضا.

ومن تلك الروايات التي أوردها ما رواه عن إسحاق بن منصور الكوسج، قال: قلت لأحمد بن حنبل: يؤجر الرجل على بغض أبي حنيفة وأصحابه؟ قال: إي والله[2].

وروى عن سعيد بن سلم، قال سألت أبا يوسف وهو بجرجان عن أبي حنيفة، فقال: (وما تصنع به مات جهميا)[3]، وقال: قلت لأبي يوسف أكان أبو حنيفة يقول بقول جهم؟ فقال: (نعم)[4]

وروى عن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، يقول: (هو دينه

---

[1] () لأن الأشاعرة ينتسبون لأبي الحسن الأشعري (260هـ - 324هـ)، والماتريدية لأبي منصور الماتريدي (توفي 333 هـ)

[2] () السنة لعبد الله بن أحمد، (1/180)

[3] () المرجع السابق، (1/181)

[4] () المرجع السابق ، (1/181)

ودين آبائه يعني القرآن مخلوق)[1]

وروى عن حازم الطفاوي قال: وكـان من أصـحاب الحـديث: (أبو حنيفة إنما كان يعمل بكتب جهم تأتيه من خراسان)[2]

وروى عن عمـر بن حمـاد بن أبي حنيفـة، قـال: أخـبرني أبي حماد بن أبي حنيفة، قال: أرسل ابن أبي ليلى إلى أبي فقـال لـه: تب مما تقول في القرآن أنه مخلوق وإلا أقدمت عليك بمـا تكـره، قال: فتابعه قلت: يـا أبـه كيـف فعلت ذا؟ قـال: (يـا بـني خفت أن يقدم علي فأعطيت تقية)[3]

وروى عن سـفيان الثـوري قولـه: قـال لي حمـاد بن أبي سـليمان: (اذهب إلى الكـافر يعـني أبـا حنيفـة فقـل لـه: إن كنت تقول: إن القرآن مخلوق فلا تقربنا)[4]

وروى عن سفيان الثـوري، قـال: سـمعت حمـادا، يقـول: (ألا تعجب من أبي حنيفة يقول: القرآن مخلـوق، قـل: لـه يـا كـافر يـا زنديق)[5]

وروى عن عبدة بن عبد الرحيم، قال دخلنـا على عبـد العزيـز بن أبي رزمة نعوده أنا وأحمد بن شبويه وعلي بن يونس فقال لي عبد العزيز: يا أبا سعيد، عنـدي سـر كنت أطويـه عنكم فـأخبركم، وأخرج بيده عن فراشه فقال سمعت ابن المبارك يقـول: سـمعت الأوزاعي يقـول: (احتملنـا عن أبي حنيفـة كـذا وعقـد بأصـبعه،

1() المرجع السابق ، (1/182)

2() المرجع السابق ، (1/183)

3() المرجع السابق ، (1/183)

4() المرجع السابق ، (1/184)

5() المرجع السابق ، (1/184)

واحتملنا عنه كذا وعقد بأصبعه الثانية، واحتملنا عنه كذا وعقد بأصبعه الثالثة العيوب حتى جاء السيف على أمة محمد ﷺ فلما جاء السيف على أمة محمد ﷺ لم نقدر أن نحتمله)(1)

وروى عن الأوزاعي، أنه ذكر أبا حنيفة فقال لا أعلمه إلا قال ينقض عرى الإسلام(2)

وروى عنه أيضا قوله: (أبو حنيفة ضيع الأصول وأقبل على القياس)(3)، وقوله: (ما ولد في الإسلام مولد أشر من أبي حنيفة وأبي مسلم وما أحب أنه وقع في نفسي أني خير من أحد منهما وأن لي الدنيا وما فيها)(4)، وقوله: (لو كان هذا الخطأ في أمة محمد ﷺ لأوسعهم خطأ، ثم قال: ما ولد في الإسلام مولد أشأم عليهم من أبي حنيفة)(5)

وروى عن سلام بن أبي مطيع قوله: (كنت مع أيوب السختياني في المسجد الحرام فرآه أبو حنيفة فأقبل نحوه، فلما رآه أيوب قال لأصحابه: قوموا لا يعدنا بجربه، قوموا لا يعدنا بجربه)(6)

وروى عن أيوب قوله: (لقد ترك أبو حنيفة هذا الدين وهو أرق من ثوب سابري)(7)

1() المرجع السابق ، (1/185)

2() المرجع السابق ، (1/186)

3() المرجع السابق ، (1/186)

4() المرجع السابق ، (1/187)

5() المرجع السابق ، (1/187)

6() المرجع السابق ، (1/188)

وروى عن ابن عون قوله: (ما ولد في الإسلام مولود أشأم على أهل الإسلام من أبي حنيفة)[1]

وروى عن معرف قال: دخل أبو حنيفة على الأعمش يعوده فقال: يا أبا محمد لولا أن يثقل، عليك مجيئي لعدتك في كل يوم، فقال الأعمش: من هذا؟ قالوا: أبو حنيفة، فقال: (يا ابن النعمان أنت والله ثقيل في منزلك فكيف إذا جئتني)[2]

وروى عن سفيان بن سعيد قوله: (ما ابن يحطب بسيفه أقطع لعرى الإسلام من هذا برأيه يعني أبا حنيفة)[3]

وروى عن مالك أنه ذكر أبا حنيفة فذكره بكلام سوء وقال: (كاد الدين، وقال: من كاد الدين فليس من الدين)[4]، وقوله: (أيذكر أبو حنيفة ببلدكم؟) قلت: نعم، قال: (ما ينبغي لبلدكم أن يسكن)[5]، وقوله: (أبو حنيفة من الداء العضال.. أبو حنيفة ينقض السنن)[6]، وقوله: (ما ولد في الإسلام مولود أضر على أهل الإسلام من أبي حنيفة)[7]

7() المرجع السابق ، (1/189)

1() المرجع السابق ، (1/189)

2() المرجع السابق ، (1/190)

3() المرجع السابق ، (1/198)

4() المرجع السابق ، (1/199)

5() المرجع السابق ، (1/199)

6() المرجع السابق ، (1/199)

7() المرجع السابق ، (1/200)

وروى عن شريك بن عبد الله قوله: (لأن يكـون في كـل ربـع من أرباع الكوفة خمار يبيع الخمر خير من أن يكون فيه من يقـول بقـول أبي حنيفـة)[1]، وقولـه: (أصـحاب أبي حنيفـة أشـد على المسلمين من عدتهم من لصوص تاجر قمي)[2]

وروى عن أسود بن سالم قوله: (إذا جاء الأثر ألقينـا رأي أبي حنيفـة وأصـحابه في الحش)، ثم قـال لي أسـود: (عليـك بـالأثر فالزمه أدركت أهل العلم يكرهون رأي أبي حنيفة ويعيبونه)[3]

وروى عن محمد بن جـابر قولـه: سـمعت أبـا حنيفـة، يقـول: (أخطأ عمر بن الخطاب، فأخذت كفا من حصى فضربت به وجهه)[4]

هــذا مجــرد نمــوذج عن موقــف من علم واحــد من أعلام المسلمين، وهو من المدرسة السنية، ومع ذلك قيلت فيه كل تلك الأقـوال، فكيـف بغـيره، ممن تشـم فيـه روائح الـولاء لأهـل بيت النبوة، أو يشم فيهم بعض الاهتمام الفلسفي والعقلي.

5 ـ المتوكل.. والمال العام:

مثلمـا ذكرنـا سـابقا من أن الخلفـاء الأمـويين والعباسـيين وغيرهم من أصحاب الملك العضوض، كانوا يعتـبرون المـال العـام ملكا خاصا بهم، فقد راح المتوكل مثـل غـيره يتلاعب بـه، ويوزعـه لمن شاء، ويحرم منه من شاء، ويسـتعمله وسـيلة لتوطيـد ملكـه، وخنق كل من يعارضه.

وللأسف، فإن العلماء الذين يذكرون سيرته في هـذا الجـانب

1() المرجع السابق ، (1/203)

2() المرجع السابق ، (1/203)

3() المرجع السابق ، (1/224)

4() المرجع السابق ، (1/224)

لا يوردونها في سيئاته، وإنما يوردونهـا في حسـناته، واعتبرهـا من الكرمـاء أصـحاب الجـود، ولسـت أدري على أي دليـل شـرعي اعتمدوا على ذلك.

ومن الأمثلـة على ذلـك شـمس الـدين الـذهبي (المتـوفى: 748هـ) تلميذ ابن تيمية، والذي اعتبر المتوكل ناصرا للسنة، وكان متشددا جدا مع المخالفين يرميهم بأقذر التهم لأتفه الأسباب، ومع ذلك لم يلتفت لكل ذلـك الإسـراف الـذي كـان عليـه هـذا الناصـر للسنة.

فقد روى في [سير أعلام النبلاء] بعض مظاهر ذلك، ومنها ما عن الشاعر علي بن الجهم، وأنه دخل على المتوكل، وبيده درتـان من المـال يقلبهمـا، فأنشـده قصـيدة لـه، فأعطـاه واحـدة منهـا، فقلبهـا، فلمـا رآه يفعـل ذلـك، ظن أنـه يستنقصـها، فقـال لـه: تستنقص بها.. هي والله خير من مائة ألف، فقـال علي بن الجهم: لا والله، لكني فكرت في أبيات آخذ بها الأخرى، ثم أنشأ يقول:

بسر من رأى إمام عدل.. تغرف من بحره البحار

يرجى ويخشى لكل خطب.. كأنه جنة ونار

الملك فيه وفي بنيه.. ما اختلف الليل والنهار

لم تأت منه اليمين شيئا.. إلا أتت مثلها اليسار

فلما سمع ذلك المتوكل أعطاه الثانية، وقال: خـذها، لا بـارك الله لك فيها[1].

والعجب أن الذين يروون هذه الحادثة لا يتهمون المتوكـل ولا الشاعر بالشـرك، مـع أنهم ضـللوا النـاس جميعـا، وحكمـوا عليهم بذلك، ولأتفه الأسباب.

ومثل ذلك روى عن مروان بن أبي الجنوب أنه مدح المتوكـل بقصيدة، فوصله بمائة وعشرين ألفا، وثياب[2]، وقـد ذكرنـا سـابقا

[1] () سير أعلام النبلاء (9/ 444).

أن هذه المبالغ ليست هينة، ذلك أن المائة ألـف درهم من الفضـة تساوي عشرة آلاف دينار من الـذهب، وكـل دينـار يسـاوي تقريبـا 4.25 غرام من الذهب، أي أنه أعطـاه مقابـل القصـيدة أكـثر من 42 كيلو غرام ذهب.

وهكذا ذكر الذهبي في [سير أعلام النبلاء] من غير تعقيب ولا عتـاب ولا لـوم كعادتـه، بعض ذلـك الكـرم الـذي كـان يغـدق بـه المتوكل على كل من تقرب منه، فقال: (وقد أنفق المتوكل، فيمـا قيل على الجوسق، والجعفري والهاروني أكثر من مائتي ألف ألف درهم. ويقال: إنه كان له أربعة آلاف سـرية وطئ الجميـع، وقتـل، وفي بيت المال أربعة آلاف ألـف دينـار، وسـبعة آلاف ألـف درهم، ولا يعلم أحــد من رؤوس الجــد، والهــزل إلا وقــد حظي بدولتــه، واستغنى، وقد أجاز الحسين بن الضحاك الخليع على أربعـة أبيـات أربعة آلاف دينار، وفيه يقول يزيد بن محمد المهلبي:

جاءت منيته والعين هاجعة.. هلا أتته المنايا والقنا قصد

خليفة لم ينل من ماله أحد.. ولم يصغ مثله روح ولا جسد)(1)

أما ما كان ينفقـه من مـال في شـؤونه الخاصـة، ومـا يرتبـط بجواريه وقصـوره، فلا يمكن عـده، وقـد ذكـر الطـبري وغـيره من المؤرخين ما يسمى بالجوسق، والجعفـري والهـاروني، وهـو بنـاء كلف مالا كثيرا، وقد بناه حين بلغ من العمر 40 سنة، ولم يبق لــه حينها من عمره إلا سنتان.

يقول الطبري في أحداث 245 هـ: (ففيها أمر المتوكـل ببنـاء الماحوزة، وسماها الجعفري، وأقطـع القـواد وأصـحابه فيهـا، وجـد في بنائها، وتحول إلى المحمدية ليتم أمـر المـاحوزة، وأمـر بنقض القصر المختار والبديع، وحمل ساجهما إلى الجعفري، وأنفق عليها ـ فيما قيل ـ أكثر من ألفي ألف دينار، وجمع فيهـا القـراء فقـرؤوا، وحضر أصحاب الملاهي فوهب لهم ألفي ألف درهم، وكان يسميها

2() المرجع السابق، (9/ 444).

1() المرجع السابق، (9/ 448).

هو وأصحابه الخاصة المتوكلية، وبنى فيها قصرا سماه لؤلؤة، لم ير مثله في علوه، وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه خمسة فراسخ فوق الماحوزة من موضع يقال له كرمى يكون شربا لما حولها من فوهه النهر إليها، وأمر بأخذ جبلتا والخصاصة العليا والسفلى وكرمى، وحمل أهلها على بيع منازلهم وأرضهم، فأجبروا على ذلك حتى تكون الأرض والمنازل في تلك القرى كلها له، ويخرجهم عنها، وقدر للنهر من النفقة مائتي ألف دينار، وصير النفقة عليه إلى دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا في ذي الحجة من سنة خمس وأربعين ومائتين، وألقى في حفر النهر اثني عشر ألف رجل يعملون فيه، فلم يزل دليل يعتمل فيه، ويحمل المال بعد المال ويقسم عامته في الكتاب، حتى قتل المتوكل، فبطل النهر، وأخربت الجعفرية، ونقضت ولم يتم أمر النهر، فغضب بغا، وأمر بسحبها، وكان آخر العهد بها)[1]

وهذا النص الذي ذكره الطبري والذهبي وغيرهما من المؤرخين كاف وحده في رميه بكل أصناف التهم، ابتداء من اللصوصية واختلاس المال العام، وإجبار الناس على الخروج من بيوتهم، وتوفير الأماكن الخاصة باللهو والفجور.. وغير ذلك كثير، فكل لفظة في ذلك النص التاريخي تذكر جريمة من الجرائم.

ولكن مع ذلك كله يذكرون أنه ناصر السنة، وقامع البدعة، ولست أدري هل قرأ هؤلاء ما ذكره القرآن الكريم عن قارون الذي لم تبلغ جرائمه معشار جرائم المتوكل، ذلك أن قارون كان صاحب ملك خاص، ولم يكن ملكا، ولا خليفة، ولم يكن تحت يده إلا ماله الذي زعم أنه أخذه بعلمه، ومع ذلك ذمه القرآن الكريم لترفه وزهوه وكبريائه.. أما المتوكل فقد أضاف إلى ذلك كله اغتصاب مال الأمة، والتلاعب به.. ولكنهم مع ذلك يظلون يذمون قارون، ويترضون على المتوكل.. ولست أدري المنطق الذي يجمع هذه المتناقضات.

6 ـ المتوكل.. والصراع مع القيم:

---

[1] تاريخ الطبري، (9/ 212)

لم يكتف المتوكل العباسي بكل تلك الجرائم التي قام بها في حق الأمة الإسلامية، وإنما أضاف إليها ذلك الانحراف السلوكي الخطير، الذي أعطى أسوأ الأمثلة عن الحاكم المسلم الذي يجمع بين الاستبداد والفجور بكل معانيهما.

والمشكلة الأكبر من هذه اعتباره ناصرا للسنة؛ ولست أدري هل يمكن أن ينصر السنة رجل شهد له الجميع بالفسق والفجور، ابتداء من أولئك الذين يلقبونه بهذا اللقب، وانتهاء بابنه الذي قتله بسبب بعض ممارساته في الفسق والفجور؟

والمشكلة الأكبر من كل ذلك هي تحوله عند الكثير من المغفلين إلى رمز من رموز السنة، وإشادتهم به على المنابر، وفي كل محل، واتهامهم لمن ينتقده بكل أنواع التهم.. فإذا ما رجع العامة إلى هذه الشخصية التي كيلت لها كل تلك المدائح، وجدوها بتلك الصفات التي يتنزه عنها أبسط الناس.

وقبل أن أنقل بعض ما ذكره المؤرخون عنه أنقل هذه الكلمة من الشيخ حسن بن فرحان المالكي، وهي موجودة في كل المصادر التاريخية، لكني تعمدت نقلها عنه، لربطه لما ذكره المؤرخون بما نراه في العصر الحديث، فقد قال: (كان المتوكل من صباه يجالس المخنثين، ويلبس لبسهم، ويقص شعره قُصة أظنها تشبه قُصة مايكل جاكسون، وكان الخليفة الواثق ساخطاً عليه لهذا؛ وأخباره مع المخنثين كثيرة؛ في صباه وكهولته) [1]

ثم ساق ما ورد في تاريخ الطبري عن محمد بن عبد الملك وزير الواثق أنه قال: أتاني جعفر بن المعتصم (هو المتوكل) يسألني أن أسال أمير المؤمنين الرضا عنه في زي المخنثين له شعر قفا، فكتب إليه الواثق: ابعث إليه فأحضره، ومر من يجز شعر قفاه، ثم مر من يأخذ من شعره ويضرب به وجهه، واصرفه إلى منزله؛ فذكر عن المتوكل أنه قال: لما أتاني رسوله، لبست سوادا لي جديدا، وأتيته رجاء أن يكون قد أتاه الرضا عنى، فقال:

---

[1] انظر مقالا بعنوان: لسان حال السلطة : اعطوهم من هذا الدين حتى يشبعوا وينسوكم: المتوكل ناصر السنة، حسن بن فرحان المالكي، 22/10/2016.

يا غلام، ادع لي حجاما، فدعي به، فقال: خذ شعره واجمعه، فأخذه على السواد الجديد ولم يأته بمنديل، فأخذ شعره وشعر قفاه وضرب به وجهه، قال المتوكل: فما دخلني من الجزع على شيء مثل ما دخلني حين أخذني على السواد الجديد، وقد جئته فيه طامعا في الرضا، فاخذ شعرى عليه)[1]

ثم علق على الحادثة بقوله: (فالرجل ما زال يتأسف على تأديب الواثق له، غير نادم على تخنثه؛ وفي خلافته ما هي أخباره تلك؟ هل تاب أو ارعوى أو ندم؟ للأسف؛ بقي على منادمة المخنثين حتى قتل وهو سكران مع عبادة المخنث؛ وهو مشهور)[2]

وما رواه الطبري وغيره للأسف صحيح عنه، وهو وارد في كل المصادر التاريخية، والذهبي وغيره يقرون بذلك، ولكنهم يدافعون عنه بسبب ما يتصورونه من سلامة عقيدته، فلا يهم عندهم أن يكون هذا الناصر للعقيدة شاذا أو منحرفا أو فاسقا، ما دام يذكر أن الله في السماء، وأن له ساقا ويدا وأنامل وأصابع وقدما.

وللأسف فإن السيوطي الذي عرف المتوكل بكونه (أظهر الميل إلى السنة، ونصر أهلها، ورفع المحنة، وكتب بذلك إلى الآفاق)[3]، وأشاد به كثيرا هو نفسه الذي نقل عن المؤرخين قولهم عنه: (وكان منهمكًا في اللذات والشراب، وكان له أربعة آلاف، ووطئ الجميع)[4]

ومع أن كل الروايات تذكر الشراب، وتسميه بالخمر، وتربطه

1() تاريخ الطبري (9/ 157).

2() المرجع السابق.

3() تاريخ الخلفاء (ص: 252).

4() المرجع السابق، (ص: 255).

بالسكر إلا أنهم يتعللون لذلك بما ذكره ابن خلدون من أنهم كانوا يشربون النبيذ، وليس الخمر، أما آلاف الجواري، فيعتبرونهم ملك يمين.. وهكذا يجوزون كل ألوان الفجور، ويحتالون لها بالتلاعب بالشريعة من أجل أن يبقى لهم رمزهم سليما معصوما.

ولست أدري بماذا يبررون ميله إلى المخنثين المجاهرين بفسقهم، وهو ما نصت عليه كل كتب التاريخ، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره التنوخي في [نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة]، فقد قال: (وكان عبادة المخنث ينادم المتوكل، وكان عبادة مجاهرا بالعهر)(1)

ومما يدل على شيوع الإرجاء في ذلك العصر، وفي كل العصور التي انتشر فيها المذهب السلفي، الذي لا يهتم إلا بالخلافات العقدية، ما رواه أبو أبو العيناء عنه قال: (أقبل جحظة ذات يوم يعظ عبادة المخنث، فقال له عبادة: مخنث مسلم مقر، خير من زنديق فاجر مصر)(2)، فالعبرة عندهم بأن تكون مسلما سنيا، ولا يهم بعد ذلك سلوكك وأخلاقك.

وكان من عادة المتوكل كذلك، مثله مثل سائر أتباع الملك العضوض الاهتمام بالمضحكين والمهرجين، وفي مجالسه الخاصة، المرتبطة بالحكم، وقد ذكروا أنه كان له مضحكان، يقال لأحدهما شعرة، وللآخر بعرة(3).

أما مجالس شرابه ولهوه، فقد نصت عليها كتب التاريخ والأدب، التي ألفها من يعظمونه ويحترمونه، ويؤمنون أنه ناصر للسنة، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ياقوت الحموي عن بعضهم قال: (كنت أرى علي بن يحيى بن علي المنجم فأرى صورته وصغر خلقته ودقة وجهه وصغر عينيه وأسمع بمحله من الواثق

---

(1) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (6/ 321)

(2) البصائر والذخائر (6/ 50).

(3) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (6/ 321)

والمتوكل فأعجب من ذلك وأقول، بأيّ سبب يستظرفه الخليفة؟ وبماذا حظي عنده، والقرد أملح منه قباحة؟! فلما جالست المتوكل رأيت علي بن يحيى قد دخل على المتوكل في غداة من الغدوات التي قد سهر في ليلتها بالشرب، وهو مخمور يفور حرارة، مستثقل لكلّ أمر يخفّ دون ما يثقل، فوقف بين يديه، وقال: يا مولاي أما ترى إقبال هذا اليوم وحسنه وإطباق الغيم على شمسه وخضرة هذا البستان ورونقه، وهو يوم تعظّمه الفرس وتشرب فيه لأنه هرمز روز، وتعظّمه غلمانك وأكرتك مثلي من الدهاقين، ووافق ذلك يا سيدي أن القمر مع الزهرة، فهو يوم شرب وسرور وتخلّ بالفرح، فهشّ اليه وقال: ويلك يا عليّ ما أقدر أن أفتح عينيّ خمارا، فقال: إن دعا سيدي بالسواك فاستعمله وغسل بماء الورد وجهه وشرب شربة من ربّ الحصرم أو من مبنّة مطيبة مبرّدا ذلك بالثلج انحلّ كلّ ما يجد، فأمر باحضار كل ما أشار به، فقال عليّ: يا سيدي وإلى أن تفعل ذاك تحضر عجلانيتان بين يديك مما يلائم الخمار ويفتق الشهوة ويعين على تخفيفه فقال: أحضروا عليّا كل ما يريد، فأحضرت العجلانيتان بين يديه وفراريج كسكر قد صففت على أطباق الخلاف وطبخ حماضية وحصرمية ومطجنة لها مريقة، فلما فاحت روائح القدور هشّ لها المتوكل، فقال له: يا عليّ أذقني فجعل يذيقه من كلّ قدر بحرف يشرّبه فيها، فهشّ إلى الطعام وأمر باحضاره، فالتفت عليّ الى صاحب الشراب فقال لهم: ينبغي أن يختار لأمير المؤمنين شراب ريحاني ويزاد في مزاجه إلى أن يدخل في الشرب فيهنئه الله إياه إن شاء الله، قال: فلما أكل المتوكل وأكلنا نهضنا فغسلنا أيدينا وعدنا إلى مجالسنا وغنى المغنون فجعل عليّ يقول: هذا الصوت لفلان والشعر لفلان، وجعل يغني معهم وبعدهم غناء حسنا إلى أن قرب الزوال، فقال المتوكل: أين نحن من وقت الصلاة؟ فأخرج عليّ اصطرلابا من فضة في خفّه فقاس الشمس وأخبر عن الارتفاع وعن الطالع وعن الوقت، فلم يزل يعظم في عيني حتى صار كالجبل، وصار مقابح وجهه محاسن، فقلت: لأمر ما قدّمت، فيك ألفا خصلة: طيب مضحك، وأدب جليس، وحذق طباخ، وتصرف مغن، وفكر منجم، وفطنة شاعر، ما تركت شيئا مما يحتاج إليه الملوك إلا

ملكته)[1]

وحكى ياقوت مجلسا آخر من مجالسه، جمع فيه بين اللهو والتلاعب بمال الأمة، فقد قال نقلا عن بعض المؤرخين: (حدثني رذاذ غلام المتوكل قال: شهدت عليّ بن يحيى المنجم وقد أمره المتوكل أن يغنيه، وكنت جالسا الى جانبه، فقال لي: قد وقعت وإن تمنّعت جدّ بي حتى أغني ثم لا يكون له موقع، والمبادرة إلى أمره وسرعة الطاعة له أصوب، اضرب عليّ، فضربت عليه وغنى:

زار من سلمى خيال موهنا.. حبذا ذاك الخيال الطارق

جاد في النوم بما ضنّت به.. ربما يغنى بذاك العاشق

فقال: زه أجدت والله يا عليّ، فقال له عليّ: قد فرّحتك يا سيدي ففرحني، فدعاه وحيّاه بمشمة عنبر كانت بين يديه في صينية ذهب عليها مكبة منها وأمر له بألف دينار وتخوت ثياب، فقال لي: يا أبا شريك أناصفك؟ فقلت: لا والله لا قبلت من ذلك لا الكلّ ولا النصف فبارك الله لك فيه)[2]

وهكذا روي ابن خلكان عند حديثه عن المحنة التي مر بها الإمام الهادي في عهده، والتي ذكر فيها أنه استقدمه إليه بعد الوشاية به، وقد كان المتوكل حينها في حال سكر شديد، قال: (كان قد سعي به إلي المتوكل وقيل إن في منزله سلاحاً وكتاباً وغيرها من شيعته، وأوهموه أنه يطلب الأمر لنفسه، فوجه إليه بعدة من الأتراك ليلاً فهجموا عليه في منزله على غفلة، فوجدوه وحده في بيت مغلق وعليه مدرعة من شعر، وعلى رأسه ملحفة من صوف وهو مستقبل القبلة يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، ليس بينه وبين الأرض بساط إلا الرمل والحصى، فأخذ على الصورة التي وجد عليها وحمل إلى المتوكل في جوف الليل، فمثل بين يديه والمتوكل يستعمل الشراب وفي يده كأس، فلما

[1] إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (5/ 2015).

[2] المرجع السابق، (5/ 2017).

رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل عنه ولا حالة يتعلق عليه بها، فناوله المتوكل الكأس الذي كان بيده، فقال: يا أمير المؤمنين، ما خامر لحمي ودمي قط فأعفني منه، فأعفاه وقال: أنشدني شعراً أستحسنه، فقال: إني لقليل الرواية للشعر، قال: لابد أن تنشدني فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم.. غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عزٍ من معاقلهم.. فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا

ناداهم صارخٌ من بعد قبروا.. أين الأسرة والتيجان والحلل

أين الوجوه التي كانت منعمةً.. من دونها تضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم.. تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا.. فأصبح بعد طول الأكل قد أكلوا قال: فأشفق من حضر على علي وظن أن بادرة تبدر إليه، فبكى المتوكل بكاء كثيراً حتى بلت دموعه لحيته وبكى من حضره، ثم أمر برفع الشراب)[1]

وللأسف، فإن المدافعين عن المتوكل وغيره من أصحاب الملك العضوض لا ينظرون إلى جرائمه، ويكتفون ببكائه، وهو بكاء لا يسمن ولا يغني من جوع، ذلك أنه كان يفعل بعده كل ما يفعله قبله، وما فائدة البكاء حينئذ.

ونحن لا ننكر أن يكون في ذلك الحين الذي بكى فيه صادقا في بكائه، لكن ما فائدة البكاء من شخص استولت عليه نفسه وأهواؤه وشهواته، وصار أسيرا لها، إلى أن قتل كما يذكر المؤرخون وهو على تلك الحال.

---

[1] وفيات الأعيان (3/ 273)

وللأسـف فـإن أصـحاب النظـرات القاصـرة يكتفـون من أي شخص بمشهد من مشاهد الصدق، ولا ينظرون لمـا بعـده، مـع أن المواقف لا تتخذ إلا بعد الدراسة الشاملة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك عند بيانه لموقف الوليد بن المغيرة من القرآن الكريم، فلو أنا اكتفينا بذلك التأثر الذي بلغ بـه في لحظة من اللحظات أوجه، لاعتقدنا بإيمانه، وتقواه، وضـممناه إلى جملة الصحابة العدول.. ولكن الموقـف المرتبـط بتـأثره كـان محدودا جدا، ولم يكن له أي أثر عملي.

فقد قال تعالى معلمـا لنـا كيـف ننظـر نظـرة كليـة لا جزئيـة قاصرة: { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيـدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَـعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ } [المدثر: 11 - 25]

هل كان دخول المسلمين إلى الأندلس فتحا؟

اعذروني على هذا السـؤال؛ فهـو إن لم يكن وجيهـا بالنسـبة لكم، فهو وجيه بالنسبة لي، لأني لا أحب أن أسـمي الأشـياء بغـير أسـمائها، ولا أحب أن ألقى اللـه وأنـا أكـذب عليـه، ولا أحب أن أجلس بين الناس مسـلمين وغـير مسـلمين، وأحـدثهم عن أمجـاد الأندلس، وفي نفس الوقت أشعر بأني أمارس كل أنواع التضـليل والخداع، ولا أحب أن أردد تلك المقولة التي وصلتني كمـا وصـلت إلى آذانكم، والتي يخاطب فيها ذلك القائد ـ الذي يسمونه فاتحـا ـ المحيط الأطلسي قائلا له: لو أعلم أن هناك أرضـا خلفـك لسـرت إليها بجيوشي حتى أفتحها.

وطبعا لم يكن في ذلك الحين يعلم بوجود أمريكا.. ولكنه كان يعلم بوجود إفريقيا.. وأنهـا أرض يمكن أيضـا أن تفتح، من دون أن يغرق أحد في مستنقعاتها، ذلك أنه لم يكن فيها إلا أرضا مسـتوية، وسكانا بسطاء.. وكان المسلمون في ذلك الحين قـادرين على أن يفتحوها جميعا، وعلى بكرة أبيها من غير جيـوش جـرارة، ولا عـدد ولا عدة.. بل كان يمكنهم أن يحولوهـا قـارة إسـلامية من شـمالها إلى جنوبها، لو أنهم جمعوا تلك الأموال التي صرفوها على قصور الملوك والأمـراء، وأرسـلوا بهـا مـع جيـوش من الصـالحين التقـاة الذين يحملون الحجة لا السلاح، والسلام لا العنف.

وهكـذا كـان يمكنهم أن يفتحـوا أوروبـا جميعـا، لا الأنـدلس فقط.. كان في إمكانهم أن يفتحوها من غـير سـيوف، وأن يـتركوا فيها من الأثر مـا تركـه أولئـك التجـار البسـطاء في الهنـد والسـند وأندونيسيا وماليزيا والصين.. والتي دخل مئـات الملايين منهـا من غير أن يسمعوا صليل السيوف، ولا سنابك الخيل.

لكن الأنـدلس الـتي بقي فيهـا المسـلمون مـا يقـارب ثمانيـة قرون.. وخرجوا منها بعد ذلك، وهم يجرون أذيال الخيبة لم يفعلوا فيها شيئا.. سوى أن تركوا سمعة سيئة، وشـوهوا الإسـلام، وبقيت أوروبا إلى اليوم تلعن ذلك اليوم الذي رأت فيه أولئـك المسـلمين

الذين كانوا حجابا بينها وبين الحق.

لذلك كنت أدعو كل حين إخواني من المسلمين إلى الاعتـذار إلى الأوروبيين على تدنيس جيوشنا لأرضهم، وقتلنا لشعبهم.. لكن المغـرّر بهم والمخـدوعين، كـانوا يجيبونـني بغضـب قـائلين: هـل نسيت حضارة الإسلام في الأندلس؟.. وهل نسيت دورنا في تربية أوروبا وتطويرها من خلال فتحنا للأندلس؟

وأنا أعجب من هذه الإجابة، لأنهـا تؤكـد لي أن مـا حصـل في الأندلس لم يكن فتحا، وإنما كان نوعا بغيضا من أنواع الاسـتعمار، ذلـك أن المسـتعمر نفسـه يـردد نفس الكلمـات؛ فعنـدما يطـالب الجزائريـون المسـتعمر الفرنسـي بالاعتـذار والتعـويض يـذكر لهم أنهم كـانوا متخلفين، وأنـه كـان السـبب في تطـويرهم، بـدليل مـا تركه من عمران.

وكذلك نحن نقول للأندلسيين: أنسيتم قصر الزهراء، وجدرانه من المرمـر المـزين بالـذهب.. ذلـك الـذي وضـعت في جوانبـه التماثيل والصور البديعة، والـذي يوجـد في كـل جـانب من جوانبـه الأبواب المصنوعة من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر؟

ونذكر لهم قصر الحمراء بغرناطة، والذي بناه الملك أبو عبـد اللـه محمـد الأول، المعـروف باسـم ابن الأحمـر في آخـر معاقـل المسـلمين بالأنـدلس، مملكـة غرناطـة، خلال النصـف الأخـير من القرن العاشر الميلادي، والذي يعد ـ كما تذكرنا كتبنا ـ معلمة فنيـة شاهدة على عظمة فن العمـارة الإسـلامي، حـتى أنـه لُقِّب باسـم [عليل النفوس]

وننسى أن نذكر لهم ماذا كان يملأ تلك القصور من كل أنـواع الموبقات، التي غلفت بغلاف الإسلام، والفتح الإسـلامي.. وننسـى أن نـذكر لهم الجمـاجم الـتي سـقطت وهي تحمي تلـك القصـور الممتلئة بكل أنواع الاستبداد.

فهل ذهب المسلمون للأندلس ليبنوا القصور؟.. أم ذهبوا إلى هناك لتخليصهم من المستبدين كما تذكرون؟.. فإن كانوا قد فعلوا ذلك، فلم استبدلوا مستبدين يحملون الصليب، بمستبدين يحملـون

المصاحف، وأيهم أشد شناعة ذلك الذي يستبد بين قومه وعلى قومه، أم ذلك الذي يزعم أنه جاء ليحررهم؛ فملأ أرضهم فجورا ودماء، وقتل كل أخضر ويابس، وأولهم إخوانه الذين اختلف معهم في تقسيم الكعكة.

لذلك أنا أبكي كل حين على الأندلس.. لا على ضياعها، فذلك شيء معلوم وثابت في سنن الله تعالى، وإنما على دخول المسلمين إليها.. لأنهم لم يفعلوا سوى أن زرعوا العداوة والأحقاد في نفوس الأوربيين على الإسلام، بعد أن احتلوا أرضهم، ولم يعملوا على احتلال عقولهم وقلوبهم.

لذلك لم يكن احتلال الصليبيين لبلاد المسلمين في العصور الوسطى، ولا استعمارهم في العصر الحديث إلا نوعا من العقوبة على تلك الجريمة الكبرى التي فعلها أسلافهم في الأندلس، وكان في إمكانهم بدلها أن يحولوا من الأندلسيين والأووربيين أناسا مثل الماليزيين والأندونيسيين وغيرهم من الذين فتحوا قلوبهم وعقولهم من غير أن يرسلوا أي جيشهم إلى أرضهم.

طبعا هذا كلام لن يقبله أحد.. وحتى أنا لو عرض علي لن أقبله، فلا يمكن لشخص أن يتحدث في التاريخ دون أن يستعمل المنهج التاريخي، ويعتمد المصادر التاريخية، ولذلك سأذكر هنا نماذج تثبت حقيقة ما حصل في الأندلس، وما هي الأدوار التي مارسها المسلمون هناك، وهل كانت أدوار الفاتحين، فنسمي حينها ما حصل للأندلس فتحا، أم كانت غير ذلك؛ فلا نسميها بما لا تستحقه.

1 ـ الفاتحون.. والسلب والنهب:

من أول المغالطات التي نواجهها عندما نستفهم عن سر ذهاب المسلمين إلى الأندلس بجيوشهم الجرارة، لا بعلمائهم وصالحيهم، قول المبررين لذلك الدخول في المستنقع الأندلسي الذي دام ثمانية قرون كاملة: إن الغرض من ذلك هو تحريرهم، وبناء على طلبهم.

ولا بأس؛ فنحن يمكن أن نصدق هذا بسهولة، فالدول قد

يحتاج بعضها إلى بعض، بل إن الله تعالى أمرنا أن نتدخل لإنقاذ المستضعفين إذا ما طلبوا منا ذلك، أو كان لنا القدرة على نجدتهم حتى لو لم يطلبوا؛ فقد قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء: 75]

لكنّ تحرير المستضعفين شيء، والاستيلاء على أرضهم واغتصابها شيء آخر.. وهذا من المعلوم بالفطرة والبداهة، فهل يمكن للشرطي الذي تدعوه لإنقاذك من اللص، ألا يكتفي بطرد اللص، وإنما يطردك أنت أيضا، ثم يستولي على ممتلكاتك، وقد يعرضك أنت أيضا للبيع إن كان هناك سوق نخاسة؟

وهل يمكن أن نقبل في العصر الحالي من أمريكا التي زعمت أنها دخلت بجيوشها لتحرر العراق من الاستبداد، أو أفغانستان من المتطرفين، أن تمكث فيها بعد ذلك، أم أننا نعتبر ذلك عدوانا مشينا يجوز رده، بل يجب رده؟

وهذا ما حصل بالضبط في الأندلس، فنحن قد نقرّ أن دخول المسلمين إليها كان بدوافع إنسانية، وأن الأندلس كانت حينها محتلة مضطهدة، وأن المسلمين لم يكونوا هم المبتدئين للاحتلال، وإنما كان دورهم قاصرا على إخراج الظالم المحتل(1).

ولكن كان يمكن للمسلمين بعد الانتهاء من دورهم الإنساني أن يتركوا البلاد لأهلها، ويمكنهم أن يستأذنوا في أن يبقوا ضيوفا عندهم.. وطبعا لن يرفض الأندلسيون ذلك، بل سيرحبون به، بل سيطالبون الفاتحين حينها بأن يمكثوا معهم، ليحموهم، وليتعلموا منهم تلك الأخلاق الرفيعة التي جعلتهم يضحون بنفوسهم في سبيل نجدتهم.. وحينها كان يمكن بسهول كبيرة أن يدخل الأندلسيون في دين الله أفواجا، بعد أن يروا ورع الفاتحين

---

(1) كما قال الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه [العلاقات الدولية في الإسلام، ص83] معبرا عن موقف الإسلام من هذه الناحية: (الإسلام ينظر إلى الرعايا الذين يُحكَمون بالظلم ويُقيدون في حرياتهم نظرة رحيمة عاطفة ، ينصرهم إذا استنصروه ، ويرفع عنهم نير الطغيان إن هم استعانوا به)

وزهدهم وأخلاقهم العالية..

وكـان يمكن كـذلك أن تهبّ جميـع الممالـك الأوروبيـة لطلب نجدتهم في إنقاذهم من المستبدين الذين يحكمونهم، عندما يـرون ما فعله المسلمون في الأنـدلس.. وحينهـا يمكن أن يتحقــق الفتح الإسلامي الحقيقي ليس للأندلس فقط، وإنما لأوروبا جميعا.

لكن كل ذلك للأسف لم يحصل، مع أنه كان يمكن أن يحصــل لـو أن قـادة الفـاتحين اتبعـوا الرؤيــة القرآنيـة، ولم يتبعـوا رؤيـة الإسكندر المقدوني ونابليون وغيرهم من المجرمين..

وسبب ذلـك هـو أن مطـامع قـادة المسـلمين وخلفـاءهم، لم تكن لتقنــع بــذلك.. ذلـــك أنهم لم يكونـــوا يختلفـــون كثــيرا عن المستعمرين والطغاة في كل العصـور؛ فهم لم يضـيفوا لأنفسـهم سوى لقب الإسلام، وتصووروا أنه يمكنه أن يخول لهم استعمار ما شـاءوا من الأراضـي، واسـتعباد من شـاءوا من البشـر، ونهب مـا شاءوا من الأموال.

ولهذا لم يقنعوا بما قاموا به من تحرير، بـل تحولـوا مباشـرة من محــــررين إلى مســـتعمرين، ومن مـــدافعين مخلصــــين إلى مغتصبين سارقين.. والدليل على ذلك كل تلك الحملات العسكرية الكثيرة التي لم تكف أبدا عن المسلمين، تواجههم، وتستعمل كــل الوســائل لطــردهم، وكــان في إمكــان المســلمين أن يحــترموا أنفسهم، ويخرجوا من الأرض التي لا يملكونها بعــزة نفس.. لكنهم لم يفعلوا إلا بعد أن قدموا مئات آلاف الضحايا، إن لم نقــل ملايين الضحايا، ذلك أن الحروب لم تكن لتهدأ حتى تبدأ من جديد.

ولــو أنهم نفــذوا تعليماتــه ﷺ المرتبطــة بتحــريم اغتصــاب الأراضي، ومنها قوله ﷺ: (من أخذ شـبرا من الأرض ظلمـا طوقـه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (من أخذ شبرا من الأرض بغير حــق

[1] رواه البخاري 5 / 76 ، ومسلم رقم (1610)

خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين)[1]

فهذه الأحاديث الشريفة تحرم اغتصاب الأراضي مطلقا، سواء كانت ملكا لمسلم، أو غير مسلم، ما دام غير محارب ولا مغتصب لأراضي غيره، ولم يكن الأندلسيون محاربين للمسلمين، وإنما استنجدوا بهم فقط، والمنجد لا يجوز له أن يأخذ ما ليس له، وإنما يكتفي بنجدته.

بناء على هذا سأذكر هنا ما حصل إبان فتح المسلمين للأندلس، ودوافعهم لذلك، لا من خلال كتابات (خوان غويتسولو)، أو (كلاوديو سانشيث البرنوث)، أو (إميليو جاريا جومث)، أو (أنطونيو غالا)، أو (أنطونيو مونيوز مولينا).. وغيرهم من المستشرقين.. وإنما من خلال ما كتبه الطبري والذهبي وابن كثير والمقري وغيرهم من المؤرخين المسلمين، وفي المصادر المعتمدة للتاريخ.

وسأكتفي هنا بنماذج مما ذكره المؤرخ الإسلامي الكبير، والمعتمد لدى المدرسة السلفية، شمس الدين الذهبي (المتوفى: 748هـ) في كتابه الشهير [تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام]، ولمن شاء أن يتأكد من النصوص التي أذكرها يمكنه الرجوع إليه، وسيرى أني حاولت أن ألطف الأمر كثيرا، وأن الأمر أخطر بكثير مما أذكره.

وقد بدأ الذهبي كعادته في التأريخ المرتبط بالفتوح بالتعريف بالمحل الذي تحقق فتحه، وقد قال في ذلك: (وافتتح إقليم الأندلس، وهي جزيرة عظيمة متصلة ببر القسطنطينية من جهة الشمال، والبحر الكبير من غربيها وقد خرج منه بحر الروم من جنوبيها، ثم دار إلى شرقيها، ثم استدار إلى شماليها قليلا، وهي جزيرة مثلثة الشكل، افتتح المسلمون أكثرها في رمضان منها على يد طارق أمير طنجة، من قبل مولاه أمير المغرب موسى بن نصير، وطنجة هي أقصى المغرب، فركب طارق البحر، وعدى من

---

[1] () رواه البخاري 5 / 76..

الزقاق لكون الفرنج اقتتلوا فيما بينهم واشتغلوا، فانتهز الفرصة)(1)

وهنا نرى أن فاتحي الأندلس بحسب الرؤية التي رجحها الذهبي ليس هي النجدة، ولا الفتح، وإنما كانت استغلال لفرصة الصراع الداخلي بين الفرنجة، مثلما فعل الصليبيون عندما استغلوا فرص الصراع الداخلي بين المسلمين، ليحتلوا أرضهم.

لكنه لم يبتعد قليلا حتى ذكر بداية الصراع بين قادة الفتح أنفسهم، وهو ما يثبت أن الهدف لم يكن فتحا، ولو كان كذلك لما حصل الصراع، يقول الذهبي: (وقيل: بل عبر بمكاتبة صاحب الجزيرة الخضراء ليستعين به على عدوه، فدخل طارق واستظهر على العدو، وأمعن في بلاد الأندلس، وافتتح قرطبة، وقتل ملكها لذريق، وكتب إلى موسى بن نصير بالفتح، فحسده موسى على الانفراد بهذا الفتح العظيم، وكتب إلى الوليد يبشره بالفتح، وينسبه إلى نفسه، وكتب إلى طارق يتوعده لكونه دخل بغير أمره، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، وسار مسرعا بجيوشه، ودخل الأندلس ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري، فتلقها طارق وقال: إنما أنا مولاك، وهذا الفتح لك)(2)

وأرجو أن يعيد القارئ المخدوع بالمجد المزيف قراءة هذا النص جيدا، لأننا كثيرا ما ننسى أولئك الجنود البسطاء، ونتذكر فقط من نسميهم قادة الفتح، ونتصور أنه لولاهم لما تحقق الفتح.. مع أنهم كانوا بتلك الصورة التي رسمها الذهبي، والتي جعلتهم لا يكتفون بالسرقات المادية فقط، وإنما يضيفون إليها السرقات المعنوية؛ وهذا ما حصل في أكثر ما نراه من فتوح ابتداء من فتوح الشام والعراق.

وقد ذكر ابن خلدون السبب الذي جعل موسى بن نصير يحقد على طارق بن زياد، فقال: (وكتب طارق إلى موسى بن

1() تاريخ الإسلام (2/ 1038)

2() المرجع السابق، ص:1039.

نصير بالفتح وبالغنـائم، فحركتـه الغـيرة وكتب إلى طـارق يتوعّـده بأنه يتوغّل بغير إذنه ويـأمره أن لا يتجـاوز مكانـه حـتى يلحـق بـه، واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج معه حسـين بن أبي عبد الله المهدي الفهري. ونهض من القيروان سـنة ثلاث وتسـعين من الهجرة في عسكر ضخم من وجوه العـرب والمـوالي وعرفـاء البربر، ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأنـدلس. وتلقّـاه طـارق وانقـاد واتبـع، وتمّم موسـى الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشـلونة في جهـة الشـرق، وأربونـة في الجوف وصنم قـادس في الغـرب، ودوّخ أقطارهـا وجمـع غنائمهـا. وجمع أن يـأتي المشـرق على القسـطنطينية ويتجـاوز إلى الشـام ودروب الأندلس ويخوض ما بينهـا من بلاد الأعـاجم أمم النصـرانيّة مجاهدا فيهم مستلحما لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة)(1)

وهذا النص الذي ذكره ابن خلدون ومثله كل المؤرخين كـاف في الدلالة على دوافع الفتح، وأنها لم تكن نجدة ولا شهامة، وإنمـا كان للمغنم الدور الأكبر فيها، بل كان هو المحـرك الأساسـي لهـا، كما ذكر الذهبي ذلك، فقال: (وأقام موسى بن نصير غازيا وجامعـا للأمــوال نحــو ســنتين، وقبض على طــارق، ثم اســتخلف على الأندلس ولده عبد العزيز بن موسى، ورجع بأموال عظيمة، وسـار بتحف الغنائم إلى الوليد)(2)

ثم ذكر بعض ما غنمه، وسـار بـه إلى الخليفـة ليقنعـه بـالفتح بعـد أن رآه مـترددا في ذلـك، فقـال: (وممـا وجـد بطليطلـة لمـا افتتحهــا: مائــدة ســليمان عليــه الســلام، وهي من ذهب مكللــة بالجواهر، فلما وصل إلى طبرية بلغه مـوت الوليـد وقـد اسـتخلف سليمان أخاه، فقدم لسليمان ما معه، وقيل: بل لحق الوليد وقدم ما معه إليه، وقيل: إن هذه المائدة كانت حمل جمل) (3)

1() تاريخ ابن خلدون (4/ 150).

2() تاريخ الإسلام (2/ 1039).

3() المرجع السابق، (2/ 1039).

وذكر كذلك أن تلك الدوافع لم تكن مرتبطة بالقادة فقط، وإنما بالجند أيضا، والذين وجد بعضهم الفرصة للسلب والنهب، فقد قال: (وفيها توجه طائفة من عسكر موسى بن نصير في البحر إلى جزيرة سردانية، فأخذوها وغنموا، ولكنهم غلوا، فلما عادوا سمعوا قائلا يقول: اللهم غرق بهم، فغرقوا عن آخرهم، ثم استولى عليها الفرنج) (1)

وهكذا ذكر شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ) في كتابه [نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب] ما حصل من العداوة بين طارق بين زياد وموسى بن نصير، من خلالها يمكن اكتشاف دوافع الفتح، فقد قال: (توجّه الأمير موسى من ماردة عقب شوال من العام المؤرخ يريد طليطلة، وبلغ طارقاً خبرهن فاستقبله في وجوه الناس، فلقيه في موضع من كورة طلبيرة؛ وقيل: إن موسى تقدّم من ماردة فدخل جلّيقية من فج نسب إليه، فخرقها حتى وافى طارق بن زياد صاحب مقدمته بمدينة استرقة، فغض منه علانية، وأظهر ما بنفسه عليه من حقد، والله أعلم؛ وقيل: لمّا وقعت عينه عليه نزل إليه إعظاماً له، فقنّعه موسى بالسوّط، ووبّخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه، وساروا إلى طليطلة، فطالبه موسى بأداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك، واستعجله بالمائدة، فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلاً وخبأه عنده، فسأله موسى عنه، فقال: لا علم لي به، وهكذا أصبتها، فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمّل، ولم يقدر على أحسن منه، فأخلّ بها. جاء بعيد الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمّل، ولم يقدر على أحسن منه، فأخلّ بها)(2)

ثم قال يصف رجوعه إلى الخليفة، بما معه من الأموال حتى

1() المرجع السابق، (2/ 1039).

2() نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، (1/ 271).

يرغبه في الإذن له بفتح الأندلس: (ثم سار إلى قرطبة، ثم قفل عن الأندلس سنة أربع وتسعين، فأتى إفريقية، وسار عنها سنة خمس وتسعين إلى الشام يؤمّ الوليد بن عبد الملك يجرّ الدنيا بما احتمله من غنائم الأندلس من الأموال والأمتعة يحملها على العجل والظّهر، ومعه ثلاثون ألف رأسٍ من السبي)[1]

وكان يرجو من وراء كل تلك الغنائم أن يثبته على قيادة الجيوش، ويأذن له باستكمال فتح الأندلس أو ربما أوروبا جميعا، لكنه مات قبل أن يصل إليه، فحصلت النكبة له، أو كما قال المقري: (فلم يلبث أن هلك الوليد بن عبد الملك وولي سليمان، فنكب موسى نكباً أداه إلى المتربة)

ونحب أن نذكر أن هذا الخادم المخلص لأصحاب الملك العضوض الذين توهمنا أنهم فتحوا الأرض ليخلصوها من المستبدين، وينشروا الإسلام، كان قد ارتكب قبل ذلك بالمغرب جرائم بشعة لا يمكن تصورها.. ومنها ما ذكره المقري في [نفح الطيب] بقوله: (إن موسى بن نصير ولي إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين فقدمها ومعه جماعةٌ من الجند، فبلغه أن بأطراف البلاد من هو خارجٌ عن الطاعة، فوجّه ولده عبد الله، فأتاه بمائة ألف رأسٍ من السبايا، ثم ولده مروان إلى جهةٍ أخرى، فأتاه بمائة ألف رأسٍ، وقال الليث بن سعد: بلغ الخمس ستين ألف رأس، وقال الصّدفي: لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير)[2]

وهذا ما ذكره الذهبي مشيدا به في ترجمة موسى بن نصير، فقد قال: (وقال الليث بن سعد: إن موسى بن نصير بعث ابنه مروان على جيش، فأصاب من السبي مائة ألف، وبعث ابن أخيه في جيش فأصاب من السبي مائة ألف أخرى، فقيل لليث: من هم؟ قال: البربر، فلما جاء كتابه بذلك، قال الناس: إن ابن نصير والله أحمق، من أين له عشرون ألفا يبعث بهم إلى أمير المؤمنين

[1] المرجع السابق، (1/ 271).

[2] المرجع السابق، (1/ 239).

في الخمس؟ فبلغه ذلك، فقال: ليبعثوا من يقبض لهم عشرين ألفا، فلما فتحوا الأندلس جاء رجل فقال: ابعث معي أدلك على كنز، فبعث معه فقال لهم: انزعوا ها هنا، فنزعوا فسال عليهم من الياقوت والزبرجد ما أبهتهم، فقالوا: لا يصدقنا موسى، فأرسلوا إليه، فجاء ونظر، قال الليث: إن كانت الطنفسة لتوجد منسوجة بقضبان الذهب، تنظم السلسلة الذهب باللؤلؤ والياقوت، فكان البربريان ربما وجداها فلا يستطيعان حملها حتى يأتيا بالفأس فيقسمانها، ولقد سمع يومئذ مناد ينادي ولا يرونه: أيها الناس، إنه قد فتح عليكم باب من أبواب جهنم)(1)

ولكن مع كل هذه الجرائم نرى الذهبي يصور موسى بن نصير بصورة الرجل الصالح الذي تنفتح له عوالم الغيب، ومن ذلك ما ذكره من اكتشافاته العلمية التي أخبر بها الخلفاء، فقد قال: (وقال جرير بن عبد الحميد، عن سفيان بن عبد الله: إن عمر بن عبد العزيز سأل موسى بن نصير عن أعجب شيء رآه في البحر، فقال: انتهينا إلى جزيرة فيها ست عشرة جرة خضراء، مختومة بخاتم سليمان - عليه السلام - فأمرت بأربعة منها فأخرجت، وأمرت بواحدة فنقبت، فإذا شيطان يقول: والذي أكرمك بالنبوة لا أعود بعدها أفسد في الأرض، ثم نظر، فقال: والله ما أرى بها سليمان ولا ملكه، فانساخ في الأرض، فذهب، فأمرت بالبواقي فردت إلى مكانها) (2)

ولكنه لم ينس في نفس الوقت أن يذكر المصير المؤلم الذي صار إليه بعد كل ذلك التزلف لبني أمية كما هي العادة في تعامل الملوك مع المخلصين معهم، فقد قال: (ولما افتتح موسى أكثر الأندلس رجع إلى إفريقية وله نيف وستون سنة، وهو راكب على بغل اسمه كوكب، وهو يجر الدنيا بين يديه جرا، أمر بالعجل تجر أوقار الذهب والجواهر والتيجان والثياب الفاخرة ومائدة سليمان، ثم استخلف ولده بإفريقية، وأخذ معه مائة من رؤساء

1() تاريخ الإسلام، (2/ 1176)

2() المرجع السابق، (2/ 1176)

البربر، ومائة وعشرين من الملوك وأولادهم، وقدم مصر في أبهة عظيمة، ففرق الأموال، ووصل الأشراف والعلماء، ثم سار يطلب فلسطين، فتلقاه روح بن زنباع، فوصله بمبلغ كبير، وترك عنده بعض أهله وخدمه، فأتاه كتاب الوليد بأنه مريض، ويأمره بشدة السير ليدركه، وكتب إليه سليمان بن عبد الملك يبطئه في سيره فإن الوليد في آخر نفس، فجد في السير، فآلى سليمان إن ظفر به ليصلبنه، وأراد سليمان أن يبطئ ليتسلم ما جاء به موسى، فقدم قبل موت الوليد بأيام، فأتاه بالدر والجوهر والنفائس وملاح الوصائف والتيجان والمائدة، فقبض ذلك كله، وأمر بباقي الذهب والتقادم فوضع ببيت المال، وقومت المائدة بمائة ألف دينار، ولم يحصل لموسى رضا الوليد، واستخلف سليمان فأحضره وعنفه وأمر به فوقف في يوم شديد الحر ـ وكان سمينا بدينا ــ فوقف حتى سقط مغشيا عليه)[1]

وهكذا ذكر في ترجمته ما يدل على ذلك الجشع الاستعماري الذي لا يمكن أبدا أن نطلق عليه لقب الفتح الإسلامي، فقد قال: (ولما قدم مصر سنة خمس وتسعين توجه إلى الوليد، فلما جلس الوليد يوم جمعة على المنبر أتى موسى وقد ألبس ثلاثين رجلا التيجان، على كل واحد تاج الملك وثيابه، ودخل بهم المسجد في هيئة الملوك، فلما رآهم الوليد، بهت ثم حمد الله وشكر، وهم وقوف تحت المنبر، وأجاز موسى بجائزة عظيمة، وأقام موسى بدمشق حتى مات الوليد واستخلف سليمان، وكان عاتبا على موسى، فحبسه وطالبه بأموال عظيمة.. وروي أن موسى قال لسليمان يوما: يا أمير المؤمنين لقد كانت الشياه الألف تباع بمائة درهم، ويمر الناس بالبقرة لا يلتفتون إليها، وتباع الناقة بعشرة دراهم، ولقد رأيت العلج الفاره وامرأته وأولاده يباعون بخمسين درهما) [2]

هذه مجرد نماذج عن بعض ما ذكره المؤرخون المسلمون

---

[1] المرجع السابق، (2/ 1177)

[2] المرجع السابق، (2/ 1179)

أثناء عرضهم لفتح الأندلس، وهي كافية للدلالة على أغراض الفتح، وخلوها تماما من أي دوافع دينية، أو إنسانية، بل هي دوافع لا تختلف عن جشع المستعمرين..

بل قد ورد التصريح بذلك من الخلفاء الذين كانوا يرسلون أمثال تلك الجيوش أنفسهم، فقد روى الحاكم عن هشام، عن الحسن، قال: بعث زياد الحكم بن عمرو الغفاري على خراسان فأصابوا غنائم كثيرة، فكتب إليه: أما بعد، فإن أمير المؤمنين كتب أن يصطفي له البيضاء، والصفراء، ولا تقسم بين المسلمين ذهبا ولا فضة، فكتب إليه الحكم: (أما بعد، فإنك كتبت تذكر كتاب أمير المؤمنين، وإني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وإني أقسم بالله لو كانت السماوات والأرض رتقا على عبد فاتقى الله لجعل له من بينهم مخرجا، والسلام)، فأمر الحكم مناديا فنادى أن اغدوا على فيئكم فقسمه بينهم، وأن معاوية لما فعل الحكم في قسمة الفيء ما فعل وجه إليه من قيده وحبسه، فمات في قيوده ودفن فيها، وقال: (إني مخاصم)[1]

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان هدف آخر، لكنه لا يتعلق بتحرير المستضعفين أو الدعوة للإسلام، وإنما هو قمع المعارضة وتفريقها، وقد روى الطبري في ذلك عن العلاء بن عبد الله بن زيد العنبري، قصة طويلة، ومما جاء فيها: (فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان، وإلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإلى سعيد بن العاص، وإلى عمرو بن العاص بن وائل السهمي، وإلى عبد الله بن عامر، فجمعهم ليشاورهم في أمره وما طلب إليه، وما بلغه عنهم، فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إن لكل امرئ وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلي أن أعزل عمالي، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم، وأشيروا علي، فقال له عبد الله بن عامر: رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون

1() المستدرك على الصحيحين للحاكم (3/ 500)

همة أحدهم إلا نفسه، وما هو فيه من دبرة دابته، وقمل فـروه)(2) إلى آخر القصة.

هذا ما ورد في أغراض تلك الفتـوح، ولسـت أدري هـل يمكن من الناحية الشـرعية أن نسـمي فتوحـا؟.. وهـل يمكن اعتبـار بيـع أولئك الأحـرار الـذين اسـتنجدوا بالمسـلمين في أسـواق النخاسـة شـهامة وإنسـانية؟.. وهـل يمكنهم أن يقتنعـوا بالإسـلام، والواحـد منهم ـ كما قال الذهبي ـ يباع مع امرأته وأولاده بخمسين درهما؟

أرجو أن نسأل عقولنا لنعرف الحقيقة، ونشهد لله بهـا.. ذلـك أن الكثير يصور أن ما حصل في الأندلس كـان فتحـا عظيمـا، وأن المشكلة لم تبدأ مع الفـاتحين، وإنمـا بـدأت مـع ملـوك الطوائـف، والأمر ليس كذلك.. فلو كانت البداية طيبة، وفي سـبيل اللـه، لمـا كانت النهاية كذلك.

2 ـ الفاتحون.. والشدة والعنف:

لم يكتف من يسمون أنفسهم فاتحين، أو قادتهم على الأقل، بمـا سـلبوه ونهبـوه من أمـوال وأراض، وغيرهـا، وإنمـا راحـو يسـتعملون كـل الوسـائل الـتي تمكنـوا منهـا للقضـاء على ذلـك الشعب الذي جاءوا لتحريره.

ولم يقتصـر الأمـر على الفـترة الـتي بـدأوا فيهـا أعمـالهم التحريرية، كما يذكرون، وإنما شمل كل الفترة التي تواجدوا فيهـا، وقد ذكر لنـا المؤرخـون المسـلمون، لا المستشـرقون الكثـير من المشـاهد الدالـة على ذلـك، والـتي تقشـعر لهـا الأبـدان، ولكنهم يروونها بكل برودة، لأن القتلى فيها ليسوا مسلمين.

ولست أدري ما تصورهم للإسلام، ولرسالة الإسلام المملوءة بالرحمة والسماحة والعدالة، والتي حولوها بجـرائمهم إلى رسـالة للقتـل والحـرق والإبـادة، ثم الفخـر بعـد ذلـك أنهم يجاهـدون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

ولست أدري من يقبل كلمة الله، وهـو يـرى أهلـه أمامـه بين

(2) تاريخ الطبري (4/ 333)

قتيل وجريح، ويرى بناته وأطفاله سبايا، قد تحولوا إلى عبيد يباعون في الأسواق، هل يمكن لمن يرى ذلك أن يقتنع بكلمة الله؟

ولذلك ذكرنا أن أولئك المستبدين أصحاب الملك العضوض، لم يفعلوا ـ بما سموه فتوحا ـ سوى أن ملأوا قلوب أهل الأرض أحقادا على المسلمين والإسلام، وذلك ما ترجم بعد ذلك بالحروب الصليبية ومحاكم التفتيش والاستعمار وغيرها.

ونحن وإن كنا نلوم الغرب في ذلك، إلا أننا نلوم كذلك المسلمين لكونهم ارتكبوا نفس الجرائم، وباسم الإسلام للأسف، والإسلام منهم بريء.. ولذلك كان ما فعله المستعمرون من الناحية المعنوية أقل خطرا مما فعله من يسمون أنفسهم فاتحين، ذلك لأن المستعمر لم يستعمل الدين في جرائمه، بينما ذلك الذي يدعي الفتح استعمل الدين، وراح يضرب به خصومه، ويفخر به عليهم.

ومثلما ذكرنا بعض نماذج السلب والنهب، سنذكر هنا نماذج عن الشدة والعنف، ومن أزمنة متفرقة تصور بعض ما حصل للسكان الأصليين للأندلس بسبب من يدعون أنهم جاءوا لتحريرهم ودعوتهم للإسلام.

وسنعتمد مثلما اعتمدنا سابقا، وفي كل مرة المصادر الكبرى المعتمدة في التاريخ الإسلامي، من أمثال تاريخ الإسلام للذهبي، وتاريخ الطبري وابن خلدون، وغيرها، حتى لا يشنع علينا من يذكر أن هذا كلام المستشرقين.

وقبل أن نذكر ذلك نشير إلى أمر مهم جدا، لا نجد من يذكره أو يركز عليه، وهو ما أشار إليه ابن خلدون من أن عمر بن عبد العزيز وكبار التابعين كانوا من المعارضين لبقاء المسلمين في الأندلس، فقد قال: (وقد كان عمر بن عبد العزيز رأى أن يخرج المسلمين منها لانقطاعهم عن قومهم وأهل دينهم، وبعدهم عن الصريخ، وشاور في ذلك كبار التابعين وأشراف العرب فرأوه رأيا،

واعتزم عليه لولا ما عاقه من المنية وعلى ذلك)[1]

وذكـر سـبب ذلـك، وهـو أن الاقتتـال لم يكن يكـف أبـدا في الأندلس، ذلك أن أهلهـا لم ييأسـوا أبـدا عن المقاومـة، يقـول في ذلك: (كانت عدوة الأنـدلس منـذ أوّل الفتح ثغـرا للمسـلمين، فيـه جهـادهم وربـاطهم ومـدارج شـهادتهم وسـبيل سـعادتهم. وكـانت مواطنهم فيه على مثـل الرضـف، وبين الظفـر والنـاب من أسـود الكفر لتوقر أممهم جوارها وإحاطتهم بها من جميع جهاتها، وحجــز البحر بينهم وبين إخوانهم المسلمين) [2]

وقد كان هذا الموقف كافيا للعقلاء أن يخرجوا من تلــك البلاد بأقل الخسائر، ذلك أنه لا جدوى من الاقتتال الدائم الـذي لا يفعـل سوى أن يشوه الإسلام والمسلمين، ولا يؤتي في نفس الوقت أي نتيجة..

لكن للأسف لم يطبق ذلك الرأي الوجيه الذي حاول عمـر بن عبد العزيز تنفيذه؛ وسبب ذلـك هـو أن كـل الخلفـاء الـذين جـاءوا بعده كانوا محتاجين كل حين لمن يرسـل لهم المزيـد من الأمـوال والسبايا، ولـو أن الحـرب تـوقفت وعـاد المسـلمون إلى ديـارهم، لتوقف سيل الغنائم.

لكن ابن خلدون الذي ذكر هذا هو نفسه الذي كان يشـيد كـل حين بمـــا يســـميه انتصـــارات المســـلمين في الأنـــدلس.. وهي انتصارات وهمية، ليس الغرض منها إلا المزيـد من القتـل والـدمار والغنـائم، أمـا من الناحيـة الاسـتراتيجية، فإنهـا لم تكن تحقـق أي نتيجة، ذلك أنه سرعان ما ينهض السـكان الأصـليون للأنـدلس من جديـد ليسـتعيدوا مـا سـلب منهم، وليأخـذوا الثـأر من المسـلمين أضعافا مضاعفة.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره في تاريخه بإعجاب كبير تحت عنوان [الخبر عن شأن الجهاد، وظهور السلطان أبي يوسـف على

---

[1] تاريخ ابن خلدون، (7/ 250)

[2] المرجع السابق، (7/ 250)

النصارى وقتل زعيمهم ذننه وما قارن ذلك][1]، وهو نص طويله مملوء بالجثث وروائح الدماء.. ولن أذكره جميعا هنا، ولكني سأكتفي ببعض مشاهد بطولات هذا السلطان، وإحيائه لما سماه فريضة الجهاد.

وقد قدم لذلك بذكر ما حصل من ذل للأندلسيين بعد عزهم القصير، فقال: (فكان للإسلام فيه اعتزاز على من جاورهم من أهل الكفر، بطول دولة العرب من قريش ومضر واليمن، وكانت نهاية عزّهم وسورة غلبهم أيام بني أمية بها، الطائرة الذكر الباسطة جناحها على العدوتين منذ ثلاث مئات من السنين أو ما يقاربها، حتى انتثر سلكها بعد المائة الرابعة من الهجرة، وافترقت الجماعة طوائف وفشلت ريح المسلمين وراء البحر بفناء دولة العرب) [2]

ثم ذكر كيف حاول البربر أن يستعيدوا الانتصارات في الأندلس، والمقاتل العظيمة التي أصابوا بها سكان الأندلس الأصليين، فقال: (واعتز البربر بالمغرب واستفحل شأنهم، وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان مفترقا بالمغرب من كلمة الإسلام. وتمسكوا بالسنّة وتشوّقوا إلى الجهاد، واستدعاهم إخوانهم من وراء البحر للمدافعة عنهم، فأجازوا إليهم وأبلوا في جهاد العدوّ أحسن البلاء، وأوقعوا بالطاغية ابن أدفوش يوم الزلّاقة وغيرها. وفتحوا حصونا واسترجعوا أخرى واستنزلوا الثوّار ملوك الطوائف، وجمعوا الكلمة بالعدوتين. وجاء على أثرهم الموحّدون سالكين أحسن مذاهبهم، فكان لهم في الجهاد آثار على الطاغية أيام، منها يوم الأرك ليعقوب بن المنصور وغيره من الأيام) [3]

وبعد هذه المقدمات وغيرها، والتي نحتاج إلى قراءتها قراءة

[1] المرجع السابق، (7/ 250)

[2] المرجع السابق، (7/ 250)

[3] المرجع السابق، (7/ 251)

تدبرية حتى نفهم المدى الذي وصل إليه المسلمون في علاقتهم بغيرهم من الذين كلفوا بدعوتهم، راح يسرد ما حصل من انتصارات، فقال: (.. واستدعى من الغد صاحب سبتة في السفن لإجازتهم فوافاه بقصر الجواز عشرون من الأساطيل، فأجاز العسكر ونزل بطريف، وأراح ثلاثا، ودخل دار الحرب وتوغّل فيها، وأجلب على ثغورها وبسائطها. وامتلأت أيديهم من المغانم وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار، حتى نزل بساحة شريس، فخام حاميتها عن اللقاء وانحجروا في البلد، وقفل عنها إلى الجزيرة وقد امتلأت أيديهم من الأموال وحقائبهم من السبي وركائبهم من الكراع والسلاح) [1]

ثم ذكر تأثير تلك الانتصارات في أهل الأندلس، فقال: (ورأى أهل الأندلس قد ثاروا بعام العقاب حتى جاءت بعدها الطاعة الكبرى على أهل الكفر، واتصل الخبر بأمير المسلمين فاعتزم على الغزو بنفسه.. ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع، ودعا المسلمين إلى الجهاد. وخاطب في ذلك كافة أهل المغرب من زناتة والعرب والموحّدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البرابرة وأهل المغرب من المرتزقة والمطّوعة. وأهاب بهم وشرع في إجازة البحر، فأجازه من فرضة طنجة لصفر من سنة أربع وسبعين وستمائة واحتلّ بساحة طريف) [2]

ثم راح يذكر بنشوة مشاهد أخرى لتلك الانتصارات، فقال: (.. وعقد لولده الأمير أبي يعقوب على خمسة آلاف من عسكره. وسرّح كتائبه في البسائط وخلال المعاقل تنسف الزرع وتحطّم الغروس، وتخرّب العمران، وتنتهب الأموال، وتكتسح السرح، وتقتل المقاتلة، وتسبي النساء والذرّية، حتى انتهى إلى المدور وتالسة وأبدة واقتحم حصن بلمة عنوة. وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها. وقفل والأرض تموج

---

[1] المرجع السابق، (7/ 254)

[2] المرجع السابق، (7/ 254)

سبيا إلى أن عـرس بأسـتجة من تخـوم دار الحـرب. وجـاء النـذير باتباع العدو وآثارهم لاستنقاذ أسراهم وارتجاع أموالهم. وأنّ زعيم الـروم وعظيمهم ذنّتـه خـرج في طلبهم بـأمم بلاد النصـرانية من المحتلم فما فوقه. فقدّم السلطان الغنـائم بين يديـه وسـرّح ألفـا من الفرسان أمامها، وسـار يقتفيهـا، حـتى إذا طلّت رايـات العـدو من ورائهم كان الزحف، ورتّب المصـاف وحـرّض وذكّـر. وراجعت زناتة بصائرها وعزائمهـا وتحـرّكت هممهـا، وأبلت في طاعـة ربّهـا والذبّ عن دينها. وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتهـا ومواقفهـا، ولم يكن إلّا كلّا ولا، حـتى هبت ريح النصـر وظهـر أمـر الله وانكشفت جموع النصـرانية، وقتـل الـزعيم ذنّنـه والكثـير من جموع الكفر. ومنح الله المسلمين أكتافهم، واسـتمرّ القتـل فيهم. وأحصـي القتلى في المعركـة فكـانوا سـتة آلاف، واستشـهد من المسلمين مـا ينـاهز الثلاثين أكـرمهم اللـه بالشـهادة وآثـرهم بمـا عنده. ونصر الله حزبه وأعزّ أولياءه ونصر دينه. وبدا للعـدو مـا لم يحتسبه بمحاماة هذه العصابة عن الملّة وقيامها بنصر الكلمة) (1)

ثم ذكر ما حصل بعد ذلـك الانتصـار العظيم، والـذي لم نشـم فيه رائحة كلمة واحدة من الدعوة إلى الله، أو أخلاق المنتصـرين، فقال: (.. وقفل أمير المسلمين من غزاتـه إلى الجزيـرة منتصـف ربيع من سنته، فقسّم في المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوّهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم، بعد الاستئثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنّة ليصـرفه في مصـارفه. ويقـال: كـان مبلـغ الغنـائم في هـذه الغـزاة مائـة ألـف من البقـر وأربعـة وعشرين ألفا، ومن الأسارى سبعة آلاف وثمان مائة وثلاثين، ومن الكراع أربعة عشر ألفا وستمائة، وأمّا الغنم فاتسـعت عن الحصـر كثرة، حـتى لقـد زعمـوا بيعت الشـاة في الجزيـرة بـدرهم واحـد، وكذلك السلاح) (2)

ثم ذكر تأثير ذلـك النصـر والغنـائم الـتي ارتبطت بـه في فتح

---

(1) المرجع السابق، (7/ 255)

(2) المرجع السابق، (7/ 255)

شهية الأمير للجهاد ـ فيما سماه سبيل الله ــ فقـال: (وأقـام أمـير المسـلمين بـالجزيرة أيامـا ثم خـرج لجمـادى غازيـا إلى إشـبيليّة فجاس خلالها وتقرّى نواحيها وأقطارها، وأثخن بالقتـل والنهب في جهاتهـا وعمرانهـا. وارتحــل إلى شــريش فأذاقهــا وبــال العيث والاكتساح) (1)

وهكذا أرخ الذهبي لموقعة الزلاقة؛ فقال: (خبر وقعة الزلاقـة بالأنـدلس: وهـو أن الأدفـونش - لعنـه اللـه - تمكن وتمـرد، وجمـع الجيـوش فأخـذ طليطلـة، فاسـتعان المسـلمون بـأمير المسـلمين يوسف بن تاشفين صاحب سبتة ومراكش، فبادر وعـدى بجيوشـه، واجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية، وتهيأ عسكرها وعسكر قرطبة، وأقبلت المطوعـة من النـواحي. وسـار جيش الإسـلام حـتى أتـوا الزلاقة - من عمل بطليوس - وأقبلت الفـرنج، وتـراءى الجمعـان، فوقع الأدفونش على ابن عباد قبل أن يتواصل جيش ابن تاشفين، فثبت ابن عبــاد وأبلى بلاء حســنا، وأشــرف المســلمون على الهزيمة، فجاء ابن تاشفين عرضا، فوقع على خيام الفـرنج فنهبهـا وقتـل من بهـا، فلم تتمالـك النصـارى لمـا رأت ذلـك أن انهـزمت، فــركب ابن عبــاد أقفيتهم، ولقيهم ابن تاشــفين من بين أيــديهم، ووضع فيهم السيف، فلم ينج منهم إلا القليل، ونجـا الأدفـونش في طائفة)(2)

ثم ذكر تفنن الفاتحين في ذلك الحين بقطع الرؤوس واللعب بها، فقال: (وجمع المسلمون من رؤوس الفرنج كوما كبيرا، وأذنوا عليه، ثم أحرقوها لما جيفت) (3)

وذكر عظم القتل الـذي أصـاب السـكان الأصـليين للأنـدلس، في نفس الــوقت الــذي امتلأت فيــه جيــوب المســلمين بالغنــائم

1() المرجع السابق، (7/ 255)

2() تاريخ الإسلام ،(10/ 320).

3() المرجع السابق، (10/ 320).

الكبيرة التي حاول الذهبي كعادته عدها، فقال: (وكانت الوقعة يوم الجمعة في أوائل رمضان، وأصاب المعتمد بن عباد جراحات سليمة في وجهه. وكان العدو خمسين ألفا، فيقال: إنه لم يصل منهم إلى بلادهم ثلاثمائة نفس، وهذه ملحمة لم يعهد مثلها، وحاز المسلمون غنيمة عظيمة، وطابت الأندلس للملثمين، فعمل ابن تاشفين على أخذها، فشرع أولا، وقد سار في خدمته ملك غرناطة، فقبض عليه وأخذ بلده، واستولى على قصره بما حوى، فيقال: إن في جملة ما أخذ أربعمائة حبة جوهر، فقومت كل واحدة بمائة دينار)[1]

وقد ذكر المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان (المتوفى: 1406هـ) في كتابه [تاريخ دولة الإسلام في الأندلس] بعض التقديرات حول خسائر السكان الأصليين للأندلس ناقلا لها من المصادر الكبرى في التاريخ الإسلامي، فقال: (وتذهب في تقدير خسائر النصارى إلى حد قولها إنهم بلغوا نحو ثلاثمائة ألف، بيد أن هناك أقوالا أكثر اعتدالا، فيروى مثلا أن أمير المسلمين أمر بقطع رؤوس القتلى من النصارى فقطعت وجمعت، فاجتمع منها تل عظيم، أذن من فوقه للصلاة، واجتمع منها بين يدي المعتمد بن عباد أربعة وعشرين ألفاً، وأن رؤوس القتلى التي وزعت على قواعد الأندلس بلغت أربعين ألفاً، وأنه أرسل إلى المغرب أربعين ألفاً أخرى، لتوزع على قواعده. ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الروم (القشتاليين) وكانوا ثمانين ألف فارس، ومائتي ألف راجل، فقتلوا أجمعين ولم ينج منهم إلا ألفنش في مائة فارس، ومن الغريب أن هذه الأرقام نفسها هي التي وردت في خطاب الفتح الرسمي الذي بعث به يوسف إلى المغرب)[2]

لكن ذلك الزهو، وتلك النشوة التي أصابت ابن خلدون أو الذهبي أو غيرهما عند نقلهم لأبناء تلك الانتصارات سرعان ما تحولت إلى آلام شديدة بسبب انتكاسات وهزائم لا تقل عن تلك

---

[1] المرجع السابق، (10/ 320).

[2] دولة الإسلام في الأندلس (2/ 326)

الانتصارات التي حصلت في تلك الموقعة.

وقد عبر الذهبي عن تلك الهزيمة في موقعة العقـاب بقولـه: (وفيها كانت الوقعة المشهورة بوقعة العقاب بالأندلس بين محمـد بن يعقـوب بن يوسـف بن عبـد المـؤمن الملقب بالناصـر، وبين الفرنج، ونصر الله الإسلام، واستشهد بها خلق كثير)(1)

واكتفى بـذلك، لكن عنـان ذكـر مـا حصـل بالضـبط من خلال المصادر الكثيرة، فقـال: (من المسـلم أن خسـائر المسـلمين في معركة العقاب كانت فادحة جداً. والروايات الإسـلامية تجمـع كلهـا على أن الجيش الموحدي، قد هلك معظمه. بيد أنها تـذهب أحيانـا إلى تقـديرات لا يستسـيغها العقـل، ومن ذلـك مـا يقولـه صـاحب روض القرطـاس أنـه لم ينج من الجيش الموحـدي إلا الواحـد من الألف، فإذا ذكرنا أنه يقدر جموع الجيش الموحدي بأكثر من نصف مليون، فمعنى ذلك أنه لم ينج من الموحـدين في المعركـة سـوى خمسمائة جندى، وهذا منتهى الإغراق. ثم هو من جهة أخرى يقول لنا بأن سبب هذه الكثرة الفادحـة من القتلى، يرجـع إلى أن ملـك قشتالة أمر أن ينـادى في جيشـه بـأن لا أسـر إلا القتـل، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره، ويصف صـاحب الحلـل الموشـية الموقعـة بالهزيمة العظمى التي فنى فيها أهل المغـرب والأنـدلس. ويقـول صـاحب [الـذخيرة السـنية] مشـيراً إلى الموقعـة أنـه قتـل من المسـلمين خلـق كثـير لا يحصـر، وفيهـا فـنى جيـوش المغـرب والأندلس)(2)

هذه مجرد نماذج عن بعض الدماء الـتي سـالت في الأنـدلس من المسلمين وغيرهم طيلة ثمـان قـرون كاملـة، وهي تفسـر لنـا سر انتشار الإسلام في إفريقيا وآسيا، وعدم انتشـاره في أوروبـا، ذلك أن ما حصل فيها من مقاتل ـ سماها المسـلمون انتصـارات ـ كانت أكبر حجاب بينهم وبين الإسلام، وقـد كـان يمكن للمسـلمين تفاديها وعدم الوقوع فيها لـو أنهم فقهـوا القـرآن الكـريم، وتخلـوا

(1) تاريخ الإسلام، (13/ 26).

(2) دولة الإسلام في الأندلس (4/ 314).

عن دين الفئة الباغية، وأصحاب الملك العضوض.

كان يمكنهم أن يرجعوا إلى ديارهم بمجـرد تحريرهـا، وحينهـا لن تسيل دماؤهم، ولا دماء الأندلسيين أو غيرهم، وحينهـا سـيكون للمسلمين تاريخ آخر أكثر إشراقا وجمالا.

لكن ذلك للأسف لم يحدث، والمشـكلة الأكـبر ليس في تلـك الأحداث، وإنما في الفخر بهـا، فلا زال الكثـير من المسـلمين إلى الآن يحلم بالعودة للأندلس، وهو يحمل السيف ليحررهـا من أهلهـا من جديد، مثلما فعل سلفه.

3 ـ الفاتحون.. والفتن والصراع:

عنـدما نقـرأ المواقـف التمجيديـة لمـا يسـمونه [الحضـارة الإسلامية في الأندلس]، أو ما يعبرن عنها بـ [الفردوس المفقـود]، نشعر بتلك العلمانية التي يعاني منها العقل المسـلم، وهـو يـدرس الأحداث التاريخية بمعزل عن القرآن الكريم، أو السـنة المطهـرة، أو القيم النبيلة التي خزنها الله في فطرنا وعقولنا الـتي لم يصـبها الاختلاط.

فاللـه تعـالى أخـبر أن علامـة مجـد هـذه الأمـة وخيريتهـا هـو تمسكها بالقيم، ودعوتها إليها، وتضحيتها في سبيلها بكل المصـالح، كما قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110]

وهكذا أخبرنا أن هذه الأمة ستفتن وتختـبر مثلهـا مثـل سـائر الأمم، حتى يثبت كل فرد أو مجموعة منها مدى خيريته؛ فالخيريـة ليسـت في المجمـوع، وإنمـا في الأفـراد الـذين تحلـوا بشـروط الخيرية، وأول تلـك الشـروط البحث عن قيم المعـروف والالـتزام بها والدعوة إليها، والبحث عن قيم المنكر والنفـور والتنفـير منهـا، يقـول تعـالى: {أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } [آل عمران: 142]

وهكذا أخبر القرآن الكـريم عن الفتن الـتي ستحصـل للأمـة، وحذر خصوصا من فتنة السراء، واعتبرهـا من الاختبـارات اللازمـة

للأمم، فقـال: { وَمَـا أَرْسَـلْنَا فِي قَرْيَـةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَـذْنَا أَهْلَهَـا بِالْبَأْسَـاءِ وَالضَّـرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّـرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَـدَّلْنَا مَكَـانَ السَّـيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [الأعراف: 94، 95]

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن هذا النـوع من الفتن سـتبتلى بـه الأمة، كما أخبر أن هناك الكثـير ممن سيرسـب في هـذا الاختبـار، ففي الحديث قال ﷺ: (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبســط عليكم الــدنيا كمــا بســطت على من كــان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)[1]

وقد شهد الجيل الـذي صـاحب رسـول اللـه ﷺ على أن تلـك الفتنة حصلت، وأنهم رأوها بـأم أعينهم، كمـا شـهدوا أن هنـاك من رسب فيهـا، ففي الحـديث عن عبـد الـرحمن بن عـوف أنـه قـال: (ابتلينا مع رسول الله ﷺ بالضراء فصبرنا، ثم ابتلينا بالسراء بعــده فلم نصبر)[2]

فإذا كان الجيل الذي رباه رسـول اللـه ﷺ على عينـه، عـاجزا عن الصبر عن فتنة السراء؛ فكيف بالأجيـال التاليـة، والـتي أثـرت فيها الانحرافات التي دخلت الدين تأثيرا كبيرا.

ولهـذا فـإن البـاحث الصـادق في التـاريخ، والـذي يسـتعمل المنهج القرآني والنبوي في التعامل مع الأحداث سيرى أن كل مـا حصل في الأندلس ليس سوى مصداق من مصاديق فتنة السراء.

ولعــل أعظم دليــل على ذلــك تســميتهم لهــا [الفــردوس المفقود]، لأنهـا بـدت لهم بصـورة الجنـة، خاصـة بعـد أن عمروهـا بالقصور التي ملأوها بالجواري، وأجروا تحتها الأنهار، وصار بعضهم يـدفع الجزيـة للنصـارى، ويسـتعين بهم على إخوانـه من أجـل أن تبقى له قصوره، وما فيها من متاع الدنيا.

1() رواه البخاري: 3158، 4015، 6425، ومسلم: 7614.

2() رواه الترمذي (2464).

ولذلك، فإن القارئ الصادق للتاريخ، ومن المصادر الإسـلامية يكتشف بسهولة أن وجود المسلمين في الأندس ابتداء وانتهـاء لم يكن لـه غايـة إلا الـدينا، ذلـك أن أهـل البلاد الأصـليين كـانوا أشـد الناس نفورا منهم، وكانوا يستعملون كـل الوسـائل لحـربهم، ومـع ذلك لم يخرجوا.

وقد قال محمد عبد الله عنـان في كتابـه عن تـاريخ الأنـدلس يذكر ذلك، مع العلم أنه ليس من المستشـرقين، بـل هـو مصـري، ويرجع في كل النصوص التي ينقلها للمصـادر التاريخيـة المعتـبرة: (في فـترة قصـيرة لا تتجـاوز نصـف القـرن، تقلبت الأنـدلس بين مرحلـتين متبـاينتين كـل التبـاين؛ فهي في منتصـف القـرن الرابـع الهجري وحتى أواخر هذا القرن، تبلـغ ذروة القـوة والتماسـك، في ظل رجال عظام مثـل عبـد الـرحمن الناصـر والحكم المستنصـر، والحاجب المنصور؛ ثم هي منذ أوائل القرن الخامس، تنحدر فجأة إلى معترك لا مثيل لـه، من الاضـطراب والفتنـة والحـرب الأهليـة المدمرة، لتخرج من هذه الغمار بعد فترة قصيرة، أشلاء لا تربطها أية رابطة مشتركة)[1]

ثم وصف بعض ما حصل في ذلك التـاريخ الأندلسـي الطويـل المملوء بالصراع والفتن، فقال: (إنه لمنظر مروع مؤس معاً، ذلك الذي تقدمه إلينـا الأنـدلس في تلـك الفـترة العصـيبة من تاريخهـا، منظر القواعد والمدن الأندلسـية، الـتي كـانت من قبـل تلـتئم في عقد منتظم واسـطته مدينـة قرطبـة العظيمـة، وتسـطع في ظـل حكومة الخلافة القوية، وتلتف حول عـرش الخلفـاء المؤثـل، وهي تغدو حبات متفرقـة منفـردة حـائرة، تقـوم في كـل منهـا حكومـة محلية هزيلـة، على رأسـها متغلب من أهـل العصـبية أو الرياسـة، يسيطر على أقدارها لحساب نفسه. ثم هي بعد ذلك كله، تخــوض غمار سلسـلة لا نهايـة لهـا من الفتن والحـروب الأهليـة الصـغيرة، وتنسـى في خلال هـذه الفـترة الخطـيرة المؤسـية من حياتهـا أو تتناسى، قضية الأندلس الكبرى، قضية الحيـاة والمـوت، أو بعبـارة

---

[1] دولة الإسلام في الأندلس (2/ 11).

أخرى قضية الصراع ضد العدو الخالد، أعني اسبانيا النصرانية) [2]

وللأسف؛ فإن الذين يدافعون عما يسمونه فتح الأندلس، أو يتباكون على فقدها، يقتطعون من فيلم الأندلس المرعب كل الأجزاء التي لا تحلو لهم، ويختارون فقط ما يشتهون من لقطات، مع أن المتأمل في تلك الأجزاء نفسها يرى أنها لم تكن سوى مقدمة وتحضير للبلاء الذي يستدرج الله به عباده، كما قال تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [آل عمران: 178]

وقد أشار محمد عبد الله عنان إلى هذا، حين ذكر أن فترة القوة في الأندلس لم تكن إلا مقدمة لفترات الفتن الكثيرة فيها، فقال: (بيد أن انتثار شمل الأندلس على هذا النحو لم يكن سوى نتيجة طبيعية للعوامل السياسية والاجتماعية التي توالت في الحقبة السابقة، بل نستطيع أن نرجع هذه العوامل إلى بداية قيام الدولة الأموية ذاتها، أعني إلى عهد عبد الرحمن الداخل، فقد رأينا هذا الزعيم القوي، بعد أن استولى على تراث الأندلس، واستتب له الأمر، يعمل بكل ما وسع للاستئثار بالسلطة، وإخماد النزعة القبلية، وتحطيم الزعامات والرياسات العربية المحلية. وقد حذا خلفاؤه من أمراء بني أمية حذوه في تتبع العصبية العربية والقضاء عليها. وقد بلغ هذا الصراع بين السلطة المركزية، وبين المنتزين عليها، ذروته في أواخر القرن الثالث الهجري، إبان اضطرام الفتنة الكبرى، وتفاقم ثورة المولدين والعرب، في عهد الأمير عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن (275 -ـ 300 هـ)، حينما اندلع لهيب الثورة، في كل ناحية من نواحي الأندلس، وظهر الزعماء العرب والبربر في معظم النواحي، واستقلت معظم الكور والمدن الكبيرة عن قرطبة. وقد استطاع عبد الله أن يخمد الثورة في كثير من النواحي، وأن ينقذ سلطان بني أمية من الخطر الداهم، ثم جاء من بعده عبد الرحمن الناصر، فأتم المهمة، وقضى على جذور الفتنة من أساسها، وعمل على تدعيم سلطانه بكل الوسائل، فاشتد في مطاردة القبائل والأسر العربية ذات

---

[2]() المرجع السابق، (2/ 11)

البأس والعصبية، وقضى على رياستها وزعامتها المحلية، ومال إلى اصطناع الموالي والصقالبة، وأولاهم النفوذ والثقة، فاستأثروا في عهده بأرفع المناصب في القصر وفي الحكومة والجيش، وكان من جراء ذلك أن انصرفت القبائل العربية عن الولاء له، وكان تخاذلها في نصرته يوم موقعة الخندق الشهيرة (327 هـ)، يرجع من وجوه كثيرة، إلى سخط الزعماء العرب لسياسته، في إذلالهم وسحق نفوذهم ومكانتهم)(1)

وهكذا أسس الأمويون لفتن المغرب، بعد أن أسسوا لفتن المشرق، فقد كان لتلك النزعات العنصرية أثرها في تحويل الأندلس إلى الشكل الذي كانت عليه القبائل العربية قبل الإسلام، حيث كان الصراع بينها شديدا، ولم يكن الفرق بينهما سوى أن الصراع الأول كان من أجل ناقة أو فرس، بينما كان الصراع الثاني من أجل رئاسة أو قصر.

وقد ذكر محمد عبد الله عنان بعض مشاهد ذلك، فقال ـ وهو يتحدث عن فترة القوة الأندلسية القصيرة، والتي حضرت لكل الفتن التي جاءت بعدها ـ: (ولم يحد المنصور بن أبي عامر، حين استولى على السلطان، عن هذه السياسة في تدعيم الحكومة المركزية، وسحق كل سلطة محلية وبالرغم من أنه ينتمي إلى بيت من أكرم البيوتات العربية، فإنه عمل على سحق العصبية العربية، وعمل في نفس الوقت على سحق عصبية الفتيان الصقالبة، ولم يستبق منهم إلا أقلية مخلصة. وآثر أن يعتمد في الجملة على ولاء البربر، فكان منهم معظم قادة الجيش، وكان منهم خلفاء المنصور وعماله في المغرب. وفضلا عن ذلك فقد كان من جراء نظام الطغيان المطلق الذي فرضه المنصور على الأندلس، قرابة ثلاثين عاماً، أن توارت معظم الزعامات والعناصر النابهة في المجتمع الأندلسي من الميدان، ولكنها لبثت في مكانها وعزلتها، ترقب فرص الظهور والعمل، ومن جهة أخرى فقد كان هذا النظام المطلق، الذي فرضه المنصور على الأمة الأندلسية، يخفي في ثنياته كثيراً من عوامل الهدم والانتقاض. فقد كانت

(1) المرجع السابق، (2/ 12)

سائر العناصر التي تعاونت في إقامته وتدعيمه، يتربص بعضها ببعض، ويخشى كل منها على مركزه وسلطانه. وكانت ثمة معارك خفية تجري بين البربر وخصومهم من الصقالبة، في القصر وفي الحكومة. وكان بنو أمية يميلون إلى الصقالبة مواليهم القدماء، ويكرهون البربر، إذ كانوا سنداً للمنصور في استلاب سلطانهم، وكانت البطون العربية تكره هؤلاء وهؤلاء، ولكنها ترى في البربر خصمها الأساسي، وهو من آثار الخصومة القديمة، التي لبثت تضطرم بين العنصرين منذ عصر الفتح)(1)

وبعد أن ذكر الزعامات الكثيرة التي ظهرت، وراح يشكل كل واحد منها دولته المستقلة، علق عليها بقوله: (وأضحت الأندلس في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري، تقدم إلينا ذلك المنظر المدهش الذي أشرنا إليه فيما تقدم: منظر الصرح الشامخ، الذي انهارت أسسه، وتصدع بنيانه، وقد اقتصت أطرافها، وتناثرت أشلاؤها، وتعددت الرياسات في أنحائها، لا تربطها رابطة، ولا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة؛ لكن تفرق بينها بالعكس، منافسات وأطماع شخصية وضيعة، وتضطرم بينها حروب أهلية صغيرة، والأندلس خلال ذلك كله تفقد مواردها وقواها القديمة تباعاً، ويحدق بها خطر الفناء من كل صوب.. وهذه الدول الصغيرة، المتخاصمة المتنابذة، التي قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى، تعرف بدول الطوائف، ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف وهم ما بين وزير سابق، وقائد من ذوي النفوذ والصحب، وحاكم لإحدى المدن، وشيخ للقضاء، وزعيم من ذوي المال والحسب. وقد ظهروا جميعاً إبان الفتنة، وبسط كل سلطانه، على ما أتيح له من المدن والأراضي، وأخذ يعمل على تدعيم ذلك السلطان وتوسيعه، وتأسيس الملك لبنيه)(2)

وقد أشار إلى ما ذكره، بل صرح به كبار العلماء والأدباء الأندلسيين بصيغ مختلفة، ومنهم لسان الدين بن الخطيب الذي

1() المرجع السابق، (2/ 13)

2() المرجع السابق، (2/ 15)

قال: (وذهب أهـل الأنـدلس من الانشـقاق والانشـعاب والافـتراق، إلى حيث لم يذهب كثـير من أهـل الأقطـار، مـع امتيازهـا بالمحـل القـريب، والخطـة المجـاورة لعبّـاد الصـليب، ليس لأحـدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سـبب، ولا في الفروسـية نسـب، ولا في شروط الإمامة مكتسب. اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المـدائن الكبار، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقـدموا القضـاة، وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الكتاب الأعلام، وأنشدهم الشـعراء، ودونت بأسـمائهم الـدواوين، وشـهدت بوجـوب حقهم الشـهود، ووقفت بـأبوابهم العلمـاء، وتوسـلت إليهم الفضـلاء، وهم مـا بين محبوب، وبربري مجلـوب، ومجنـد غـير محبـوب، وغفـل ليس في السراة بمحسوب، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائراً، ولا لحـزب الحق مغايراً، وقصارى أحـدهم يقـول: (أقيم على مـا بيـدي، حـتى يتعين من يستحق الخروج به إليه)، ولو جاءه عمر بن عبـد العزيـز لم يقبل عليه، ولا لقي خيراً لديه. ولكنهم استوفوا في ذلـك آجـالا وأعمـاراً، وخلفـوا آثـاراً، وإن كـانوا لم يبـالوا اغـترارا، من معتمـد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل)(1)

وقد عبر عن هذا المعنى الذي ذكره ابن الخطيب أبو الحسن بن رشيق القيرواني، فقال(2):

مما يزهدني في أرض أندلس.. أسماء مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها.. كـالهر يحكي انتفاخـاً صَـوْرَة الأسد

كما عبر عنه ابن حيان، والـذي عاصـر تلـك الفتن، فقـال في مقدمة تاريخه الكبير: (فركبت سنن من تقدمني، فيمـا جمعت من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية، ونظمتـه وكشـفت عنـه، وأوعيت فيـه ذكـر دولهم المضـطربة، وسياسـتهم المنفـرة، وأسـباب كبـار

(1) أعمال الأعلام، ص 144..

(2) المعجب للمراكشي، ص 4.

الأمـراء المنـتزين في البلاد عليهم، وسـبب انتقـاض دولهم، حـال فحال بأيديهم، ومشهور سيرتهم وأخبارهم، وما جـرى في مـددهم وأعصارهم، من الحروب والطوائـل، والوقـائع والملاحم، إلى ذكـر مقاتل الأعلام والفرسـان، ووفـاة العلمـاء والأشـراف، حسـب مـا انتهت إليه معرفتي ونالته طاقتي)[1]

وفوق هؤلاء ذكر محمد عبد الله عنان ـ وهو المؤرخ المختص الـذي درس الواقـع الأندلسـي بدقـة شـديدة، ومن خلال المصـادر الكثيرة ـ أن كل التـاريخ الأندلسـي ابتـداء من أيـام الفتح، وانتهـاء إلى خروج المسـلمين منهـا لم يكن سـوى تـاريخ مطـول للصـراع والفتن، ابتـدأ بالصـراع بين طـارق بن زيـاد وموسـى بن نصـير، وانتهى بمـا ذكـره التـاريخ من المأسـاة الكـبرى للمسـلمين، وقـد خرجوا يجرون أذيال الخيبة.

يقول ـ عند ذكره لملوك الطوائف ــ: (ونسـتطيع القـول بـأن تمزق الأندلس على هذا النحو، كان ضربة، لم تنهض الأنـدلس من آثارها قط، بل كان بداية عهـد الانحلال الطويـل الـذي لبثت تتقلب فيـه بعـد ذلـك زهـاء أربعـة قـرون أخـرى، وبـالرغم من أن عهـد الطوائف الحقيقي لم يطل أكثر من سبعين عاماً، وبـالرغم من أن الأنـدلس، قـد التـأم شـملها بعـد ذلـك في ظـل المـرابطين ثم الموحـدين من بعـدهم، وبـالرغم من أنهـا اسـتطاعت أن تسـترد تفوقها العسكري القديم في شـبه الجزيـرة الإسـبانية في فـترات قصيرة: بالرغم من ذلك كله، فإن الأنـدلس لم تسـتطع أن تسـترد وحـدتها الإقليميـة القديمـة، ولا تماسـكها القـديم قـط، بـل لبثت بالعكس، خلال صراعها الطويل مع اسبانيا النصرانية، تفقـد قواهـا ومواردها تباعاً، وتنكمش رقعتها الإقليميـة تـدريجياً. حـتى إذا كـان منتصف القرن السابع الهجري، رأينا رقعة الوطن الأندلسي، ترتـد إلى مـا وراء نهـر الـوادي الكبـير، وتنحصـر في مملكـة غرناطـة الصـغيرة، ورأينـا قواعـد الأنـدلس القديمـة الكـبرى مثـل قرطبـة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وغيرها، تغدو مدناً إسـبانية نصـرانية، ويغـدو مـيزان القـوى في شـبه الجزيـرة الإسـبانية بيـد

---

[1] نقله ابن بسام في الذخيرة، 2/ 88.

مملكة قشتالة الكبرى)(1)

ولم يتوقـف أمـر الفتن في الأنـدلس على الفـترة الـتي كـان للمسلمين فيها بعض السلطة والسـطوة، بـل تعـدتها إلى مـا بعـد خروجهم، حيث آثر الكثير من المسلمين البقاء في ذلك الفردوس الذي لم يسـتطيعوا الخـروج منـه.. لكنهم دفعـوا مقابـل ذلـك كـل شيء ابتداء من كرامتهم، وانتهاء بدينهم.

وللأسـف كـان للفقهـاء الـذين لا يعرفـون القيم القرآنيـة دور كبير في بقائهم، فقد أورد المؤرخ الكبير علي بن محمـد المنتصـر بالله الكتاني (المتوفى: 1422هـ) في كتابـه [انبعـاث الإسـلام في الأندلس] عند حديثـه عن اضـطهاد المسـلمين فيهـا بين 1502 - 1567 م فتوى لمفتي وهران، أحمد بن بوجمعـة المغـراوي، وهـو أندلسي من بلدة المغرو بمقاطعة قلعة رباح، سنة 910 هـ، يقـول فيها مخاطبا أولئـك الممتحـنين في دينهم، لأجـل دنيـاهم: (إخواننـا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، من أجزل اللـه ثـوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضـاته، الغربـاء القرباء إن شاء اللـه، من مجـاورة نبيـه في الفـردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف الصالح في تحمـل المشـاق، وإن بلغت النفوس إلى التراق. نسأل اللـه أن يلطـف بنـا، وأن يعيننـا وإيـاكم على مراعاة حقه بحسن إيمـان وصـدق، وأن يجعـل لنـا ولكم من الأمور فرجًا ومن كل ضيق مخرجًـا. بعـد السـلام عليكم من كتابـه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيـده، وأحـوجهم إلى عفـوه ومزيـده، عبيد الله تعالى أحمد بن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني، كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسـن الـدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الـدار، والحشـر مـع الـذين أنعم الله عليهم من الأبرار)(2)

1() دولة الإسلام في الأندلس (2/ 16)

2() انبعـاث الإسـلام في الأنـدلس، علي بن محمـد المنتصـر باللـه الكتـاني (المتـوفى: 1422هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنـان، الطبعـة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م، (ص: 70)

ثم راح بعد تلك المقدمة يفتي لهم الفتاوى العجيبة، فيقول: (مؤكدًا عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم. فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى. فاعلموا أن الأصنام خشب منجور، وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع، وأن الملك الله ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله. فاعبدوه، واصطبروا لعبادته. فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء. لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم. والغسل من الجنابة ولو عومًا في البحور. وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحًا بالأيدي للحيطان، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد، إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوا بالإيماء.. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام، أو حضور صلاتهم، فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب الخمر، فاشربوه لا بنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيرًا، فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرّم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيرتموه، وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام، فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم، وتتصدقون بالباقي إن تبتم لله تعالى، وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والألغاز فافعلوا. وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك. وإن قالوا اشتموا محمدًا، فإنهم يقولون له ممد، فاشتموا ممدًا، ناوين أنه الشيطان، أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه. وإن قالوا عيسى ابن الله، فقولوها إن أكرهوكم، وانووا إسقاط مضاف أي عبد الله مريم معبود بحق. وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله فقولوها إكراهًا، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله

لا يلزم أن يسكنه أو يحل به. هان قالوا قولوا مريم زوجة له فانووا بالضمير ابن عمها الذي تزوجها في بني إسرائيل ثم فارقها قبل البناء.. وإن قالوا عيسى توفي بالصلب، فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه، وأمانته وصلبه وإنشاء ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو)(1)

وهكذا استطاع هذا الفقيه الجهبذ أن يعطيهم المخارج الشرعية، التي اختصر فيها الدين في تلك الألفاظ والطقوس، دون التفات منه للأجيال التي لن تجد لها ما يدلها على دينها، أو يثبتها عليه.

ولو أن هذا المفتي قرأ قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 97]، لوجد لهم المخرج القرآني الذي كان يمكنه بسهولة أن ينهي المشكلة من أساسها، خاصة وأن الاسبان كانوا يطلبون من المسلمين كل حين الخروج إلى البلاد التي جاءوا منها، مثلما نطلب نحن الآن من اليهود في فلسطين أن يعودوا إلى بلادهم، فلا يجوز شرعا لأي شعب أن يخرج شعبا آخر من أرضه.

لكنه للأسف لم يفعل، بل اعتبرهم مجاهدين ومرابطين مع أنهم لم يمكثوا هناك إلا لأجل الدنيا التي اجتذبتهم، ولم يستطيعوا الفكاك من حبالها، وقد ذكر الكتاني كيف كان يعيش المسلمون في تلك الفترة، فقال: (وهكذا تظاهر المسلمون مكرهين بقبول دين النصارى، يقومون بما يجبرون عليه من الترداد إلى الكنائس وتعميد الأطفال. لكنهم ظلوا مسلمين سرًّا يقومون بشعائر الإسلام من صلاة وصيام وتحاشي المنكرات. فكانوا يغسلون أبناءهم من التعميد، ويقومون بالزواج الإسلامي بعد الزواج في الكنيسة، ويربون أبناءهم سرًّا على الإسلام. وعملوا جهدهم للتكيف مع هذا الوضع الشاذ الحرج الخطر إلى أن يأتي الله بفرج

(1) المرجع السابق، (1/71).

من عنده)[1]

لكن ذلك لم يدم طويلا إذا أن الاسبان ابتدعوا وسائل أخرى لتنصير المسلمين لم تعد تجد فيها فتوى ذلك الوهراني شيئا، ومن أهمها فرض الضرائب الكبيرة على المسلمين، حتى يستردوا من خلالهم كل ما أخذه أجدادهم من غنائم، يقول الكتاني: (أخذ فراندو الكاثوليكي يتنكر للوعود التي قطعها على نفسه بمعاملة النصارى الجدد في موضوع الضرائب معاملته للنصارى القدامى حتى قبل سنة 1510 م حيث طبق على المورسكيين ضرائب خاصة بهم سميت ب [الفارضة] تنقسم إلى أربعة أجزاء، ثلاثة منها تسمى بالفارضة العظمى، وتضم غرامة سنوية قدرها 21.000 دوقة ذهبية، وأخرى فوق العادية قدرها 5.000 دوقة، وضريبة من 10.000 دوقة لبناء قصر للملك في غرناطة. والفارضة الرابعة، وتسمى الفارضة الصغرى، أو فارضة البحر لتمويل حراس البحر، ومات فراندو الكاثوليكي، وهو يوصي أولاده بالقضاء على الإسلام وتحطيم بقايا الديانة المحمدية في إسبانيا، بعد أن ذاقت الأمة الأندلسية من ظلمه وغدره وتعسفه الأمرين)[2]

ونحب أن نشير إلى أن استرداد الإسبان لأموالهم التي أخذها منهم المسلمون في بداية الفتح غنائم لهم، لم تتم فقط بعد الخروج من الأندلس، وإنما كانت تتم قبل ذلك، فقد كان ملوك الطوائف وغيرهم، يسلمون الجزية والضرائب الكثيرة للمالك الاسبانية حتى لا تغير عليهم، أو حتى يستعينوا بها على غيرهم من المسلمين.

ولم يقتصر الأمر على المال، فقد استعمل الإسبان كل الوسائل لتنصير المسلمين تنصيرا كاملا، وحصل لهم الكثير مما أرادوا، يقول الكتاني في ذكر بعض مشاهد ذلك: (في سنة 1518 م أصدر الملك أحكامًا قاسية بحق المسلمين فأوفد الأندلسيون

1() المرجع السابق، (1/73).

2() المرجع السابق، (1/73).

للملك وفدًا للشكوى من تظلمهم. فلم يأت ذلك بطائل. وصدر مرسوم جديد في 12، 3 ، 1524 م يحتم تنصير كل مسلم بقي على دينه وإخراج كل من أبى التنصير من إسبانيا، وأن يعاقب كل من أبى التنصير أو الهجرة في المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة، وأن تحول جميع المساجد الباقية إلى كنائس. فأرسل الموريسكيون وفدًا إلى الملك بمجريط (التي أصبحت عاصمة إسبانيا الجديدة) يلتمسون منه من جديد حمايته وعدله ويستغيثون به. فانتقل كارلوس الخامس في يونيو عام 1526 م إلى غرناطة وبقي فيها إلى غاية ديسمبر من نفس السنة لمتابعة الموضوع بنفسه وإيجاد حل له، فندب الملك محكمة كبرى مكونة من النواب والقساوسة والقادة وقضاة التفتيش برئاسة المفتش العام لتنظر في ظلامة الموريسكيين، ولتقرر فيما إذا كان تنصير المسلمين قسرًا صحيحًا وملزمًا أم لا. فإذا كان هذا التنصير صحيحًا عوقب المخالف بالموت حرقًا كمرتد. وقد قدمت المحكمة تقريرها في سبتمبر عام 1526 م أكدت فيه أن الموريسكيين هم فعلاً ضحية اعتداءات متواصلة من طرف النصارى القدامى الذين يشتمونهم في الطرقات ويستغلونهم شر استغلال ويهينونهم رجالاً ونساء دون حماية القانون. لكن المحكمة قررت كذلك أن تنصير المسلمين القسري صحيح ولا طعن فيه) (1)

ومما سنه ذلك الملك من قوانين: (أن تبقى بيوت الموريسكيين مفتوحة على الدوام ليرى الجميع ماذا يجري فيها، وأن تزيل الموريسكيات حجابهن) (2)

ولكن مع ذلك لم يفروا بدينهم من الفتن، وإنما استمر بقاؤهم فيها، واستمر أولئك الذين لا يقرؤون القرآن في تشجيعهم على ذلك، ولذلك راح الإسبان في كل مرة يستعملون وسائل جديدة، ويطلبون أموالا كثيرة، وقد ذكر الكتاني ذلك، فقال: (ثم

1() المرجع السابق، (1/74).

2() المرجع السابق، (1/74).

التمس الموريسكيون مرة أخرى من الملك الرأفة، ودفعوا له 80.000 دوقة ذهبية، فوافق على وقف تنفيذ هذه الإجراءات لمدة أربعين سنة، يحتفظ خلالها الموريسكيون بلغتهم العربية وثيابهم الإسلامية وبعض التسهيلات الأخرى مقابل دفع ضريبة سنوية. وكان يجمع من هذه الضريبة أموالاً طائلة)

لكن ذلك أيضا لم يطل؛ فبعد أن قبضوا الأموال الضخمة راحوا يخرقون العهود، ويتلاعبون بأولئك الذين رضوا بالذل، والتفريط في دينهم من أجل السراب.

وقد كان في إمكان الموريسكيين أن يتركوا استفتاء أولئك الفقهاء الذين لا يقرؤون القرآن، ويستمعوا بدلهم لذلك الشاعر الناصح الذي ذكره المقري في [نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب]، فقال: (من أول ما استرد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذي النون سنة 475، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم.. فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى.. ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا..كيف الحياة مع الحيات في سفط) [1]

وكان الشاعر الآخر الذي ذكره المقري أكثر دقة في التعبير حينها وصف الأندلس بأنها أرض معارة للمسلمين وليست حقا لهم، فقال[2]:

يا أهل أندلس ردوا المعار..فما في العرف عارية إلا مردات

ألم تروا بيدق الكفار فرزنه..وشاهنا آخر الأبيات شهمات

1() نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (4/ 352).

2() المرجع السابق، (4/ 352).

4 ـ الفاتحون.. والاستبداد والطغيان:

يتصور الكثير من الناعقين بالأمجاد المزيفة أن ذلك الذي يسمونه فردوسا مفقودا كان لجميع المسلمين، عامتهم وخاصتهم، وذلك غير صحيح، والمصادر التاريخية تؤكد أنه لم ينعم في الأندلس بالرخاء والرفاه سوى أولئك المستبدين الطغاة الذين قسموا الأرض بينهم كما تقسم الكعكعة.

وهم يذكرون أن ما كان من آثار في الأندلس لا يزال يوجد بعضها إلى اليوم، ليس سوى أثر من آثار ذلك الاستبداد والظلم، ذلك أن تلك القصور، بنيت على عرق كثير، ودماء كثيرة، سالت لترفع كل لبنة من لبناتها، ويسكن بعدها صعلوك من الصعاليك، ومعه غلمانه وجواريه.

وبما أن الكثير يلتمس كل السبل ليفر من الحقيقة، فلن أذكر هنا ما قال المؤرخون، وإنما سأذكر بعض ما ورد في رسالة لابن حزم الأندلسي القرطبي (384 هـ - 456 هـ)، يصور فيها حال الاستبداد الذي كان يعيشه عامة سكان الأندلس، وهي من رسالة له بعنوان [التلخيص لوجوه التخليص]، وقد أجاب فيها على بعض المسائل الدينية والفقهية، ومنها ما يرتبط بالواقع الذي كان يعيشه، وعن كيفية التورع في المطعم والملبس والمكسب.

وقد بدأ هذه الإجابات بقوله: (وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، ولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد؛ للذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله،

غرضهم فيها استدام نفاذ أمرهم ونهيهم)[1]

فهذه الشهادة لابن حزم الفقيه الكبير، وليست لمستشرق أو مستغرب، وهو سني ظاهري متشدد مع المخالفين مبدع لهم، وليس رافضيا ولا مجوسيا، ولا من أي طائفة من الطوائف التي تتهمونا بالطعن في رموز السنة.. وهي واضحة في الدلالة على أن تواجد المسلمين هناك لم يكن في مصلحة أحد، لا في مصلحة الإسبان السكان الأصليين، ولا في مصلحة عوام المسلمين، ولا في مصلحة الإسلام نفسه.

ولم يكتف ابن حزم بذلك، بل راح يخاطب الناعقين بالمجد المزيف، وكأنه يعيش بيننا، ليدعوهم للاعتراف بالحقيقة، وعدم الكذب على أنفسهم، وعدم الوقوع في تلك التلبيسات التي يلبس بها أولئك الفقهاء الذين صاروا سندا للمستبدين في استبدادهم، فقال: (فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم. فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذم جميعهم؛ فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه، وما أدري كيف هذا، فلو اجتمع كل من ينكر هذا بقلبه لما غلبوا. فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)، وجاء في بعض الأحاديث: ليس وراء ذلك من الإيمان شيء، أو كما قال ﷺ؛ وجاء في الأثر الصحيح عن النبي ﷺ: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليعمنكم الله بعذاب)، واعلموا رحمكم الله انه لا عذاب أشد من الفتنة في الدين، قال الله تعالى: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: 191])[2]

ثم بين وجوب النهي عن المنكر، وأنه لا تقية فيه، فقال:

[1] رسائل ابن حزم (3/ 173)

[2] المرجع السابق، (3/ 174)

(فأما الغرض الذي لا يسع أحداً فيه تقية، فأن لا يعين ظالماً بيده ولا بلسانه، ولا أن يزين له فعله ويصوب شره، وعاديهم بنيته ولسانه عند من يأمنه على نفسه، فإن اضطر إلى دخول مجلس أحدهم لضرورة حاجة أو لدفع مظلمة عن نفسه أو عن مسلم، أو لإظهار حق يرجو إظهاره، او الانتصاف من ظالم آخر، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: 129] أو لصداقة سالفة، فقد يصادق الإنسان المسلم اليهودي والنصراني لمعرفة تقدمت، أو لطلب يعانيه، أو لبعض ما شاء الله عز وجل، فلا يزين له شيئاً من أمره ولا يعنيه ولا يمدحه على ما لا يجوز، وإن أمكنه وعظه فليعظه، وإلا فليقصد إلى ما له قصد غير مصوب له شيئاً من معاصيه، فإن فعل فهو مثله، قال الله تعالى: { وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [هود: 113])(1)

ثم ذكر مدى انتشار المحرمات في الأندلس تلك البلاد التي يصور المغفلون أن المسلمين ذهبوا إليها ليعطوا صورة جميلة عن الإسلام ترغب أهلها في الدخول إليه، فقال: (وأما ما سألتم عنه من وجه السلامة في المطعم والملبس والمكسب، فهيهات أيها الإخوة، إن هذا لمن أصعب ما بحثتم عنه وأوجعه للقلوب وآلمه للنفوس. وجوابكم في هذا ان الطريق ها هنا طريقان: طريق الورع، فمن سلكه فالأمر والله ضيق حرج. وبرهان ذلك أني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهما حلالاً ولا ديناراً طيباً يقطع على أنه حلال، حاشا ما يستخرج من وادي لاردة من ذهب، فإن الذي ينزل منه في أيديهم، يعني أيدي المستخرجين له بعد ما يؤخذ منهم ظلماً فهو كماء النهر في الحل والطيب، حتى إذا ضربت الدراهم وسبكت الدنانير فاعلموا أنها تقع في أيدي الرعية فيما يبتغونه من الناس من الأقوات التي لا تؤخذ إلا منهم، ولا توجد إلا عندهم من الدقيق والقمح والشعير والفول والحمص والعدس واللوبيا والزيت والزيتون والملح والتين والزبيب والخل وأنواع الفواكه والكتان والقطن والصوف والغنم والألبان والجبن والسمن والزبد والعشب والحطب. فهذه الأشياء لابد من ابتياعها

(1) المرجع السابق، (3/ 175)

من الرعيـة عمـار الأرض وفلاحيهـا ضـرورة. فمـا هـو إلا أن يقـع الدرهم في أيديهم، فما يستقر حتى يؤدوه بـالعنف ظلمـاً وعـدواناً بقطيع مضروب على جماجمهم كجزية اليهود والنصـارى، فيحصـل ذلك المال المأخوذ منهم حق عند المتغلب عليهم، وقد صـار نـاراً، فيعطيـه لمن اختصـه لنفسـه من الجنـد الـذين اسـتظهر بهم على تقوية أمره وتمشية دولته، والقمع لمن خالفه والغـارة على رعيـة من خرج من طاعته أو رعية من دعاه إلى طاعته، فيتضـاعف حـر النار، فيعامل بهـا الجنـد التجـار والصـناع، فحصـلت بأيـدي التجـار عقـارب وحيـات وأفـاعي، ويبتـاع بهـا التجـار من الرعيـة، فهكـذا الدنانير والدراهم كمـا تـرون عيانـاً دواليب تسـتدير في نـار جهنم، هذا ما لا مدفع فيه لأحد، ومن أنكر مـا قلنـا بلسـانه فحسـبه قلبـه يعرفه معرفة ضرورية، كعلمه أن دون غد اليوم، فإذا فاتنا الخلاص فلا يفوتنـا الاعـتراف والنـدم والاسـتغفار، ولا نجمـع ذنـبين: ذنب المعصـية وذنب اسـتحلالها، فيجمـع اللـه لنـا خـزيين وضـعفين من العذاب، نعوذ بالله من ذلك) (1)

ثم راح يذكر أنواع الإتاوات والضرائب التي كـانت تـنزل على رؤوس عامة الناس كل حين، فقال: (وأمـا في زماننـا هـذا وبلادنـا هذه، فإنما هو باب أغلق فرقت بين زماننا هذا والزمان الذي قبله، لأن الغايـات إنمـا هي جزيـة على رؤوس المسـلمين يسـمونها بالقطيع، ويؤدونها مشاهرة وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل، يرسم على كل رأس، وعلى كل خلية شيء مـا، وقبالات ما، تؤدى على كل ما يباع في الأسـواق، وعلى إباحـة بيـع الخمر من المسلمين في بعض البلاد، هذا كل ما يقبضه المتغلبون اليوم، وهذا هـو هتـك الأسـتار ونقض شـرائع الإسـلام وحـل عـراه عروة عروة، وإحداث دين جديد، والتخلي من الله عز وجل) (2)

ثم يقسم أن تلك الدويلات والحكام الـذين يحكمونهـا لم يكن لهم أي علاقـة بالـدين، فيقـول: (واللـه لـو علمـوا أن في عبـادة

---

(1) المرجع السابق، (3/ 175)

(2) المرجع السابق، (3/ 176)

الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحسرهم معهم آمنين، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه) (1)

وهكذا ذكر ابن بسام الشنتريني (450 هـ - 542 هـ) في كتابه [الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة]، والذي يعتبر من أهم المراجع الأدبية والحضارية في بلاد الأندلس، وثائق هامة عن الاستبداد الذي كان يطغى على حكام الأندلس، ومن ذلك كيفية جمعهم للضرائب، التي يسلمون أكثرها للإسبان رجاء حمايتهم، أو ترك حربهم.

ومنها وثيقة رآها بأحد بيوت الأشراف خوطب بها العمال في استعجال قبض الأموال، على لسان المعتمد يقول فيها: (الحال مع العدو قصمه الله بينة لا تحتاج إلى جلاء ولا كشف، معروفة لا تفتقر إلى نعت ولا وصف، ومن لا يمكن مقاواته ومخاشنته، فليس إلا مداراته وملاينته، وقد اعتقد الخروج في هذا العام إلى بلادنا، عصمها الله، بأكثف من جموعه في العام الفارط وأحفل، وأبلغ في استعداده وأكمل، إلا أن الله تعالى يسر من إنابته إلى السلم ما يسر، ونظر لنا من حيث لا نستطيع أن ننظر، ووقع الاتفاق معه على جملة من المال، تقدم إليه ويستكف بها الشر المرهوب لديه. فكم حال كانت بخروجه نتلف، ونعمة بأيدي طاغية تنتسف، والرعية حاطها الله في هذا العام على ما يقتضيه، ما عم البلاد من الفساد، وشملها من جائحة القحط والجراد تكليفها أداء شيء من المال الذي التزم مرتفع، وأخذها بالمعونة على ما ناب ممتنع، فلم يبق إلا أن نميل بهذه الكلفة على الخدمة ميل العموم، ونجريهم فيها على أحسن مجاري التحرير والتقويم، وهي حال تقتضي من كل من أحسن التأمل المعونة فيها، والمبادرة بحسب طاقته إليها، وقد أدرجت طي رقعتي هذه قنداقاً تسمى الخدمة

---

(1) المرجع السابق، (3/ 177)

قبلك فيه، ورسم على كل واحدٍ منهم ما توجبه حاله وتقتضيه، فتقدم في ما نصصته من الحال إليهم، وكلمهم بما يخفف الحال عندهم ويسهلها لديهم، ولتقبض ذلك كله في أعجل ما يمكن، فالحاجة إليه وكيدة، والضرورة حافزة شديدة)[1]

وحتى لا يبقى ما ذكره ابن حزم وابن بسام وغيرهما نظريا محضا، فسأذكر نموذجا عن بعض الطغاة من ملوك بني عباد على إشبيلية في الأندلس، وكيف تعامل مع رعيته، ومع أهوائه، وهو المعتضد بالله أبو عمرو عبَّاد بن محمد بن إسماعيل اللخمي[2] (407 هـ - 461 هـ)، وهو ثاني ملوك بني عباد على إشبيلية، وقد خلف أباه، وقام بحروب كثيرة مع سائر المدن الأندلسية، من أجل توسيع إمارته، وقد نجح في ذلك حيث وسعها إلى مناطق كثيرة إلى أن استولى على قرطبة

وقد جمع له الذهبي بطريقته في الجمع بين المتناقضات بين الثناء العريض، مع ذكره لجرائمه التي كانت تستحق الذم لا المديح، فقد قال في ترجمته في [سير أعلام النبلاء]: (المعتضد بالله صاحب الأندلس.. قاضي إشبيلية، ثم ملكها.. حكم على المدينتين قرطبة وإشبيلية.. وكان شهما، صارما، داهية، ذبح جماعة من أعوان أبيه، وصادرهم، وعلا شأنه، ودانت له الأمم)[3]

وهذه من عجائب الذهبي وغيره من المترجمين للأعلام، والذين لا يزنونهم بالموازين القرآنية، حيث أنه ذكر شهامته في نفس الوقت الذي ذكر فيه ذبحه لجماعة من أعوان أبيه ومصادرته لأموالهم في سبيل الوصول إلى الحكم.. ولست أدري كيف تجتمع الشهامة مع الذبح والسرقة.

---

[1] () الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (3/ 252)

[2] () انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان: 5/ـ 21، والعبر 3/ـ 321، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي 5/ 157، وشذرات الذهب لابن العماد 3/ 386.

[3] () سير أعلام النبلاء (14/ 126).

ثم ذكر مبلغ العتو والاستكبار الذي بلغـه، والـذي جعلـه يقتـل ابنـه، ويتفنن في قتـل من يخـاف منهم على ملكـه، فقـال: (غـرز خشبا في قصره، وعممها برؤوس كبـار وملـوك، وكـانوا يشـبهونه بالمنصور العباسي، ورام ابنه إسـماعيل اغتيالـه، فأخـذه، وضـرب عنقه، وعهد إلى ابنه المعتمد، وقيل: سمه طاغية الفرنج في ثوب فاخر، أهداه له) (1)

ثم ذكـر بعض مظـاهر عتـوه مـع عامـة النـاس؛ فقـال: (ومن جبروتـه وعتـوه أنـه أخـذ مـالا لأعمى، فحج وجـاور بمكـة، فبلـغ المعتضد أنه يدعو عليـه، فنـدب رجلا أعطـاه جملـة دنـانير مطليـة بسم، فسار إلى مكة، وأوصله الـذهب، فقـال: يظلمـني بإشـبيلية، ويصلني هنا!؟، ثم وضع منها دينارا في فمه كعادة الأضراء، فمات من الغد.. وهرب منـه مـؤذن إلى طليطلـة، فبقي يـدعو عليـه في السحر، فنفذ من جاءه برأسه) (2)

ثم ذكر جمعه بين الاستبداد والانحلال الخلقي، كما كان سائدا في ذلك الحين، والذي أصبحت فيه الخمر، وكأنهـا من الطيبـات لا من الخبائث، فقال: (وقد سكر ليلـة، وخـرج في الليـل معـه غلام، وسـار مخمـورا، حـتى وافى قرمونـه، وصـاحبها إسـحاق الـبرزال، وبينهما حروب، وكان يشرب أيضا في جماعة، فاستأذن المعتضـد، ودخل، فـزاد تعجبهم، فسـلم وأكـل، وأل من سـكره، وسـقط في يده، لكنه تجلد، ثم قال: أريد أن أنام، ففرشوا لـه، فتنـاوم، فقـال بعضهم: هذا كبش سمين، والله لو أنفقتم ملك الأنـدلس عليـه مـا قـدرتم، فقـال معـاذ بن أبي قـرة: كلا، رجـل قصـدنا، ونـزل بنـا مستأمنا، لا تتحـدث عنـا القبائـل أنـا قتلنـا ضـيفنا، ثم انتبـه وقـام، فقبلوا رأسه، وقال للحاجب: أين نحن؟ قال: بين أهلـك وإخوانـك. قال: هاتوا دواة، فكتب لكـل منهم بخلعـة ومـال وأفـراس وخـدم، وأخذ معه غلمـانهم لقبض ذلـك، وركب، فمشـوا في خدمتـه. لكن أساء كل الإساءة؛ طلبهم بعـد أشـهر لوليمـة، فأتـاه سـتون منهم،

---

(1) المرجع السابق، (14/ 127)

(2) المرجع السابق، (14/ 127)

فأكرمهم، وأنزلهم حماما، وطينه عليهم سوى معاذ، وقال لمعاذ: لم ترع، حضرت آجالهم، ولولاك، لقتلوني، فإن أردت أن أقاسمك ملكي، فعلت، قال: بل أقيم عندك، وإلا بأي وجه أرجع، وقد قتلت سادات بني برزال، فصيره من كبار قواده، وكان من كبار قواد المعتمد) [1]

هذا هو الواقع الأندلسي كما ترسمه كتابات المؤرخين والفقهاء المسلمين، وأولهم سكان الأندلس نفسها، والذين ذكروا معاناتهم مقارنة بذلك الرفاه الذي يعيشه الحكام والمستبدون، والذين لم يكتفوا بظلم السكان الأصليين، وإخراجهم من أرضهم، وإنما أضافوا إلى ذلك ظلمهم لإخوانهم من المسلمين الذين جلبوهم باسم الفتح، فلم يجدوا إلا الاستبداد.

5 ـ الفاتحون.. واللهو والمجون:

لم يكتف أولئك المستبدون الذين حكموا الأندلس بالحديد والنار، بتلك الجرائم التي كانوا يمارسونها مع المسلمين وغيرهم، وإنما أضافوا إليها إشاعة الانحرافات الأخلاقية في البيئة الأندلسية، والتي تأثرت كثيرا بالبيئات المنحرفة التي كانت موجودة في الأندلس قبل دخول المسلمين إليها، وأضافت إليها أشياء جديدة.

وهذا أكبر ما يُرد على اعتبار دخول المسلمين إلى الأندلس فتحا، ذلك أن من أول علامات الفاتح أن ينقل ثقافته وقيمه وأخلاقه إلى البلاد التي فتحها، لا أن يحدث العكس، وللأسف فقد حصل العكس عند ما يسمونه فتح الأندلس، كما أشار ابن خلدون إلى ذلك عند حديثه عن القاعدة التي وضعها في مقدمته، والتي عبر عنها بقوله: [المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده]،وحاول أن يدافع عنها بما أطاق، لكنه اصطدم بتقليد الغالبين في الأندلس للمغلوبين؛ فراح يضع قاعدة أخرى عبر عنها بقوله: (حتّى أنّه إذا كانت أمّة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التّشبّه والاقتداء

[1] المرجع السابق، (14/ 128)

حظٌّ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فإنّك تجدهم يتشبّهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتّى في رسم التّماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتّى لقد يستشعر من ذلك النّاظر بعين الحكمة أنّه من علامات الاستيلاء والأمر للّه. وتأمّل في هذا سرّ قولهم العامّة على دين الملك فإنّه من بابه إذ الملك غالب لمن تحت يده والرّعيّة مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلّمين بمعلّميه) (1)

وهذا يدل على أن الذين كانوا يحكمون الأندلس لم يكن لهم أي حظ من الدين، ولا أي هدف رسالي، بل كان هدفهم فقط الدنيا وشهواتها، والتي وجدوا منها في الأندلس ما لم يجدوه في بلادهم، مثلما يفعل أمراء الخليج في هذ العصر عندما يذهبون إلى أوروبا وأمريكا، وينسون كل ما يمت إلى قيمهم بصلة.

بل إن الأمر بلغ بالمسلمين حينها ــ بسبب إفراطهم في الشهوات ـ إلى مرتبة دون مرتبة أعدائهم من الإسبان أنفسهم، كما عبر الشاعر عن ذلك متهكما بجيش المسلمين عند مواجهته لجيش الإسبان:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم.. حلل الحرير عليكم ألواناً

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها.. لو لم يكن ببطرنة ما كانا (2)

وهكذا نجد الأدباء يعبرون عن سر مقام المسلمين بالأندلس على الرغم من الحروب الشديدة التي كانت تحصدهم أو تحصد أعداءهم كل حين، ومن ذلك ما نقله المقري عن أبي عمران موسى بن سعيدٍ في جوابه لأبي يحيى صاحب سبتة لما استوزره مستنصر بني عبد المؤمن، وكتب إلى المذكور يرغبه في النقلة عن الأندلس إلى مرّاكش، قال له: (وأمّا ما ذكر سيّدي من التخيير بين ترك الأندلس وبين الوصول إلى حضرة مراكش،

(1) تاريخ ابن خلدون (1/ 184).

(2) نفح الطيب ج 1 ص 181..

فكفى الفهم العالي من الإشارة قول القائل: والعزّ محمودٌ وملتمسٌ.. وألذّه ما نيل في الوطن، فإذا نلت بك السماء في تلك الحضرة، فعلى من أسود فيها؟ ومن ذا أضاهي بها؟.. وبعد هذا، فكيف أفارق الأندلس وقد علم سيّدي أنها جنّة الدنيا بما حباها الله به من اعتدال الهواء، وعذوبة الماء، وكثافة الأفياء، وأن الإنسان لا يبرح فيها بين قرّة عينٍ وقرار نفسٍ.. أفقٌ صقيلٌ، وبساطٌ مدبّجٌ، وماءٌ سائحٌ، وطائرٌ مترنمٌ بليلٌ، وكيف يعدل الأديب عن أرضٍ على هذه الصفة؟)(1)

وقد أدرك الإسبان طبائع المسلمين في وقت مبكر، ولذلك سهل عليهم التعامل معهم، إما بقتلهم، وإما بفرض الجزية والإتاوات الثقيلة عليهم كل حين، حتى صار المسلمون، وكأنهم عمال مسخرون للإسبان في نفس الوقت الذي نتوهم فيه أنهم كانوا أصحاب المجد والغلبة.

وقد أشار إلى هذا ملك قشتالة [الفونسو السادس]، حين قال لرسول المعتمد بن عباد لما قدم إليه: (كيف أترك قوماً مجانين، تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً.. وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحد وأن يدعها بين أيديهم سدى)(2)

وهكذا قال [فرناندو بن شانجه] ملك جليقية أثناء حصاره لمدينة طليطلة سنة 478هـ، والذي خاطب أهلها الذين خرجوا يطلبون الصلح معه مقابل الأموال الكثيرة التي يسددونها: (ما أجيبكم إلى سلم، ولا أعفيكم من حرب.. فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم فقد سكنتموها ما قضي لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم ـ يعني بلاد المغرب ـ واتركوا لنا بلادنا، فلا خير في سكناكم معنا بعد اليوم) (3)

1() المرجع السابق، (1/ 182).

2() ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس ص 89..

وهكذا قال [الفونسو السادس ششنندو (مسنندو)] لمسلمي غرناطة قبيل سقوط مدينة طليطلة سنة 478 هـ: (إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأنخس البقاع جليقية فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة حتى إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف)(1)

ولذلك كان في الإمكان الإسبان أن يحرروا بلادهم بعد فترة قصيرة من الفتح، وخاصة في ظل ملوك الطوائف، لكنهم لم يفعلوا طمعا في المغانم الكثيرة التي كانوا يفرضونها على المسلمين، والذين أسرتهم الأهواء إلى الحد الذي صار خصومهم من الإسبان يتهكمون بهم، ويسخرون منهم.

يقول محمد عبد الله عنان: (كان ملوك الطوائف يتسمون بضعف الإيمان والعقيدة، والاستهتار بأحكام الدين، وكان الكثير منهم يجاهرون بالمعاصي، وارتكاب الأمور المحرمة.. وقد كانت قصورهم المترفة الأنيقة، كما تزدان بمجالس الشعر والأدب، تحفل في الوقت نفسه بمجالس الأنس والطرب، والنساء والغلمان والخمر، وهي أمور تشغل حيزاً كبيراً في آداب العصر وشعره. وكانت مجتمعات الطوائف المرْهقة المنحلة، تتأثر بهذه الروح الإباحية، وتجنح إلى اجتناء المتعة المادية والملاذ الحسية بمختلف ضروبها، وكان هذا الانحلال الشامل يجتاح يومئذ سائر طبقات المجتمع الأندلسي)(2)

وللأسف فإن الذين يذكرون أمجاد المسلمين في الأندلس وحضارتهم فيها بعيدا عن المعايير القرآنية لا يلتفتون لهذا، بل يتوهمون أن تلك الانحرافات الأخلاقية كانت السبب في تلك الأمجاد الحضارية، وربما يكون محمد عبد الله عنان وقع في هذا

3() ابن عذاري: البيان المغرب ج 3 ص 282.

1() التبيان ص 73.

2() دولة الإسلام في الأندلس (2/ 424).

عند ذكره لتلك الأمجاد بعد حديثه عن تلـك الانحرافـات الأخلاقيـة، فقد قال: (على أن النهضة الأدبية والفكرية الـتي امتـاز بهـا عصـر الطوائف، ترتفع مع ذلك فـوق مسـتوى هـذا الانحلال وتـبرز قويـة وضاءة. ولقد كـانت هـذه القصـور المترفـة المرحـة نفسـها، أكـبر مبعث لهذه النهضـة، وكـان أولئـك الملـوك المسـتهترون أنفسـهم دعاتها وحماتها، وكانت قصور الطوائف تتنـافس في هـذا الميـدان وتتسابق، شعوراً منها بما تجتنيـه من وراء ذلـك من فخـار ومجـد، وما تسجله روائع المنظوم والمنثور من ذخر وذكـر. وكـان من بين هـذه القصـور ثلاثـة امتـازت بنـوع خـاص، بمشـاركتها في النهضـة الأدبية والشعرية، هي بلاط بني عباد بإشبيلية، وبلاط بني الأفطس ببطليوس، وبلاط بني صمادح بألمرية)[1]

وللأسـف، فـإن هـذه الأمجـاد الأدبيـة الـتي يـذكرها مملـوءة بالمجون والخمر والتشجيع على الرذائل، بل يوجـد فيهـا التشـجيع على الشـذوذ بأنواعـه، ولسـت أدري كيـف يجـوز لشـخص يقـرأ القرآن الكريم، ويقرأ ما نزل في حق قوم لوط عليـه السـلام، أن يعتبر ما كان في الأندلس من انهيار أخلاقي حضارة.

أما إن كان يقصد ظهور بعض الأدباء أو الفلاسفة أو العلمــاء، فهذا موجود في كل مكان في الدنيا، ولا علاقة له بالأنـدلس.. بـل قد يوجد في أردأ البيئات، وفي أردأ أزمنة الضعف.

لكن محمد عبد الله عنان نفسه يذكر عن ذلـك العصـر، تلـك الطبقية التي يعيشها المجتمع بين فقر مدقع، وغنى فاحش، ومعـه كل أصناف المحرمات، يقول: (وقد قاسى الشـعب الأندلسـي في ظل طغيان الطوائـف، كثـيراً من ضـروب الاضـطهاد والظلم، ولم يكن ذلك قاصراً على متاعب الفوضى الاجتماعيـة الشـاملة، الـتي كان يعيش في غمارها، وانقلاب الأوضاع في سائر مناحي الحيــاة، وتـوالي الفتن والحـروب الداخليـة، ولكنـه كـان يقاسـي في نفس الوقت من جشع أولئك الأمراء الطغـاة، الـذين كـانوا يجعلـون من ممـالكهم ضـياعاً خاصـة، يسـتغلونها بأقسـى الوسـائل وأشـنعها، ويجعلون من شـعوبهم عبيـداً يستصـفون ثـرواتهم، وثمـار كـدهم،

[1] المرجع السابق، (2/ 424)

إرضاء لشهواتهم في إنشاء القصور الباذخة، واقتناء الجواري والعبيد، والانهماك في حياة الترف الناعم، والإغداق على الصحب والمنافقين، هذا فضلا عن حشد الجند، لإقامة نيرهم، وتدعيم طغيانهم. وقد ترتب على ذلك أن انهارت المعايير الأخلاقية، واختلط الحق بالباطل، والحلال بالحرام، ولم يعد الناس يعتدون بالوسيلة، بل يذهبون إلى اقتضاء الغاية، وتحقيق الكسب بأي الوسائل)[1]

وعرض ابن بسام الذي عاش في الأندلس بعض النماذج لذلك، ومنها هذان النموذجان اللذان يمكن اعتبارهما ــ باللغة القرآنية ـ قارونين من هذه الأمة، يقول: (وسلك مبارك ومظفر سبيل الملوك الجبارين في إشادة البناء والقصور، والتناهي في عليات الأمور، إلى أبعد الغايات، ومنتهى النهايات، بما أبقيا شأنهما حديثا لمن بعدهما. واشتمل هذا الرأي ايضا على جميع أصحابهما، ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما، فاحتذوا فعلهما في تفخيم البناء، فهاموا منه في ترهات مضلة، وتسكعوا في أشغال متصلة، لاهين عما كان يومئذ فيه الأمة، كأنهم من الله على عهد لا يخلفه، واتسع الحدس في عظم ذلك الإنفاق، فمنهم من قدرت نفقته على منزله مائة ألف دينار وأقل منها وفوقها، حسب تناهيهم في سروها: من نضار الخشب ورفيع العمد ونفيس المرمر، مجلوبا من مظانه، وجلب إليهم سني الفرش من سائر الحلي والحلل، فنفق سوق المتاع بعقوتهم، وبعثر عن ذخائر الأملاك لقصرهم، وضرب تجارها أوجه الركاب نحوهم، حتى بلغوا من ذلك البغية وفوق ملء فؤاد الأمنية، فما شئت من طرف رائع، ومركب ثقيل، وملبس رفيع جليل، وخادم نبيل، وآلات متشاكلة، وأمور متقابلة، تروق الناظرين، وتغيظ الحاسدين، حرسها لهم المقدار إلى مدة)[2]

ثم ذكر سبب كل ذلك الترف، وآثاره، فقال: (وكان لمبارك

---

[1] دولة الإسلام في الأندلس (2/ 421).

[2] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (5/ 17)

ومظفر جملة ذلك النعيم، وفازا بقبض الخراج، ولم يعرضهما عارض إنفاق بتلك الآفاق، فانغمسا في النعيم إلى قمم رؤوسهما وأخلدا إلى الدعة وسارعا في قضاء اللذة، حتى أربيا على من تقدم وتأخر)[1]

ونقل عن ابن حيان قوله: (فمثل دهرنا هذا فرس بهيم الشية ما إن يباهي بقرحة فضلا عن شدوخ غرة، قد غربل أهليه أشد غربلة فسفسف أخلاقهم، واجتث أعراقهم، وسفه أحلامهم، وخبث ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهل، واقتطعهم الزيف، وأركستهم الذنوب، ووصمتهم العيوب، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، ولا على معاني الغي بأقوياء، شاء من الناس هامل، يعللون نفوسهم بالباطل، من أدل الدلائل على فرط جهلهم بشانهم، اغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية رسوله نبيهم عليه السلام، وذهولهم عن النظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم، حتى لظل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبحبح عراص ديارهم، ويستقرئ بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفا منهم ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم، لهاة عن بثهم، ما إن يسمع عندنا في مسجد من مساجدنا ومحفل من محافلنا مذكر بهم أو داع لهم، فضلا عن نافر إليهم أو مواس لهم، حتى كأن ليسوا منا، أو كأن فتقهم ليس بمفض إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء، بخلنا بالغناء، عجائب مغربة فاتت التقدير، وعرضت للتغيير، فلله عاقبة الأمور، وإليه المصير)[2]

وذكر المقري نماذج كثيرة لتلك الانحرافات، ومنها هذا النموذج الذي يجمع بين جميع الجرائم في سلة واحدة، حيث ذكر عند ترجمته لـ [الحكم بن هشام] بعض جرائمه، فقال: (وولي بعده ابنه الحكم بعهدٍ منه إليه، فاستكثر من المماليك، وارتبط الخيل، واستفحل ملكه، وباشر الأمور بنفسه، وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتنم العدوّ الكافر الفرصة في بلاد

---

[1] المرجع السابق، (5/ 17)

[2] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (5/ 189).

المسلمين، وقصدوا برشلونة فملكوها سنة خمس وثمانين، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها، وبعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الجلالقة، فأثخنوا فيها، وخالفهم العدو إلى المضايق، فرجع على التعبية، وظفر بهم، وخرج إلى بلاد الإسلام ظافراً)(1)

ثم ذكر كيفية تعامله مع الفقهاء الذين ثاروا عليه، فقال: (وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الرّبض من قرطبة لأنّه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذّاته، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة، مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطّإ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما، فثاروا به، وخلعوه، وبايعوا بعض قرابته، وكانوا بالرّبض الغربيّ من قرطبة، وكان محلّةً متصلةً بقصره، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم، ولحقوا بفاس من أرض العدوة، وبالإسكندرية من أرض المشرق، ونزل بها جمع منهم، ثم ثاروا بها، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد، وغلبهم، وأجازهم إلى جزيرة أقريطش، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدّة)(2)

هذا بعض ما ذكره المؤرخون المعايشون لذلك الواقع، ولو ذهبنا إلى الأدباء، أو إلى الكتب التاريخية نفسها، لوجدنا العجب العجاب من المنكرات التي يعف اللسان عن ذكرها.

لكني مع ذلك، وبسبب أن الكثير لا يقتنع بالجمل، بقدر ما يقتنع بالتفاصيل، فسأذكر ما ذكره بعض الباحثين الممجدين لتاريخ المسلمين في الأندلس(3)، والذي نقل بنفسه من المصادر التاريخية ما يدل على ذلك الواقع البعيد كل البعد عن الإسلام

---

(1) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، (1/ 338).

(2) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس (1/ 339).

(3) أثر الضعف الخلقي في سقوط الأندلس، حمد السحيباني، موقع مداد، 8/11/2007.

وجميع قيمة.

وقد قدم لذلك بقوله: (وقد أسهب المؤرخون في الحديث عن هذا الأمر، فقد ذكر ابن حيان أن قرطبة حاضرة المسلمين هناك أصبحت مرتعاً خصباً لمزاولة تلك الرذائل، حيث كان ملوك الطوائف إذا احتاجوا إلى شيء من الملهيات يرسلون رسلهم إلى قرطبة للبحث والتنقيب عن الأوصاف التي يريدونها من الجواري، وأنه في شوال سنة 422هـ ورد على أبي الوليد بن جهور في قرطبة رسول المظفر بن الأفطس يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار واشتراهما له)[1]

وذكر أن المعتضد بن عباد ــ والذي ذكرنا بعض جرائمه في المطلب السابق ــ كان له كلف بالنساء وخلط في أحباسهن فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد نظرائه، كما أن المعتمد بن عباد كان مولعاً بالنساء حيث خلع ثمانمائة امرأة من أمهات الأولاد وجواري المتعة وإماء الخدمة)[2]

وذكر أن مجاهد العامري ـ صاحب دانية والجزر الشرقية ـ كان ذا شخصية مزدوجة (فطوراً كان ناسكاً، وتارة يعود خليعاً فاتكاً لا يساتر بلهو ولا لذة، ولا يستفيق من شراب وبطالة، ولا يأنس بشيء من الحقيقة، له ولغيره من سائر ملوك الطوائف في ذلك أخبار مأثورة[3]، أما هذيل بن خلف بن رزين صاحب شنتمرية فقد كان من أرفع ملوك الطوائف همة في اقتناء القينات حيث اشترى جارية بثلاثة آلاف دينار[4].

1() ابن عذاري: البيان المغرب ج 3 ص 212

2() ابن الأبار: الحلة السيراء ج 2 ص 43، 53.

3() البيان المغرب ج 3 ص 308.

4() المرجع السابق ج 3 ص 308.

أمـا شـرب الخمـر في قرطبـة وغيرهـا من بلـدان ملـوك الطوائف فيبدو أنه أصبح أمراً لا غرابة فيه في ذلك العصـر، ولهـذا لما حاول ابن جهور منعها مدحه الشعراء ومنهم ابن زيـدون وعبـد الرحمن بن سعيد المصغر(1).

ولهذا نجد التغني بالخمر في دواوين الشعر الأندلسـي شـيئا عاديا، حتى قال أحدهم(2):

فجل حياتي من سكرها جرت مني الخمرة مجرى دمي

ولم يكن هذا الأمر قاصراً على فئة معينة من الناس، بل كان كثير من النـاس يقضـون ليـاليهم أيقاظـاً يجتمعـون على الكـؤوس حتى الصباح (3).

بالإضافة إلى ذلك كله ذكر مـا أورده المؤرخـون من الشـذوذ بمختلف أصنافه، والذي بـدا في كتب الشـعر والأدب، وكأنـه قيمـة من القيم الأخلاقية التي لا يستحيا منها.

1() الذخيرة ق 1 ج 1 ص 388، كمـا ذكـر المقـري أن وادي اشـبيلية لا يخلـو من جميـع أدوات الطرب وأن شرب الخمر فيه غير منكر، نفح الطيب ج 4 ص 199.

2() ابن سعيد: المغرب ج 1 ص 396.

3() العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسـبانيا النصـرانية، رجب محمـد عبـد الحليم: ج 1 ص 300.

أيهما أكثر جرما: العثمانيون أم الصفويون؟

أعلم ثقل هذا السؤال على المغيبة عقــولهم في مســتنقعات الطائفية؛ ذلك أن من المعلوم من الــدين بالضــرورة عنــدهم ليس كون العثمانيين أقل إجراما من الصفويين فقط، بل يعتبرونهم من المعصومين العدول الذين لا جرائم لهم، لسبب بسيط هو كونهم ـ كما يذكرون ـ من أهل السنة..

وأهل الســنة ــ كمــا يضــيفون ــ كلهم رمــوز مقدســة لا يحــل الحديث عنها أو مناقشتها أو نقدها، وفي حال كون بعضهم قد وقع في بعض الهفــوات؛ فينبغي أن يهــال عليهــا كثبــان من رمــال الكتمان، أو أطنان من قوارير العطور، حتى تستر روائحها الخبيثة.

أما الصفويون.. فهم عندهم ليسوا أكثر إجراما من العثمانيين فقط، بل هم أكثر إجراما من نيرون وهتلر وأمريكا وإسرائيل.. بل هم الإجرام عينه.. وإذا سألتهم عن السبب، أجابوك بإجابة ســريعة يعتبرونها كذلك كافية، وأنها من الضرورات العقلية والدينيــة، وهي أنهم شيعة روافض.. ويستحيل في تصورهم أن يصدر من الشيعي الرافضي أي شيء صالح.

وأنا لا ترضيني أمثال هذه الإجابات المتسرعة، لسبب بســيط آخر، أعتقد أنه من المعلوم من الدين والعقل بالضرورة، وهــو أننــا يجب أن نشــهد للــه، لا لأنفســنا ولا أهوائنــا ولا لإرضــاء من نريــد إرضاءه، ولا لإسخاط من نريد سخطه، فالله تعالى قال لنا: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [النســاء: 135]، وقــال: { يَاأَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُــوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْــدِلُوا اعْــدِلُوا هُــوَ أَقْــرَبُ لِلتَّقْــوَى وَاتَّقُــوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِــيرٌ بِمَــا تَعْمَلُونَ} [المائدة: 8]

ولــذلك لن ألتفت لتلــك الإجابــات المتســرعة، وســأرجع إلى المصادر التي يعتمدها من يذكر ذلك، من باب قولــه تعــالى: {قُــلْ

فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [آل عمران: 93]

وسيرى ذلك الذي يشنع على الصفويين في نفس الوقت الذي يترضى فيه على العثمانيين بعينه، ومن المصادر التي يعتمدها، الحقائق التي يكتمها، ويتهرب منها، ويحاول بشتى السبل أن يفعل ما نص عليه ذلك المثل العربي الذي أصبح قانونا يمارسه الطائفيون بكل بشاعة: (رمتني بدائها وانسلت)

وقبل أن أفكك ذلك السؤال إلى أسئلة فرعية أجيب عليها على ضوء المصادر التاريخية، أحب أن أذكر قاعدة وقانونا أعتمده في الحكم على جميع الأحداث التاريخية، وهي أني أعتبر كل نظام ملكي، لا يعتمد الكفاءة والتقوى في المناصب التشريعية والتنفيذية والقضائية، حكما استبداديا ظلاميا، أو كما سماه رسول الله ﷺ [ملكا عضوضا]

ولذلك لم يكن سؤالي: أيهما الأفضل؟.. لأني أعلم أن كليهما نظام ملكي، مبني على الفرد، لا على المؤسسات، وبالتالي كان مجرد وجود هذا النوع من الحكم جريمة، بنص الحديث الشريف الذي سبق ذكره، ولذلك لم أقع ـ بسبب تحكيمي للقرآن الكريم والسنة المطهرة في نقد الأحداث التاريخية ــ على أي ازدواجية في المعايير.

ذلك أن الذين ينكرون على الصفويين، ويثنون في نفس الوقت على العثمانيين يقعون في تطفيف كبير، ذلك أن كل جريمة ارتكبها الصفويون ارتكب مثلها أو أكثر منها العثمانيون.. لكنهم لتناقضهم، يهجون الصفويين، ويمدحون العثمانيين، بل يتمنون رجوعهم.

ولا يكتفون بالتناقض فقط، وإنما يضيفون إليه الكذب؛ فيحكمون على إيران الحالية بكونها صفوية، مع أنها ليست دولة ملكية، بينما لا يذكرون عن تركيا أنها دولة عثمانية، وإن ذكروا ذلك، فهم يذكرونه من باب المدح، لا من باب الهجاء.

وأنا أحب أن أخلّصهم من ذلك التطفيف، وذلك التناقض، ولا أطلب منهم سوى أن يصبروا، وأن يقرؤوا ما أذكره بهدوء،

ويمكنهم أن يراجعوا المصادر من خلال الصفحات التي أوثق منها.. وسيروا الحقيقة بأعينهم.

وأنا أعلم أن سادتهم الذين يتبعونهم قد علموهم الكثير من الحيل التي يخرجون بها من المضايق التي تحرجهم، ومن أهمها قراءتهم لقوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [البقرة: 134]، أو قولهم: نحن نعيش الواقع، ولا يهمنا التاريخ.

لكنك لو سكت عن جرائم العثمانيين، ورحت تتحدث عن جرائم الصفويين، واكتفيت بها، لامتلأوا سرورا بذلك، وذكروا لك أن هذا المنهج القرآني، وأن الله تعالى حدثنا عن التاريخ، لنأخذ منه العبر، حيث قص علينا قصة عاد وثمود والمدائن والمؤتفكات.. وذكر لنا فرعون وهامان وقارون.. وكل ذلك حتى نميز بين الطيبين والمجرمين، و{لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام: 55]، وهكذا يسردون عليك من النصوص ما يجعلك تتحدث بما يشتهون، لا بما تقتضيه الحقيقة.

وبناء على هذا سأضع مجموعة أسئلة، وأطلب منهم أن يجيبوا عنها من خلال مصادرهم، ليكتشفوا الحقيقة، وأنا لا أطالبهم حينها بأن يكفوا عن هجاء الصفويين؛ وإنما أطلب منهم أن يهجوا كلا من العثمانيين والصفويين بحسب مقدار جرائمهم؛ فلا يجوز أن نمارس ما حذر منه رسول الله ﷺ عندما قال: (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد)(1)

وبما أن الأسئلة كثيرة؛ فقد رأيت اختصارها في سبعة أسئلة:

أولها ـ من مارس جرائمه في البلاد العربية والإسلامية: هل العثمانيون، أم الصفويون؟

ثانيها ــ من تخلى عن الدول التي كان يحتلها، ويفرض الإتاوات الثقلية عليها، عندما داهمها الاستعمار: هل العثمانيون، أم

(1) رواه البخاري، برقم (3475)، ومسلم، برقم (1688)..

الصفويون؟

ثالثها: ما غاية العثمانيين في فتوحهم لأوروبا، وهل حقا كان قصدهم نشر الإسلام، وهل وقف الصفويون بينهم وبين ذلك؟

رابعها: هل الصفويون وحدهم من واجه العثمانيين وحاربهم، وكان من أسباب هزائمهم؟

خامسها: ما موقف علماء المدرسة السلفية من العثمانيين، وهل يعتبرونهم من السنة، أم هل يعتبرونهم مسلمين أصلا؟

سادسها: هل فرض الصفويون التشيع في إيران، وهل كانوا وحدهم من مارس ذلك؟

سابعها: أيهم كان سبب تخلف المسلمين، وما نزل بهم من استعمار: هل العثمانيون، أم الصفويون؟

وحتى أعفيهم من التعب في البحث في المصادر والمراجع سأحاول نقلها لهم من خلال الإجابة على هذه الأسئلة، ويمكنهم العودة إليها ليتأكدوا أو ليروا من الحقائق ما قصرت في نقله.

1 ـ من أجرم في حق البلاد العربية؟

عندما نسأل أي مواطن عربي قبل حصول الفتنة الطائفية التي نعيشها اليوم، عن الدولة الصفوية، فإنه في أحسن أحواله، سيجيبك بأنها مثل تلك الدول الصغيرة الكثيرة التي مرت على العالم الإسلامي، ولم تمتد إلى بلاد أخرى، مثل الأغالبة والحفصيين والمرينيين وغيرهم.. وفي أسوأ الأحوال وأكثرها، سيذكر لك عدم معرفته بها، ويعتذر لذلك بكونها تدخل ضمن فروع التاريخ، لا ضمن أصوله، وضمن الدويلات القاصرة على بلاد محدودة، لا ضمن الدول التي تحولت إلى امبراطوريات ضخمة.

لكنك إن سألته عن الدولة العثمانية؛ فسيجيبك عنها، وربما يخبرك عن علاقه أجداده بها.. فلا يمكن لأحد يسكن هذه البلاد العربية الواسعة ألا يكون له معرفة بالعثمانيين، ذلك أن دولتهم لم تكن دولة قاصرة على مناطق محدودة، وإنما كانت دولة ممتدة،

قضت جميع الفترات التي أتيحت لها في التوسع، ليس في أوروبا فحسب، وإنما في العالم العربي والإسلامي جميعا، وقد كان ذلك التوسع الذي اعتمدت فيه التمدد الأفقي لا العمودي سبب انهيارها، لأنه لا يمكن لدولة أن تهتم بما اهتمت به إلا سقطت.

لذلك كانت الدولة العثمانية مثالا لذلك الحرص والشره الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ عندما قال: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)[1]

والتاريخ يذكر أن الصراع الذي حصل بين الصفويين والعثمانيين لم يكن له من سبب سوى شهية العثمانيين للتمدد، ذلك أنهم حاولوا أن يقضوا على كل الدول التي تحكم العالم الإسلامي ليبقى الحكم وحده لهم، لكنهم اصطدموا بالصفويين الذين رفضوا أن يسلموا لهم مفاتيح بلادهم.

وكان الأجدى بأولئك الإسلاميين الذين يصورون الصفويين بصورة الظالمين للعثمانيين أن يسألوا التاريخ ومصادره عن مصدر الظلم، وهل كان الشره العثماني للتسلط، والذي جر الويلات إلى جميع البلاد الإسلامية، أم دفاع الصفويين عن أنفسهم، وعن ملكهم.

ونحن كما ذكرنا لا نؤمن بأي حكم ملكي، لكننا في نفس الوقت نفرق بين الطغاة الكبار والطغاة الصغار، فلا يصح لمؤمن يعرف موازين الله الدقيقة أن يضع من تسبب في قتل مئات الآلاف مع الذي تسبب قتل أفراد معدودين في محل واحد، وإن كان كلاهما في الشريعة مجرم.

وكما تعهدت سابقا بألا أرجع إلا للمصادر والمراجع التي يذكرها الممجدون للتاريخ الإسلامي، فسأنقل هنا كلمات لأحد المعتمدين في البحوث التاريخية لدى الإسلاميين، وهو علي محمد الصلابي، ومن كتابه [الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط]، والذي استعمل فيه كل أنواع التبريرات ليبيض تاريخهم

[1] البخاري (6437) ومسلم (1049)

الأسود.

وقد ذكر أثناء تبريره للصراع الذي قام به السلطان سليم الأول (918- 926هـ / 1512 - 1520م) مع الدول العربية والإسلامية، بما فيها الدولة الصفوية، خصال هذا السلطان، والتي جعلته لا يرضى بأن يبقى في حدود دولته، ويقيم علاقات سلام وتعاون مع سائر الدول الإسلامية، وإنما يحاول ضمها إلى مملكته، فقال: (تربع السلطان سليم الأول على العرش العثماني في عام 918هـ، وقد أظهر سليم منذ بداية حكمه ميلاً إلى تصفية خصومه ولو كانوا من إخوته وأبنائهم، وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي أمجاد الماضي)[1]

وهكذا تجتمع المتناقضات دائما في عقول هذا النوع من الإسلاميين، بسبب ابتعادهم عن المنهج القرآني في التعامل مع القضايا؛ فهل يمكن لهذا الذي قام بتصفية خصومه، ولو كانوا من إخوته وأبنائهم أن تكون له رحمة بأحد من الناس، وهل يمكن لمثل هذا أن تكون له رسالة إنسانية، تمثل الإسلام، وأمجاد الإسلام؟

لكن الصلابي لم يجد أي حرج في قبول ذلك، ولذلك راح يبرر توسعه في العالم الإسلامي، بعد أن توسع في بلاده، بقضائه على كل المنافسين له من أقاربه، يقول: (عندما ارتقى السلطان سليم الأول العرش العثماني، كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى مفترق الطرق، هل تظل على هذا الوضع وهذا القدر من الاتساع دولة بلقانية أناضولية؟ أو تستمر في التوسع الإقليمي في أوربا؟ أو تتجه نحو المشرق الإسلامي؟)[2]

ثم أجاب عن هذه الأسئلة بهذه الإجابة العجيبة، والتي اعتبر

---

[1] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 176)

[2] المرجع السابق، ص177.

فيهـا جـرائم السـلطان التوسـعية جهـادا في سـبيل اللـه؛ فقـال: (والواقـع أن السـلطان سـليم الأول قـد أحـدث تغيـيراً جـذرياً في سياسـة الدولـة العثمانيـة الجهاديـة فقـد توقـف في عهـد الزحـف العثماني نحـو الغـرب الأوربي أو كـاد أن يتوقـف، واتجهت الدولـة العثمانية اتجاهاً شرقياً نحو المشرق الإسلامي)[1]

وهذا التعليل ليس عجيبا إذا علمنا أن هـذا الصـلابي كـان من الذين اعتمدت عليهم الحرب الناعمة في تدمير ليبيا، ذلك أنه من القيادات الاجتماعية الـتي كـانت تظهـر بكـثرة على قنـاة الجزيـرة وغيرها لتحرض الشعب الليبي على الجهاد.. وهـو مـا نـرى نتائجـه اليوم، والتي لا تختلف كثيرا عن النتائج التي حصلت بسبب التوسع العثماني.

وبما أن الصلابي من التيار الذي يجمع بين الحركية والسلفية، فهو يـرى أن المشـكلة الأكـبر في العـالم الإسـلامي هي الشـيعة، ولذلك راح يقنع القارئ بعظم الرسالة التي تحملها هذا السـلطان، وهي التوسع في العالم الإسلامي لإنقاذ البلاد الإسلامية من التمدد الشيعي الذي تمثل في ذلك الوقت في الصفويين، لا حلم التوسـع الذي جعله يقتل أقرب أقاربه إليه.

وقد قال معبرا عن ذلك: (لقد تزعم الشاه اسماعيل المذهب الشيعي، وحرص على نشره ووصـلت دعوتـه الى الأقـاليم التابعـة للدولـة العثمانيـة، وكـانت الأفكـار والعقائـد الـتي تنشـر في تلـك الأقاليم يرفضها المجتمع العثماني السني حيث كـان من عقائـدهم الفاسـدة، تكفـير الصـحابة، ولعن العصـر الأول، وتحريـف القـرآن الكـريم، وغـير ذلـك من الأفكـار والعقائـد فكـان من الطـبيعي أن يتصدى لتلك الدعوة السلطان سليم زعيم الدولة السـنية، فـأعلن في اجتماع لكبار رجـال الدولـة والقضـاة ورجـال السياسـة وهيئـة العلمـاء في عـام 920هـ/1514م أن ايـران بحكوماتهـا الشـيعية ومذهبها الشيعي يمثلان خطراً جسيماً، لا على الدولة العثمانية بـل على العالم الاسلامي كلـه، وأنـه لهـذا يـرى الجهـاد المقـدس ضـد الدولة الصفوية، وكان رأي السـلطان سـليم هـو رأي علمـاء أهـل

[1] المرجع السابق، ص177.

السنة في الدولة) (2)

والصلابي بقوله هـذا يحتـال على قرائـه ذلـك أنـه في قـرارة نفسه، ومثل جميع السلفيين يعتبر الدولـة العثمانيـة دولـة قبوريـة جهميـة صـوفية، وهي بـذلك لا تختلـف في كفرهـا عن الصـفويين، لكنه يجيز لنفسه ضرب الكفرة بعضهم ببعض.

وهو كـذلك يعلم جيـدا أن في المنـاطق الـتي تسـتحوذ عليهـا الدولة الصفوية الكثير من السنة، ومـع ذلـك لم يتم إجبـار أحـدهم على التشـيع، بـل بقـوا على مـذاهبهم، وإلى الآن لا زالـوا عليهـا؛ فكيف يتهمه بتشييع المناطق العثمانية التي لم تصـلها جيوشـه ولا عماله.

وكان في إمكانه لو تخلى عن طائفيتـه أن يجـد حلـولا أخـرى لذلك السلطان تتناسب مع الإسلام، وهي أن يرسل العلمـاء لتلـك المناطق التي تشـيعت ليحـاوروهم، ويقنعـوهم بالتسـنن، لكنـه لم يفعل، لأن غرضه لم يكن سوى الغرض الذي حركه لقتال خصومه من أقاربه، ولقتال سائر الممالك الإسلامية بحجج مختلفة.

ولهذا كان هذا المبرر مغالطة كبيرة، بل إنه من أحسن الأدلة الـتي يمكن أن يسـتدل بهـا الصـفويون على وجـوب مواجهـة العثمـانيين، ذلـك أن العثمـانيين يتهمـونهم في دينهم، ويريـدون إخراجهم منه، وقد أصـدروا في ذلـك الفتـاوى، مثلمـا نـراه اليـوم تماما.

وقد أورد الصلابي ـ بفخر كبير ـ رسـالة من السـلطان سـليم إلى إسماعيل الصفوي، يهدده فيها، وهي تـبين مـدى الحقـد الـذي يحمله ذلـك السـلطان على الصـفويين، وأنـه إن تمكن منهم، فلن يكون مصيرهم أقل من مصير أقاربه الذين قتلهم بدم بـارد، وممـا جاء في الرسالة: (.. إن علمائنا ورجال القانون قـد حكمـوا عليـك بالقصاص يا إسـماعيل، بصـفتك مرتـداً، وأوجبـوا على كـل مسـلم حقيقي أن يدافع عن دينه، وأن يحطم الهراطقة في شخصك، أنت وأتباعك البلهـاء، ولكن قبـل أن تبـدأ الحـرب معكم فإننـا نـدعوكم

(2) المرجع السابق، ص179.

لحظيرة الدين الصحيح قبل أن نشهر سيوفنا وزيادة على ذلك فإنه يجب عليك أن تتخلى عن الاقاليم التي اغتصبتها منا اغتصباً، ونحن حينئذ على استعداد لتأمين سلامتك..)[1]

ثم ذكر أن ردة فعل السلطان كانت أكثر هدوءا، إذ أنه لم يرسل أي مكتوب، وإنما أرسل هدية من الأفيون، وكأنه يذكر له أن خطابه ذلك ناتج عن تخدير عقلي، وليس عن وعي وتفكير سليم[2].

وذكر الصلابي ردة فعل السلطان سليم، والتي تثبت حقيقة أنه كان تأثير نوع غريب من المخدرات، فقد راح يقول له: (.. أنا زعيم وسلطان آل عثمان، أنا سيد فرسان هذا الزمان، أنا الجامع بين شجاعة وبأس أفريدون الحائز لعز الاسكندر، والمتصف بعدل كسرى، أنا كاسر الأصنام ومبيد أعداء الإسلام، أنا خوف الظالمين، وفزع الجبارين المتكبرين، أنا الذي تذل أمامه الملوك المتصفون بالكبر والجبروت، وتتحكم لدى قوتي صوالج العزة والعظموت، أنا الملك الهمام السلطان سليم خان بن السلطان الأعظم مراد خان، أتنازل بتوجيه إليك أيها الأمير اسماعيل، يازعيم الجنود الفارسية.. ولما كنتُ مسلماً من خاصة المسلمين وسلطاناً لجماعة المؤمنين السنيين الموحدين.. وإذ قد افتى العلماء والفقهاء الذين بين ظهرانينا بوجب قتلك ومقاتلة قومك فقد حق علينا أن ننشط لحربك وتخلص الناس من شَرِكْ)[3]

وهذه الرسالة مع ما تحمله من تغييب لكل القيم التي تقوم عليها العلاقات السياسية بين الدول، هي ما يحبه الحركيون والسلفيون الذين هاموا في حب هذا السلطان على الرغم من اعترافهم بجرائمه الكثيرة.

1() انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص435.

2() المرجع السابق، ص435.

3() فتح العثمانيين عدن، محمد عبداللطيف البحراوي، ص113.

وكنموذج على ذلك، ما كتبه أحدهم، وهو جهـاد التُربـاني، في كتـاب لـه بعنـوان [مائـة من عظمـاء أمـة الإسـلام غـيروا مجـرى التاريخ]، الذي اعتبر فيه السلطان سليم من العظماء الذين نحتاج إلى التــذكير كــل حين بخــدماتهم للأمــة، وأهمهــا القضــاء على الصفويين، وقد قال في مقدمة مقاله عنه، والذي عنونه بـ [مـدمر دولة الصفويين: سليم الأول]: (نحن على موعدٍ جديـدٍ مـع فـارس من نفس طينة الصحابة، وللأسف فإن أغلبنا لم يسمع عنـه البتـة، والحـق أنّي أجـد بعضًـا من العـذر لهـؤلاء، وقـد كنت منهم، نظـرًا لإغفـال المنـاهج الدراسـية ذكـر عظمـاء أمتنـا بسـبب جهـل من وضـعوها بهم، أو لأسـباب أخـرى، وإن كنت شخصـيًا أرجح تلـك الأسباب الأخرى، أمّـا إذا أردت أن تعلم مـدى عظمـة هـذا الرجـل وما قدمه للمسلمين، فاطرح سـؤالًا بسـيطًا على نفسـك لا أشـك أبدًا بـأن إجابتـك سـتكون عليـه بالإيجـاب.. هـل تحب رسـول اللَّه ﷺ؟!.. إذًا فاعلم أن رسولك هـذا الـذي تحب كـان على وشـك أن يُنبش قبره بعـد أن تُحتـل مدينتـه، وكـان ذلـك سـيتم فعلًا لـولا أن سخر اللَّه للإسلام هذا الصقر الكاسـر: السـلطان العثمـاني سـليم الأول رحمه اللَّه، بطل معركة جالديران الخالدة. وقبـل أن نغـوص في بحــار بطــولات ســلطاننا العظيم يجب علينــا أولًا أن نؤصــل للمسألة، فالحكم على الشيء فرعٌ من تصـوره، فعلينـا أولًا إدراك مدى الخطر الكبير الذي تصدى لـه هـذا السـلطان، ألا وهـو خطـر دولة الصفويين الخبيثة!)(4)

وانطلاقا من هـذا الخطـاب التحريضـي راح يـبرر كـل جـرائم السلطان سليم في حق الدولة الصـفوية، ويعتـبر ذلـك كلـه غـيرة على الإسـلام، بـدليل تلـك الرسـائل الـتي كـان يرسـلها كـل حين للصفويين يهددهم بالإبادة، باعتبارهم مرتدين.

ويعترف الصلابي نفسه ـ من غـير أن يشـعر ــ بمـدى حكمـة وتعقل الصفويين مقارنة بتهور العثمانيين، فقد ذكر أن سليم الأول أرسل إلى الشاه اسماعيل رسالة ومعها خرقة ومسبحة وكشكولاً

---

(4) مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجـرى التـاريخ، جهـاد التُربـاني، تقـديم: الشـيخ محمد بن عبد الملك الزغبي، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيـع، القـاهرة - جمهوريـة مصـر العربية، الطبعة: الأولى، 1431 هـ - 2010 م، (ص: 47).

وعصا رمز فرق الدراويش، ليذكره بأصله الصوفي، ودعوته للعودة إليه، وترك التشيع، لكن الشاه اسماعيل الصفوي، اكتفى بطلب تجديد علاقات السلم والصداقة بين الدولتين.

لكن السلطان سليم الأول لم يقبل ما عرضه عليه حاكم الصفويين، وأمر بقتل رسول الشاه الصفوي، وللأسف فإن هذه الجريمة لم ينكر عليها الصلابي، ولا غيره، بل اعتبروها فعلا عاديا ما دام المقتول شيعيا، أو له علاقة بالشيعة.

وهكذا بدأت الحرب بين الصفويين والعثمانيين، والتي لم يكن للصفويين بد من خوضها ذلك أن العثمانيين كانوا يهددون باستئصالهم لأجل العقائد التي تبنوها، مثلما تبنى العثمانيون المذهب الحنفي.

وقد علق الصلابي على انتصار العثمانيين على الصفويين بقوله: (لقد انتصر السلطان سليم بفضل الله تعالى وعقيدته السليمة ومنهجه الصافي، واسلحته المتطورة وجيشه العقدي المتدرب، وعاد الى بلاده بعد أن استولى على كردستان وديار بكر، ومرغش وأبلسين وباقي أملاك دلفاود، وبذلك صارت الأناضول مأمونة من الاعتداء من الشرق، وصارت الطرق الى أذربيجان والقوقاز مفتوحة للعثمانيين)[1]

وقد كانت تلك الهزيمة الشديدة التي حلت بالصفويين وأرتهم قسوة العثمانيين وعدم تقبلهم للحوار سببا في إقامتهم اتفاقية محدودة مع البرتغاليين، للاستعانة بأسطولهم في مواجهة العثمانيين، وهنا نجد السلفيين والحركيين يصرخون كل حين بأن الشيعة يتعاونون مع أعداء الإسلام لضرب المسلمين، مع أنهم هم أنفسهم من برر وأفتى بالاستعانة بالأمريكان لضرب صدام حسين عند غزوه للكويت، ويستعينون كل حين بأمريكا وأوروبا لضرب سورية وإيران وكل من لا ينسجم معهم.. وهذا هو التناقض بعينه.

ولم يكتف السلطان سليم بذلك الاعتداء على المناطق

---

[1]() الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 182)، وانظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الاندلس، ص436.

الصفوية، والتي أسال فيها دماء عشـرات آلاف القتلى، وإنمـا راح إلى دولة أخرى للقضاء عليها، وبما أنها لم تكن دولة شـيعية؛ فقـد راح يلتمس أعذارا أخرى.. وكلها بررها الصلابي وغيره.

ومن تلـك التـبريرات وأهمهـا مـا عـبر عنـه بقولـه: (موقـف المماليك العدائي من الدولة العثمانية حيث قام السلطان قانصوه الغـوري سـلطان الدولـة المملوكيـة بـالوقوف مـع بعض الأمـراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سـليم، وكـان في مقـدمتهم الأمير أحمد أخ السلطان سليم، وأرادت السـلطات المملوكيـة أن تتخذ من وجود هؤلاء الأمراء لـديها أداة لإثـارة مزيـد من المتـاعب في وجـه السـلطان سـليم، كمـا كـان الموقـف السـلبي للدولـة المملوكية في وقوفها المعنوي مع الشاه اسماعيل الصـفوي فهي لم تلتزم الحيادة التامة بين العثمـانيين والصـفويين، وهي لم تتخـذ موقفاً عدائياً صريحاً من السلطان سليم)[1]

ولسـت أدري مـا قيمـة هـذا التـبرير من الناحيـة الأخلاقيـة والدينيـة، وهـل يمكن لدولـة أن تحـارب دولـة أخـرى بمثـل هـذا السبب، والذي تمثل في الموافقة على لجوء أخ السـلطان، أو في عدم الموافقة على الحـرب الظالمـة الـتي شـنها العثمـانيون على الصفويين.

وهكذا ذكر مبررا آخر، يقترب كثيرا من المبرر الذي هاجم به العثمانيون على الصفويين، حيث ذكر أن العلماء والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الرأي اجتمعوا، وتباحثوا في حالهم، ثم قـرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابـة عريضـة، نيابـة عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأول ويقولون أن الشعب السـوري ضـاق بـالظلم المملـوكي، وإن حكـام المماليـك (يخالفون الشرع الشـريف)، وإن السـلطان إذا قـرر الزحـف على السلطنة المملوكية، فإن الشعب سيرحب به، وتعبيراً عن فرحتـه، سيخرج بجميع فئاته وطوائفه الى عينتاب -البعيـدة عن حلب- ولن يكتفوا بالترحيب به في بلادهم فقط، ويطلبون من سليم الأول أن يرسل لهم رسولاً من عنده، وزيراً ثقة، يقابلهم سراً ويعطيهم عهد

1() الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 185)

الأمان، حتى تطمئن قلوب الناس[1].

وهم يذكرون أن هذه الوثيقة موجودة في الأرشيف العثماني في متحف طوب كابي في استانبول، ولسنا ندري مدى صحة ذلك، وهل كتبت الوثيقة قبل الاحتلال أم بعده، فما أسهل أن يجمع رجل مثل السلطان سليم العلماء والأعيان، ويخيرهم بين كتابة الوثيقة التي تستدعيه، وبين أن يحصل لهم ما حصل للصفويين، أو لأقاربه الأقربين.

وهكذا برر غزو مصر واحتلالها، فقد ذكر أن السلطان سليم الأول العثماني خاطب طومان باي آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه في معركة الريدانية بقوله: (أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار، وأنا كنت متوجهاً الى جهاد الرافضة (يعني الصفويين) والفجار (ويعني بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا)، فلما بغى أميركم الغوري وجاء بالعساكر الى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشي الى مملكتي التي هي مورث آبائي وأجدادي، فلما تحققت تركت الرافضة، ومشيت إليه)[2]

والصلابي كسائر الإسلاميين في دراستهم للتاريخ بعيدا عن المصادر المقدسة، لم يلتفت لكل تلك الجرائم التي ارتكبها السلطان سليم مع الصفويين أو المماليك أو أقاربه، وإنما راح يذكر مشهدا من المشاهد التمثيلية التي يحب أمثاله من الإسلاميين مشاهدتها، فقد ذكر (أن المؤرخ سلاحثور صاحب مخطوطة فتح نامه ديار العرب وكان مصاحباً لسليم، أن سليم الأول كان يبكي في مسجد الصخرة بالقدس بكاءً حاراً، وصلى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر)[3]

1() انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب ، ص170.

2() انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص71.

3() انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص30.

وهكذا استدل بـذلك البكـاء وتلـك الصـلاة على شـرعية قتـل المصـريين، والـذين هـزمهم مثلمـا هـزم الصـفويين، وكـان سـبب الهزيمة ـ كما يذكر الصلابي وغيره ــ بالإضـافة للتفـوق العسـكري لــدى العثمــانيين: (معنويــات الجيش العثمــاني العاليــة وتربيتــه الجهاديــة الرفيعــة واقتناعــه بــأن حربــه عادلــة بعكس القــوات المملوكية التي فقدت تلك الصفات، وحرص الدولة العثمانيـة على الالتزام بالشرع في جميع نواحي حياتهـا واهتمامهـا البـالغ بالعـدل بين رعايـا الدولـة، بعكس الدولـة المملوكيـة الـتي انحـرفت عن الشريعة الغراء ومارست الظلم على رعاياها)[1].

وبعــد انتصــار الســلطان ســليم على المماليــك، راح يطلب الخلافة على المسلمين، ولقب نفسه [خليفة الله في طول الأرض وعرضها] منذ عام 1514م (920هـ) أي قبل فتحه للشـام ومصـر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان.

وهكـذا راح هـذا السـلطان إلى بلاد الحجـاز، واسـتولى على الحرمين، وصـار خادمـا لهمـا، كمـا يـذكر، ثم راح إلى اليمن الـتي استعصت عليه، فقـد ظلت في فـترة خضـوعها للحكم العثمـاني (1538-1635م) تنازعهــا قــوى العثمــانيين والأئمــة الزيديــة، (فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضمنوا سـيطرة حقيقيـة على البلاد نتيجة لحركة المقاومة التي تواجههم)[2]

وهذا يدل على أن اليمنيين مثل غيرهم لم يكونوا راغـبين في التسليم للعثمانيين، وإلا لما استمرت مقاومتهم لها.

وهكـذا احتـل السـلاطين العثمــانيين أكـثر الـدول العربيــة، واستعملوا لكل دولة الحيـل الخاصـة بهـا، وارتكبـوا أثنـاء احتلالهم أبشع أنواع الجرائم، وارتكبوا بعـد احتلالهم كـل أنـواع اللصوصـية، من فرض الإتاوات، والمساهمة في التخلف الذي لا زلنا نعيشه.

1() انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، 31.

2() انظر: تاريخ العرب ، مجموعة من الاساتذة، ص41.

وبما أن الصلابي وغيره من الإسلاميين يتكتمون على تلك الجرائم؛ فسأذكر نماذج عنها من خلال مصادر تاريخية أخرى، ربما تكون أكثر مصداقية، وقد عبر أحدها عن ذلك، فقال: (عبر ستمائة عام، سيطر العثمانيون – ولو صوريًا – على ما يقرب من نصف بلاد العالم، على أطلال الخلافات الإسلامية وأوروبا الشرقية، فذاق من ظلمهم وتوحشهم كل الشعوب التي وقعت تحت وطأتهم، وعلى رأسهم الشعوب العربية في جزيرة العرب والخليج ومصر وشمال إفريقيا، ومنذ سقوطها في الأول من نوفمبر 1923م، على يد مصطفى كمال الدين أتاتورك، بإعلان تأسيس الدولة التركية الحديثة، لم ينسَ أحد من المحيط إلى الخليج ومن الغرب إلى الشرق، تلك الجرائم والمذابح التي ارتكبها العثمانيون في تلك الفترة التاريخية من الزمن، باستثناء النظام الحاكم للدولة التركية)[1]

ثم ذكر وجوه الشبه الكثيرة بين العثمانيين وداعش، فقال: (بمقارنة جرائم العثمانيين في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، يُكتشف كم هائل من التطابق مع أعمال داعش الإرهابية منذ ظهورها قبل سنوات قليلة)[2]

ثم ذكر المصدر نماذج كثيرة عن تلك الجرائم والمذابح التي لا تزال إلى الآن وصمة عار في جبينها بل في جبين جميع المسلمين، وخاصة تلك الجرائم التي ارتكبت في حق المسيحيين من العرب وغيرهم، يقول المصدر: (تحت حكم الدولة العثمانية حدثت العديد من المذابح، بخلاف مذابح الأرمن التي تمَّت خلال فترة الحرب العالمية الأولى، عندما قام الأتراك بالتعاون مع عشائر كردية بعمليات إبادة لمئات القرى الأرمنية في مناطق شرق تركيا. والسبب وراء هذه الإبادة كان محاولة تغيير

---

[1] جرائم العثمانيين ضد الإنسانية.. دواعش القرن 19، وحدة الدراسات السياسية، مركز سمت للدراسات، 29 ديسمبر 2017 .

[2] المرجع السابق.

ديموغرافية هذه المناطق لخشية الأتراك من تعاون الأرمن مع الروس والثوار الأرمنيين، واستخدم الأتراك الأرمن حمالين في الجيش العثماني، ثم قاموا بإعدامهم بعد أن تمَّ إنهاك قواهم البدنية. والأبرز في هذه الإبادة كان في ربيع عام 1915م، عندما قام العثمانيون بجمع المئات من أبرز الشخصيات الأرمنية في العاصمة إسطنبول، ثم إعدامهم في ساحات المدينة، ويقدر عدد ضحايا هذه المجازر من مليون إلى مليون ونصف شخص، من الأرمن الأبرياء في أبشع إبادة جماعية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً حينذاك، فتمَّت ضمن خطة مدروسة ونفِّذت بمنهجية محترفة، والإبادة واقع تاريخي موثق بالبراهين والأدلة الدامغة)[1]

ومن تلك الجرائم: (ما سمِّي بمذابح سيفو إذ شنَّت القوات العثمانية سلسلة من العمليات الحربية بمساعدة مجموعات مسلحة شبه نظامية كردية استهدفت الآشوريين والكلدان والسريان في مناطق شرق تركيا وشمال غرب إيران، قتلت هذه العمليات مئات الآلاف من الآشوريين، كما نزح العديد منهم من مناطقهم. ويقدر الباحثون العدد الكلي للضحايا بحوالي 250 – 500 ألف قتيل، ونتيجة لعدم وجود كيان سياسي يمثل الآشوريين في المحافل الدولية، فإن هذه المجازر لم تحظَ بنفس الاهتمام الدولي الذي نالته مذابح الأرمن)[2]

ومن تلك الجرائم: (مجازر ديار بكر، التي ارتكبتها الدولة العثمانية في ولاية ديار بكر ضد المسيحيين عام 1895، فبدأت باستهداف الأرمن بتحريض من بعض رجال الدولة والدين العثمانيين بحجة أن الأرمن يريدون تفكيك الدولة، وتوسعت هذه المجازر لتشمل كل المسيحيين في المنطقة وعلى رأسهم السريان، وبدأت من الجامع الرئيسي بالمدينة، ثم انتقلت إلى السوق الرئيسي حيث تمَّ قتل المسيحيين، تبعتها عمليات سلب ونهب واسعة. وفي اليوم التالي بدأت عمليات إبادة للمسيحيين

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق.

عبر الهجوم على منازلهم) (1)

ومن تلك الجرائم ما ارتكبوه في مصر، حيث أن (سليم خان، الإمبراطور التركي، الذي اقتحم القاهرة، كان رجلاً سيئ الخلق، سفاكًا للدماء شديد الغضب، وروي عنه أنه قال: (إذا دخلت مصر فأحرق بيوتها قاطبة والعب في أهلها بالسيف)، وهكذا كان عزم النية لاقتحام القاهرة وقتل المصريين ونهب خير البلاد.. ليصل الأمر إلى سقوط 10 آلاف من عوام المصريين قتلى في يوم واحد، وغيرها من جرائم الاستعباد الذي كان يقوم به الأتراك للمصريين) (2)

ومنها (مذبحة القلعة، وهي من أبرز المذابح التي مرت على التاريخ المصري، وقام بتنفيذها والي مصر محمد علي باشا، الذي تمَّ تعيينه من قبل الخليفة العثماني بغرض التخلص من المماليك الذين مثلوا أكبر تهديد لحكم محمد علي، وتمَّت في الأول من مارس 1811م بعد أن تمَّ إغلاق أبواب القلعة على المماليك وإطلاق الرصاص عليهم، ليتخلص محمد علي من أبرز تهديد سياسي وعسكري داخلي له، واستتب له الأمر في مصر. وتشير بعض المصادر إلى أن عدد القتلى في هذه المذبحة وصل إلى 500 قتيل تقريبًا) (3)

ومنها جرائمهم في الحجاز، حيث أن (حملات التهجير التي قام بها العثمانيون في تلك الفترة، أضرت بسكان المدينة وغيرت ديموغرافيتها، ما أدى إلى سفر أعيان المدينة وأضر بهم ماديًا، ودفع السكان إلى أكل الحشائش لعدم توفر الطعام، وكانت كارثة التهجير الجماعي والقسري التي اشتهرت في الحجاز بـ [سفر برلك]، تلك الجريمة النكراء التي وقعت في المدينة المنورة،

---

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق.

باقتحام جنود فخري باشا للبيوت الآمنة، وكسر أبوابها عنوة، وتفريق الأسر، وخطف الأطفال والنساء من الطرقات دون رحمة، وجرهم معًا أو متفرقين إلى عربات قطار الحجاز ليتمَّ إلقاؤهم عشوائيًا بعد رحلة طويلة من العذابات في تركيا والأردن وسوريا، وفي الغالب، لم تكن [سفر برلك] لأهل المدينة المنورة فقط، بل كانت لكل البلاد التي تديرها الدولة العثمانية، بسبب الحرب العالمية الأولى التي وقعت حينها، فكانوا يأخذون الرجال والشباب القادرين على حمل السلاح، ليجهزوهم للجبهات والقتال باسم الدولة العثمانية على يد فخري باشا الذي تمَّ تعيينه حاكمًا عسكريًا للمدينة المنورة، فأخضعها لحكم عسكري قاس، وكان أكثر الحكام الأتراك تسلطًا ودموية وضيق أفق) [1]

وهكذا كانت جرائمهم في الشام والمغرب وكل البلاد التي احتلوها، ونهبوا خيراتها، وكانوا سببا في تخلفها، في نفس الوقت الذي لم تر فيها هذه البلاد العربية جميعا أي جندي أو قابض ضرائب من الصفويين، ومع ذلك تجد الصغير والكبير يسب الصفويين، ويترضى على العثمانيين، ويتمنى عودتهم من جديد، ليفعلوا به ما فعلوا بأجداده.

2 ـ من تخلى عن الدول التي كان يحتلها؟

من خلال العرض السابق، تبين لنا أن الصفويين لم تكن لهم صلة إلا بمناطق محدودة جدا، بخلاف العثمانيين الذين امتد شرهم إلى جميع بلاد العالم الإسلامي، بما فيها المناطق الصفوية نفسها، وأن الحرب التي جرت بينهما لم تكن بسبب الصفويين، وإنما بسبب العثمانيين.

وكان يمكن لنا أن نقبل ما يبرر به الممجدون للدولة العثمانية ذلك التمدد، عندما يكون في مصلحة وحدة المسلمين وقوتهم، لكن الواقع التاريخي أثبت العكس؛ فالعثمانيون لم يكتفوا بالتخلي عن البلاد الإسلامية التي احتلوها وقت حاجتهم إليها، وإنما كانوا أكبر من مهد الأرضية للاستعمار في البلاد الإسلامية، ووفر

---

[1] المرجع السابق.

قابلية الشعوب لذلك.

وسنضرب مثالا على ذلك من خلال أول استعمار حل بالبلاد العربية، وهي الحملة الفرنسية على مصر، والتي كان من أول أسبابها ما قام به العثمانيون من تحطيم لكل مقدرات مصر المادية والمعنوية، بسبب تلك الجرائم الكثيرة التي ارتكبوها، والتي أشرنا إلى بعضها في المطلب السابق.

لكن الطائفيين الممجدين للدولة العثمانية يعفونها من هذه الجريمة؛ ويلصقونها بالمسيحيين وغيرهم من الطوائف الموجودة في مصر، أو كما عبر عن ذلك الصلابي بقوله: (لاشك أن هؤلاء المستعمرين كانوا عاملين بطبيعة واحوال المسلمين في مصر من خلال وسائلهم المتعددة، منها ماقام به الرحالة الفرنسي (الجواسيس) الذي أكثروا من رحلاتهم خلال القرنيين السابع عشر والثامن عشر، وكانوا على صلة بالعناصر القبطية المسيحية واليهودية وبعض عناصر المماليك في مصر)(1)

وقال في موضع آخر: (نجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية على معاونة الحملة بمختلف الوسائل، واعتبر بعض الكتاب المسيحيين أن الفائدة التي جنتها مصر خلال سني الحملة الثلاث أكثر من القرون الطويلة للحكم العثماني وقد أشاد البعض من هؤلاء العملاء بدور الخسة والنذالة الذي قام به المعلم يعقوب في تعاونه مع الفرنسيين ضد العثمانيين واعتبروه تعاوناً يستحق بموجبه أن يقام له تمثال من ذهب في أكبر ميادين القاهرة، ويكتب عليه أنه أول من نادى باستقلال مصر في العصر الحديث)(2)

وأضاف يقول: (كان هذا الموقف من النصارى معادياً لرغبة الأغلبية المسلمة بنفس القدر مايمكن إدراكه من اتجاه أغلب

1() الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 327)

2() المرجع السابق، ص 328، وانظر: تاريخ الفكر المصري الحديث، د. لويس عوض (188-1/180)

المفكرين النصارى العدائي للأغلبية المسلمة في مصر المعاصرة والذي يبدو جلياً في تأييدهم لخيانة بلادهم طالما هي ضد الوجود الاسلامي، وحتى بمفهوم الوحدة الوطنية الذين يسعون للتمسح به فإن المعلم يعقوب يعد من أبرز الذين خانوا بلادهم. وعلى أية حال كانت هذه الحادثة بداية لما عرف في التاريخ المصري باسم الفتنة الطائفية)(1)

وهكذا قال الدكتور عبدالعزيز الشناوي: (أسرفت بعض الطوائف غير الاسلامية في مصر في تأييد الفرنسيين إسرافاً وصل الى حد تكوين فرقة عسكرية من أبناء هذه الطوائف. وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم على النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة. ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لسد النقص في عدده، نتيجة المعارك التي خاضها في مصر والشام وإخماد الثورات الشعبية، وفتك الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية بالجنود الفرنسيين وقد نظر الشعب المصري الى هذه الفرق على أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر)(2)

ورغم أننا لا ننكر وقوف بعض المسيحيين أو الكثير منهم، مع الحملة الفرنسية، لكن ذلك يدعونا إلى التساؤل عن سر ذلك، وهل يعود لكراهية المسيحيين للإسلام، أم يعود لتلك المعاملات القاسية التي كان يعامل بها العثمانيون المصريين، والتي جعلتهم يؤثرون أي شيء لهم، حتى الشيطان نفسه.

ولذلك فإن تلك القابلية للاستعمار، لم تكن لتوجد في الشعب المصري أو غيره من الشعوب لولا تلك النماذج السيئة التي أعطاها العثمانيون للحكم الذي يربطونه بالإسلام، والإسلام منه بريء.

ولذلك كان من ذكاء نابليون واستفادته من التجربة العثمانية

1() انظر: قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية، ص144.

2() الدولة العثمانية دولة اسلامية (2/938) ومابعدها.

في السيطرة، ادعاؤه الإسلام(3)، ذلك أنه عرف أن ادعاء الإسلام سيمنح له سلطة أكبر، ومع ذلك لن يكلفه شيئا كثيرا، فهو يرى العثمانيين يمارسون حياتهم وتسلطهم بكل حرية من غير أن يكون للدين أي أثر في ذلك.

والشاهد الذي نريد أن نذكره هنا هو أن تلك الجيوش الجرارة التي دكت معاقل الصفويين والمماليك، ولم تترك قطعة في البلاد الإسلامية إلا راحت تضربها، وبأسلحتها المتطورة، توقفت أن تنجد مصر، ولا غيرها من البلاد الإسلامية عندما دخل الاستعمار.

ولذلك كان المنجد لها هو تلك الثورات الشعبية التي لا تملك من السلاح والتدريب إلا القليل، ومع ذلك كان لها أدوارها المحترمة بعد غياب السلاطين الذي لم يكن لهم شغل في بلاد الإسلامية إلا اللصوصية وجباية الضرائب والقضاء على المعارضين، وإخافة الشعوب حتى لا تقوم بأي حركة تمرد أو احتجاج، فقد واجه الإحتلال الفرنسي عدة ثورات وانتفاضات شعبية خلال السنوات الثلاث التي هيمن فيها على مصر.

وفي 21 تشرين الأول 1798، أي بعد ثلاثة أشهر فقط من دخول الفرنسيين، نشبت ثورة بدأها شيخ أزهري خرج إلى الأسواق ينادي: (لى كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر، لأن اليوم ينبغي لنا أن نغازي الكفار)، وصارت الأصوات ترتفع من فوق المآذن والسطوح العالية تدعو المسلمين للجهاد، فتجمعت الجماهير حاملة البنادق والأسلحة، وبدأ الناس بمهاجمة الجنود الفرنسيين، كما هوجمت دار العلوم والمستشفى العسكري.

---

(3) اتبع نابليون سياسة براغماتية، حيث حاول التقرب من المسلمين والتحبب إليهم، فأعلن أنه مسلم في قلبه وأنه سيعتنق الإسلام، ولبس العمامة والقفطان في أحد الأيام، وصلى مع المصلين. وذهب إلى أكثر من ذلك إذ قال لأحد مشايخ الدين أنه ينوي إقامة حكومة موحدة تقوم على مبادئ القرآن التي هي وحدها المبادئ الحقة القادرة على إسعاد الناس وأشاع أنه شاهد النبيﷺ في منامه وأنه قال له: اجهر بإيمانك، بأركان ديني لأنه دين الله. إن العرب في انتظار هذه العلامة، وسأخضع آسيا كلها لسلطانك. وأخذ يساهم في المواليد النبوية وينفق عليها، وذكر يوماً لشيخ الأزهر أنه يرغب باعتناق الإسلام، ولكن الذي يمنعه من ذلك عقبتان، الختان وتحريم الخمر (انظر: مقالا بعنوان: وداعاً جنرال.. أهلاً مولانا! بقلم: عادل حمودة، مجلة البيان، 18 يوليو 1998)

وفي ذلك الحين، أمر نـابليون بتوجيـه المـدافع المصـوبة في القلعة صوب الجامع الأزهر وما حوله من الدور والأسواق، وبـدأت بدك المباني بالقنابل، فأثارت الـرعب فهـرب النـاس من المكـان، وفي المسـاء أحـاط الجنـود الفرنسـيون يصـحبهم ثلاثمائـة خيـال بالجامع، ثم دخلوا فيه، وأخذوا يأسـرون من كـان فيـه من الثـوار، ويعبثون به وبمحتوياته عبثاً شديداً.

وذهب شيوخ الأزهر لمقابلة نابليون يرجونه الكف عن انتهاك الجـامع وقتـل النـاس، فأخـذ يلـومهم ثم أعلن العفـو عنهم.. لكن إعلانه للعفو كان ظاهرياً، إذ أنه أصدر أوامره خفية بقتـل كـل من قاد الثورة أو شارك فيها.

ثم أمر نابليون بإعدام ثمانين رجلاً من الذين كانوا أعضاء في (ديوان الدفاع) وهو الديوان الذي كان بمثابة مركز القيادة للثورة، وبعد أن تمت عمليات الإعدام والتصفيات الجسـدية، أذاع نـابليون منشوراً أشار فيه إلى عفوه، إذ بـدأه بالتهديـد والوعيـد، ولم ينس أن يـبرر تصـرفاته بمـا تعلمـه من أصـحاب الملـك العضـوض، وخصوصـا العثمـانيين، فقـد قـال في خطابـه لهم: (أيهـا العلمـاء والأشـراف، أعلمـوا أمتكم ومعاشـر رعيتكم بـأن الـذي يعـاديني ويخاصمني إنما خصـامه من ضـلال عقلـه وفسـاد فكـره، فلا يجـد ملجأً ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العـالم، ولا ينجـو من بين يـدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى.. والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله وإرادته وقضائه، ومن يشك في ذلك فهو أحمـق وأعمى البصيرة. وأعلموا أمتكم أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدي، وقُدِّرَ في الأزل أني أجيء من المغرب إلى أرض مصـر لهلاك الـذين ظلمـوا فيهـا وإجـراء الأمـر الذي أُمِرْتُ به. ولا يشك العاقل أن هـذا كلـه بتقـدير اللـه وإرادتـه وقضائه. وأعلموا أيضـاً أمتكم أن القـرآن العظيم صـرح في آيـات كثيرة بوقوع الذي حصل، وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المستقبل، وكلام الله في كتابه صـدق وحـق. إذا تقـرر هـذا وثبتت هذه المقـالات في آذانكم، فلـترجع أمتكم جميعـاً إلى صـفاء النيـة وإخلاص الطوية، فـإن منهم من يمتنـع عن الغي وإظهـار عـداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سطوتي، ولم يعلموا أن اللـه مطلـع على

السرائر، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لأحكام الله ومنافقاً، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب. واعلموا أيضاً أني أقدر على إظهار ما في نفس كل أحد منكم، لأنني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه، وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده. ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعايشة، أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يُرَد، وإن اجتهاد الإنسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذي قدره وأجراه على يدي. فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية وإخلاص السريرة، والسلام)[1]

لكن المصريين وغيرهم لم ينخدعوا بذلك الخطاب الذي كان يردد العثمانيون أمثاله، بل راحوا يستعملون كل وسائل المقاومة، ومن الأمثلة عنها ما ذكره الجبرتي في (حوادث شهر شعبان عام 1213هـ الموافق لـ 8 يناير الى 5 فبراير عام 1799م)، حيث قال: (ومنها تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلا مغربيا يقال له الشيخ الكيلاني كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز ويدعوهم إلى الجهادويحرضهم على نصرة الحق والدين وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا في معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا اموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه فورد الخبر في اواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض اتراك ومغاربة ممن كان خرج معهم مع غز مصر عند وقعة انبابة وركب الغز معهم أيضا وحاربوا الفرنسيس فلم تثبت الغز كعادتهم وأنهزموا وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعة من القرى)[2]

وهكذا فعل العثمانيون مع الجزائر التي احتلوها، ونهبوا خيراتها لفترة طويلة، لكنهم بعد أن دخل الاستعمار الفرنسي

1() خطاب نابليون بطوله في تاريخ الجبرتي عجائب الآثار 3/ 63.

2() تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 250).

تركوا الدفاع عنها للأمير عبد القادر، والمقاومات الشعبية الـتي لم تكن تملك الخبرة والأسلحة التي كان يملكها العثمانيون.

وهكـذا يـذكر المؤرخـون أن الموريسـكيين الـذين اسـتعمل الإسبان معهم كـل وسـائل العنـف والشـدة اسـتغاثوا بالعثمـانيين، وهم في أوج قوتهم لينجدوهم، لكنهم لم يفعلوا.

يقول علي بن محمد المنتصر باللـه الكتـاني في كتابـه الـذي خصصـه لمـا حصـل لهم من مظـالم: (ثم اسـتغاث الأندلسـيون بالسلطان بايزيد العثمـاني في المـرة الأولى سـنة 1499 م، لكن بايزيد كان مشغولاً بخلافـات أسـرته، فـاكتفى بإرسـال كتـاب إلى الملكين الكـــاثوليكيين، لم يعملا بـــه، واســـتغاث الأندلســـيون بالسلطان بايزيد مرة ثانية سنة 1502 م، فلم تأت هذه الاسـتغاثة بنتيجة)[1]

وقد ذكر الكتاني نص تلك الاستغاثة، والـتي كـانت عبـارة عن وثيقـة شـعرية من 103 بيت يصـف فيهـا كاتبهـا المجهـول وضـع الأندلسيين وصفًا مؤثرًا، إذ يقول مستهلاًّ بعد بضعة أبيات:

سـلام عليكم من عبيـد تخلّفـوا.. بأنـدلس بـالغرب في أرض غربة

أحاط بهم بحر من الروم زاخر.. وبحر عميق ذو ظلام ولجة

سـلام عليكم من عبيـد أصـابهم.. مصـاب عظيم يالهـا من مصيبة

ثم يقول:

غُدرنا ونصّرنا وبدّل ديننا.. ظُلمنا وعوملنا بكل قبيحة

وكنّا على دين النبي محمد.. نقاتل عمال الصليب بنيّة

ثم يقول:

---

[1] انبعاث الإسلام في الأندلس (ص: 64).

فلما دخلنا تحت عقد ذِمامهم.. بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة

وخان عهودًا كان قد غرّنا بها.. ونصّرنا كرهًا بعنف وسطوة

وأحــرق مــا كــانت لنــا من مصــاحف.. وخلطهــا بالزبــل أو بالنجاسة

وكل كتاب كان في أمر ديننا.. ففي النار ألقوه بهزء وحقرة

ثم يقول بعد وصفه لمنعهم كل شعائر الإسلام:

وقد أمرونا أن نسبّ نبينا.. ولا نذكره في رخاء وشدة

وقد سمعوا قومًا يغنّون باسمه.. فأدركتهم منهم أليم المضرة

ثم يقول:

وقد بدّلت أسماؤنا وتحوّلت.. بغير رضًا منّا وغير إرادة

فآهًا على تبديل دين محمد.. بدين كلاب الروم شرّ البرية

ثم يختتم:

وصرنا عبيدًا لا أسارى نُفتدى.. ولا مسلمين نطقهم بالشهادة

فلــو أبصــرتْ عينــاك مــا صــار حالنــا.. إليــه لجــادت بالــدموع الغزيرة

فيا ويلنا يا بؤس ما أصابنا.. من الضّرّ والبلوى وثوب المذلّة

لكن كل هـذه الأبيـات المملـوءة بـالألم لم تحـرك سـاكنا في نفوس سلاطين العثمانيين مع العلم أنهم كـانوا يوجهـون جيوشـهم لفتح أوروبـا، تحت اسـم الجهـاد، ولسـت أدري أيهمـا كـان أولى بالجهاد: هـل إنقـاذ المسـلمين، الـذين تـرد أخبـار تلـك المعـاملات القاسية معهم، مثلما نسمع اليوم بأخبار بورما وغيرها، أم التوسـع في مناطق أخرى؟

لكن للأسف المكاييل المزدوجة للإسلاميين تجعلهم ينظــرون للأمور دائما بصـورة منتكسـة، وقـد قـال بعضـهم يـذكر السـلطان

وعشقه للجهاد: (بعد استشهاد السلطان مراد تولى الحكم أبنه بايزيد، وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمساً للفتوحات الاسلامية، ولذلك أهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية فاستهدف الإمارات المسيحية في الاناضول وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد كمثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب الصاعقة)[1]

لكن هذه الصاعقة، وهذا الذي يتحرك كالبرق في الجبهات المختلفة كان أبطأ من السلحفاة في تخليص إخوانه من المسلمين من بطش أعدائهم.

3 ـ ما غاية العثمانيين من فتوحهم لأوروبا؟

ذكرنا في الفصول السابقة أن ارتباط الفتح بالجيوش كذبة كبيرة وضعها أصحاب الملك العضوض لتبرير جرائمهم المرتبطة بالتوسع العسكري، والذي هو طبع في كل المستبدين والظلمة على امتداد التاريخ.

والمشكلة الأكبر من ذلك هي ربط انتشار الإسلام بتلك الفتوح، وهو ما يعطي المبشرين والمستشرقين والمستغربين المبررات التي تدعم دعواهم في أن الإسلام لم ينتشر بالحجة، وإنما انتشر بالسيف.

ولهذا، فإن تغاضي الممجدين للدولة العثمانية عن جرائمها في حق الصفويين والمماليك وجميع البلاد الإسلامية التي احتلوها، بحجة مساهمتها في الفتوح الإسلامية، من التبريرات التي يمكن التعبير عنها بكونها أقبح من الذنوب نفسها.

ذلك أن تلك الفتوح ساهمت في وضع الحجب الكثيرة التي تحول بين الغرب والإسلام؛ فكيف يمكن لتلك الجيوش التي كانت تنشر الخراب حيثما حلت أن تدعو للإسلام، أو تكون سببا في انتشار الإسلام؟

---

[1] () انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص40.

ولنفـرض جـدلا أن بعض تلـك البلاد الـتي تمكنـوا من فتحهـا اقتنعت تحت ضغط السـيوف بالإسـلام، ثم تحـولت بعـد ذلـك إلى الإسلام فعلا، فهل هذا العمل مشروع، وهـل أمرنـا بـإكراه النـاس على الدين، وهل هذا السلوك يحفظ للإسـلام سـمعته، والـتي هي من أهم كل شيء؟

ولذلك نرى أن الممجدين للدولة العثمانيـة لا يختلفـون عنهـا، وعن أصـحاب الملـك العضـوض الـذين يغلّبـون المصـالح على المبادئ، والأهواء على القيم، لأنهم يريدون نصرا قريبـا، ولـو كـان مزيفا، لا نصرا حقيقيا شاملا.

ولهذا فإن ظاهرة الإسلامفوبيا الـتي منعت الغـرب من تقبـل الإسلام، لم يكن لها من سـبب سـوى تلـك الجـرائم الـتي ارتكبهـا الفاتحون وأذنابهم في الأندلس، والتي زاد العثمانيون طينتها بلة.

وسـنذكر هنـا بعض الأمثلـة والنمـاذج من كتابـات الممجـدين للعثمانيين، لنقارن بين ما يذكره القرآن الكريم عن الأنبيـاء ومنهج دعـوتهم إلى اللـه، ومنهج العثمـانيين، ومن لـف لفهم من الـذين استبدلوا الدين الإلهي بالدين البشري.

فمن الأمثلة على ذلك ما ذكره الصلابي عن السلطان بايزيـد الأول (791 ـ 805 هـ/1389 ـ 1402م) من تحمسه للفتوحات الإسلامية، فقال: (بعد استشهاد السلطان مـراد تـولى الحكم ابنـه بايزيد، وكان شجاعاً شهماً كريمـاً متحمسـاً للفتوحـات الاسـلامية، ولذلك أهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية فاستهدف الإمـارات المسـيحية في الاناضـول وخلال عـام اصـبحت تابعـة للدولـة العثمانية)[1]

ثم ذكر بنشوة كبيرة إخضاعه لبلغاريا، وكيف ساهم ذلـك في بث الرعب في نفوس الأروبـيين، فقـال: (بعـد أن تم التفـاهم مـع الصرب وجه بايزيد ضربه خاطفـة في عـام (797هـ/1393م) الى بلغاريـا، فاسـتولى عليهـا وأخضـع سـكانها، وبـذلك فقـدت البلاد اسـتقلالها السياسـي، وكـان لسـقوط بلغاريـا في قبضـة الدولـة

---

[1] () الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 65).

العثمانية صدى هائل في أوروبا وانتشـر الـرعب والفـزع والخـوف أنحاءها وتحركت القوى المسـيحية الصـليبية للقضـاء على الوجـود العثماني في البلقان)[1]

وهكـــذا نـــراهم يمجـــدون بالخصـــوص الســـلطان ســـليمان القانوني، الذي يشكل في نظـرهم رمـزا كبـيرة من رمـوز المجـد الإسلامي، وقد قال بعضهم في خطبة له، حاكيا هذا المشهد الذي لسنا ندري مدى صدقه، فقـد قـال: (في سـنة ١٩٢٣ للميلاد، وهي سنة سقوط الخلافـة العثمانيـة، قـررت أوروبـا النصـرانية أن تقيم حفـل انتصـارها المـبين على الإسـلام والخلافـة بطريقـة جديـدة وموجعـة، حيث عقـدت مسـابقة لاختيـار ملكـة جمـال أوروبـا في عاصمة الخلافة أنقرة، وكـان من ضـمن المتسـابقات فتـاة تركيـة وذلك لأول مـرة في تـاريخ البلاد، وتقـدمت الفتـاة التركية.. ممثلة لتركيا العلمانية، وقد استعرضت مفاتنها بلبـاس البحر على خشـبة المســرح.. عنــدها قــال رئيس لجنة التحكيم في المســابقة وقتها كلمات تقطر بالتشفي والشـماتة وتكشف عن كم الكراهية الدينية المتجذرة في نفوس الأوروبـيين تجـاه دولـة الخلافـة العثمانيـة، إذ قال معلقا: (أيهـا السـادة، أعضـاء اللجنـة، إن أوروبـا كلهـا تحتفـل اليوم بانتصار النصـرانية.. لقـد انتهى الإسـلام الـذي ظـل يسـيطر على العـالم منـذ ألـف وأربعمائـة سـنة، إن كريمـان خـالص ملكـة جمال تركيا تمثل أمامنا المرأة المسلمة، فها هي كريمــان خــالص حفيدة المرأة المسلمة المحافظة تخرج الآن أمامنا بهذا المظهــر، ولابد لنا من الاعتراف أن هذه الفتـاة هي تـاج انتصـارنا. ذات يـوم من أيام التاريخ انزعج السـلطان العثمـاني سـليمان القـانوني من فن الرقص الذي ظهر في فرنسا، عندما جاورت الدولـة العثمانيـة حدود فرنسا، فتدخل لإيقافه خشية أن يســري في بلاده، وهــا هي حفيدة السلطان المسـلم، تقـف بيننـا، وتطلب منـا أن نعجب بهـا، ونحن نعلن لها بالتالي: إننا أعجبنا بهـا مـع كـل تمنياتنـا بـأن يكـون مستقبل الفتيات المسلمات يسير حسب ما نريد، فلترفع الأقــداح

---

[1] المرجع السابق، ص66، وانظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الجـديث، ص 41..

تكريما لانتصار أوروبا) [2]

ونحن وإن كنا لا نجزم بالخبر الذي ذكره، ولكنا نكتشف منه الأثر السلبي لذلك التدخل في شؤون الغير، والذي سموه بالفتح، وسموه كذبا [عزة إسلامية]، والتي سرعان ما تحولت إلى ذلة، وتحولت تركيا نفسها إلى رجل مريض، في نفس الوقت الذي تحولت فيه تلك الدول المستضعفة إلى أسود تنهشه، وتتلاعب به، ثم سرعان ما تحولت تركيا نفسها إلى دولة داعية للإلحاد بعد أن كانت تدعي أنها حامية للإسلام.

وسر ذلك يكمن في الابتعاد عن المفهوم القرآني للفتح، والذي يعني الفتح العمودي، لا الأفقي، والعمودي يكون بتحقيق القيم الإسلامية، والتعامل بها مع جميع العالم، حتى يعرف العالم ما هو الإسلام، وحينها يحترمه، وحينها يمكن أن يعتنقه بصدق وإخلاص.

أما استعمال الرعب في التعريف بالإسلام، فهو لن ينتج سوى الأحقاد التي تجلت في ذلك الموقف الذي وقفه الخطيب، وراح يتباكى به على المسلمين، ولم يكن يعلم أن أولئك الذين يشيد بهم هم أنفسهم الذين جروا الإسلام إلى ذلك الوضع.

ثم راح يذكر في خطبته مؤامرة الغرب على الإسلام، وينسى مؤامرة من يدعون الإسلام على الغرب، فقال: (لن أتكلم عن حقد الصليبيين وكراهيتهم للإسلام والمسلمين، فهو واضح في كتاب الله تعالى.. ولكنني سأتكلم عن سليمان القانوني الذي ورد اسمه في كلمات هذا الحاقد، فمن هو سليمان القانوني هذا الذي نقشت صورته على أحد جدران مجلس النواب الأمريكي؟.. كان الخليفة العثماني سليمان القانوني ممن شوه الغرب الكافر وأتباعهم سيرته، وهذا ظاهر في الافتراء عليه وتشويه صورته في ذلك المسلسل المحرف [حريم السلطان] كما شوهوا سيرة غيره من خلفاء المسلمين.. ولكن هي محاولات مستميتة لطمس تاريخ المسلمين المشرف.. ولإخفاء شخصيات المسلمين العظيمة..

2() السلطان سليمان القانوني، هلال الهاجري، مؤسسة ملتقى الخطباء، دط، دت، ص 2..

حتى لا يجد أبناؤنا قدوات في تاريخهم.. فيبحثون عن سفاحي الغرب ومجرمي الشرق ليتخذوهم قدوات)[1]

وهو ـ كسائر الممجدين للتاريخ ـ ينظرون إلى الغرب، عوامه وخواصه بكونه صليبيين حاقدين على الإسلام، وهو ما جعل الإرهابيين يستحلون دماءهم، حتى لو كانوا شيوخا أو أطفالا أو نساء لا يسمعون بالإسلام، ولا يعرفون بلاد المسلمين.

ولو سأل نفسه عن سر ذلك الحقد لأجاب بسهولة، ولعرف أنه الابتعاد عن القيم القرآنية في التعامل مع الآخر، فالله تعالى أمرنا بأن نعرض الإسلام عليهم عرضا جميعا، فقال: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت: 46]، لكن الفاتحين الذين أمروا بالحوار الحسن معهم، لم يكتفوا بالتقصير في ذلك فقط، وإنما راحوا يقاتلوهم، ثم يكذبون على العالم حين يشوهون الإسلام، ويذكرون لهم أن الله تعالى أمرهم بالقتال، لا بالحوار، وهل يمكن لشعب من الشعوب أن يحب دينا يستحل دماءه؟

وهكذا أمرنا القرآن الكريم بأن نؤلف قلوبهم، ولو بأموالنا، فقد ذكر في مصارف الزكاة تأليف قلوب أهل الديانات الأخرى، بإعانتهم والإحسان إليهم، ليكون ذلك مقدمة لتعرفهم على الإسلام، وقد يكون مقدمة لاعتناقهم له، كما قال تعالى: { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ} [التوبة: 60]، لكن الفاتحين لم يكتفوا بالتقصير في هذا الأمر، وإنما راحوا يفرضون عليهم الإتاوات والجزية، والتي أرهقتهم، وجعلتهم يكرهون الإسلام، ويتحينون كل فرصة للانتقام منه، وهو ما نعيشه اليوم، حيث استرد من يسمونهم صليبين كل ما أخذوه من جزية أضعافا مضاعفة.

ولو أن المسلمين أحسنوا التعامل معهم، لكان الوضع مختلفا تماما، ولربما كان هؤلاء الذين يسمونهم الآن صليبيين، من أحسن

[1] المرجع السابق، ص3.

الناس إسلاما، وحتى لو بقوا على دينهم، فـإنهم لن يكـون لهم أي حقد على الإسلام، وحتى لو كان هناك حقد، فلن يصـل إلى عـوام النـاس، الـذين أمرنـا بـأن نحسـن إليهم، ونؤلـف قلـوبهم، ونـدافع عنهم، باعتبارهم إخوانا لنا في الإنسانية.

وهكـذا راح الخطيب يغفـل عن كـل هـذه المعـاني القرآنيـة، ويصف لعوام الناس الملتفين حوله تلك الأمجاد الكاذبة التي سكر بها العثمانيون فترة من الزمن، ثم تجرعوا غصصـها بعـد ذلـك، هم وسائر المسلمين أضعافا مضاعفة.

وأول الأمجاد ـ كما يذكر ــ مـا سـماه ــ كـذبا وزورا ــ [حكمـا إسلاميا]، مع أن رسـول اللـه ﷺ سـماه [ملكـا عضوضـا].. يقـول: (ولد السلطان سليمان الأول بن السلطان سليم الأول بن با يزيـد بن محمد الفاتح عام تسعمائة للهجـرة.. وتـولى الخلافـة وهـو ابن ست وعشرون سنة.. فأقـام السـنة وأعلى منارهـا، وقمـع البدعـة وأهلها، وقضى على الروافض، وأحيا الملة ونشر العـدل في ربـوع الدولة الإسلامية، واستبشر الناس خـيرا بعهـده.. وكـان السـلطان سليمان يستفتح رسائله بقول الله تعـالى: { إِنَّهُ مِنْ سُـلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [النمل: 30].. جلب السلطان سليمان العلماء الربانيين، وجلس معهم ووضع قوانين إداريـة مسـتمدة من الشريعة الإسلامية)[1]

وهكـذا راح يشـوه نـبي اللـه سـليمان عليـه السـلام، ذلـك المتواضع الأواه المنيب الذي ذكر القرآن الكريم عدالتـه وتواضـعه لرعيته، ليضع نفسه مكانه، والعجيب أنه يذكر أن عمره كـان ذلـك الحين لا يتجـاوز سـتا وعشـرين سـنة، ومـع ذلـك أعطي الحكم المطلق، لا لشيء إلا لكونه ـ كما يـذكر الخطيب ــ ابن السـلطان سليم الأول بن با يزيد بن محمد الفاتح.

وليت الأمر توقـف عنـد ذلـك، بـل إن الخطيب يـذكر أن هـذا السلطان، راح ـ وهو في عز الشباب ونشـوة السـلطان ــ يرسـل برسله وكتبه لملوك أوروبـا لا لإقامـة علاقـات طيبـة معهم، تكـون

---

[1] المرجع السابق، ص3.

مقدمة للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وإنما راح يدعوهم إلى دفع الجزية والإتاوات، لأنه لم يكن للعثمانيين في توسعهم من غرض سوى تلك الإتاوات التي تمتلئ بها خزائنهم.

يقول الخطيب: (وعندما جلس السلطان سليمان القانوني على كرسي الخلافة، كان أول ما فعله هو إرسال رسالة إلى ملوك أوروبا يعلمهم بتوليه الخلافة، ويأمرهم بدفع الجزية المقررة عليهم كما كانوا يفعلون في عهد أبيه السلطان سليم الأول.. فاستهان ملك المجر بالسلطان سليمان لصغر سنه فرفض دفع الجزية وقتل رسول السلطان؛ فاستشاط السلطان سليمان غضبا، وقال: أيقتل سفير دولة الإسلام؟.. أيهددني ملك المجر؟.. فما أصبح الصباح إلا وقد أعد السلطان سليمان جيشا جرارا مدعوما بالسفن الحربية، وكان السلطان سليمان بنفسه على رأس هذا الجيش، وكان قاصدا مدينة بلجراد المنيعة والتي تعد بوابة أوروبا الوسطى وحصن المسيحية كما كانوا يطلقون عليها، ولكم أن تعلموا أن جده محمدا الفاتح حاول أن يفتح بلجراد ولكنه فشل، بل وأصيب إصابات خطيرة أثناء حصارها.. ولما انصرف عنها قال: (عسى أن يخرج الله من أحفادي من تفتح تلك المدينة على يديه)، وتوجه السلطان سليمان القانوني على رأس جيش عرمرم، ومزود بأعتى المدافع والأسلحة، يمدهم ثلاثة آلاف جمل محمل بالأسلحة وثلاثين ألف جمل محمل بالمهمات وسفن تحمل الخيول وخمسين سفينة حربية ومئات من المدافع العملاقة الفتاكة التي كانت فخر الجيوش الإسلامية.. وبدأ السلطان سليمان في حصار قلعة بلجراد، وبعد شهرين ونصف من الحصار تسقط قلعة بلجراد، فدخل السلطان سليمان القانوني المدينة يوم ٢٦ رمضان ٩٢٧هـ.. وأمر السلطان أن يرفع الأذان من القلعة) [1]

وأصحاب المجد المزيف يتصورون أنهم برفع الآذان في القلعة يكونون قد أوصلوا الإسلام إلى تلك المناطق، ولست أدري كيف يمكن أن تستسيغ آذان عوام تلك المدينة الآذان، بعد ذلك

---

[1] المرجع السابق، ص5.

الحصار الطويل، وتحت وقع تلك المدافع العملاقة الفتاكة التي اعتبرها الخطيب (فخر الجيوش الإسلامية)

وذلك نفس ما تطبقه الجماعات الإرهابية عندما تمارس كل أنواع التوحش، ثم تكبر الله، وتتصور أنها تنتصر له، وهي لا تعلم أنها تستعمل كل الحجب التي تحول بين الخلق وبينه.

ثم راح الخطيب يصف مشهد الرعب الذي بثه السلطان سليمان القانوني في نفوس الأوروبيين، فقال: (وكان يوما مشهودا، فوقعت هيبته في قلوب ملوك أوروبا قاطبة، وبعث إليه ملك روسيا والبندقية وسائر ملوك أوروبا يهنئونه بالفتح ويعطونه الجزية عن يد وهم صاغرون.. وظل السلطان سليمان القانوني في بلجراد حتى عيد الفطر وأقام صلاة العيد في أكبر كنائسها بعد تحويله إلى مسجد)[1]

ولست أدري من أعطي له حق تحويل الكنيسة إلى مسجد؟.. وهل تصح الصلاة في مسجد غصبت أرضه عنوة؟.. وهل أمرنا الله بالدفاع عن الكنائس، أم أمرنا بالاستحواذ عليها.. ألم يقل الله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} [الحج: 40]؟

وهذا ما يدل على أن المسافة بين أولئك الفاتحين، ومن يؤيدهم من الفقهاء، بعيدة جدا عن الإسلام، وهم يكذبون حين يذكرون سماحة الإسلام.. فالإسلام السمح هو الإسلام الإلهي الذي جاء به رسول الله ﷺ، لا ذلك الدين المبتدع الذي وضعته الفئة الباغية، وأصحاب الملك العضوض.

ثم راح الخطيب يكمل خطبته بذكر أمجاد أخرى لذلك السلطان، فقال، بنشوة عظيمة: (ثم تحرك إلى وجهته المجر حتى وصل إلى نهر الدانوب، وأمر بتشييد جسر يعبر عليه المسلمون، وتم تشييد الجسر في مدة زمنية قليلة، وظل عبور الجيش الإسلامي عليه لمدة أربعة أيام، ثم أمر السلطان برفع

[1] المرجع السابق، ص6.

الجسر فرفع، فبقي المسلمون في بلاد الكفار، وذلك لشجاعته وقوة عزيمته، وقطع أطماع العسكر من الفرار إلى بلادهم.. وفي أثناء مسير السلطان سليمان افتتح عدة قلاع تقع على نهر الدانوب ولها أهمية حربية كبيرة، حتى وصل إلى وادي موهاكس في ٢٠ ذي القعدة عام ٩٣٢هـ.. (ويوجد مثل شعبي في المجر، يقولون: أسوأ من هزيمتنا بموهاكس)، بات السلطان والجنود ليلتهم في الدعاء والتهليل والتكبير، وتضرع السلطان سليمان إلى الله سبحانه وتعالى وسأله النصر، وكان يمر بين صفوف الجند فيخطب فيهم عن الجهاد وعن فضل الشهادة، وبعدما صلى السلطان صلاة الفجر دخل بين الجنود وحمسهم)(1)

وهكذا تختلط العبادة التي تدعو إلى الرقة والإنسانية والتسامح، بتلك العبادة التي يمارسها الإرهابيون، والتي تدعو إلى العزة والكبرياء والتسلط.. والتي حذر منها رسول الله ﷺ حين قال: (يخرج في هذه الأمة ــ ولم يقل: منها ــ قوم، تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية)(2)، وفي رواية: (يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم)

ثم راح في آخر خطبته يستمتع بذكر عدد القتلى الذين كان يمكن للمسلمين أن يعرضوا عليهم الإسلام عرضا جميلا، وأن يحيوهم في سبيل الله، بدل أن يقتلوهم نصرة لله، يقول: (وأما على الجانب الآخر، فعندما علم ملك المجر لويس الثاني بقدوم المسلمين إليه، أعد جيشا جرارا واستعان بملوك أوروبا فأمدته ألمانيا بثمانية وثلاثين ألفا من خيرة الفرسان لديها، فوصل عدد جيوش الكفار إلى مائتي ألف مقاتل.. وبات الكفار ليلتهم في سهل موهاكس ومعهم القساوسة والرهبان يحثونهم على قتال المسلمين وأتوا بالصلبان يرفعونها أمام الجند.ولكم أن تعجبوا بأن

(1) المرجع السابق، ص7.

(2) رواه البخاري (4/243) وفي (8/47) ومسلم (3/112).

المعركة لم تتجـاوز السـاعة والنصـف.. قتـل فيهـا من المسـلمين مائة وخمسون فقـط.. وأسـر فيهـا من الكفـار خمسـة وعشـرون ألفا.. ومائة وخمسة وسبعون ألفا بين قتيل وجـريح.. واقـرؤوا في التاريخ تلك الخطة الحربية العظيمة) (1)

وبهذا الأسلوب الذي تستخدم فيه أمثال تلك الأمجـاد الكاذبـة في صـناعة الإرهـاب في عقـول المسـلمين، والإسـلامفوبيا في عقول غيرهم، راح كاتب آخر يصـف السـلطان سـليمان القـانوني بقولـه: (هـو أكـثر سـلاطين المسـلمين جهـاداً وغـزواً فى أوروبـا، ووصلت جيوش المسلمين فى عهده الى قلب أوروبـا عنـد أسـوار فيينا مرتين، مجدد جهاد الأمة فى القرن العاشر، أقام السنّة وأحيا الملّـة وقمـع البدعـة والـروافض، صـاحب انتصـار المسـلمين فى معركـة موهـاكس الـتى كـانت من أيـام اللـه الخالـدة وتُعـد غـرة المعارك الإسلامية فى شرق أوروبا بعـد معركـة نيكوبـوليس وفتح القسطنطينية، وهو أعظم سلاطين الدولة العثمانية وأكثرهم هيبـة ورهبة فى قلوب النصارى وأشدهم خطـرا عليهم، وكـان من خيـار ملوك الأرض.. حكم المسلمين قرابة ثمانية وأربعين سنة وامتـدت دولة الخلافة الاسلامية فى عهده فى ثلاث قارات وأصبحت القـوة العظمى فى العـالم بأسـره بلا منـازع وتمتلـك أعـتى الجيـوش والأسلحة وصاحبة السيادة فى البحار والمحيطات.. حتى قال عنـه المؤرخون إنه [سليمان زمانه] لكثرة جنـده ولعظيم هيبتـه ولنفـاذ أمره فى ملـوك الأرض، ولإقامته للسـنّة ولجهـاده ضـد النصـارى) (2)

ثم راح يصـف جهـاده وفتوحـه، فقـال: (اسـتطاع السـلطان سليمان القانونى أن يوسع رقعة الدولة الإسلامية فى ثلاث قارات حتى أصبحت دولة مترامية الأطراف، <u>وكان سبيله فى تحقيق هـذا الهدف هو سـيفه ودرعه</u>، لكم أن تعلمـوا ان المـؤرخين ذكـروا ان

---

(1) السلطان سليمان القانوني، هلال الهاجري، مؤسسة ملتقى الخطباء ، ص7.

(2) السلطان سليمان القانونى.. أكبر ملوك الإسـلام !!، محمـود حافـظ، دط، دت، ص 1..

عدد ما افتتحه السلطان سليمان القانونى فى حياته من الحصـون والقلاع والمدن ما يناهز 360 حصنا)(1)

وراح يصف ما سماه فتح بلجراد بقولـه: (وعلمـوا وقتهـا أنهم أمام سلطان من طراز فريد، وعلموا أنه سيعيد لهم سـيرة بايزيـد الأول ومحمد الفاتح، فوقعت هيبته فى قلوب ملوك أوروبا قاطبةً، وبعث اليه ملك روسيا والبندقية وسائر ملوك أوروبا يهنئونه بالفتح ويعطونــه الجزيــة عن يــدٍ وهم صــاغرون.. ومن يومهــا ســمّى المسلمون بلجراد (دار الجهاد) وكان منها القاعدة الحربية لانطلاق جيوش المسـلمين لغـزو بـاقى أوروبـا، واهتم المسـلمون بالأوجـه الحضارية فى بلجـراد حـتى سـمّاها المؤرخـون (أنـدلس البلقـان) وكانت تنعم بأوجه الحضارة بينما كانت سـائر بلاد أوروبـا لا تعـرف شيئا عن أوجه الحضارة ولا عن تخطيط الشوارع ورصفها وإنارتهـا ليلا) (2)

ثم راح يتباكى عليهـا كمـا يتبـاكى على الأنـدلس من غـير أن يسأل نفسه عن سر كل ذلك الفتوح الكاذبة: (مَن مِن المســلمين الآن يعرف شيئاً عن بلجراد الإسلامية.. فقـد ضـاعت كمـا ضـاعت الأندلس، فصدق من سمّاها (أندلس البلقان) فهى شبيهة الأندلس فى حدث إقامتها وحدث نهايتها) (3)

ثم راح يتحــدث عن مزيــد من الجــرائم الــتي ارتكبهــا ذلــك السلطان باسم الإسـلام، والـتي لا تـزال آثارهـا إلى اليـوم، ومنهـا معركة موهاكس (932هـ ـ 1526م)، والـتي وصـفها بالخالـدة، ثم قال: (إن فى تاريخ المسلمين معاركة كانت من أيام اللـه الخالـدة كـاليرموك والقادسـية وحطين وعين جـالوت وملازكـرد والزلاقـة وشانت يعقوب.. ومن تلك الأيام التى أنزل اللـه فيهـا النصـر على

---

(1) المرجع السابق، ص4.

(2) المرجع السابق، ص7.

(3) المرجع السابق، ص7.

جند الإيمان وقذف الرعب فى قلوب حزب الشيطان، يوم معركـة (موهاكس) التى من أشرس معارك المسـلمين، وأشـد قهـرا وذلا فى قلوب المشركين الى يوم الناس هذا) (1)

ثم بين آثار تلك المعركـة على نفـوس المجـريين إلى اليـوم، فقال: (لو قدّر الله ان تذهب يومـا الى دولـة المجـر، فأنصـحك ألا تذكر اسم السلطان سليمان القانونى، ولا اسم معركـة موهـاكس أبدا.. فإلى الآن يوجد مثل شعبى فى المجر يتناوله أهلها اذا حدث أمر سيىء فيقـول: أسـوأ من هزيمتنـا بموهـاكس، وبعض الكتّـاب سمّى هذه المعركة بأنها المعركة التى أدخلت الرعب على أوروبا) (2)

ثم ردد بحزن قائلا: (واللـه يـا إخـوة أصـابنى الكمـد والحـزن والغمّ والهمّ كلمـــا ســـألت أحـــد الشـــباب عن موهـــاكس أو عن السلطان سليمان، ولا يكاد يعرف شيئا) (3)

ثم راح يصـف تفاصـيل تلـك المعركـة، ولا ينسـى أن يسـتغل الفرصة لبث الأحقاد على الشـيعة الصـفويين بكـونهم السـبب في كل ما يحصل من مآس للمسلمين، يقول: (كانت فى هـذه الفـترة ظهرت قوة مملكة إسبانيا بصورة رهيبة جدا يقودها رجل مشـهور وذائع الصيت فى أوروبا وهو شـارل الخـامس أو شـارلكان، وكـان هـذا الخـبيث النجس هـو حفيـد إيـزابيلا وفردنانـدو الـذين دخلـوا غرناطة عام 1492م وأسقطوا الحكم الإسلامى فى الأنـدلس إلى الأبد وقادوا حملات محاكم التفتيش ضد المسلمين.. هـذا الخـبيث شارلكان استطاع أن يبسط نفوذه على إسبانيا والبرتغال وألمانيـا والنمسا وهولندا، وأسس إمبراطوريـة ضـخمة وقويـة جـدا، وكـان هذا الخبيث يحاول أن يفرض سيطرته على المجـر لتكـون حـاجزا

1() المرجع السابق، ص12.

2() المرجع السابق، ص12.

3() المرجع السابق، ص13.

له ضد الدولة العثمانية والمسلمين.. فانتبه لذلك السلطان سليمان، وعلم خطورة سيطرة شارلكان على المجر، وما يترتب عليه من أوضاع خطيرة للمسلمين فى أوروبا الوسطى، وهنا ظهر جانب آخر وخيانة خلدها التاريخ لأحفاد بن سبأ الملاعين، وهى الدولة الصفوية الخبيثة، حيث اتفقت الدولة الصفوية مع المجر ضد الدولة العثمانية، وعندما علم السلطان سليمان بهذا الأمر استشاط غضباً، وبدأ فى التحرك لغزو المجر وضمها للدولة العثمانية الإسلامية، وأراد ان تكون تلك المعركة شرسة وعنيفة ليلقن الأوروبين درسا وخصوصا شارلكان حتى يصرف أبصاره عن المسلمين)[1]

وهكذا تختلط الأحقاد الطائفية التي يسلطونها على الصفويين، لا باعتبارهم دولة كسائر الدول،وإنما باعتبارهم شيعة، مع الأحقاد المرتبطة بعوام المسيحيين، فلا يسمونهم أهل كتاب كما سماهم القرآن الكريم، وإنما يسمونهم صليبيين، مع كونهم كانوا في بلادهم آمنين، ولم يفعلوا سوى أن يدافعوا عن أرضهم التي يريد الفاتحون السيطرة عليها، لرفع الآذان على قلاعها، وتحويل كنائسها إلى مساجد، ثم فرض الجزية والإتاوات الثقيلة على سكانها، ثم بعد ذلك يذكرون لهم أنهم أتباع نبي هو رحمة للعالمين.

4 ـــ هل الصفويون وحدهم من واجه العثمانيين؟

من المغالطات التي يقوم بها الطائفيون الغارقون في أوحال المجد المزيف، اعتبارهم الدولة الصفوية السبب في عدم قدرة العثمانيين على فتح العالم أجمع، حيث يذكرون أن مواجهتهم لها، وصراعهم معها كان سببا في تأخر الفتوح أو انقطاعها، لعدم قدرة العثمانيين على تفتيت جيوشهم بين الصراع معهم، والتفرغ لفتح العالم، وسيطرة المسلمين عليه.

هكذا يذكرون من غير أن يكلفوا أنفسهم بتطبيق ما أمر الله

---

[1]() المرجع السابق، ص14.

تعالى به من مناهج قبل الحكم على الأشياء، ومنها قوله تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } [الإسراء: 36]

ولكن الحقد مثل الحب يعمي ويصم؛ فقد جعلهم حبهم وتمجيدهم للعثمانيين يغفلون عن كل تلك الجرائم التي شوهوا بها أنفسهم، وشوهوا معها القيم الإسلامية، في نفس الوقت الذي راحوا يرمون الأكاذيب على الصفويين من غير أن يبحثوا عن الحقائق من مصادرها.

ونحن كما ذكرنا سابقا، لا نؤمن بمنهج الصفويين والعثمانيين في الحكم، لمخالفته لنظام الحكم الإسلامي المبني على التداول على السلطة، وعلى القيم العادلة، وعلى ولاية الشريعة وفقهائها، لا المستبدين والظلمة، لكنا مع ذلك لا نكتفي بوضع الطرفين في سلة واحدة، بل نحكم عليهما بما تطلبه الشريعة من العدل والتحقيق، من غير أن نميل لأي طرف من الأطراف.

وعندما نرجع إلى المصادر التاريخية التي يعتمدها أولئك الذين يلفقون هذه التهمة نجد أن العثمانيين لم يصارعو الصفويين فقط، بل صارعوا الجميع، بل إن التاريخ العثماني لم يكن سوى تاريخ صراع، والدولة العثمانية ليست سوى جيش كبير، همه الأكبر أن يصارع، ولا يهمه من يصارع.

ولذلك كان الصراع هو السمة البالغة لكل العثمانيين، والذي يبدأ عادة بالصراع مع الأسرة، وينتهي بالصراع مع العالم.. وهو يتنافى مع القيم التي ينبني عليها نظام الحكم في الإسلام، وأهمها السلام، كما قال تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً} [البقرة: 208]، وقال: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال: 61]

بناء على هذا سنذكر هنا نماذج من الصراع العثماني مع الجبهتين الداخلية والخارجية، لنكتشف من خلالها أن المواجهة العثمانية لم تكن خاصة بالصفويين فقط.

أ ـ المواجهة الداخلية:

وهي الصراع الداخلي للعثمـانيين، والـذي لم يكن بينهم وبين الشعب الذي يحكمونه بقوة الحديد والنار، وإنما بين أفراد الأسـرة نفسـها، وهـو الصـراع الـذي رأينـا بعض مشـاهده في الفصـول السابقة، والذي كلف الأمة الكثير من الدماء والـدمار، ومن أمثلتـه تلك الفتنة التي حصلت أثناء الصراع بين الأمين والمـأمون بسـبب وصـية هـارون العباسـي، ومنهـا الصـراع بين أقـارب صـلاح الـدين الأيوبي بسبب تقسيمه للدولة الإسلامية بين أقاربه.

وهذا نفسه حصـل مـع العثمـانيين، وبصـورة لا تقـل بشـاعة، ومن الأمثلـة على ذلـك مـا حصـل من صـراع بين أبنـاء السـلطان بايزيد وابنه البكر أرطغرل بن بايزيـد، حيث بقي من أبنائـه محمـد وعيسى وموسى وسليمان، وهنا حصل الـنزاع بين الإخـوة الأربعـة في فترة من أكثر فترات العثمانيين تخبطا.

وقـد أوقفت بسـبب ذلـك فتوحاتهـا، من غـير أن يكـون للصـفويين أي يـد في ذلـك، وإنمـا السـبب هم الإخـوة أنفسـهم، والـذين كـاد الصـراع بينهم يُسـقط الدولـة العثمانيـة، بـل إن أحـد الإخوة سلَّم أراضي من الدولة العثمانية للبيزنطيين، ولسـت أدري كيـف لا يـذكرون هـذا في نفس الـوقت الـذي يـذكر فيـه تحـالف الصـفويين مـع البرتغـاليين أو غـيرهم، حـتى يحمـوا أنفسـهم من هجمات العثمانيين.

ويذكر المؤرخون أن أكبر الأبناء، سـليمان بن بايزيـد، اسـتقل بالجزء الأوروبي من الدولة العثمانية، وضـمنه مدينـة أدرنـة وأعلن نفسـه سـلطاناً هنـاك، وعقـد حلفـاً مـع مانويـل الثـاني إمـبراطور بيزنطـة؛ ليسـاعده ضـد إخوتـه، وأعطـاه في سـبيل ذلـك مدينـة سالونيك وبعض سواحل البحر الأسود وتزوج إحدى قريباته(1).

أما عيسى، فبمجرد وفاة أبيه أعلن نفسه سـلطاناً في مدينـة بورصة، وأعلن نفسه أنه خليفة أبيه السلطان بايزيد.

وفي ذلك الوقت الذين كان فيه هؤلاء الإخوة يتنازعون، كـان

1() انظر: اخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية)، ص33، والسلاطين العثمانيون، ص 41، ومحمد الفاتح، ص37.

أخوهم محمد، الملقب بـ [محمد جلبي] مختبئاً في الأناضول من جيش تيمورلنك، وبعد أن خفت حدة الهجوم التتري، جمع ما استطاع من عداد القوات الأناضولية والنظامية وقاتل ما بقي من التتار، وتمكن من السيطرة على مدينتي توقات وأماسيب، واستطاع تخليص أحد إخوته الواقعين في الأَسر وهو موسى، واتفق معه على محاربة إخوته، لتنشب الحرب بين هؤلاء الإخوة.

وبعدها استطاع محمد أن ينتصر على أخيه عيسى بعد عدة معارك بينهما انتهت بمقتل عيسى، ثم أرسل جيشاً بقيادة أخيه موسى لمحاربة أخيهما سليمان، الذي استطاع أن ينتصر على سليمان وجيشه على أبواب أدرنة عام 1410م، بعدما لقي الأخير حتفه في الحرب.

وبعد أن انتصر الأخوان قررا توحيد جهودهما ضد الصرب، لكن الأمر لم يستمر طويلاً، حيث أن موسى قرر إعادة الهجوم على أراضي الصرب بعدما علِم أن موقفهم كان متخاذلاً في معركة أنقرة، وانتصر عليهم بعد معارك دامية انطلق بعدها إلى المجر، وحاصر القسطنطينية بهدف الاستقلال بالجزء الأوروبي من الإمبراطورية. لكن، لم يلبث أن تنازع الأخوان المتحالفان محمد وعيسى؛ فملوك المجر طلبوا الحماية من السلطان محمد جلبي الأخ الأكبر الذي تحالف بالفعل مع المجريِّين والصرب وحارب أخاه موسى وهزمه، وعندما قُتل موسى صار محمد جلبي خامس السلاطين على الإمبراطورية التي أُعيد لَمّ شملها عام 1413م.

وهذا الصراع للأسف لا نجد أي ذكر له عند أولئك الذين يلقون اللائمة على الصفويين، بل إنهم في أحسن أحوالهم يذكرونه، ويقرون به دون اعتباره سببا في تأخر الفتح، أو في تلك الدماء الكثيرة التي سالت من الجيش العثماني، ولم يكن لها من هدف سوى نصرة أخ، أو حرب أخ.

ومن الأمثلة على ذلك أن الصلابي الذي أقام القيامة على الصفويين، بسبب دفاعهم عن أرضهم في مواجهة المعتدين الذين كانوا يهددونهم كل حين، حاول أن يمر على هذه الحوادث مرور

الكرام، ويبسط من شأنها مع كونها كانت أكبر بكثير من كل تلك الصراعات الخارجية، وخصوصا مع الصفويين.

فقد قال في الفصل المخصص للسلطان محمد الأول: (ولد السلطان محمد الاول عام (781هـ/1379م)، وتولى أمر الأمة بعد وفاة والده بايزيد وعرف في التاريخ (بمحمد جلبي).. اشترك أثناء حكمه في 24 حرباً واصيب بأربعين جرحاً، استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان، وقضى سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها، ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية)[1]

وهكذا راح يثني على الأخ الغالب في الصراع، ويعتبر ذلك من حزمه وكياسته في نفس الوقت الذي يعتبر فيه الصفويين ودفاعهم عن أنفسهم حقدا على الإسلام، وكراهية للفاتحين، وكراهية للسنة.

بل إنه راح يثني على تسليمه لبعض البلاد التي فتحها آباؤه للبيزنطيين حتى يضمن الاستقرار لنفسه، في نفس الوقت الذي يشن فيه حملته على الصفويين باعتبارهم يتحالفون مع أعداء الإسلام، يقول: (وكانت سياسته تهدف الى إعادة بناء الدولة وتقويتها من الداخل، ولذلك سالم امبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الاسود وفي تساليا وصالح البندقية بعد هزيمة اسطوله أمام كليتبولي وقمع الفتن والثورات في آسيا وأوروبا واخضع بعض الامارات الآسيوية التي أحياها تيمورلنك ودانت له بالطاعة والولاء)[2]

ثم ذكر الصلابي فتنة أخرى حصلت في عهد هذا السلطان الذي تغلب على إخوته، وهي أيضا ليست من الصفويين، وإنما من

1() الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 73).

2() المرجع السابق، (ص: 73)

شخص تبناه العثمانيون أنفسهم، يقول: (وظهر في زمن السلطان محمد شخص يسمى بدرالدين انتحل صفة علماء الدين الإسلامي، وكان في جيش موسى اخو السلطان محمد وتولى منصب قاضي العسكر أعلى مناصب الدولة العثمانية وقتئذ، وكان هذا القاضي قد احتضنه موسى بن بايزيد)[1]

ثم ذكر ما آل إليه أمره من تطور؛ فقال: (وفي أزنيق - وهي مدينة في تركيا- بدأ الشيخ بدر الدين محمود بن اسرائيل يدعو الى مذهبه الفاسد، فكان يدعو الى المساواة في الأموال، والأمتعة، والأديان، ولايفرق بين المسلم وغير المسلم في العقيدة، فالناس إخوة مهما اختلفت عقائدهم وأديانهم وهو ماتدعو إليه الماسونية اليهودية، وانضم الى هذه الدعوة الباطلة كثير من الاغبياء والجهلة وأصحاب الأغراض الدنيئة وأصبح للمفسد بدرالدين تلاميذ يدعون الى منهجه ومذهبه)[2]

ومع أن هذه الطروحات طروحات فكرية، يمكن تجاوزها لو كان لدى العثمانيين بعض العقل الذي يدعو إلى الحكمة في التعامل مع القضايا، لكنهم لم يكونوا سوى دولة عسكرية لا تعرف إلا لغة السلاح، لذلك عالجوا هذه المشكلة بطريقتهم الخاصة، والتي ذكرها الصلابي، وأثنى عليها، فقال: (وشاع أمر هذا المذهب الفاسد وكثر أتباعه وتصدى السلطان محمد جلبي لهذا المذهب الباطل وأرسل أحد قواده على رأس جيش كبير لمحاربة بدر الدين وللأسف قتل القائد سيسمان الذي ارسله محمد جلبي على يد الخائن (بير قليجة) وهزم جيشه وأعد السلطان محمد جلبي جيشاً آخر بقيادة وزيره الأول (بايزيد باشا)، فحارب (بير قليجة) وانتصر عليه في موقعة (قره بورنو) وبعدها أقيم حد الحرابة على (بير قليجة مصطفى) امتثالاً لأمر الله)

ولم ينته الصراع بذلك، وإنما استمر، واستمر السلطان محمد جلبي ــ كما يذكر الصلابي ــ في مواجهة هذه الطائفة

---

[1] () المرجع السابق، (ص: 74)

[2] () المرجع السابق، (ص: 74)

عسكريا إلى أن أسقطها.

وقد اجتهد الصلابي في تبديع هذه الطائفة، مثـل اجتهـاده في تبديع الصفويين، والتهمة الكبرى التي وجهها لها ما عبر عنه بقوله: (إن المذهب الفاسـد الـذي كـان يـدعو إليـه بـدر الـدين هـو نفس مـذهب الماسـونية اليهوديـة المعاصـرة، وهـو يقـوم على إلغـاء الحواجز بين أصحاب العقيدة الإسلامية الصحيحة وأصحاب العقائد الفاسدة، إذ إنه يقـول بـالأخوة بين المسـلمين واليهـود والنصـارى وعباد البقر والشيوعيين، وهذا يخالف عقيـدة الإسـلام الـتي تؤكـد أنــه لا أخــوة بين المســلمين وبين غــيرهم من أصــحاب العقائــد الفاسـدة، لأنـه كيـف يكـون هنـاك أخـوة بين من يحـاربون اللـه ورسوله، وبين المؤمنين الموحدين)[1]

ولم يتوقف الصـراع الـداخلي عنـد ذلـك الحـد، حـتى تسـتقر الدولـة العثمانيـة لتتفـرغ للفتوحـات، وإنمـا كـان يتجـدد كـل حين، ولأتفه الأسباب، وسنلخص هنا باختصار ما ورد في مقـال بعنـوان: [هل كان العثمانيون يقتلون إخوتهم؟][2]، حول بعض مظاهر ذلـك الصراع، والذي تأكـدت من كـل مـا ذكـره من معلومـات من خلال المصادر التاريخية، لكني اكتفيت به مراعاة للاختصار.

فبعد أن ذكر صاحب المقـال الصـراع الـذي حصـل بين أبنـاء بايزيد الأول بعد وفاة أبيهم، ذكـر الصـراع الـذي حصـل بعـد وفـاة السـلطان محمـد جبلي، حيث تـولى السـلطنة ابنـه الأمـير مـراد الثاني، والـذي بـدأ هـو الآخـر حكمـه بالقضـاء على حركـات تمـرد عديدة، كان من أهمها تلـك الـتي قادهـا عمّـه مصـطفى جلـبي بن بايزيـد، والـذي اختفى بعـد معركـة أنقـرة وظن الجميـع أنـه قُتـل، وحاول بشتّى الطرق أن يسيطر على مقاليد السلطنة، بــدعم من بعض أمراء أوروبا، على رأسهم مانويل الثاني إمـبراطور بيزنطـة،

1() الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 76)، و انظر: أخطـاء يجب ان تصحح في التاريخ (الدولة العثمانية)، ص38.

2() انظر: هل كان العثمانيون يقتلـون إخـوتهم؟ حقيقـة القـانون الغـريب الـذي وضـعه محمـد الفـاتح لمنـع الفوضـى، وكيـف تغـيرت الإمبراطوريـة بعـد إلغائـه؟، عـربي بوسـت، 01/08/2018.

وقد استطاع مصطفى أن يُحاصر مدينة جاليبولي، إلّا أن السلطان مراد الثـاني قبض على عمِّه وقدَّمـه إلى المشـنقة بتهمـة الخيانـة والعصيان.

وفي آخر فترة حكمه، تنازل عن العرش لابنه محمـد الثـاني، والذي كان يبلغ من العمر حينهـا 14 عامـاً، والـذي لُقِّب فيمـا بعـد بمحمـد الفـاتح، وينسـب إليـه مـا عُـرف تاريخيـاً بـ [قـانون قتـل الإخوة]، وهو القانون الذي يبيح قتل الإخوة أو الآبـاء أو الأبنـاء في حال تمرُّدهم أو تصارعهم على السلطة.

وقد طبق ذلك القـانون بصـرامة، حيث يـذكر المؤرخـون أنـه على مدار تاريخ الإمبراطورية العثمانية، تم إعدام 60 أمـيراً. وقـد أُعـدم 16 منهم بسـبب ثـورتهم على السـلطان، في حين قُتـل 7 منهم بسـبب نيـاتهم للثـورة، ولأسـباب أخـرى مرتبطـة بمحاولـة تحقيق مصـالحهم. وكـان الأمـراء العثمـانيون يُعـدَمون عن طريـق الخنق، حيث حظرت التقاليد التركية المنغوليـة إراقـة دمـاء أفـراد الأسرة الحاكمة.

وورد في مقال آخر بعض مظاهر ذلـك الصـراع الـداخلي بين العثمانيين، والذي اختصره الكاتب بقوله: (القانون الذي اسـتُخدم بكثرة ومن خلاله قتـل الأب أبنـاءه وأحفـاده ليظـلّ في الكرسـي، وقتلت السلطانة الأم ابنها وحفيـدها من أجـل عـودة الهيمنـة على كرسي الحكم، وبادر الأخ بقتل أشقّائه وأبنائهم لينهي أيّة تهديـدات تحيــط بعرشــه، وذلــك من خلال طريقــةٍ خاصــة بالخيــط الأبيض المصنوع من الحرير، الذي يُخنق به الأمراء حتى لـو كـانوا أطفـالاً رضّـع، وقـد تفشّـى اسـتخدام هـذا القـانون سـعياً للحصـول على الكرسي، لدرجة أنّ هناك مواقف واجهتها الدولـة العثمانيّـة تتعلّـق بعدم وجـود أمـراء يتسـلّمون السـلطة، وهـدّدت بـانقراض العائلـة العثمانيّة أكـثر من مـرة، فهـذا القـانون يعطي الحـقّ للحـاكم بـأن يقتل شقيقه أو إبنه أو حفيـده للحفـاظ على الحكم من أي تهديـد، وحفاظاً على تماسك الدولة، وكان حكم الإعدام يصدر بفتــوى من شيخ الإسلام بأمرٍ من السلطان الجديد)(1)

---

(1) انظر: أشهر 8 سـلاطين عثمـانيين قتلـوا أبنـاءهم وأشـقّاءهم خوفـاً على الكرسـي،

ثم ذكر بعض الأمثلة عنه، ومنها أن السلطان مراد الأوّل، جدّ السلطان محمد الفاتح، طبقه ـ قبل صدوره ـ عندما أوشى له من حوله بأنّ شقيقه محمود يريد الإنقلاب عليه وأخذ كرسـي العـرش منه، فطلب فتـوى من شـيخ الإسـلام بقتلـه، وهـو مـا تمّ بالفعـل، عندما أدخل عليه الجلّادين ليلاً خلال نومه، وقـاموا بخنقـه بالخيـط الحريري الرفيع، ثمّ أخرج ابنه ساوجي على رأس حملـةٍ لمواجهـة البيزنطيّين، وقامت بعض الجواري بالترويج لأكاذيب بأنّ إبنه الأمير قرّر التحالف مع الأعداء للفوز بالكرسي، الأمـر الـذي جعـل مـراد يقوم بنصب فخ لإبنه ليتمّ القبض عليه، مصدراً فتوى بإعدامه.

ومنها أن قيام السلطان محمد الفـاتح بقتـل شـقيقه الرضـيع الأمير أحمد، من زوجة أبيه خديجـة خـاتون، عنـدما كـان عمـره 6 أشهر، وذلك بعد أن نصحه بـذلك بعض الـوزراء والباشـوات خوفـاً من ادّعائهم بمحاولات البيزنطيّين بخطف الأمـير الرضـيع لتنصـيبه سلطاناً بعد أن يتخلّصوا من الفاتح.

ومنها أن السلطان سـليم الأوّل اختتم حياتـه بصـفحةٍ سـوداء مع نجله الأمير ولي العهد الذي أصبح السلطان سليمان القـانوني، عندما حصل على فتوى بقتله للحفاظ على العرش، ثمّ أرسل إليه عباءةً مسمومة إلّا أنّ والدته أنقذته قبل إرتدائها.

ومنهـا أن اعتلاء سـليم للعـرش كـان على جثمـان شـقيقيْه الأميريْن كوركود وأحمد، حيث كان الأخير وليّـاً للعهـد، لكن سـليم اسـتطاع أن يجـذب إليـه الباشـوات والإنكشـاريّين الـذين كـانوا أصحاب القوّة ليوصلوه إلى العـرش بعـد أن تحـارب مـع شـقيقيْه اللذين تحالف كل منهما مع الصفويّين من جهـة، ومـع بعض حكّـام الولايـات من جهـة أخـرى، فـأمر بإعـدامهما مـا بين صـراعه على العرش ووصوله إلى السلطة.

ومنها أن السلطان سليمان القانوني خنق أحبّ أبنائه، ثم ذبح حفيده الرضيع، لأنّ السلطانة هرم المعروفة باسم هويـام، نجحت في اختلاق روايـاتٍ ادعت فيهـا أن نجـل السـلطان يريـد الإنقلاب عليه، فقام بقتله عـبر الجلّادين بـالخنق في خيمتـه، في حين كـان

شوقي عصام، 12/12/2016..

لمصطفى طفل صغير خاف سليمان، بعد ضـغط من هويـام الـتي كانت ترغب في تعلية أحد ابنيها [سليم الثاني] أو [بايزيـد]، لـذلك، عمد إلى قتله من خلال فتوى أصدرها شيخ الإسلام بإخماد الفتنة.

ومنها أن السلطان سـليم الثـاني عمـل على إحبـاك المكايـد لشقيقه إلى أن رمـاه في صـفوف الصـفويّين أعـداء والـده الـذي أصدر أوامر بإعادته لمحاسبته، ثم قـام بقتلـه هـو وأبنـاءه الصـغار بالخنق عبر حرّاسه، وذلك خلال العودة إلى إسطنبول، خاصة بعــد أن علم أنّ والده على مشارف الموت.

ومنهـا أن السـلطان محمـد الثـالث تسـلم الكرسـي صـباحاً وأخــرج 19 تابوتــاً لأشــقّائه الأمــراء ظهــراً، حيث تم خنقهم من الجلّادين، ليخرج من القصر 19 تابوتاً بالوشاح الأسود في مجـزرةٍ بكل معاني الكلمة، كان من بينهم 3 رضّع و5 أطفال أعمارهم بين 3 و6 سنوات، وعلى الرغم من محاولات والدته السـلطانة صـفية من منع إتمام هذه الجريمة، إلّا أنّه كـان مصـمّماً ومتمسّـكاً بتنفيـذ قانون قتل الإخوة لتثبيت عرشه.

وغيرها من الأمثلة الكثيرة التي يقر بها كل الممجدين للدولـة العثمانية، لكنهم يستعملون كـل وسـائل التسـتر والكتمـان عليهـا، لتبقى صورة [الخلافة الإسـلامية] والأمجـاد الكاذبـة المرتبطـة بهـا فخا يصطادون به المغفلين والمغيبة عقولهم.

ب ـ المواجهة الخارجية:

وهي المواجهات الكثـيرة الـتي كـانت تحصـل بين العثمـانيين وما يطلقون عليه [حركات تمرد]، والتي كـانت تـدعوهم كـل حين إلى وقف ما يسمونه فتوحات، بل إلى تسليم ما حصلوا عليه حتى يؤمنوا لأنفسهم الاستقرار على كرسي السلطنة.

وبذلك فإن دعوى كون الصفويين هم وراء كل المصائب التي حصلت للعثمانيين لا يختلف عن تلك الدعاوى التي نسمعها اليـوم، وكـل حين، والـتي تعتـبر إيـران أم المصـائب الـتي حصـلت للبلاد الإسلامية، ولهذا يشبهونها بالدولـة الصـفوية، وهم يعلمـون أنـه لم تنطلق منها أي طائرة، ولا أي صاروخ لضرب أي بلاد إسلامية، في

الحين الذي تنطلق فيه جميع أنـواع الطـائرات والصـواريخ لضـرب أي بلاد ترغب أمريكا في ضربها، ومن أرض الحرمين، وغيرهـا من بلاد الخليج.

وسنكتفي بنموذج ذكره الصلابي وغيره من الممجدين للدولة العثمانية، وهو عن الصراع الذي حصل في عهد سليمان القانوني، فقـد قـال: (ابتلى سـليمان في السـنوات الأولى في عهـده بـأربع تمردات شغلته عن حركة الجهاد، حيث ظن الولاة الطموحــون أن فرصة الاستقلال بأقاليمهم حان وقتها، فقـام جـان بـردى الغـزالي والى الشام بتمـرد على الدولـة وأعلن العصـيان عليهـا وحـاول أن يستولي على حلب إلا أنه فشل في ذلك وأمر السـلطان سـليمان بقمع الفتنة فقمعت وقطع رأس المتمرد جـان بـردى وأرسـل الى استنبول دلالة على انتهاء التمرد)(1)

هذا عن التمـرد الأول، والصـلابي يحـاول تهوينـه، بتصـوير أن القضاء عليه لم يكلف سوى قطـع رأس المتمـرد مـع أن الوصـول إلى رأسه سبقه قطـع رؤوس كثـيرة من الجيش العثمـاني، أو من جيش المتمــردين، والــذين كــانوا جميعــا من المســلمين، ومن المدرســة الســنية نفســها، ولم يكن بينهم صــفوي، ولا مجوســي واحد.

ثم ذكر التمرد الثـاني الـذي حصـل في عهـد سـلطان واحـد، فقال: (وأما التمرد الثاني فقد قام به أحمد شاه الخائن في مصــر وكان هذا عام 930هـ/1524م وكان هذا الباشا طامعاً في منصـب الصدر الأعظم، ولم يفلح في تحقيق هدفـه، وطلب من السـلطان أن يعينه والياً على مصر فعينه، وما أن وصل الى مصر حتى حاول استمالة الناس وأعلن نفسـه سـلطاناً مسـتقلاً إلا أن أهـل الشـرع وجنود الدولة العثمانية من الإنكشارية قاموا ضـد الـوالي المتمـرد وقتلوه وظل اسمه في كتب التاريخ مقروناً باسم الخائن)(2)

---

(1) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 200)

(2) المرجع السابق، (ص: 200)

وأنا أجزم، بل أقسم أن هذا الذي سماه الصلابي خائنا، وذكر أن كل كتب التاريخ تسمه كذلك، لو استطاعت حركته التي سماها حركة تمردية أن تقضي على السلطان سليمان القانوني، لأصبح في عينه وفي كتب التاريخ حاكما صالحا، ويوصف بكونه قضى على الخائن سليمان القانوني وجرائمه.. وهكذا تصبح الغلبة هي الحَكم في المواقف، لا القيم التي أمرنا الله تعالى أن نزن بها كل الأمور.

ثم ذكر التمرد الثالث، وهو التمرد الذي يعجب أمثاله، والذي عبر عنه بقوله: (والتمرد الثالث ضد خليفة المسلمين هو تمرد شيعي رافضي قام به بابا ذو النون عام 1526م في منطقة يوزغاد حيث جمع هذا البابا مابين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ثائر وفرض الخراج على المنطقة، وقويت حركته حتى أنه استطاع هزيمة بعض القواد العثمانيين الذين توجهوا لقمع حركته، وانتهت فتنة الشيعة هذه بهزيمة بابا ذو النون وأرسل رأسه الى استانبول)[1]

والعجيب في أمر الصلابي، ومن هو من أمثاله، أنه مع كون كل التمردات السابقة، سواء كانت داخل الأسرة العثمانية أو غيرها كانت من طرف من يعتقد أنهم من أهل السنة، ومع ذلك لم ينسب تمردهم للسنة، بل نسبه إليهم فقط، لكن عندما حصل التمرد من شيعي، نسب الأمر إلى الشيعة جميعا، وهذا هو مرض الطائفية الذي يجعل الإنسان يتعامل بمكاييل كثيرة مملوءة بالهوى.

مع العلم أنه لم يكلف نفسه في البحث عن أسباب تلك التمردات، حتى يطلق عليها تلك التسمية، وعلمه أيضا أن الدولة العثمانية نفسها لم تكن سوى حركة تمرد ضد الدولة التي سبقتها.

ثم ذكر التمرد الرابع، وهو أيضا مما يحلو له، ولسنا ندري مدى دقته، والكذب فيه واضح، لكنه من أشهر التمردات التي نسمع بها كل حين، وتنسب للشيعة جميعا، وقد عبر عنه بقوله:

---

[1] المرجع السابق، (ص: 200)

(التمرد الرابع ضد الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني كـان تمـرداً شـيعياً رافضـياً أيضـاً وكـان على رأسـه قلنـدر جلـبي في منطقتي قونية ومرعش وكـان عـدد أتباعـه 30.000 شـعياً قـاموا بقتـل المسـلمين السـنيين في هـاتين المنطقـتين، ويقـول بعض المؤرخين أن قلندر جلبي جعل شـعاره أن من قتـل مسـلماً سـنياً ويعتدي على امرأة سنية يكون بهذا قد حاز أكبر الثواب)(1)

وبعد أن ذكر كل هذا الصراع الـذي حصـل في عهـد سـلطان واحد، والذي لم يكن للصفويين أي علاقة به، قال: (بعد هذا هدأت الأمور في الدولة العثمانية وبدأ السـلطان في التخطيـط لسياسـة الجهاد في أوروبا)(2)

ولست أدري كيف يمكن تسمية أمثال هؤلاء المجرمين الذين قضوا حياتهم في الصراع مع أقرب الناس إليهم مجاهـدين، وهم لا يختلفون عن داعش والنصرة وكل الحركات الإرهابية.

5 ـ ما موقـف علمـاء المدرسـة السـلفية من العثمانيين؟

من أخطر أنواع التضليل التي يقوم بها الغـارقون في أوحـال الطائفيـة من السـلفيين والحركـيين وغـيرهم، والـذين يعتـبرون الصـفويين السـبب الأكـبر في كـل مـا نـزل بالأمـة من مصـائب وتخلف، إغفـالهم لأسـلافهم من العلمـاء الـذين لم يقفـوا مواقـف حيادية فقـط من الدولـة العثمانيـة، وإنمـا راحـوا يسـلطون عليهـا نفس السـيف الـذي يسـلطونه الآن على الجمهوريـة الإسـلامية الإيرانية، وهو سيف التكفير.

وهو سـيف لا يكتفـون فيـه بالأحكـام النظريـة، وإنمـا يـدعون بموجبه للقيام بـأي حركـة تقـوض بنـاء الدولـة العثمانيـة، وتقضـي عليها، لأنها في نظرهم دولة جاهلية، ولذلك فـإن مـوقفهم منهـا لا

(1) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 201)، وانظـر: العثمـانيون في التاريخ والحضارة، د. محمج حرب، ص91.

(2) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 201)

يقل عن موقف الصفويين، وإن كان يختلف عنه في كون موقف الصفويين موقفا سياسيا، بخلاف موقفهم الذي ألبسوه لباس الدين.

ولا يزال السلفيون يعتقدون هذا الأمر، وإن كانوا لا يظهرونه، باعتبار الحرب الآن مسلطة على إيران، وليس من المصلحة استعداء أعداء آخرين، لأنهم يريدون من المسلمين أن تجتمع أحقادهم على إيران وحدها، ولو أنهم ذكروا ما قاله سلفهم وخلفهم في العثمانيين، لواجههم جمهور عريض هم يستخدمونه الآن في الحرب على إيران، بإيهامهم أن الذي وقف في وجهها هم الصفويون، لا السلفيون وغيرهم من المدرسة السنية.

وسبب تكفير السلفيين للدولة العثمانية لا يرجع لتلك الجرائم الكثيرة التي ارتكبوها، واستحلوا بها الدماء، وساهموا بسببها في تخلف المسلمين، فتلك الأمور ليست مهمة عندهم، ولهذا فإن تكفيرهم لهم يعود إلى ما عبر عنه الشيخ حسين بن غنام بقوله في وصف العثمانيين أيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (كان غالب الناس في زمانه - أي الشيخ محمد بن عبد الوهاب - متضمخين بالأرجاس متلطخين بوضر الأنجاس، حتى قد انهمكوا في الشرك بعد حلول السنة بالأرماس.. فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين وخلعوا ربقة التوحيد والدين، فجدوا في الاستغاثة بهم في النوازل والحوادث والخطوب المعضلة الكوارث، وأقبلوا عليهم في طلب الحاجات وتفريج الشدائد والكربات من الأحياء منهم والأموات، وكثير يعتقد النفع والضر في الجمادات) [1]

ثم ذكر صور الشرك ومظاهره في نجد والحجاز والعراق والشام ومصر وغيرها أيام العثمانيين، وتشجيع العثمانيين عليها، وهو نفس ما تُكفر به إيران اليوم.

وهكذا قال سعود بن عبد العزيز (ت 1229 هـ) في رسالة له إلى والي العراق العثماني واصفاً حال دولتهم: (فشعائر الكفر بالله والشرك هي الظاهرة عندكم، مثل بناء القباب على القبور،

1() روضة الأفكار، ص5 وما بعدها..

وإيقاد السرج عليها، وتعليق الستور عليها وزيارتها بما لم يشرعه الله ورسوله واتخاذها عيداً وسؤال أصحابها قضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، هذا مع تضييع فرائض الدين التي أمر الله بإقامتها من الصلوات الخمس وغيرها فمن أراد الصلاة صلىو حده، ومن تركها لم ينكر عليه وكذلك الزكاة وهذا أمر قد شاع وذاع وملأ الأسماع في كثير من بلاد: الشام والعراق ومصر وغير ذلك من البلدان)(1)

وقال أيضا: (وأما قولكم: كيف التجري بالغفلة على إيقاظ الفتنة بتكفير المسلمين وأهل القبلة ومقاتلة قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر.. فنقول: قد قدمنا أننا لا نكفر بالذنوب، وإنما نقاتل من أشرك بالله وجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله ويذبح له كما يذبح له وينذر له كما ينذر لله ويخافه كما يخاف الله ويستغيث به عند الشدائد وجلب الفوائد ويقاتل دون الأوثان والقباب المبنية على القبور التي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله؛ فإن كنتم صادقين في دعواكم أنكم على ملة الإسلام ومتابعة الرسول ﷺ فاهدموا تلك الأوثان كلها وسوّوها بالأرض، وتوبوا إلى الله من جميع الشرك والبدع.. وأما إن دمتم على حالكم هذه ولم تتوبوا من الشرك الذي أنتم عليه وتلتزموا بدين الله الذي بعث الله رسوله وتتركوا الشرك والبدع والخرافات لم نزل نقاتلكم حتى تراجعوا دين الله القويم)(2)

وهذا نص صريح في وجوب قتال العثمانيين، ومن شخصية ليست معتبرة فقط لدى السلفيين، وإنما هم يلقبونه بالإمام، والذي لم يكتف برسالته هذه وغيرها، وإنما راح يقاتل العثمانيين عندما داهموا بلاده مثله مثل الصفويين تماما، ولست أدري كيف يُحلون لأنفسهم، ما يحرمونه على غيرهم.

وربما يكون ذلك بسبب قدرة الصفويين على الثبات في مواجهة خصومهم، وحفاظهم على دولتهم بخلاف الدولة السعودية

(1) الدرر السنية: 1/382.

(2) المرجع السابق، 7/397.

الأولى الـتي انهـزمت بسـهولة على يـد الجيش العثمـاني بقيـادة إبراهيم باشا في الحملة التي شنها على الدولة السعودية النجدية، حيث هاجم الجيش العثماني الحجاز من مصـر، ثم بـدأ يتوغـل في نجد، وبدأ هروب المحاربين السعوديين من أمام الجيش العثماني، بسـبب عـدم تعـود السـعوديين على التنظيم العسـكري ومواجهـه الجيـوش النظاميـة، وبـذلك تمكن إبـراهيم باشـا في النهايـة من فـرض سـيطرته على جـزء من منطقـة نجـد، واجتيـاح الدرعيـة وتحطيمها.

وكـانت تلـك الهزيمـة سـببا في تـأليف الكتب والرسـائل في تكفـير العثمـانيين، والـذين اعتـبروهم حربـة البلاء في الأمـة الإسلامية، وأن الدين لا يتم إلا بالقضاء عليهم، حتى لو تحالفوا مـع كل قوى الشر من أجل ذلك، مثلما يفعلون الآن تمامـا مـع إيـران، ومن العجيب أنهم كانوا يستعملون في ذلك كـل مـا قالـه سـلفهم في تكفـير أبي حنيفـة، نتيجـة تبـني العثمـانيين للمـذهب الحنفي، ولذلك كانوا يعتبرونه سـبب كـل أنـواع الزندقـة الـتي حصـلت في العالم الإسلامي، وقـد كـانوا يـرددون كـل حين مـا قالـه الأوزاعي عنه، وأنه ذكر أبا حنيفة فقال: (لا أعلمـه إلا ينقض عـرى الإسـلام) (1)، أو ما قاله ابن عون عنه: (مـا ولـد في الإسـلام مولـود أشـأم على أهل الإسلام من أبي حنيفة)(2)

ومن المؤلفات التي ألفت في ذلك الوقت في تكفـير الدولـة العثمانية ما كتبه الشـيخ سـليمان بن عبـد اللـه بن محمـد بن عبـد الوهاب (ت 1233 هـ) الذي ألف رسالة يثبت فيهـا ردة وكفـر من أعـان العثمـانيين وظـاهرهم، وإن كـان سـلفيا، وليس قبوريـا، وعنوانها [الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك]، وقد أطلـق فيهـا على الجيش العثماني لقب (جنود القباب والشرك) (3)

1() المرجع السابق ، (1/186)

2() المرجع السابق ، (1/189)

3() المرجع السابق ، (8/57-69)

وقد ذكر الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري سبب تأليفه الرسالة، فقال: (سبب تصنيف الدلائل هو أن الشيخ سليمان، صنفها لما هجمت العساكر التركية على نجد في وقته، وأرادوا اجتثاث الدين من أصله، وساعدهم جماعة من أهل نجد، من البادية والحاضرة، وأحبوا ظهورهم)[1]

وبناء على ذلك، فإن كل الألفاظ الواردة في الكتاب، كأهل الشرك والمشركين وعباد القبور والقباب وجنود الشرك وغيرها، إنما يراد بها الأتراك.

ومن الأمثلة على ذلك قوله: (اعلم، رحمك الله: أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم، خوفا منهم ومداراة لهم، ومداهنة لدفع شرهم، فإنه كافر مثلهم، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم، ويحب الإسلام والمسلمين؛ هذا إذا لم يقع منه إلا ذلك، فكيف إذا كان في دار منعة واستدعى بهم، ودخل في طاعتهم وأظهر الموافقة على دينهم الباطل، وأعانهم عليه بالنصرة والمال ووالاهم، وقطع الموالاة بينه وبين المسلمين، وصار من جنود الشرك والقباب وأهلها، بعد ما كان من جنود الإخلاص والتوحيد وأهله؟ فإن هذا لا يشك مسلم أنه كافر، من أشد الناس عداوة لله ورسوله) [2]

وقال: (فكيف بأهل البلدان الذين كانوا على الإسلام، فخلعوا ربقته من أعناقهم، وأظهروا لأهل الشرك الموافقة على دينهم، ودخلوا في طاعتهم وآووهم ونصروهم، وخذلوا أهل التوحيد، وابتغوا غير سبيلهم وخطئوهم، وظهر فيهم سبهم وشتمهم وعيبهم والاستهزاء بهم، وتسفيه رأيهم في ثباتهم على التوحيد، والصبر عليه وعلى الجهاد فيه، وعاونوهم على أهل التوحيد طوعا لا كرها، واختيارا لا اضطرارا. فهؤلاء أولى بالكفر والنار، من الذين تركوا

1() المرجع السابق، (9/157)

2() الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك، (ص5

الهجـرة شـحا بـالوطن، وخوفـا من الكفـار، وخرجـوا في جيشـهم مكرهين خائفين)[1]

وقال: (فهذه الآية مطابقة لحال المنقلبين عن دينهم في هذه الفتنة، يعبدون الله على حرف، أي على طرف، ليسـوا ممن يعبـد الله على يقين وثبات، فلما أصابتهم هذه الفتنة انقلبـوا عن دينهم، وأظهـروا موافقـة المشـركين، وأعطـوهم الطاعـة، وخرجـوا من جماعة المسلمين إلى جماعـة المشـركين، فهم معهم في الآخـرة كمـا هم معهم في الـدنيا، فـخسروا الـدنيا والآخـرة، ذلـك هـو الخسران المبين)[2]

وقال يصف العثمانيين وجيشهم: (فـأخبر تعـالى خـبرا بمعـنى الأمر بولاية الله ورسوله والمؤمنين، وفي ضمنه النهي عن مـوالاة أعداء الله ورسوله والمؤمـنين، ولا يخفى أي الحـزبين أقـرب إلى الله ورسوله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، أأهـل الأوثـان والقبـاب.. واللواط والخمور والمنكرات، أم أهل الإخلاص وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؟ فالمتولي لضدهم واضع للولاية في غـير محلهـا، مسـتبدل بولاية الله ورسـوله والمؤمـنين المقيمين للصلاة المـؤتين للزكـاة ولاية أهل الشرك والأوثان والقباب) [3]

ومثلـه الشـيخ عبـد اللطيـف بن عبـد الـرحمن بن حسـن (ت 1293 هــ) الـذي كتب رسـالة إلى الشـيخ حمـد بن عـتيق بشـأن استعانة عبد الله بن فيصل في ذلك الوقت بالعثمـانيين ضـد أخيـه سعود بن فيصل عندما تغلب عليه في معركة (جودة) في حـوادث عام 1289 هـ قال فيها: (وعبـد اللـه لـه ولايـة وبيعـة شـرعية في الجملة، ثم بدا لي بعد ذلك أنه كاتب الدولـة الكـافرة واستنصـرها واستجلبها على ديار المسلمين فصار كما قيـل: والمسـتجير بعمـرٍ

---

[1] المرجع السابق، (ص8-9)

[2] المرجع السابق، (ص15)

[3] المرجع السابق، (ص19)

عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار، فخاطبته شفاهاً بالإنكار والبراءة، وأغلظت له بالقول، وإن هذا هدم لأصول الإسلام وقلع لقواعده، وفيه، وفيه، وفيه، مما لا يحضرني الآن تفصيله، فأظهر التوبة والندم، وأكثر الاستغفار وكتبت على لسانه لوالي بغداد: إن الله قد أغنى ويسر وانقاد من أهل نجد والبوادي ما يحصل به المقصود إن شاء الله تعالى ولا حاجة لنا بعساكر الدولة وكلام هذا الجنس، وأرسل الخط فيما أرى وتبرأ مما جرى..وهي طويلة) [1]

وقال في دخول العثمانيين للجزيرة عام 1298 هـ: (فمن عرف هذا الأصل الأصيل ـ أي التوحيد ـ عرف ضرر الفتن الواقعة في هذه الأزمان بالعساكر التركية، وعرف أنها تعود على هذا الأصل بالهد والهدم والمحو بالكلية، وتقتضي ظهور الشرك والتعطيل ورفع أعلامه الكفرية) [2]

ومثلهم الشيخ حمد بن عتيق (ت 1301 هـ)، والذي كان من أشد السلفيين تشددا في تكفير العثمانيين، وكل من والاهم أو دافع عنهم، وقد كتب رسالة في بيان كفرهم وحرمة موالاتهم عنوانها [سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك]

وقد وصفها الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري بقوله: (وكذلك: سبب تصنيف الشيخ حمد بن عتيق [سبيل النجاة] هو لما هجمت العساكر التركية على بلاد المسلمين، وساعدهم من ساعدهم، حتى استولوا على كثير من بلاد نجد)[3]

ومما جاء في الرسالة قوله: (ومما أخبر أن أمته تقاتل الترك.. فكان من حكمة الله تعالى وعدله أن سلطهم المسلمين، لما ظهرت فيهم الملة الحنيفية، ودعوا على الطريقة المحمدية.

1() الدرر السنية، 7/184،

2() المرجع السابق، 7/ 148 – 152.

3() المرجع السابق، ج9 ص157-158.

ولكن حصل من بعضهم ذنوب، بها تسلطت هذه الدولة الكفرية [أي الدولة العثمانية])[1]

ونلاحظ هنا كيف يستخدمون الأحاديث النبوية متى شاءوا، فالحديث الذي يروونه في البخاري ومسلم، والذي يكتمونه الآن، كانوا يستخدمونه في ذلك الحين أبشع استخدام لضرب الدولة العثمانية، وهو ما رواه أبو هريرة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر)[2]

ولو أن هذا الحديث جاء في إيران، لتحول إلى سورة من سور القرآن، ولأوجبوا روايته، وخاصة مع وروده في الصحيحين، لكنهم الآن لا يكادون يذكرونه، لأنهم يتعاملون مع النصوص المقدسة وفق ما تمليه الأهواء والرغبات.

ولم يكتف الشيخ حمد بن عتيق بتلك الرسالة، بل كتب رسالة أخرى بعنوان [الدفاع عن أهل السنة والإتباع]، ألفها لبيان حكم الهجرة عن بلد استولت عليه العساكر التركية (الذين قد شاع كفرهم وتنوع فسادهم)[3]

ومن أعيان السلفية المكفرين للدولة العثمانية، ولكل من والاها، الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف (ت 1339 هـ) الذي سئل عمن لم يكفر الدولة [أي الدولة العثمانية]، فأجاب بقوله: (من لم يعرف كفر الدولة، ولم يفرق بينهم وبين البغاة من المسلمين، لم يعرف معنى لا إله إلا الله،؛ فإن اعتقد مع ذلك: أن الدولة مسلمون، فهو أشد وأعظم، وهذا هو الشك في كفر من كفر بالله، وأشرك به; ومن جرهم وأعانهم على المسلمين، بأي إعانة،

1() هداية الطريق، ص21.

2() البخاري (2928) ومسلم (2912)

3() هداية الطريق، ص73-99.

فهي ردة صريحة)[1]

أما الشيخ سليمان بن سحمان (ت 1349هـ)، فقد قال في قصيدة له [2]:

وما قال في الأتراك من وصف كفرهم فحق فهم من أكفر الناس في النحل

وأعداهم للمسلمين وشرهم ينوف ويربو في الضلال على المللْ

ومن يتول الكافرين فمثلهم ولا شك في تكفيره عند من عقلْ

ومن قد يواليهم ويركن نحوهم فلا شك في تفسيقه وهو في وجلْ

ولعل هذا الموقف هو الذي جعل ابن باديس المتأثر بالوهابية لدرجة كبيرة جدا، يختلف مع أكثر علماء الأمة في الموقف من كمال أتاتورك حين أثنى عليه حيا وميتا، فقد رثاه بعد موته بهذه الكلمات التي لم يرث بمثلها غيره، فقد قال: (في السابع عشر من رمضان المعظم ختمت أنفاس أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث، وعبقري من أعظم عباقرة الشرق، الذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب، فيحولون مجرى التاريخ ويخلقونه خلقاً جديداً ذلك هو مصطفى كمال بطل غاليبولي في الدردنيل وبطل سقاريا في الأناضول وباعث تركيا من شبه الموت إلى حيث هي اليوم من الغنى والعز والسمو)[3]

وقد برر ابن باديس هذا الموقف بقوله: (إن الإحاطة بنواحي

1() الدرر السنية، ج10 ص429.

2() ديوان ابن سحمان، ص 191.

3() آثار ابن باديس:4/213.

البحث في شخصية أتاتورك (أبي الترك) مما يقصر عنه الباع، ويضيق عنه المجال، ولكنني أرى من المناسب أو من الواجب أن أقول كلمة في موقفه إزاء الإسلام. فهذه هي الناحية الوحيدة من نواحي عظمة مصطفى أتاتورك التي ينقبض لها قلب المسلم ويقف متأسفاً ويكاد يولي مصطفى في موقفه هذا الملامة كلها حتى يعرِّف المسؤولين الحقيقيين الذين أوقفوا مصطفى ذلك الموقف فمن هم هؤلاء المسؤلون؟.. المسؤولون هم الذين كانوا يمثلون الإسلام وينطقون باسمه، ويتولون أمر الناس بنفوذه، ويعدون أنفسهم أهله وأولى الناس به)[1]

ثم يحدد هؤلاء، والذين اعتبر أتاتورك بالرغم من توجهه العلماني أو الإلحادي أفضل منهم، فذكر أنهم (خليفة المسلمين شيخ إسلام المسلمين ومن معه من علماء الدين، شيوخ الطرق المتصوفون، الأمم الإسلامية التي كانت تعد السلطان العثماني خليفة لها)[2]

ولم يكتف السلفية بذلك التكفير العام للدولة العثمانية، بل راحوا يكفرون سلاطينها ــ لا بسبب استبدادهم وظلمهم ــ وإنما بسبب انتمائهم للطرق الصوفية.

فمن سلاطين العثمانيين الذين كفروهم: السلطان أورخان الأول (ت 761 هـ)، وهو السلطان الثاني لهذه الدولة بعد أبيه عثمان (عثمان الأول ت 726 هـ)، وسبب تكفيرهم له هو أنه كان صوفياً على الطريقة البكتاشية[3].

ومنهم السلطان محمد الثاني (الفاتح)(ت 886 هـ)، وسبب تكفيرهم له أنه (بعد فتحه للقسطنطينية سنة 857 هـ، كشف موقع قبر (أبي أيوب الأنصاري) وبنى عليه ضريحاً، وبنى بجانبه

---

[1] () المرجع السابق:4/213.

[2] () المرجع السابق، 4/213.

[3] () انظر (تاريخ الدولة العلية العثمانية) ص 123، و(الفكر الصوفي) ص 411.

مسجداً وزين المسجد بالرخام الأبيض وبنى على ضريح أبي أيـوب قبة، فكـانت عـادة العثمـانيين في تقليـدهم للسـلاطين أنهم كـانوا يـأتون في مـوكب حافـل إلى هـذا المسـجد ثم يـدخل السـلطان الجديد إلى هذا الضريح ثم يتسلم سيف السـلطان (عثمـان الأول) من شيخ (الطريقة المولوية)(1)

ومنهم السـلطان سـليمان القـانوني (ت 974 هــ)، وسـبب تكفيرهم له أنه (لما دخل (بغداد) بنى ضريح أبي حنيفة وبنى عليه قبة، وزار مقدسات الرافضة في (النجف) و(كربلاء) وبنى منها مـا تهدم)(2)

ومنهم السلطان سـليم خـان الثـالث (ت 1223 هــ)، والـذي قاله فيه الإمام سعود بن عبـد العزيـز في رسـالته لـوالي بغـداد - والـتي سـبق ذكرهـا-: (وحـالكم وحـال أئمتكم وسـلاطينكم تشـهد بكذبكم وافترائكم في ذلك - أي في ادعائهم الإسـلام - وقـد رأينـا لما فتحنا الحجرة الشـريفة على سـاكنها أفضـل الصـلاة والسـلام عام (اثنين وعشرين) رسالة لسلطانكم (سليم) أرسـلها ابن عمـه إلى رسـول اللـه ﷺ يسـتغيث بـه ويـدعوه ويسـأله النصـر على الأعداء، وفيها من الذل والخضوع والخشوع ما يشهد بكذبكم)(3)

ومنهم السلطان عبد الحميد الثاني (1327 هـ)، وقـد كفـروه بسـبب انتمائـه للطريقـة (الشـاذلية)، ويـذكرون في مـبررات تكفيرهم له رسالة له إلى شيخ الطريقة الشاذلية في وقتـه يقـول فيها: (الحمد لله..أرفـع عريضـتي هـذه إلى شـيخ الطريقـة العليـة الشاذلية، وإلى مفيض الـروح والحيـاة، شـيخ أهـل عصـره الشـيخ محمود أفندي أبي الشامات وأقبل يديه المباركتين، راجيـاً دعواتـه الصـالحات، سـيدي: إنـني بتوفيـق اللـه تعـالى أدوام على قـراءة

1() الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، 1/64.

2() الدولة العثمانية دولة إسلامية، 1/ 25.

3() الدرر السنية، ص 160.

الأوراد الشـاذلية ليلاً ونهـاراً، وأعـرض أنـني لا زالت محتاجـاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة)[1]

ولم تكن هـذه المواقـف علميـة فقـط، بـل كـان لهـا أبعـادا سياسية استغلها الاستعمار أبشـع اسـتغلال، وفي أحلـك الفـترات التي مرت بها الدولة العثمانية، ومن الأمثلة على ذلك[2]، أنـه بعـد اندلاع الحـرب العالميـة الأولى في أغسـطس سـنة 1914م، وفي شهر نوفمبر وافـق الشـيخ مبـارك بن صـباح الصـباح (ت 1915)، والذي كان حينها موظفا عثمانيا على الوقوف مع بريطانيا للهجـوم على أم قصر، وصفوان، والبصـرة، وتم إعلان الحمايـة البريطانيـة على الكـويت بصـورة رسـمية، لتشـكل الحـرب العالميـة بـذلك منعطفا تاريخيا مهما في تاريخ المنطقة[3].

وسبب ذلك هو أن البريطانيين وعدوا عرب الجزيرة بأنهم إذا وقفوا مع انجلترا في هذه الحرب ضد الخلافة العثمانية (ستضـمن انجلترا عدم حدوث تدخل داخل شـبه الجزيـرة العربيـة، وسـتقدم للعـرب كـل مسـاعدة ضـد العـدوان الخـارجي.. وكـان ريجينالـد وينغنيت ـ المندوب السامي البريطاني في مصر ـ يـؤمن بتحـريض القبائل في شبه الجزيـرة العربيـة لمصـلحة بريطانيـا، وكـان يحث على عامل فوري منذ بداية الحرب بهـدف إغـراء العـرب بالابتعـاد عن الدولـة العثمانيـة وقـد كتب بتـاريخ 14 /ـ 1 /ـ 1915م إلى كلايتون قائلا: أخشى أن يكون العمـل البريطـاني قـد تـأخر طـويلا حتى إني بدأت أشك في إمكانية نجاحنا الآن في فصل العرب عن العثمانيين)[4]

1() انظر (إمام التوحيد) لأحمد القطان ومحمد الزين ص 148.

2() استفدنا هذا المثال والوثـائق المرتبطـة بـه من مقـال بعنـوان: الاحتلال البريطـاني للبصرة سنة 1914م، وموقف علماء السنة ومراجع الشيعة، د. حاكم المطيري.

3() الكويت دراسة سياسية لحسن الإبراهيم 66 .

4() العلاقات بين الكويت ونجد 153-157، وتاريخ الكويت لخزعل 2/153-156.

وقـد رد مبـارك بتـاريخ 18/ـ 8 سـنة 1914م على خطـاب الوكيل السياسي البريطاني الـذي أخـبره بانـدلاع الحـرب برسـالة جاء فيها: (وإني معكم ومعي جميع العشائر الذين رأيتموهم، وبكل اجتهادنا ورجالنا وسفننا تحت أمركم)

وهكذا تحالفوا مع ابن سعود بشكل مباشـر لمواجهـة الدولـة العثمانيـة على أرضـها، وعلى يـد موظفيهـا في الجزيـرة العربيـة، فأرسلت في شهر نوفمبر من السـنة نفسـها [الكـابتن شكسـبير] في مهمة سـرية إلى ابن سـعود للاتصـال بـه شخصـيا، ومرافقتـه للتأثير عليه ليقف مع الحلفاء، كما استخدمت مبارك الصـباح أيضـا لتحقيق هذا الغرض، وقـد قـام مبـارك بإرسـال رسـالة بـإملاء من الوكيل السياسي في الكويت إلى ابن سعود قال فيها: (إن الدولـة البهية - بريطانيا - تبغي منا ومنكم المسـاعدة الكاملـة للتـأثير في أصدقائنا وعشائرنا والقبائل التابعـة لنـا، وأن نعـرّف شـريف مكـة وابن شـعلان بغوايـة الدولـة الجرمانيـة، وسترسـل الدولـة لكم الكـابتن شكسـبير المعـروف عنـد العـرب جميعـا حـتى يعـرفكم بمقاصـد الدولـة البهيـة ونياتهـا، وهي تبغي منكم أنت والشـيوخ المقيمين على شـط البحـر وسـاحل الخليج ألا تفعلـوا شـيئا من الحركات حتى بعد نشوب الحرب)(1)

وقـد وافـق ابن سـعود على رسـالة مبـارك بـالوقوف مـع بريطانيا، وأن أمـره تـابع لأمـر مبـارك، وأنـه لا يخـالف أمـره، وأن موقفه مع بريطانيا معروف، وأنه لا يتخذ أمرا إلا بعد إعلام وكيلهـا السياسي في الكويت(2).

وقـد عـبر فـرومكين عن هـذا بقولـه: (لقـد عـبر ابن سـعود لشكسبير، كما فعل عبد الله بن الشريف حسين في القاهرة، عن استعداده لكي تصبح إمارته دولة زبونة لبريطانيا.. ومـا إن نشـبت الحرب حتى رأت الهند نفسـها حـرة في دعم صـاحبها ابن سـعود، ووجدت في الوقت ذاته أن القاهرة كانت تدعم منافسه في مكة،

1() الاحتلال البريطاني للبصرة سنة 1914م، وموقف علماء السنة ومراجع الشيعة.

2() العلاقات بين الكويت ونجد، للسعدون، 158.

كانت الهند تعتقد أنه إذا ما انقلب العرب يوما على الحكومة العثمانية فيجب أن يقود هذه الثورة ابن سعود، ولكن في ديسمبر 12/1914م رأى نائب الملك في الهند أن عملا كهذا سابق لأوانه، بينما اتخذ كيتشنر وأتباعه في الخرطوم نظرة معاكسة فتطلعوا إلى الشريف حسين باعتباره حليف بريطانيا الهام)(1)

وللأسف، فإن كل هذا لا يذكر، ويذكرون فقط الدولة الصفوية بكونها هي وحدها من تسبب في سقوط الدولة العثمانية، وحرم المسلمين من فتح العالم، مع العلم أنه في ذلك الوقت الذي قامت فيه تلك التحالفات بين العرب والإنجليز، وخصوصا في المناطق التي كان ينتشر فيها الوهابيون، على مواجهة الدولة العثمانية، رفض علماء الشيعة ذلك التحالف، وأصدر علماء النجف فتواهم الشهيرة بذلك، يحرمون فيها الوقوف مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية، ويوجبون (الاتفاق مع المسلمين في درء خطر هذا الغزو، لأن حكم الدين لا يفرق بين الإيراني والعثماني)(2)

ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا كل حين يرفضون الدخول في أي تحالفات مع الغزاة في وجه الدولة العثمانية، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، ومنها أن علماء الشيعة في النجف، كربلاء، الكاظمية ومختلف البلاد العراقية دعو إ إلى اعلان الجهاد فور تعرّض العراق لهجوم القوات البريطانية، وقد كتبوا في ذلك الفتاوى يعلنون فيها الجهاد المقدس والنفير العام(3).

وقد كانت تلك الفتاوى والبيانات تتلى علناً في المساجد، وينادى بها في الأسواق، وأخذ الوعاظ والخطباء يلهبون مشاعر الناس بخطبهم الحماسية، ويؤكدون فيها أن الانكَليز إذا احتلوا

1() ولادة الشرق، 119 .

2() نقلا عن : الاحتلال البريطاني للبصرة سنة 1914م، وموقف علماء السنة ومراجع الشيعة، بقلم د0 حاكم المطيري.

3() أحمد الحسيني: الامام الثائر السيد مهدي الحيدري، ص: 29.

العراق فسيهدمون مساجده وعتباته المقدسة ويحرقـون القـرآن، وينتهكون حرمـات النسـاء، ويـذبحون الأطفـال والشـيوخ، فـاجتمع الناس في الساحات والميادين وصحون العتبات ينتظـرون أوامـر علمـائهم، فأصـدر العلمـاء أمـراً بوجـوب الـدفاع عن كـل مسـلم، وأبرقوا بهذا المضمون إلى العشائر المحيطة بالبصـرة، ثم تـوالت الاجتماعات، وألقيت الخطب المثيرة(1).

ففي الكاظميـة، وفي المنـبر وقـف السـيد مهـدي الحيـدري، فوعظ وحرّض، وأعلن خروجه بنفسه إلى ميـدان الحـرب(2)، أمـا النجف فوصلها وفد من بغداد مؤلف من بعض الشخصيات كمحمد فاضل باشا الداغسـتاني، وشـوكت باشـا، والشـيخ حميـد الكليـدار وغيرهم لمحادثة المجتهدين الكبار في هذا الأمر(3).

ولدى وصولهم استقبلوا بحفاوة بالغة، ثم عقد اجتمـاع حافـل في جـامع الهنـدي حضـره الكثـير من العلمـاء والوجهـاء ورؤسـاء العشائر، وخطب فيه السيد محمـد سـعيد الحبـوبي، والشـيخ عبـد الكـريم الجزائـري والشـيخ محمـد جـواد الجـواهري، حيث ذكـروا وجــوب مشــاركة الحكومــة المســلمة في دفــع الكفّــار عن بلاد الإســلام(4)، ثم قــام مبــدر آل فرعــون رئيس عشـيرة آل فترلـة فألقى كلمة قال فيها: (إن الاتراك إخواننا في الدين، وواجب علينا

1() د. علي الوردي: لمحات اجتماعيـة من تـاريخ العـراق الحـديث، ج4/ ص: 127، نقلا عن: حركة الجهاد وموقف النجف ضد الغزو الأجنبي للعراق (1332 – 1333هـ / 1914م)، كامل سلمان الجبوري، مؤسس المتحف الوثائقي لثورة العشرين، في النجف ومديره سابقاً – لبنان، وهكذا سائر النصوص التالية.

2() محمد حسن آل ياسين: مقابر قريش أو الكاظمية، مجلة الأقلام البغداديـة، س1/ ع 3، 1964.

3() يــذكر د. علي الــوردي في لمحاتــه ج4/ ص: 127: (ان أهم مــا كــان يخــالج ذهن الحكومة – يقصد العثمانية – يومذاك، هو كيـف يمكن تحـريض الشـيعة للانضـمام إلى حركـة الجهاد، وكان أول ما فكرت فيه الحكومة في هذا الشأن هو ارسـال وفـد إلى النجـف، وممـا يجدر ذكره ان الشيعة لا يجيزون الجهاد إلاَّ إذا كان بأمر أو موافقة من الامام المعصوم، غــير انهم يجيزون الجهاد في حالة تعـرض البلاد الاسـلامية لخطـر مهاجمـة الكفـار لهم، وهم عنـد ذلك يطلقون عليه اسم [الدفاع])

مساعدتهم في طرد الأعداء من بلادنا) (1)

وبعـدها ذهب الشـيخ حميـد الكليـدار إلى الكوفـة لمقابلـة المرجـع الـديني الأعلى السـيد محمـد كـاظم الطباطبـائي الـيزدي وعرض أمر الجهاد عليه، فوافق السيد الـيزدي على إرسـال ولـده السيد محمد لينوب عنه في استنهاض العشائر للجهاد.

وفي 16 كـانون الأول 1914م صـعد الـيزدي المنـبر في الصحن الحيدري وخطب في الناس خطبة حثّهم فيها على الـدفاع عن البلاد الإسلامية، وأوجب على الغني العاجز بـدناً، ان يجهّـز من ماله الفقير القوي. فكان لكلامه صدى رددته الأطراف(2)

وهكذا توجّه من النجف إلى ساحة الحرب عن طريق الفرات عـدد من المجتهـدين مـع أتبـاعهم، وصـاروا يـنزلون في المـدن والعشائر الواقعة في طريقهم بغية تحريضهم على الجهاد، فكـانت أول مجموعة من المجاهدين برئاسة السيد محمد سعيد الحبـوبي، وكان أشد المجاهدين حماسـاً للجهـاد، فقـد خـرج مـع جماعـة من أصحابه من النجـف سـنة 1914م في مـوكب رهيب، وبعـد نزولـه في كثير من المـدن والعشـائر وصـل الناصـرية، وكـان فيهـا اثنـاء مكوثه دائب الحركة، حيث يتجوّل بين العشـائر المجـاورة ويرسـل اعوانه من شبان الطلبة كالشيخ باقر الشبيبي وعلى الشرقي إلى العشائر البعيدة لحثهم على الانضمام إلى حركة الجهاد.

أما في بغداد فقد كان آية الله محمـد الخالصـي (ولـد 1306 هـ) من أشد الناس حماسة للجهـاد في الكاظميـة، وقـد كتب في ذلك رسالة بعنوان [الحسام البتار في جهاد الكفّار] نشرتها جريدة [صدى الاسلام] على حلقات متتابعة، ولم يكتف الخالصي بهذا، بل أصـدر حكمـاً أوجب فيـه على النـاس صـرف جميـع أمـوالهم في

4() عبد الرحيم محمد علي: الجهاد ضد الانكَليز أو النفير العـام 1914م – مخطـوط – ضمن موسوعته [فصول من تاريخ النجف]، ج4.

1() عبد الشهيد الياسري: البطولة في ثورة العشرين، ص: 68 -69.

2() محمد رضا الشبيبي: في مسيرة النضال – مجلة البلاغ الكاظمية، س4/ع5.

الجهاد حتى تـزول غائلـة الكفّـار، ومن امتنـع عن بـذل مالـه وجب أخذه منه كرها.

وهكذا ضـرب علمـاء الشـيعة وعـوامهم أحسـن الأمثلـة على الجهاد في ذلك الوقت، على الرغم من كون العثمـانيين اسـتعملوا الكثير من العلماء لتكفيرهم، ومن الأمثلة على ذلـك مـا عـبر عنـه الشـيخ ابن عابـدين الدمشـقي الحنفي بقولـه: (وقـد أكـثر مشـايخ الإسلام من علماء الدولة العثمانية لا زالت مؤيدة بالنصـرة العليـة في الإفتاء في شأن الشيعة المذكورين وقد أشبع الكلام في ذلـك كثـير منهم وألفـوا فيـه الرسـائل وممن أفـتى بنحـو ذلـك فيهم المحقق المفسر أبو السعود أفندي العمادي ونقل عبارتـه العلامـة الكواكـبي الحلـبي في شـرحه على منظومتـه الفقهيـة المسـماة الفرائـد السـنية ومن جملـة مـا نقلـه عن أبي السـعود بعـد ذكـر قبائحهم على نحو مـا مـر فلـذا أجمـع علمـاء الأعصـار على إباحـة قتلهم وأن من شـك في كفـرهم كـان كـافرا فعنـد الإمـام الأعظم وسفيان الثوري والأوزاعي أنهم إذا تـابوا ورجعـوا عن كفـرهم إلى الإسلام نجوا من القتل ويرجى لهم العفـو كسـائر الكفـار إذا تـابوا وأما عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبـل وليث بن سـعد وسـائر العلماء العظام فلا تقبل توبتهم ولا يعتبر إسلامهم ويقتلون حدا إلخ فقد جزم بقبول توبتهم عند إمامنـا الأعظم وفيـه مخالفـة لمـا مـر عن المجموعة ويظهر لي أن هذا هو الصواب وهذه مسـألة مهمـة ينبغي تحريرها والاعتناء بها زيادة على غيرها فقد وقـع فيهـا خبـط عظيم وكان يخطر لي أن أجمع فيها رسالة أذكـر فيهـا مـا حررتـه في حاشيتي على الدر المختار وغـيره فلا بـأس أن أذكـر في هـذا المقام ما يوضح المرام إسعافا لأهل الإسلام من القضاة والحكـام وإن استدعى بعض طول في الكلام فنقول وبالله التوفيق)(1)

6 ـ هل فرض الصفويون التشيع في إيران؟

من أهم الادعـاءات الـتي يطرحهـا الطـائفيون ادعـاؤهم أن التشيع في إيـران، لم يكن لـه من سـبب سـوى الصـفويين، وأنهم

(1) العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية (1/ 103)

فرضوه فرضا، وهم يرددون هذا، ويعتبرونه من جرائم الصفوينن، مع إقرارهم أن كل المذاهب فرضت عن طريقة السياسة، إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ومع علمهم أيضا بأن الكثير من السنيين كانوا يعيشون في ظل الحكم الصفوي، ولم يجبروا على التشيع، وعلمهم كذلك بأن التشيع كان في إيران منذ العصر الأول.

والعجيب في تناقضاتهم، أنهم يذكرون أن إيران كانوا مجوسا، وأنهم بعد الفتح الإسلامي لم يسلموا حقيقة، وإنما اتخذوا التشيع ذريعة لحرب الإسلام، ولذلك يسمونهم بالمجوس، ولست أدري كيف تستقيم هذه التهم جميعا في محل واحد.

لكن داء الطائفية جعلهم يفكرون بطريقة غير عقلانية، ويستعملون كل ألوان الخدع والحيل ليتلاعبوا بها على عقول أتباعهم الذين ألغوا عقولهم، فصاروا يفكرون ويقررون بدلهم.

وحتى لا تكون أحاديثنا مجرد دعاوى؛ فسنذكر هنا ما طرحناه من حقائق على سبيل الإجمال.

أ ـ أن ذلك في حال صحته ليس خاصا بالصفويين:

وأولها أن ذلك في حالة صحته، ليس بدعة ابتدعها الصفويون، بل إن كل المذاهب الإسلامية كان للساسة دور فيها، وذلك ما يجعل الطائفيين في الخيار بين أن ينكروا على الجميع، ابتداء من الحركة السلفية التي فُرضت بالقوة في الحجاز وغيرها، أو أن يجعلوا الصفويين في حل من أمرهم، ذلك أنهم لم يمارسوا إلا ما مارسه كل من سبقهم، أو جاء بعدهم، فلا يصح لأحد أن ينكر على قوم جريمة، ويعاقب آخرين عليها.

ومن الشواهد على دور الساسة في نشر المذاهب الفقهية، ما ذكره ابن حزم عن أسباب انتشار المذهب الحنفي والمالكي في كثير من البلاد الإسلامية، فقد قال: (مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة؛ فإنه لما ولي قضاء القضاة أبو يوسف كانت القضاة من قِبَله، فكان لا يولي

قضـاء البلاد من أقصـى المشـرق إلى أقصـى أعمـال إفريقيـة إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه، ومذهب مالك بن أنس عنـدنا؛ فـإن يحـيى بن يحـيى كـان مكينـاً عنـد السـلطان، مقبـول القـول في القضاة، فكان لا يلي قاضٍ في أقطارنا إلا بمشـورته واختيـاره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كانً على مذهبه، والناس سـراع إلى الـدنيا والرياسـة، فـأقبلوا على مـا يرجـون بلـوغ أغراضـهم بـه، على أن يحيى بن يحيى لم يلِ قضاء قط ولا أجاب إليـه، وكـان ذلـك زائـداً في جلالته عندهم، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم، وكذلك جرى الأمر في أفريقية لما ولي القضاء بها سحنون بن سعيد، ثم نشـأ النـاس على ما انتشر)[1]

وهكذا يقال في الدولة العثمانية التي تبنت المـذهب الحنفي، فقد كان المذهب الرسمي لها، ولهذا لا تزال دول كثيرة تعتمد هذا المذهب في أحوالها الشخصـية تـأثراً بـالفترة العثمانيـة السـالفة، والـتي امتـدت من عـام (699 هــ إلى 1342 هــ - 1299 م إلى 1924 م)

والأمثلة على ذلك أكثر من أن نحصرها فيما ذكرنـا، والعجيب أن السلفية أنفسهم يقرون بذلك، ولهذا سأنقل بعض الشواهد من بعضهم، وهو من الغارقين في مستنقع الطائفية حتى النخاع، فقـد ذكـر في كتابـه [التعصـب المـذهبي في التـاريخ الإسـلامي خلال العصر الإسلامي] الكثير من الأمثلة على الدور السياسي في نشر المذاهب الفقهية.

وسننقل نص ما قالـه بطولـه، حـتى يعـرف الطـائفيون مـدى ازدواجيـة المعـايير الـتي يتعـاملون بهـا، فقـد قـال: (كـانت معظم الدول الإسلامية التي شهدها العصـر الإسـلامي متمذهبـة متعصـبة للمذاهب التي تبنتّها، مع اختلاف درجة التعصب من دولـة لأخـرى، فالدولة العباسية اتخذت الفقه المذهب الحنفي مذهبا رسـميا لهـا وانتصرت له، لكنها في أصول الدين لم تتبن مذهبا معينا لها، وإنما كانت تنتصر للمذهب الذي يتبناه خليفة الوقت، ففي زمن الخليفـة المأمون والمعتصم والواثق (198-232هـ)، كانت متعصبة لمذهب

[1] () رسائل ابن حزم، (2 / 229).

المعتزلة تعصبا سافرا، اضطهدت من أجله معارضيها بلا شفقة، وفي عهد الخليفتين القادر بالله (381-422هـ) وابنه القائم بأمر الله (422-567هـ)، كانت على مذهب الحنابلة وأهل الحديث في الأصول، فتعصّبت له وضيّقت على معارضيه، ولكنها في زمن الوزير السلجوقي نظام الملك(ت 485هـ) وبتأثير منه انتصرت للمذهب الأشعري وضيقت على خُصومه.. ومنها أيضا الدولة الأيوبية بمصر والشام واليمن (569-648هـ)، تمذهبت في الأصول بالمذهب الأشعري، وفي الفروع بالمذهب الشافعي، وتعصبت لهما علانية، ومكّنت لهما في الدولة، وضيّقت على مخالفيها من الحنابلة وأهل الحديث.. وكذلك الدولة المملوكية بمصر والشام (648-923هـ)، فقد سارت على نهج الدولة الأيوبية، في التمذهب بالأشعرية، وتعصبت لها تعصبا شديدا، حتى أنه كان من يجرؤ على مخالفتها علانية ــ زمن المؤرخ المقريزي(ت 855هـ) ـ يكون مصيره القتل ـ وأما دول المغرب الإسلامي، فمنها الدولتان الخارجيتان: المدرارية والرستمية، تمذهبت الأولى بالمذهب الصُفري، والثانية بالمذهب الإباضي، وكل منهما تعصب لمذهبه، ومنها الدولة الزيرية، فإنها تمذهبت بالمذهب المالكي عندما انفصلت عن الدولة العبيدية الفاطمية نحو سنة 434هـ، وانتصرت له انتصارا كبيرا، وفرضته على رعيتها،و تعصّبت على غيره من المذاهب.. ومنها أيضا الدولة المرابطية (453-541هـ)، تمذهبت في الفروع بالمذهب المالكي، وتمذهبت في الأصول بمذهب السلف وأهل الحديث، وانتصرت لهما انتصارا كبيرا، وتعصبت على من يُخالفهما من المتكلمين، والفلاسفة، والصوفية.. ومنها الدولة الموحدية (441-668هـ)، تمذهبت بالأشعرية في الأصول، وانتصرت لها انتصارا كبيرا، وتعصّبت على المالكية تعصبا زائدة، وحاربت التمذهب عامة، واشتدت في التعصب على خُصومهم المرابطين، فكفّرتهم واستباحت دماءهم وأعراضهم)[1]

وما دام الأمر بهذه الصفة، وأنه لا تخلو دولة من الدول من

---

[1] التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي خلال العصر الإسلامي، مظاهره ، آثاره ، أسبابه ، علاجه، د. خالد كبير علال، دار المحتسب، 1429/ 2008، ص133.

اعتماد مذهب من المذاهب، بما فيها الدولة العثمانية نفسها؛ فلم العتب على الدولة الصفوية في ذلك، فإن كان جريمة فهم جميعا شركاء في الجريمة، ولا يصح أن يعاقب مجرم، ويُترك آخر؟

ب ـ أن التشيع كان في إيران قبل الصفويين:

وهي من الحقائق التي لا يشك فيها أحد من المنصفين، ذلك أن كبار علماء الشيعة كانوا من إيران، ولذلك فإن وجود التشيع فيها قديم، ولم يبدأ مع الصفويين، وربما كان للصفويين دور في تنشيط حركة التشيع، ولكنها ليست هي التي فرضته، بدليل وجود السنيين إلى الآن، وفي المناطق التي حكمها الصفويون.

أما اعتناق الكثير من الناس للتشيع بسبب كون الصفويين قد تحولوا من المذهب السني إلى الشيعة، فهذا شيء طبيعي، والناس على دين ملوكهم كما يقال، ثم ما المانع أن تكون القناعة التي حصلت للصفويين حصل مثلها لسائر الذين تشيعوا؟

بالإضافة إلى ذلك، فإن الطائفيين أنفسهم يذكرون أن التصوف قنطرة للتشيع، وقد كان التصوف في ذلك الحين نشيطا، ولم يكن هناك مانع من تحول أي طريقة من الطرق برغبة مريديها إلى التشيع، خاصة إن وجدوا دعاة أكفاء لذلك.

والدليل على ذلك أن الفاطميين استطاعوا بدعاة محدودين، ومن غير سلاح أن يجندوا قبائل مغربية كبيرة لصفهم، ويقيموا دولة كاملة، وبأساليب بسيطة، فما المانع في أن تكون الحركة الشيعية نشطت بفعل الدعاة، لا بفعل الساسة؟

وقد ذكر الشيخ علي الكوراني مدى انتشار التشيع في إيران قبل الدولة الصفوية، والعوامل المساعدة على ذلك، ولعله هو السبب الذي جعل الصفويين يعتنقون المذهب الشيعي، حتى يكسبوا الرعية، أو لعله قناعة حصلت لهم من دون أن يكون لذلك أي أغراض سياسية، فقال: (انتشر التشيع في اليمن والكوفة والشام والعالم، وكان الغالب على إيران التسنن، وفيها شخصيات وبقاع شيعية، وبهذا المعنى فإن التشيع في إيران قديم من مطلع الإسلام، وقد غرس بذرته المباركة سلمان الفارسي عندما قام

بدوره الواسع في فتح إيران، ثم عندما حكمها من المدائن عاصمة كسرى، وساهم مع سلمان في نشر التشيع كبار الصحابة كحذيفة وعمار والعشرات من تلاميذ علي ممن شاركوا في فتح العراق وإيران وبلغوا فيها الدين)[1]

وهكذا بعد عصر الصحابة، وما حصل من مأساة كربلاء، والتي كانت سببا في انتشار التشيع في كثير من البلاد الإسلامية، يقول الكوراني: (ثم نصل إلى ثورة التوابين، وبعدها ثورة المختار للأخذ بثار الحسين، فنرى كثرة الإيرانيين المشاركين فيها، حتى سماهم الأمويون الكيسانية، نسبة إلى كيسان الفارسي، الذي كان من أصحاب المختار الخاصين.. ثم نصل إلى تأسيس الأشعريين الشيعة مدينة قم، في عصر الإمام زين العابدين، وانتقال العلماء والرواة المضطهدين إليها، وسرعان ما عمرت وامتلأت بالشيعة، ونشطوا لنشر التشيع في إيران.. ثم نصل إلى مجئ الإمام الرضا إلى إيران، والهزة العميقة التي أحدثها في عقيدة الإيرانيين وأفكارهم، والتلاميذ الذين تخرجوا عليه، وتأثروا به.. ثم نصل إلى دولة الشيعة الزيديين في شمال إيران التي دامت أكثر من قرن.. ثم نصل إلى أصحاب الأئمة من أهل البيت، فنجد كثرة منهم من مناطق إيران المختلفة، ومن كابل، وبلخ، وبخارى، وسمرقند، والشيشان، والكرج أي جورجيا، ومدن آذربيجان، وتركيا.. ثم نصل إلى حركة البويهيين وكانوا طالبي ملك، لكنهم كانوا مع أكثرية جنودهم شيعة، وسيطروا على إيران، ثم العراق، وفرضوا على الخلافة العباسية الاعتراف بسلطانهم، وحقهم في تعيين الخليفة وعزله.. ثم نصل إلى موجة التشيع التي أحدثها نصير الدين الطوسي، والتي كانت استثماراً لمخزون التشيع الماضي في إيران، وإطلاقاً لموجة تشيع جديدة، تفاعلت وتنامت حتى وجدت قيادة كفوءة من الصفويين، فاستوعب التشيع كل إيران تقريباً)[2]

---

[1] () المرجع السابق، ص223.

[2] () المرجع السابق، ص224.

وهكذا كان التشيع منتشرا قبل الصفويين، وقد ساعد على الزيادة في نشاطه ـ كما يذكر الكوراني ــ الكثير من العوامل، ومنها ما عبر عنه بقوله: (كان المد الشيعي الذي أحدثه نصير الدين الطوسي قوياً، وقد ساعد على نجاحه أن الحكم المغولي طبق سياسة المذهب الشيعي في الحريات المذهبية والإعمار والخدمات، فكسب رضا الجميع، وقد استفاد السيد صفي الدين الأردبيلي شيخ الطريقة الصفوية، من هذا المد فبدا هو وأولاده بالعمل لإقامة الدولة الصفوية)[1]

ومنها (سيرة الجوينيين والسلطان محمد خدابندة وابنه بو سعيد، فقد كانت سبباً في قبول العراقيين بحكم المغول الإيلخانيين بعد بو سعيد، فحكموا العراق قرنين، وشملت دولتهم الأهواز وتبريز وهمدان وغيرها. ورضي بهم السنة العراقيون وفيهم حنابلة متعصبون، ولم يطرحوا إعادة حكم الخلافة العباسية أو غيرها، بل لم نسمع منذ سقوط الخلافة العباسية صوتاً واحداً من أهل العراق يطالب بإعادة الخلافة أو يدعو إلى مقاومة المغول، مع أنه كان في بغداد سنة متعصبون، وسبب ذلك أن السنة العراقيين ومنهم الحنابلة، طلقوا الخلافة العباسية بالثلاث غير آسفين عليها، وفضلوا عليها نمط الحكم الذي قدمه الشيعة في الحرية والبناء، بل التفوا في القرن الثامن والتاسع حول الحكام الإيلخانيين الشيعة، ووقفوا معهم أمام غزو تيمور لنك وغيره، فهم يشعرون أن المغول الإيلخانيين مسلمون عراقيون، وأنهم خير لهم من الخلافة، بينما نرى أتباع الخلافة في البلاد البعيدة يتغنون ببغداد المنصور والرشيد والمتوكل، وكأنه لا خَبَرَ عندهم بأن بغداد طلقت الخلافة بالثلاث، وأن العباسيين أنفسهم لم يطالب أحد منهم بإعادة الخلافة، مع أنهم كانوا كثرة وكان لهم نقابة في بغداد ! فقد وجدوا كغيرهم في حكم الجوينيين من الحرية والإعمار ما لم يجدوه في حكم الخلفاء)[2]

---

[1] () كيف رد الشيعة غزو المغول، الكوراني، ص 217..

[2] () المرجع السابق، ص218.

وبهذا، فإن هذه الاتهامات لا مبرر لها، وهي إن صحت، فلا ينبغي لمن يريد أن يحكم بالعدل أن يتهم قوما دون قوم، فإن كان الصفويون قد أجرموا في نشر المذهب الشيعي، فقد أجرم آل سعود في نشر المذهب السلفي، وأجرم الأيوبيون في نشر المذهب الشافعي والأشعري، وأجرم العثمانيون في نشر المذهب الحنفي والماتريدي، وهكذا تصبح كل الدول الإسلامية مجرمة، بما فيها الدول المعاصرة التي يتبنى أكثرها مذاهب بعينها يفتي على أساسها، ويدرس طلبته وأئمته بناء على أقوالها.

7 ـ أيهما كان سبب تخلف المسلمين ؟

يتفق كل الباحثين على تسمية العصر الذي حكمت فيه الدولة العثمانية العالم الإسلامية، أو ما يمكن تسميته [الدورة الاستخلافية العثمانية]، بكونها أسوأ فترات التاريخ الإسلامي، لكونها اتسمت بالضعف والانحلال في كل شيء، إلا في التفوق العسكري الذي لم يكن سوى نوع من الفرار من الذات، بإبراز العضلات أمام العالم.

ولذلك كانوا ـ طيلة تاريخهم ـ منشغلين بالصراعات الداخلية والخارجية، بغية الوصول إلى السلطنة، أو بغية توسيعها، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتطور من النواحي العلمية والتقنية.

وكان يمكن للعثمانيين، لو انتهجوا نهجها في ذلك أن يكون وضعهم ووضع العالم الإسلامي الآن مختلفا تماما، لكنهم فرطوا في الأمانة التي وكلت لهم، وحاق بهم ما نزل بالأمم من قبلها، حين تنتفخ، ثم تنفجر.

ولذلك لا حرج علينا أن نعتبرهم سببا من أسباب تخلف المسلمين، وطبعا ليسوا وحدهم في ذلك، فقد بدأ تخلف المسلمين من أول أيام الملك العضوض، حيث صار دور المسلمين حماية السطان، وعرش السلطان، وما يرضي السلطان.. ثم إبراز العضلات للعالم، والتغني بالأمجاد المزيفة، بعيدا عن القيم التي جاء بها القرآن الكريم.

ونحن لا نعفي الدولة الصفوية من كونها أيضا كانت دولة

متخلفة، وساهمت في التخلف بتبنيها لنظام الملك العضوض، ولكنا عندما نقارن بين كلا الدولتين نجد فرقا كبيرا، وأولهما وأعظمهما أن الدولة الصفوية لم تكن سوى دويلة صغيرة محدودة التأثير بخلاف الدولة العثمانية التي امتدت ولفترة طويلة في جميع البلاد الإسلامية.

وكان في إمكانها استثمار الطاقات في توجيه الأمة نحو التطور العلمي والتقني، لكنها لم تفعل ذلك، لأنها لم تكن ترى في العالم الإسلامي سوى مزرعة، تجني خيراتها، وتحصد ثمارها، كل حين، لتملأ خزائنها.. ولا تكتفي بذلك، بل تزيد عليه بإدخالها في حروب لا ناقة لها فيها ولا جمل.

والأخطر من ذلك أن العثمانيين وغيرهم من أصحاب الملك العضوض، كانوا السبب في نزع الثقة من حاكمية الشريعة، وجعلوا الشعوب أميل إلى العلمانية منها إلى الإسلام، ولذلك سرعان ما حلت العلمانية، وظهرت القوميات بعد سقوط العثمانيين، لكونهم أعطوا أسوأ الأمثلة عن نظام الحكم الإسلامي، باستخدامهم الدين وسيلة لتغطية جرائمهم، مثلما تفعل الجماعات المسلحة تماما.

ولذلك لا يمكن للإسلاميين أن يقنعوا العالم بعدالة النظام الإسلامي، ولا تحضره، ولا انبناءه على القيم، ما لم يتبرأوا منهم، ومن جميع تلك الخلافات المزورة التي سماها رسول الله ﷺ ملكا عضوضا، حتى ينزاح على الإسلام ثقل من شوهه، وملأه بالشبهات.

لكن للأسف الإسلاميون لم يفعلوا ذلك، بل نجدهم يدخلون تلك الدول المزورة في الدين، ويجعلون الإيمان بها، وتبجيلها، ركنا من أركان الدين، فلا ينتقدها أحد إلا اتهم في دينه وعرضه.

بناء على هذا سنذكر هنا بعض مظاهر التخلف العثماني، باستعراض بعض النماذج، والاكتفاء بها، لأن كل ما ذكرناه سابقا يدخل في هذا العنوان.

1 ـ التخلف الديني:

وهو أبرز نواحي التخلف، وأساسها، ذلك أن الدين تحــول في العهد العثماني، من موجه للأمة، ومصــحح لمسـيرتها إلى أداة بيـد السلطان يضرب به من شاء، ويقرب من شاء.

وهكذا تحول عالم الدين إلى مجرد خـادم بسـيط للسـلطان، ينفذ له رغباته، ويفتي له بحسب هواه، ويطوع لـه الرعيـة، ويفـتي بقتل من تمرد منها، أو حاول التخلص من الاستبداد.

ومن الأمثلة على ذلك [فخر الدين عجمي] ذلـك الـذي تـولى أخطر المناصب الدينية في العهد العثماني، منصب [شيخ الإسلام] (1)، والذي كان يدا من أيادي السلطان التي يرسلها على من شاء تقريبه أو إبعاده.

يقول بعض الباحثين في التعريف بأدواره القـذرة في تشـويه الـدين: (24 عامـا أمضـاها شـيخ الإسـلام في مخالفـة الشـريعة الإسلامية، ليرضي نزوات سـلاطين القصـر، فـأفتى بقتـل الإخـوة، وأباح معاشرة الجواري والغلمان، وأجاز سـفك دمـاء المعارضـين، وحلل التصوير للأمراء وحرمه على الرعية، وبارك استبدال قوانين أوروبا المتمردة على الدين بفتاوى فقهاء السلطان) (2)

هذه خلاصة الأعمال الجليلة التي قام بهـا هـذا المفـتي، ومن خلالها أبرز موقف الدين من تلك الجرائم الـتي كـانت تحصـل كـل حين، والتي سرعان ما تجد من يسوغها دينيا، أمـا تفاصـيلها، فقـد ذكر المؤرخون أن (فخر الدين تدرج إلى القصر في وقت كان فيه مـراد الثـاني في أشـد الحاجـة لرجـل دين يوطـد سـلطته بعـد أن طالت فترة حكمه، ودب الخلاف بين أولاده على خلافتــه، فتقــرب

1() شيخ الإسلام: يراد به المفتي الأكبر في الدولة العثمانية، وكان مقره بالآستانة وقــد نشأ هذا المنصب حين خص السـلطان محمـد الفـاتح المفـتي بهـذا اللقب سـنة 1451م، ثم أخذت مكانة المنصب تعلو حتى غدا منصبًا ذا وزن في عهد السلطان سليم الأول، وفي عهـد السلطان سليمان القانوني، غدت مشيخة الإسلام مؤسسـة إداريـة وقانونيـة مهمتهـا إرسـاء القواعد التبريرية للسياسة السلطانية عبر فتاويها واجتهاداتها.[حسان حلاق؛ عبـاس صـباغ (1999). المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية (الطبعة الأولى). بيروت: دار العلم للملايين. ص133.]

2() شيخ الإسلام العثماني.. بدعة رأس النفاق، موقع عثمانلي 29 أكتوبر 2018.

من السلطان، وعرض عليه مجموعة من الآراء الفقهية التي تمكنه من تكفير المعارضين، فوجد مراد في فخر الدين عصا يتوكأ عليها ويهش بها كل من يحاول سحب البساط من تحت قدميه)(1)

ولهذا لا غرابة أن نجد تلك الفتاوى الكثيرة من علماء العثمانيين في تكفير الشيعة، أو ذمهم، لأن الصراع حينها كان مع الصفويين، ولم يكن للسلطان بد من محاربتهم بالدين حتى يدعم محاربته لهم بالسلاح، فالدين عندهم لم يكن سوى سلاح من الأسلحة التي يشهرونها في وجه خصومهم، مثلما يفعل الآن أذنابهم عندما يهددون المخالف بفتاوى التكفير.

ومثل ذلك [زنبيلى أفندى]، والذي أطلق على على بن أحمد بن محمد الجمالى الرومى، الذى راح هو الآخر يستعمل سيف الفتوى (في تسهيل احتلال دول وإبادة مدنيين وقتال المسلمين الذين يئسوا من صلاح الحال تحت سطوة الدولة العثمانية)(2)

وقد بدأ تقربه من العثمانيين عن طريق مصاهرته شيخ الإسلام خسرو أفندى، فعينه السلطان محمد الفاتح مدرسا، ولما تولى السلطان بايزيد الثانى، عينه قاضيا على مدينة أماسيا، وقد جعله ذلك يجلس فوق بيته، وهو يمسك بزنبيل (كلمة فارسية تعني السلة) مربوطة بحبل يستقبل عن طريقها طلبات الفتوى مكتوبة في ورقة، وبجوارها قطع نقود حتى يهتم بالسؤال.

ثم سرعان ما تحول هذا الزنبيلى عام 1503 وفي عهد بايزيد الثانى إلى شيخ للإسلام ومفت للدولة العثمانية، وقد (لعب زنبيلى أفندى دورا بارزا في عهد سليم الأول، بعدما سخر مؤسسة الفتوى لخدمة السلطان المتعطش لسفك المزيد من الدماء، فأصدر فتاوى تكفر دولة المماليك فى مصر والشام وتصفهم بالملحدين، رغم أن سلطان مصر المملوكي قانصوه الغورى كان يرعى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة المنورة

---

(1) المرجع السابق.

(2) انظر مقالا بعنوان: المؤلفة جيوبهم، فتحي محمود، موقع الأهرام المصري.

والقدس، ويؤمن طرق الحجاج كما كان أسلافه من حكام مصر) (1)

وعندما بلغت فتواه الغورى، أرسل إلى السلطان سليم الأول رسالة يقول فيها: (علمنا أنك جمعتَ عساكرك، وعزمت على تسييرهم علينا، فتعجّبتْ نفسنا غاية التعجب لأن كلنا، والحمد لله، من سلاطين أهل الإسلام وتحت حكمنا مسلمون موحدون) (2)

وهكذا برر هذا الزنبيلي الحرب ضد الدولة المملوكية، ونشبت الحرب العثمانية المملوكية على أرض سوريا فى سهل مرج دابق عام 1516، وكان من نتيجتها دخول بلاد الشام تحت السيطرة العثمانية، وواصل السلطان سليم زحفه نحو مصر وحدثت المعركة الحاسمة الثانية فى الريدانية عام 1517، وانتهت بهزيمة السلطان طومان باى واحتلال مصر.

ولم يكتف الزنبيلى بذلك بل أفتى بتكفير أي شخص يقف بجانب دولة المماليك، وتلقف سليم الأول الفتوى ونشرها بين جنوده، مما أدى إلى مذابح دموية للآلاف من أهالى الشام الذين دافعوا عن أرضهم ضد المغتصب التركى، وتكرر نفس الأمر فى شوارع القاهرة التي ارتوت بدماء 10 آلاف مصرى عارضوا الاحتلال العثمانى(3).

وهكذا أفتى بقتل الشيعة، وكل من يعينهم، أثناء جوابه عن سؤال يقول: (إذا أراد قائد مسلم أن يستأصل كل الملحدين (يقصد الشيعة) بمساعدة جماعة هم أيضا يعانون من طاغية، فهل يكون مباحا قتل هذا الطاغية واستباحة أملاكه؟)(4)

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

4() المرجع السابق.

ومثل الزنبيلي أو لا يقل عنه [أبو السعود أفندي] الذي نال هو الآخر لقب شيخ الإسلام، والذي اختاره لتوليه سليمان القانوني ليكون بديلا عن محيي الدين أفندي فناري زاده في أكتوبر 1545، فكان عند حسن ظن السلطان به، (إذ أجاز له قتل إخوته ليستقر على العرش بدون منازع، وأفتى بإعدام ولديه إرضاء لزوجته، وأباح الربا وشرب الخمر لتتدفق الأموال المحرمة على خزائن القصر، وحلل الزنا وبارك مذابح السلطان التي أزهق فيها أرواح مئات الآلاف من الأبرياء) (1)

وقد نال أبو السعود أفندي الكثير من المزايا بسبب تلك الفتاوى التي كان يرسلها للسلطان كلما احتاج إليها، فقد جعل له السلطان (الحق في فرض الغرامات وتحصيل الإتاوات، واختصه بحصة من غنائم الحروب، وأهداه الجواري والغلمان، ورفع راتبه إلى 700 أقجة في اليوم) (2)

وهكذا نجد أمثال هذه الفتاوى، والتي لم ترتبط فقط بالمجالات السياسية، بل شملت جميع النواحي الدينية، ولهذا ظهر التعصب المذهبي، وطرح الإسلام بصورة مشوهة تماما، مما سهل بعد ذلك ظهور التمرد عليه، بعد التمرد على السلطان الذي كان يستغله أبشع استغلال.

2 ـ التخلف العلمي:

لم يكتف سلاطين الدولة العثمانية باستغلال الدين بتلك البشاعة التي رأينا بعض مظاهرها، بل راحوا يواجهون كل حركة علمية، تدعو إلى البحث العلمي، أو التحضر، أو التحرر من رق الاستبداد، وقد كان ذلك سببا في تخلف الدول الإسلامية عن مواكبة التطور العلمي والتقني الذي بدأ نشاطه بقوة في أوروبا.

يقول بعض الباحثين مصورا ذلك: (رحب سلاطين الدولة العثمانية بالجهل، ودافعوا عنه بكل ما يمتلكون من قوة لإقامة

(1) شيخ الإسلام العثماني.. بدعة رأس النفاق، موقع عثمانلي 29 أكتوبر 2018.

(2) المرجع السابق.

دولتهم التي يهددها التنوير بالفناء، فقد أعدموا العلماء حتى لا تتسرب أفكارهم التقدمية إلى الرعية، وتعلن الثورة على حكمهم الجائر وتطالب الشعوب بالتحرر من عبودية آل عثمان المفروضة عليهم عن طريق الفتاوى المضللة وتزييف التعاليم الإسلامية، لذا اعتبر آل عثمان البحث العلمي رجسا من عمل الشيطان، وأهانوا كل من يشتغل به، واتهموه بالكفر والزندقة، حكموا عليه بالإعدام ولفوا حول عنقه المشانق وأطلقوا عليه الرصاص وقدموه طعاما للسمك، والتاريخ يذكر الكثير من القصص المأساوية التي انتهت باغتيال العلماء والمخترعين بطرق بشعة جعلت الشعوب الخاضعة للاحتلال العثماني تعيش في ظلام التخلف والجهل لمئات السنين فابتعدت الدولة عن الحضارة والتهمتها العزلة)(1)

ومن الأمثلة التي ذكرها لذلك سنان الدين يوسف المعروف بـ [الملا لطفي]، والذي برع في علوم الشريعة والفلسفة والمنطق، و(تبنى أفكارا تنويرية تدعو للاجتهاد ومواكبة روح العصر، وعارض المعتقدات الباطنية المنحرفة للطريقة البكتاشية، ودخل في مناقشات علمية مع الملا إزاري والملا محيي الدين محمد الخطيب زاده والملا أخوين وشيخ الإسلام أفضل زاده، فتغلب عليهم وكشف أكاذيبهم وفضح فتاويهم المضللة، وهنا أدرك السلطان أن نفوذ لطفي يزداد يوما بعد آخر، وشعر بالرعب من قوة حجته، ووجد في الرجل ما يهدد استمراره في السلطة كسلطان يروج أتباعه بأنه ظل الله على الأرض خاصة بعد دعوات الإصلاح والتحديث الفكري التي تبناها الملا لطفي)(2)

وحينها طلب السلطان من العلماء التخلص منه، خشية انتشار أفكاره، فأطلقوا عليه لقب [دلي لطفي] أي [لطفي المجنون]، واتهموه بالانسياق، و(أما شيخ الإسلام فقد رفض دعوى التجديد واعتبرها بدعة وتحريفا للدين قبل أن يتهمه بالإلحاد والزندقة، وتقدموا جميعا بشكوى إلى السلطان بايزيد الثاني ـ

1() سلاطين الدولة العثمانية.. قتلة العلماء، موقع عثمانلي، 5 أكتوبر 2018..

2() المرجع السابق.

الذي كان قد تولى الحكم بعد أبيه ــ وهم يوغرون صدره ضد لطفي ويقولون له إنهم شاهدوا أفعالا وأقوالا له تستوجب القتل) (1)

وقد حكم عليه نتيجة لذلك بالإعدام، وتم إعدامه عام 1494، وعلق رأسه على أبواب قصره ليكون عبرة لمن تسول له نفسه التفكير في التطاول على دولة آل عثمان.

ونفس الحكم نفذ على [بيري ريس] الذي برع في علوم البحار ورسم الخرائط، واستطاع رسم خريطة للعالم عام 1513 وأهداها للسلطان سليم الأول بجانب كتاب بحرية الذي قدمه للسلطان سليمان القانوني، وتبنى مشروعا لمشاركة العثمانيين في اكتشاف القارات الجديدة، بعدما أكد نظرية كروية الأرض.

لكن ذلك لم يطل حيث أن أبحاثه العلمية حول كروية الأرض ووجود قارات جديدة لم يتم اكتشافها بعد أثارت عداء مشايخ العثمانيين. فاتهموه بالجنون ومخالفة إجماع المسلمين، وطلبوا من سليمان القانوني قتله، فاتخذها السلطان ذريعة للتخلص منه، وأرسل إلى والي مصر ليجهز عليه، فحكم عليه بالإعدام عام 1554، بعدما صادر أمواله(2).

وهذا ما حصل أيضا لـ [هزارفن أحمد جلبي]، الذي كان من أشهر علماء عصره في الرياضيات والهندسة والطبيعة، وامتلك معرفة واسعة حول كل العلوم والفنون، وكان من المهتمين بعلم الفضاء مما جعله رائد الطيران الشراعي.

وقد كان يقوم في منزله بالتجارب المختلفة، حيث نجح في محاولاته، وذاع صيته بالولايات العثمانية ولقب بـ [هزارفن] أي صاحب الألف فن، حيث قام بتسع محاولات ناجحة للطيران الشراعي لمسافات قصيرة في أت ميداني (ساحة الخيول) بإسطنبول في العام 1636.

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

لكن السلطان مراد الرابع بدل أن يبني له مركز أبحاث للطيران، راح يدبر مؤامرة لاغتياله فنفاه إلى الجزائر، وأمر البحارة سرا بإعدامه، فألقوا بجثته في البحر المتوسط(1).

وهذا ما حصل أيضا لـ [حسن لاغاري] الذي (وضع أول لبنة في علم صناعة الصواريخ باستخدام البارود)، لكن السلطان الجاهل أصدر قرارا بمنعه من مواصلة أبحاثه العلمية، ثم نفاه إلى ولاية القرم حيث أمر حاكمها، سلامت غيراي خان، بالتخلص منه فقتله رميا بالرصاص(2).

3 ـ التخلف الأخلاقي:

وهو من أخطر النواحي، وقد كان للأسف سائدا ومنتشرا، ليس بين العوام فقط، وإنما بين السلاطين الذين يدافع الإسلاميون عنهم، على الرغم مما يذكره المؤرخون من أخلاقهم ومجونهم، وهذا دليل على استبعاد المنهج القرآني في الحكم على الأشياء.

ومن الأمثلة على ذلك السلطان بايزيد الأول، والذي وصفه المفاخرون بالمجد المزيف بأنه (كان شجاعاً شهماً كريماً متحمساً للفتوحات الاسلامية)(3)، وقد نسوا أن يضموا إلى تلك الصفات كونه سلطانا مدمنا على الخمر والمجون وكل أنواع المنكرات.

وطبعا هم لم يفعلوا هذا، حتى لا يشوهوا ما يعتبرونه فتحا، ذلك أن اسم [الفتح] لا ينطبق إلا على أصحاب الأخلاق العالية، والقيم الرفيعة، لا أولئك المنحرفين، الذين يستعملون ما يسمونه فتحا وسيلة لتوسيع الممتلكات، وتحقيق الشهوات.

---

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

(3) انظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص: 65)، والدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص40.

وقد ذكر المؤرخون الذين تخلصوا من خدع المجد المزيف حقيقة حاله، فذكروا أنه (بعد أن استتب الأمر له في القصر ببورصة عاصمة العثمانيين وقتذاك، حول مجالسه الخاصة إلى خيام حمراء، وراح يجبر المشايخ على تحليل المحرمات ليفعل ما يحلو له دون أن يجد من يردعه، فالشاب الذي وجد نفسه سلطانا على الدولة في سن الثلاثين تملص من الأحكام الشرعية والفقهية، واعتبرها تضييقا على حريته، ووجد ضالته في احتضان الفرق والمذاهب الدينية الضالة التي أمطرته بسيل من البدع والافتراءات.. وقد أجازوا له قتل الإخوة من أجل الوصول للعرش، وأحلوا له شرب الخمر والمسكرات بجميع أنواعها، بحجة أنها مدد روحاني من السماء، ولم تكن الخمور وحدها هي ما وقع في غرامها بايزيد الأول، لكنه تخطاها إلى ممارساته الجنسية الشاذة، والمجاهرة بها، وهو ما ذكره المؤرخ عاشق باشا زاده في كتابه تواريخ آل عثمان بقوله: كان السلطان بايزيد الأول يحب عيش وعشرت، أي: يحب حياة السفاهة والخمر والمجون)[1]

وقد ساعده على ذلك زوجته [ماريا دسبينا] بنت لازار ملك الصرب الت تزوجها عام 1391، والتي (وجدت الفرصة سانحة للانقضاض على السلطة وتوجيه السياسة العثمانية من داخل أروقة الحرملك، مستغلة فجوره فتلاعبت به، وغمرت قصره بالأوروبيات من بني جنسها لتضمن ولاء الجواري، ونشرت الرذيلة بين أمراء آل عثمان وأشرفت على الليالي الحمراء، وجمعت حوله سفهاء الأتراك، أما وزيره جاندارلي فقد تولى تنظيم حفلات شرب الخمر، وكان صديقاه خاصكي محمود بك وعبدالرحمن بن مؤيد من أشهر رواد القصر، واصطفاهما لجلب الخمر والحشيش للبلاط العثماني)[2]

وقد (أنفق بايزيد أموال الرعية على نزواته وشهواته، وكلف وزيره باستيراد أشهر أنواع الخمور من الشرق وأوروبا، وفي

1() السلطان المخمور.. بايزيد الماجن، موقع عثمانلي، 28 سبتمبر 2018.

2() المرجع السابق.

سعيه الحثيث لنشر الخمور بالسلطنة راح يقدمها هدايا لرجال دولته، وعرف الفاسدون ولعه بالخمر فقدموا له منها أجود الأنواع الفرنسية، وأصبح سقاة الخمر الأكثر تواجدا في القصر العثماني، فكانوا يملأون ويوزعون الأقداح بحرية وعلانية على الأمراء والضيوف في حفلات القصر الماجنة)[1]

ولم يكتف السلطان بذلك، بل إنه (خصص مخازن للخمور بالمعسكرات ووزع عليهم حصصا أسبوعية من النبيذ مجانا، فأصبحت الجيوش العثمانية بؤرة للفساد الأخلاقي وضعفت همتها، فهجموا على القرى والمدن ليمارسوا عمليات نهب وسلب الممتلكات ثم باعوها ليشتروا بثمنها الخمور، وعانت الولايات العثمانية من مجونهم بعد أن عاثوا في الأرض فسادا وهتكوا أعراض النساء)[2]

وقد كانت النتيجة التي آل إليها حال هذا السلطان كما يذكر المؤرخون هي أنه بعد انغماسه وجنده في حياة الخلاعة، تحركت جيوش تيمور لنك بهدف إعادة إحياء إمبراطورية المغول، فأطاح الغازي الأزوبكي بدول الشرق واقترب من حدود الدولة العثمانية، ولم يهتم بايزيد بالاستعداد الكافي، وتخيل قدرته على قهر غازي الشرق الذي انسحبت من أمامه قوات سلطان مصر والشام، لكن خياله خانه، إذ أن جيشه مني بهزيمة ساحقة، أما هو، فـ (لم يكتف القائد المغولي تيمورلنك بهزيمته والقضاء على جيشه، بل أسره في قفص حديد وضعه داخل قصره، ليجبره على أن يشاهد زوجته دسبينا خاتون مجرد جارية عارية تقدم الطعام والشراب، وترقص أمام الجميع فمات غما وكمدا عليها في العام 1403م)[3]

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

هـذا مجـرد مثـال اخترنـاه من الأمثلـة الكثـيرة، والـتي تـبين حقيقة المجد المزيف الذي يتغنى به الإسلاميون، الذين ألغـوا كـل القيم في سبيل الدفاع عن أمثال هؤلاء.

من أسقط بغداد: الخليفة أم وزيره؟

لا تتوقف أكاذيب الغارقين في أوحال الطائفية على ذلك التضخيم المزيف للأمجاد والفتوحات، أو تصوير الظلمة والمستبدين الذين حكموا بقوة الحديد والنار طيلة فترة الملك العضوض إلى اليوم بصورة الخلفاء العدول العادلين الممتلئين بالتقوى، وإنما تتعداها إلى ما هو أخطر من ذلك بكثير.

وهو خطر لا يرتبط بالتاريخ وأحداثه فقط، وإنما يرتبط بالواقع أيضا، ليملأه بكل أصناف الجرائم والتزوير، وباسم الإسلام، حفاظا على المجد المزيف، وتحطيما للوحدة الإسلامية، وكل القيم النبيلة المرتبطة بها.

وقد اخترنا البحث الموضوعي عن جواب ذلك السؤال الذي لا يزال يكرر كل حين، ويُستعمل وسيلة لغرس الكراهية، ليكون نموذجنا المثالي على ذلك.

فلا زال رجال الدين والسياسة والإعلام وعوام الناس كلما ذكرت لهم سقوط بغداد[1]، نسوا سنن الله في سقوط القرى عندما تنحرف عن سبيله.. ونسوا معها كل جرائم العباسيين الذين سطوا على بغداد مثلما يسطو اللصوص، وتحكموا فيها أجيالا كثيرة.. ونسوا كل تلك السجون التي ملئت بها بغداد، وكل تلك الرؤوس التي قطعت، وكل تلك الأعراض التي انتهكت.. وراحوا يختصرون سقوط بغداد في رجل واحد، هو ابن العلقمي.. ذنبه الوحيد أنه كان شيعيا، وتولى الوزارة لخليفة المسلمين الأعظم الممتلئ بالسنة من مفرق رأس إلى أخمص قدميه.. وتسبب ذلك التوزير في سقوط بغداد.. وسقوط الخلافة العباسية.

---

[1] سقوط بغداد أو حصار بغداد أو الغزو المغولي لبغداد أو الاجتياح المغولي لبغداد هو الاصطلاح الذي يشير إلى دخول المغول بقيادة هولاكو خان حاكم إلخانية فارس مدينة بغداد حاضرة الدولة العباسية وعاصمة الخلافة الإسلامية يوم 9 صفر 656 هـ الموافق فيه 10 شباط (فبراير) 1258م، بتكليف من الخاقان الأكبر مونكو خان الذي طلب من أخيه هولاكو استكمال فتوحات المغول في جنوب غرب آسيا التي كان قد بدأها جدهما جنكيز خان، وهو ما قام به هولاكو حيث تمكن جيشه من اقتحام بغداد بعد أن حاصرها 12 يوما، فدمرها وأباد معظم سكانها.

وهم لا يكتفون بأن يكلوا التهمة لابن العلقمي في سقوط امبراطورية كاملة، وإنما يكلون الأمر لكل الشيعة، لا في ذلك الزمان فقط، وإنما في كل الأزمنة.

ولذلك لم يبق ابن علقمي معلقا في جدران التاريخ، وإنما دخل كتب التفسير والحديث والفقه.. وأصبح عوام الناس وخواصهم يعرفونه بكونه الشيطان الأكبر الذي سلم بغداد إلى هولاكو.. وأنه ليس الوحيد في ذلك، بل هناك مؤامرة من الشيعة لإسقاط كل الحكومات السنية العادلة، نتيجة بغضهم للسنة، وأهل السنة.

ولهذا كلما نطق الحكماء بالدعوة لوحدة المسلمين سنة وشيعة، وأن تتحالف كل الدول الإسلامية لمواجهة الصهيونية والشيطان الأكبر انبرى السفهاء، الممتلئين بالطائفية ليقولوا لك: كيف نتوحد مع أحفاد ابن العلقمي، وكيف لنا أن نضع أيدينا في أيديهم؟.. وينبري آخرون ليذكروا لك أن العدو ليس أمريكا ولا إسرائيل، وإنما هم أحفاد ابن العلقمي، ولذلك إن قدر لنا أن نتوحد، فلنتوحد ضدهم.

وهكذا يستعملون ابن العلقمي صيدا للتلاعب على العقول، والكذب عليها، وتصوير الشيعة أنهم أعداء الإسلام، في نفس الوقت الذي يهملون فيه كل أولئك الذين تحالفوا مع الصليبيين، وباعوا البلاد الإسلامية بأبخس الأثمان، لأنهم لم يكونوا شيعة، فلذلك يحرمون غيبتهم، ويوجبون كتمان جرائمهم.

وليت الأمر توقف على الصغار، بل إنه تعداه إلى الكبار، بل تعداه إلى من يعتبرونه شيخ الإسلام، والمتحدث الرسمي باسمه، ابن تيمية الذي راح ينسب لابن علقمي سقوط بغداد، وكل من قتل فيها من قتلى، ثم يستدل به على حقد الشيعة على الإسلام والمسلمين.

وقد ذكر ذلك، لا في كتاب تاريخ، وإنما في كتاب سماه [منهاج السنة النبوية]، والذي يحفظه أتباعه عن ظهر قلبه، ولذلك أصبح ابن العلقي عندهم ليس مجرد وزير من الوزراء، وإنما إلى

عدو من أعداء السنة.

ولو أن ابن تيمية كُتب له أن يعيش في عصرنا، لـراح ينسـب سـقوط بغـداد عـام 2003 لا إلى تهـور صـدام حسـين وطغيانـه واسـتبداده وغبـاءه.. وإنمـا إلى وزيـره الشـيعي محمـد سـعيد الصحاف، ويعتبره السبب في ذلك، ويكل كل الجرائم إليه..

هذا هو الواقع الذي سنعرفه عندما نجيب على ذلك السـؤال، وحينهـا نكتشـف أن ربـط سـقوط بغـداد قـديما بـابن العلقمي، لا يختلـف عن ربـط سـقوطها في العصـر الحـديث بمحمـد سـعيد الصحاف.. الأمر فقط يحتاج لرجل مثل ابن تيمية، ولكتاب مملـوء بالحقد مثل [منهاج السنة]

لا تتعجبوا من ذلك، فنحن نرى ذلك اليوم بأم أعيننا، فلا نزال نسـمع السـلفيين والحركـيين والكثـير من الإعلامـيين المتـاجرين بـأقلامهم، يـذكرون أن غـزو العـراق وأفغانسـتان، كـان بمسـاعدة إيرانية، وأن أمريكا لم تكن لتفكر في الغزو، لـولا أن وسـوس لهـا الإيرانيـون، وسـاعدوها على ذلـك.. وربمـا أمـدوها بكـل أنـواع الأسلحة.

وهم يرددون هذا وأمثالـه مـع أنهم يـرون بـأعينهم الطـائرات الأمريكية وغيرها ترتفـع من القواعـد الخليجيـة لضـرب تلـك البلاد الإسلامية.

ويرددون ذلك مع علمهم أن الفتـاوى صـدرت من هيئـة كبـار العلماء السعوديين، وغيرهم من الذين اشترتهم الأموال الخليجية.. لا من مراجع قم ولا النجف..

ويرددون ذلك مـع علمهم أن تلـك الطـائرات والقواعـد الـتي ضربت تلـك الـدول الإسـلامية لا تـزال جاثمـة على أرض الجزيـرة تمطر كل حين بلاد العالم الإسلامي بأنواع القتل والدمار.

وهكذا حصل مـع ابن العلقمي ونصـير الـدين الطوسي.. فقد بـرأ السـلفية الخليفـة وبـرأوا قـادة الجيش، وبُـرأت جميـع أجهـزة الحكم، ثم بُحث عن رجـل واحـد كـان من الشـيعة لتُلصـق جميـع

التهم به، وكأنهم كانوا بين يديه مجرد دمى يحركها كيف يشاء.

بناء على هذا سنحاول في هذا الفصل البحث عن أسرار هذه التهمة ودوافعها ومدى صدقها من خلال استعراضنا للمصادر الــتي أرخت لها.. وسيكون ذلك من خلال هذه العنوانين:

الأول: ابن العلقمي والحقد الطائفي.

الثاني: ابن العلقمي والمصادر التاريخية.

1 ـ ابن العلقمي والحقد الطائفي:

لم نكن لنهتم بابن العلقمي، ولو ربطوا به كل مــا حصــل في بغداد من زلازل وفتن في عصره أو قبله أو بعده.. فذلك مع كونــه كذبا وزورا، إلا أنه لا يرتبــط بــالواقع.. بــل يرتبــط فقــط بالتــاريخ.. والله تعالى وحده من يحاسب الــذي يــزورون التــاريخ.. ولعــل ابن العلقمي أحــد الخصــوم الــذين يقفــون في وجههم يــوم القيامــة ليطالب باسترداد حقوقه في الكذب عليه.

ولكن المشــكلة أكــبر من ذلــك.. ذلــك أنهم يربطــون ابن العلقمي بالشيعة.. ثم يربطون الشيعة بالتشيع.. ثم يحملــون على التشــيع من خلال حكمهم على فــرد من أفــراده، مــع علمهم أن الشيعة لا يقولـون إلا بعصـمة اثـني عشـر إمامـا، وطبعـا ليس من بينهم ابن العلقمي.

بــل إن الشــيعة في مــراجعهم يــذكرون الكثــير من مثــالب المنتسبين إليهم، ويروون عن أئمتهم أنــه ليس كــل منتســب إليهم صــحيح النســبة، ومن الأمثلــة على ذلــك مــا يروونــه عن إمــامهم الخامس محمد الباقر أنه قال مخاطبا جابر بن عبد الله: (يــا جــابر بلّغ شيعتي عني السّلام وأعلمهم أنه لا قرابــة بيننــا وبين اللّــه عــزّ وجلّ، ولا يتقرب إليه إلا بالطاعة له.. يا جابر من أطاع اللّه وأحبنــا فهو وليّنا، ومن عصى اللّه لم ينفعه حبّنا) (1)

وقال (ما شيعتنا إلّا من اتقى اللّه وأطاعه، وما كانوا يعرفــون

____

(1) الأمالي، الشيخ الطوسيّ، 1/ 302.

إلّا بالتواضـع والتخشـع، وأداء الأمانـة وكـثرة ذكـر اللّـه والصـوم والصلاة والبر بالوالدين وتعهد الجيران من الفقراء وذوي المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلّا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء) (1)

وهكذا كان موقفهم من رجل عاصـرهم، وصـاحبهم، ولم يكن مع الفئة الباغية، ولا مع أعدائهم في الظـاهر، ولكنـه عنـدما كـذب عليهم، حذروا منه، وبينوا عدم علاقتـه بالشـيعة، فقـد قـال الإمـام الصـادق: (لا تقبلـوا علينـا حـديثاً إلاّ مـا وافـق القـرآن والسـنّة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فـإنّ المغـيرة بن سـعيد لعنـه اللّـه دسّ في كتب أصـحاب أبي أحـاديث لم يُحـدِّث بهـا أبي فاتقوا اللّه ولاتقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا تعـالى وسـنّة نبينـا ﷺ فإنّا إذا حدّثنا قلنا قال اللّه عزّ وجلّ وقال رسول اللّه)(2)

وهكذا نجـدهم مثـل غـيرهم من مـذاهب المسـلمين يؤلفـون الكتب في علم الرجـــال، فيوثقـــون الـــرواة أو يضـــعفونهم، أو يتهمـونهم بالكـذب أو التـدليس، مـع كـونهم شـيعة، وربمـا من المصاحبين للأئمة أنفسهم، وربما يكونون من أولئك الـذين قـدموا التضـحيات بسـبب انتمـائهم، ولكن مـع ذلـك لا يعتـبرهم أحـد من الناس محمولين على الشيعة، أو التشيع.

فكيـف بعـد هـذا يصـبح ابن العلقمي ممثلا للشـيعة، لا شـيعة عصره فقط، بل في كل العصـور، في نفس الـوقت الـذي لا نجـد هـؤلاء الـذين يحمّلـون ابن العلقمي وحـده وزر عملـه ــ في حـال صحته جدلا ـ يحمّلون أحـدا من أهـل السـنة ذنـوب السياسـيين أو غيرهم.

وقد رأينا في الفصل الخاص بالعثمانيين خيانات أقارب صـلاح الدين الأيوبي، وكيف أعادوا القـدس للصـليبيين، بـل كيـف أعـادوا الكثـير من البلاد الإسـلامية للصـليبيين، ورأينـا خيانـات آل سـعود

1() تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص295.

2() بحار الأنوار، 25 / 289.

وغيرهم للعثمانيين، وتحالفهم مع البريطانيين، ومع ذلك لم يقل أحد أنهم يمثلون السنة، على الرغم من كون علماء السنة هم الذين أفتوا لهم بكل ذلك.

ولذلك كان يمكننا قبول ربط ابن العلقمي بالشيعة والتشيع، ولكن بشرط أن تربط كل خيانة بالمذهب الذي ينتمي إليه الخائن.. ولذلك إن تحدثوا عن خيانة ابن سعود، وإعطائه فلسطين لليهود، لا يُقصرون الأمر عليه.. بل يعبرون عن ذلك باعتباره سنيا.. وأن السنة هم الذين باعوا فلسطين.

وأنا أجزم أنه لو كان الذي ثبتت عليه تلك الخيانات شيعيا، لذكروا أن الشيعة هم الذين تحالفوا مع الصهاينة، وأعطوهم فلسطين، أو عقدوا معهم كل أنواع الاستسلام والخيانة..

بل إنهم يقولون ذلك مع أن الشيعة هم الذين يحاربون إسرائيل، ويعينون إخوانهم من السنة في حربهم لها، في نفس الوقت الذي نجد هؤلاء الذين يدعون الانتساب للسنة يحكمون على تلك الحركات السنية المقاومة بكونها حركات إرهابية، بل إن بعضهم يتهمها بكونها رافضية شيعية مجوسية.

وسبب ذلك كله يعود لمرض الطائفيةالذي أعطاهم الكثير من المكاييل التي يتلاعبون بها على الحقائق، ليخدعوا بها أولئك الأتباع الذين لا يفكرون، ولا يحللون، وليس لهم من قدرة، سوى ترديد ما يقوله مشايخهم مثل الببغاوات.

وحتى لا يكون كلامي هنا أيضا مجرد دعوى، فسأذكر نماذج من كلامهم في ابن العلقمي، والذي لم يتركوه فقط في كتب التاريخ، بل وضعوه في كتب العقائد والفقه والتفسير، وكل المصادر؛ فبمجرد أن يُذكر الشيعة، يذكر ابن العلقمي، وكأنه إمامهم الأعظم، أو مهديهم المنتظر.

وأول من نبدأ به ابن تيمية الذي يطلقون عليه لقب [شيخ الإسلام]، والذي ذكره في كتابه [منهاج السنة] ليستدل به على خيانات الشيعة، حيث قال: (هم ـ أي الشيعة ــ يستعينون بالكفار على المسلمين.. وأما إعانتهم لهولاكو ابن ابنه لما جاء إلى

خراسان والعراق والشام فهذا أظهر وأشهر من أن يخفى على أحد، فكانوا بالعراق وخراسان من أعظم أنصاره ظاهرا وباطنا، وكان وزير الخليفة ببغداد الذي يقال له ابن العلقمي منهم، فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين، ويسعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم، وينهى العامة عن قتالهم، ويكيد أنواعا من الكيد، حتى دخلوا فقتلوا من المسلمين ما يقال: إنه بضعة عشر ألف ألف إنسان، أو أكثر أو أقل، ولم ير في الإسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المسمين بالتتر، وقتلوا الهاشميين وسبوا نساءهم من العباسيين وغير العباسيين، فهل يكون مواليا لآل رسول الله ﷺ من يسلط الكفار على قتلهم وسبيهم وعلى سائر المسلمين؟)(1)

وهذه الكلمات التي رددها ابن تيمية من غير ذكر أي مصدر تاريخي، ولا أي تحقيق علمي، راح الجميع يرددها مثله، باعتبارها حقيقة علمية، لأن الذي قالها معصوم عندهم، لا يجوز عليه الكذب ولا الحقد ولا تلك الأمراض النفسية التي تجعل صاحبها لا يرى إلا ما يشتهي.

ولم يكتفوا بترديدها، بل راحوا يرسمون السيناريوهات التي تبين مدى دهاء ابن العلقي، وكيف استطاع وحده أن يقضي على دولة مترامية الأطراف، ومن الأمثلة على ذلك هذا السيناريو الذي رسمه ناصر بن عبد الله بن علي القفاري في كتابه (أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية عرض ونقد)، فقد صور فيه الحادثة كما يلي: (وملخص الحادثة أن ابن العلقمي كان وزيراً للخليفة العباسي المستعصم، وكان الخليفة على مذهب أهل السنة، كما كان أبوه وجده، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ، فكان هذا الوزير الرافضي يخطط للقضاء على دولة الخلافة، وإبادة أهل السنة، وإقامة دولة على مذهب الرافضة، فاستغل منصبه، وغفلة الخليفة لتنفيذ مؤامراته ضد دولة الخلافة، وكانت خيوط مؤامراته تتمثل في ثلاث مراحل: المرحلة الأولى: إضعاف الجيش، ومضايقة الناس.. حيث سعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين،

---

(1) منهاج السنة النبوية (5/ 155)

وضعفتهم.. المرحلة الثانية: مكاتبة التتـار.. المرحلـة الثالثة: النهي عن قتـال التتـار وتثبيـط الخليفـة والنـاس، فقـد نهى العامـة عن قتالهم وأوهم الخليفـة وحاشـيته أن ملـك التتـار يريـد مصـالحتهم، وأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم، ونصفه للخليفة)[1]

وهكذا قال آخر في موسوعته التي خصصها لمواقف السـلف في العقيدة والتربية، حيث أفاض في ذكـر ابن العلقمي، واعتبـاره ممثلا للشـيعة، ودليلا على خيانـاتهم، ومن أقوالـه في ذلـك: (هـل هناك درس أكبر من هذا الذي لقنه فضيلة الإمام ابن العلقمي مـع فضيلة نصير الطوسي للمسلمين؟ هل يجوز للمسلمين أن يغفلـوا هـذه الحقـائق التاريخيـة ويتجاهلونهـا ويـأتي مثقفـوهم ويقولـون: الشيعة إخواننا والفـرق بيننـا وبينهم يسـير كـالفرق بين الشـافعي والمـالكي؟! وهـذا أيضـا فيـه عقوبـة للخليفـة كيـف يثـق بهـؤلاء ويقـربهم إليـه ويعتمـدهم ويجعلهم في مرتبـة الـوزارة ولم يلتفت إلى خبث هذا المجرم وما يفعله بعسكر الخليفة؟)[2]

ثم راح يسقط تاريخ ابن العلقمي على الواقـع الـذي نعيشـه، فقال: (سبحان الله! التاريخ تتكرر حوادثه وتتشابه أفعاله وأقواله، ويصرفها الله كيف يشاء، الآن الروافض يخدعون عامة المسـلمين في كـل البلاد: تعـالوا نتعـاون على إزالـة إسـرائيل من القـدس. ولغفلة النـاس يحسـبونهم صـادقين، والحقيقـة: تعـالوا معنـا حـتى نمحي السـنة من وجـه الأرض، ونقيم المجوسـية متعاونـة مـع اليهودية والنصرانية والله المستعان)[3]

وهكـذا قـال آخـر، ليس في كتـاب تـاريخي، وإنمـا في كتـاب

---

[1] أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية عرض ونقد (3/ 1159)

[2] موسوعة مواقف السلف في العقيـدة والمنهج والتربيـة، أبـو سـهل محمـد بن عبـد الـرحمن المغـراوي، المكتبـة الإسـلامية للنشـر والتوزيـع، القـاهرة - مصـر، النبلاء للكتـاب، مراكش - المغرب، الطبعة: الأولى، (7/ 382).

[3] المرجع السابق، 7/283.

يتحدث عن الشيعة والتشيع، متغافلا عن كل أولئك الخانعين الذين سلموا بغداد إلى هولاكو، وكأنهم دمى لا عقول لها، واكتفى بنسبة التهمة فقط إلى ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي، فقال: (لقد وصلت الأمة الإسلامية في أواخر الخلافة العباسية إلى حالة من الضعف والهوان، وتكالبت عليها الأكلة، وكان جيش المغول أكبر خطر كاد أن يقضي على الأمة الإسلامية ويستبيح بيضتها، لولا لطف الله.. فقد اجتاحت جيوشهم العالم الإسلامي من شرق آسيا حتى وصلوا إلى بغداد، وملؤوا القلوب رعبا والبلدان دماء، ومسحوا مدنا كاملة عن آخرها.. لكن بقيت بغداد معقل الخلافة، ومعقر العالم الإسلامي.. وهنا لعب هذين الرجلين أكبر دور في هذه الهزيمة، وسجَّلا أعظم خيانة لطخت أيادي الشيعة بالدماء، قبل أن تلطخ جبين الأمة الإسلامية بالعار، إلى اليوم، فقد كان الطوسي وزيرا لهولاكو قائد التتر، وجاء معه في جيشه، وكان مقربا ومستشارا، فأشار عليه بقتل الخليفة وقتل أهل بغداد جميعا، بينما هيأ الوزير الشيعي ابن العلقمي الظروف من الداخل، فسرح الجيوش، متعللا بعدم الحاجة إليهم، حتى بلغوا من القلة والذلة والضعف إلى حد أنه لم يبق منهم إلا عشرة آلاف، مستغلاً ضعف الخليفة وانشغاله بالشهوات، وكان في خلال ذلك يكاتب المغول ليهون عليهم شأن الخلافة ويشرح لهم الحال، ويدلهم على العورات) [1]

وهكذا قال آخر: (ففي سنة 656 هـ أي قبل ولادة الطوفي بعام واحد تقريبا تعرضت دار الخلافة بغداد لهجوم التتار الذي غير معالمها وجمالها وبهاءها، وألبسها ثوب الحزن والهوان، بعد أن كانت منارة إشعاع العلم والمعرفة، ومركز المدنية والحضارة، ودارا للخلافة أكثر من خمسمائة سنة، وكان دخولهم إليها بمساعدة وتدبير الرافضي الخبيث ابن العلقمي الذي كان وزيرا للمستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس في بغداد فقد كان متعصبا لطائفته متحاملا على أهل السنة، فجاء بالتتار ظنا منه أنه سيكسب بذلك التأييد لطائفته وستصبح له ولها السيادة والزعامة

[1] الفاضح لمذهب الشيعة الإمامية، حامد مسوحلي الإدريسي، مكتبة الرضوان، مصر، الطبعة: الأولى، 1428 ه - 2007 م، (ص: 146)

على غيرهم، ولكن الله أخزاه وفضحه فلم يظفر من خيانته بما يسره، بل لقد ندم أشد الندم، لأنه فقد ما كان فيه من الصولة والعزة التي كان يتمتع بها أيام الخليفة العباسي، وأهانته التتار)(1)

وقال آخر، وهو الذي يرجع إليه الطائفيون للأسف، ويعتبرونه من أهم مصادر التعريف بالتشيع، مع كونه ليس سوى بركان من براكين الحقد، لا على الشيعة فقط، بل على الصوفية، وأكثر المذاهب الإسلامية، وهو إحسان إلهي ظهير الباكستاني (المتوفى: 1407هـ)، فقد قال في كتابه [الشيعة والسنة] مخاطبا دعاة التقارب بين المذاهب الإسلامية: (يمكن الوحدة بترك الدس والكيد للمسلمين، فها هي بغداد مضرجة بدمائهم بجريمة ابن العلقمي، وها هي الكعبة جريحة بجريمة طائفة منكم، وها هي باكستان الشرقية ذهب ضحية بخيانة أحد أبناء تزلباش الشيعة يحيى خان في أيدي الهندوس، وها هو التاريخ الإسلامي مليء بمآثمكم، وخذلانكم المسلمين كلما حدثت لهم حادثة، ووقعت لهم كارثة، وحلت بهم نائبة)(2)

وقال آخر: (ولا ينبغي كذلك أن ننسى ما يفعلونه اليوم والحرب تدور رحاها في لبنان ليلاً ونهاراً كيف تعامل أحزابهم الكثيرة المسلمين من أهل السنة بخصوصهم بكل قسوة وعنف وكيف تفننوا في التنكيل لهم كما تفعل اليهود أو أشد -كما يروي البعض- مع تظاهرهم بالإسلام وهم والنصيريون يد واحدة ذئاب شرسة على الإسلام والمسلمين، وهم على وتيرة واحدة سلفهم وخلفهم من أشد أعداء أهل السنة ومن أكثرهم تآمراً عليهم، ولقد كان المسلمون يُذبحون في بغداد ويحرقون بالألوف أمام ابن العلقمي والنصير الطوسي وهما يدلان التتار على عورات

---

(1) الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية، سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين (المتوفى: 716ه)، سالم بن محمد القرني، مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة: الأولى، 1419هـ، (1/ 24)

(2) الشيعة والسنة، المؤلف: إحسان إلهي ظهير الباكستاني (المتوفى: 1407ه)، الناشر: إدارة ترجمان السنة، لاهور - باكستان، الطبعة: الثالثة، 1396 ه - 1979 م، (ص: 11)

المسـلمين، وعلى كتبهم وعلى أمـاكن اختبـائهم، وكانـا يظهـران الفرح والشماتة بالمسلمين، ثم تلت ذلك أحداث لا حصر لهـا كـان هؤلاء الشيعة أنكى الناس والملل كلها بالمسـلمين، ولا غرابـة في هذا منهم ماداموا قد أبغضوا خيرة أصحـاب نبينـا ﷺ، ولعنـوهم في كل صباح ومساء ورووا في مثالبهم مـا لا يفعلـه الوثـنيون، ويتـنزه عنـه الإبـاحيون، ويكفي أنهم حكمـوا عليهم بـأنهم ارتـدوا عن دين الإسلام، وأخفوا كثيراً من القرآن، وقذفوا أم المؤمنين)(1)

وقـال آخـر: (من أهم أسـباب انهيـار الحضـارة الإسـلامية وانتقالهـا للغـرب هـو سـقوط دار العلم بغـداد بيـد المغـول. هـذا السقوط لم يكن ممكنًا لولا مساعدة الشيعة للمغـول. ولا يخفى ـ علَى من لـه أدنى وعي بتـاريخ الشـيعة ــ الـدور الخيـاني للـوزير الشيعي ابن العلقمي في سقوط بغداد، عاصمة الخلافة الإسلامية آنـذاك، ومـا جـرَّه علَى المسـلمين من القتـل والخـراب والـذل والهـوان، بالاتصـال بهولاكـو، وإغرائـه بغـزو العـراق، وهيـأ لـه من الأمور ما يمكنه من السيطرة)(2).

وقال آخر: (لما قضى التتـار على الدولـة الخوارزميـة، وعلى الإسماعيلية اتجهوا إلى بغداد. وقد وقعت في سـنة 655 هــ فتنـة مهولة ببغداد بين أهل السنة والرافضة وقتـل عـدد من الفـريقين، ونهب الكــرخ- مــوطن الرافضــة وذوي ابن العلقمى- فحنــق ابن العلقمي وزيــر المستعصــم وكـاتب التتـار وأطمعهم في العـراق، وعمل على تهيئـة الأجـواء فسـرح جنـد الخلافـة فلم يبـق منهم إلا القليل، وحجب عن الخليفـة الرسـائل الـتي تـرد إليـه من صـاحب الموصـل وغـيره، وبـذلك تهيـأت الأجـواء لهـؤلاء التتـار، فجـاءوا وأحاطوا ببغداد سنة 656 هــ فخـرج إليهم ابن العلقمى واسـتوثق لنفسه من هولاكو، فرجع هو ونصير الدين الطوسى ـ وهما رؤوس

---

(1) فـرق معاصـرة تنتسـب إلى الإسـلام وبيـان موقـف الإسـلام منهـا، غـالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية للطباعة والنشر والتسويق، جدة، الطبعـة: الرابعـة، 1422 ه - 2001 م، (1/ 460)

(2) الشـيعة هم العـدو فاحـذرهم، شـحاتة محمـد صـقر، مكتبـة دار العلـوم، البحـيرة (مصر)]، (ص: 139).

الرافضة الخبثاء ـ إلى بغداد ليكملوا بقية دورهم في تخذيل الناس والخليفة بأساليب خادعة- حتى لا يبقى في وجه التتار مقاومة تذكر)[1]

وقال: (عودة الخلافة السنية كان بمثابة دعم قوي لما فعله نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي من إزالة الخلافة الفاطمية في مصر وإقامة دولة سنية، والقضاء على الفاطميين وإن كان قد مر عليه زمن طويل إلا أن هناك محاولات عديدة قام بها أفراد أو طوائف باطنية تدين بالولاء للدولة الفاطمية ومذهبها الباطني وذلك للعودة إلى الخلافة الشيعية، ومن هذه المحاولات ما فعله ابن العلقمي - في سقوط بغداد - الذي كان يطمع من خلال تعاونه وممالأته للتتار أن يقيم حاكما علويا بدل الخليفة العباسي السني، ولكنه فشل)[2]

وقال آخر: (وأما سقوط بغداد: فلم يكن سببه تقريب اليهود والنصارى، وإنما كان سببه تقريب المبتدعة والضلال، حتى إذا تمكنوا من وزارة الخلافة العباسية: كشفوا أسرارها، وأظهروا لعدو المسلمين عوارها، وشجعوه على النيل منها، فقدمت جيوشهم على حين غرة، فقتلوا الخليفة والعلماء والقضاة، وكثيرا من عامة المسلمين، حتى ذكر بعض العلماء: أن القتلى من المسلمين بلغوا ألف ألف نفس، أو نحو ذلك، وقال غيره: لم ينقص القتلى عن سبع مائة ألف، ولم يزيدوا على ألفي ألف نفس، فالمقل يقول: سبع مائة ألف نفس، والمكثر يقول: ألفي ألف نفس، وكان ذلك بسبب استوزار آخر خلفاء بني العباس المستعصم لابن العلقمي الرافضي، الذي كان يراسل هولاكو قائد جيوش المغول، ويشجعهم على غزو دار الخلافة بغداد -مع إكرام المستعصم له، وثقته الكبيرة به، ومنزلته في دولته-: فقدمت جيوش المغول، وأسقطت الخلافة الإسلامية فيها، وأبادوا أهلها،

---

[1] موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، 1415 ه / 1995 م، (1/ 95)

[2] المرجع السابق، (1/ 114)

فشفى هذا اللعين نفسه الخبيثة من المسلمين ودولتهم، وسانده في ذلك رفيق دينه وشبيهه الرافضي الآخر المسمى بالنصير الطوسي، فكان منجما مقربا عند هولاكو، وكان هولاكو يستشيره قبل همه في كثير من أموره، فأشار عليه الطوسي بقتل العلماء والقضاة وأهل الحل والعقد، ولا يبقي فيها أحدا سوى أهل الصنائع والحرف فحسب! فأخذ هولاكو بمشورته، وأنفذ وصيته، فأباد أهل بغداد، وأتلف غالب كتبهم الشرعية، بل بلغ القتل بالنساء والأطفال، فتبدلت بغداد على عارفيها، وأصبحت أثرا بعد عين، فهل يعتبر المسلمون اليوم؟!)[1]

هذه مجرد أمثلة عن هذه المواقف، التي لا تستند لأي مصادر، ولا لأي تحليل علمي، ولا لأي منهج قرآني في التعامل مع الأحداث التاريخية، وأسباب سقوط القرى.. ذلك أن الذي أملاها ليس سوى الحقد المجرد؛ فهم يقبلون كل شيء، يرون فيه تشويها للشيعة، حتى لو رفضته كل مناهج البحث العلمي.

والمشكلة أن هذه المراجع التي ذكرناها جميعا، ليست كتبا في التاريخ، وإنما في العقائد والأخلاق، وهي تنتشر بكثرة، ليُستخدم ابن العلقمي طعما للتشويه والتضليل، ولكل أنواع الحروب الطائفية.

2 ـ ابن العلقمي والمصادر التاريخية

بناء على ما سبق، فإن ابن العلقمي لم يعد مجرد شخصية تاريخية تُدرس في كتب التاريخ، وتستعمل معها مناهج البحث التاريخي من التدقيق في المصادر والتحقيق فيها وتحليلها ونقدها خارجيا وداخليا.

ذلك أن مثل هذا البحث قد يجعل من ابن العلقمي شخصية عادية لا يمكن استثمارها في ذلك الهدف الذي يتنافى مع الأخلاق، والذي يجعل من الكذب والتزوير وسيلة لتلك الغايات التي لا تهدف إلا لتمزيق صف الأمة، والتحريش بين أبنائها.

---

[1] قمع الدجاجلة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، عبد العزيز بن فيصل الراجحي، مطابع الحميضي - الرياض، الطبعة: الأولى، 1424 هـ، (ص: 91)

فلذلك تم استبعاد كل المصادر التاريخية، والتي كتبها مؤرخون أكفاء، وفي كتبهم التي أرخوا فيها للأحداث وفق ما وصلتهم بعيدا عن الأهواء، وتم بدلها اعتماد كلام ابن تيمية أو تلميذه النجيب ابن كثير، أما سائر المصادر؛ فقد كتمت مثلما كتم اليهود كل البشارات المرتبطة برسول الله ﷺ لأنها لم تكن تخدمهم.

ولهذا سنحاول في هذا المبحث أن نذكر بعض المصادر المغيبة، لنرى من خلالها حقيقة دور ابن العلقمي، وهل كان السبب في سقوط بغداد، وفي تلك الدماء الكثيرة التي سالت.

وحتى لا نتهم بتهمة انتقاء المصادر، فسنبدأ بما ذكره الذهبي[1] (673 -ـ 748 هـ)، وهو من المؤرخين المعتبرين لدى الطائفيين، بل كان له علاقة كبيرة بابن تيمية، ولذلك كان شديدا على من يخالف المدرسة السلفية، بل شديدا على ابن العلقمي نفسه، لكنا مع ذلك عندما ندرس ما ذكره بعيدا عن أحكامه الخاصة، فسنكتشف الحقيقة على لسان أعدائها، كما يقال.

فقد قال الذهبي في ترجمته له: (محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب، الوزير الكبير، الخنزير، المدبر، المبير، مؤيد الدين ابن العلقمي، البغدادي، الشيعي، الرافضي، وزير الخليفة الإمام المستعصم بالله، ولي وزارة العراق أربعة عشر سنة، فأظهر الرفض قليلا، ذكره بهاء الدين ابن الفخر عيسى الموقع يوما فقال: كان وزيرا كافيا، قادرا على النظم، خبيرا بتدبير الملك، ولم يزل ناصحا لمخدومه حتى وقع بينه وبين حاشية الخليفة وخواصه منازعة فيما يتعلق بالأموال والاستبداد بالأمر دونه، وقويت المنافسة بينه وبين الدويدار الكبير، وضعف جانبه حتى قال عن نفسه:

---

[1] () محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (673 - 748 هـ)، حافظ، مؤرخ، علامة محقق. تركمانيّ الأصل، من أهل ميافارقين، مولده ووفاته في دمشق، كتب الكثير من المؤلفات التاريخية منها تاريخ الإسلام؛ سير أعلام النبلاء؛ طبقات الحفاظ؛ طبقات القراء؛ مختصر تهذيب الكمال؛ الكاشف؛ التجريد في أسماء الصحابة؛ والميزان في الضعفاء؛ المغني في الضعفاء؛ وغيرها، انظر: فوات الوفيات 2:ـ 183 ونكت الهمدان 241 وذيل تذكرة الحفاظ 34.

وزير رضي من بأسه وانتقامه.. بطي رقاع حشوها النظم والنثر

كما تسجع الورقاء وهي جماعة.. وليس لها نهي يطاع ولا أمر

فلما فعل ما فعل كان كثيرا ما يقول: وجرى القضاء بضد ما أملته)[1]

فهذا النص إن استبعدنا تلك الأحكام القاسية، والألفاظ البذيئة، واكتفينا بالمصدر الذي استند إليه، ووافقه، لوجدنا أن ذلك الوزير بنص الذهبي نفسه كان صاحب خبرة ودراية، ولكنه منع من أداء وظيفته، فلذلك راح ينشد تلك الأبيات.

وهذا يدل على عكس ما يصوره الطائفيون من أن الأمر كله كان له، وأنه هو الذي كان يصانع التتر ويراسلهم، مع أن الذهبي نفسه أخبر أن الذي كان يفعل ذلك هم العباسيون أنفسهم، فقد قال متحدثا عن والد المستعصم: (وكان المستنصر بالله (والد المستعصم) قد استكثر من الجند حتى بلغ عدد عساكره مائة ألف فيما بلغنا، وكان مع ذلك يصانع التتار ويهاديهم ويرضيهم)[2]

بل إن الذهبي نفسه يشير إلى مدى صوابية رأي ابن العلقمي في التعامل مع هولاكو، ولكن الخليفة لم يسمع لرأيه، وهذا يدل على أن الأمر لم يكن له، كما رأينا ذلك في النص السابق، فقد قال: (وفي سنة خمس(655)سار هولاكو من همدان قاصداً بغداد، فأشار ابن العلقمي الوزير على الخليفة ببذل الأموال والتحف النفيسة إليه، فثناه عن ذلك الدويدار وغيره وقالوا: غرض الوزير إصلاح حاله مع هولاكو فأصغى إليهم وبعث هدية قليلة مع عبد الله بن الجوزي فتنمر هولاكو، وبعث يطلب الدويدار وابن الدويدار وسليمان شاه فما راحوا، وأقبلت المُغُل

---

[1] تاريخ الإسلام (48/ 290)

[2] تاريخه:48/34.

كالليل المظلم. وكان الخليفة قد أهمد حال الجند وتعثروا وافتقروا وقطعت أخبازهم، ونظم الشعر في ذلك! فلا قوة إلا بالله)(1)

فهذا النص يظهر أن ابن العلقمي لم يكن سوى مستشار لا قيمة له، وأنه لم يكن بتلك السلطة أو السطوة التي يصوره بها الطائفيون، بل هو يشير إلى حسن تدبيره، وأن الخليفة لم يسمع له.

ويشير فوق ذلك إلى كون الملتفين بالخليفة لم يكونوا من الشيعة، وإنما كانوا من نفس مدرسة الخليفة، بدليل أنه أرسل ابن الجوزي، الفقيه والمحدث المعروف، ولا نجدهم يتحدثون عن هذا، أو يتهمون ابن الجوزي بكونه عميلا، مع أنه هو الذي تولى السفارة بين الخليفة وهولاكو.. ولو أنه كان شيعيا، لوضعوه مع ابن العلقمي في محل واحد، وجعلوه من المتآمرين على الخلافة السنية.

وقد ذكر ابن كثير ذلك في ترجمته لابن الجوزي، فقال: (وممن قتل مع الخليفة واقف الجوزية بدمشق أستاذ دار الخلافة محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، المعروف بابن الجوزي.. ثم لم يزل متقدما في مناصب الدنيا، فولي حسبة بغداد مع الوعظ الفائق والأشعار الحسنة، ثم ولي تدريس الحنابلة بالمستنصرية سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وكانت له تداريس أخر، وولي أستاذ دار الخلافة، وكان رسولا للملوك من بني أيوب وغيرهم من جهة الخلفاء)(2)

وذكره الذهبي أيضا، فقال: (وقد أرسله المستعصم إلى خراسان إلى هولاكو ثم رجع وأخبر بصحة عزمه على قصد العراق في جيش عظيم، فلم يستعدوا للقائه! ولما خرج المستعصم إليه طلب منه أن ينفذ إلى خورستان من يسلمها، فنفذ شرف الدين

---

(1) تاريخ الإسلام:48/32.

(2) البداية والنهاية (13/ 244).

هذا بخاتم الخليفة فتوجه مع جماعة من المغـول وعـرفهم حقيقـة الحال)(1)

وهذا يدل على أن الملتفين بالخليفة، والـذي كـان لهم الـرأي والمشورة كثـيرون، ولم يكن ابن العلقمي إلا واحـدا منهم، بـدليل المناصـب الرفيعـة الـتي كـانت لابن الجـوزي، والـذي كـان من الحنابلة، وكان له موقـف شـديد من الشـيعة، ومـع ذلـك كـان يلي أهم وظائف الدولة، هـو وأولاده، وهي وظيفـة الحسـبة، كمـا قـال ابن كثير: (وانتصب ابنه عبد الرحمن مكانـه للحسـبة والوعـظ، ثم كانت الحسبة تتنقل في بنيه الثلاثة عبد الرحمن، وعبد الله، وعبـد الكريم)(2)

وهكذا نستطيع أن نسـتنبط من خلال تـأريخ الـذهبي للواقعـة أن ابن العلقمي لم يكن بتلك الصورة التي صوره بها ابن تيميـة أو غيره من الطائفيين.

وهكذا إن ذهبنا إلى ابن كثير(3) (701 -ـ 774 هـ)، وحاولنـا أن نقرأ الحادثة بعيدا عن تحليلاته وآرائه، فسنجد أيضـا الكثـير من المعاني التي تدلنا على حقيقة ما حصل، فقد ذكر أنـه في الـوقت الـذي دخـل فيـه هولاكـو بغـداد، لم يكن الخليفـة ــ كمـا يصـور الطائفيون ـ يحيي سنة قيام الليل، أو يجلس في مجالس الوعـظ، أو يبكي كمـا تعـود الخلفـاء أن يبكـوا.. وإنمـا كـان مسـتغرقاً في شرب الخمر، وبين يديه الجواري والراقصات.

فقد ذكر في أحداث سنة 656 هـ هذا الحدث الـذي لـو حللـه العاقلون لوضعوا جريمة سقوط بغداد في عنق الخليفة المستهتر، لا وزيره المسكين، الذي لم يكن يملك من الأمر شيئا، وإنمـا كـان

(1) سير أعلام النبلاء:23/374.

(2) البداية والنهاية (13/ 244).

(3) هو إسماعيل بن عمر القرشي البصـروي ثم الدمشـقيّ، أبـو الفـداء، عمـاد الـدين: حافظ مؤرخ فقيه. من كتبه (البداية والنهاية) في التاريخ على نسق الكامل لابن الأثـير انتهى فيه إلى حودات سنة 767 ، انظر: الدرر الكامنة 1: 373 والبدر الطالع 1: 153.

مجرد شماعة لتغطية استهتارهم وفشلهم.

لقد قال في تـاريخ تلـك السـنة المشـؤومة: (ثم دخلت سـنة ست وخمسين وستمائة فيها أخذت التتار بغداد وقتلـوا أكـثر أهلهـا حتى الخليفة، وانقضـت دولـة بـني العبـاس منهـا، واسـتهلت هـذه السنة وجنود التتار قد نـازلت بغـداد صـحبة الأمـيرين اللـذين على مقدمة عساكر سلطان التتـار، هولاكـو خـان، وجـاءت إليهم أمـداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفـه، وكل ذلك خوفا على نفســه من التتــار، ومصــانعة لهم قبحهم اللــه تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرهـا من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سـبحانه وتعـالى شـيئا، كما ورد في الأثر: (لن يغني حذر عن قدر)[1]

وكـل هـذه الأحـداث لم يكن لابن العلقمي فيهـا أي دور، فلم يكن هو صاحب الموصل، ولا الذي أرسل الهدايا.. أما الخليفة فقد كان في ذلك الحين مشغولا من مفرق رأســه إلى أخمص قدميــه، لا بإعداد العدة للمواجهة، ولا بالتواجد مـع الجيش، وإنمـا بمـا عـبر عنه ابن كثير بقوله: (وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حـتى أصـيبت جاريـة كـانت تلعب بين يـدي الخليفـة وتضحكه، وكانت من جملـة حظايـاه وكـانت مولَّدَةً تسـمى عَرَفة، جاءهــا ســهم من بعض الشــبابيك فقتلهــا وهي تــرقص بين يــدي الخليفة، فـانزعج الخليفـة من ذلـك وفـزع فزعـاً شـديداً! وأحضـر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: إذا أراد اللــه إنفـاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم، فـأمر الخليفـة عنـد ذلك بزيادة الإحتراز وكثرة الستائر(الجُدُر) على دار الخلافة)[2]

هذا هو الخليفة السني الذي يتباكى عليـه الطـائفيون، والـذي استشهد وهو منشغل بكل كيانه براقصته الـتي ملكت عليـه عقلـه وقلبه وكل كيانه.. وفي تلك الأيام الشديدة.

---

[1] البداية والنهاية (13/ 233)

[2] المرجع السابق، (13/ 233)

وهذا هو الخليفة الذي أقام الطائفيون من أجله الدنيا، وراحوا يطالبون بثأره، واعتبروا كل الشيعة خونة بسبب ذلك الوزير المسكين الذي ابتلي بالوزارة في دولة العابثين والراقصين والماجنين، وكأنه هو الذي حال بين الخليفة وبين صيرورته زعيما حقيقيا، أو صيرورة قادة الجند أبطالا شجعانا.. لكن العقل الطائفي يقبل كل شيء، ويكذب على كل شيء.

ونحن لا ندافع هنا عن ابن العلقمي، ولا عن غيره.. ولكنا نتعجب من تلك العقول الممتلئة بالأحقاد، فلذلك تصدق كل ما يردها من دون تحليل ولا تحقيق ولا ورع، ثم لا تكتفي بالتعامل مع الحادثة، وكأنها حادثة فردية، بل تعممها على طائفة كبيرة محترمة، فإذا ما ذكر المخالف لهم قائدا أو حاكما أو وزيرا سنيا قام بخيانة في وقت من الأوقات ذكروا له أن ذلك الوزير لا يمثل إلا نفسه.. فكيف يستقيم أن يمثل الوزير السني نفسه فقط، بينما يمثل الوزير الشيعي جميع الشيعة في كل زمان ومكان؟

فإذا تركنا تلاميذ ابن تيمية وذهبنا إلى غيرهم من المؤرخين، فسنجد حقائق أكثر دقة، وخاصة من مؤرخين أقرب زمنا إلى الحادثة من تلاميذ ابن تيمية، ومن أمثلتهم المؤرخ الكبير أبو الفداء [1] (672 - 732 هـ)، والذي أشار في تأريخه إلى ابن العلقمي لم يكن له ذلك الدور الذي يصوره به الطائفيون، فقد قال: (ولما مات المستنصر اتفقت آراء أرباب الدولة مثل الدوادار والشرابي على تقليد الخلافة ولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله، وهو سابع ثلاثينهم وآخرهم، وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأي فاستبد كبراء دولته بالأمر، وحسنوا له قطع الأجناد، وجمع المال ومداراة

[1] هو أَبُو الفِدَاء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب: الملك المؤيد، صاحب حماة. مؤرخ جغرافي، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب، وعلم الهيأة، له (المختصر في أخبار البشر) ويعرف بتاريخ أبي الفداء، وهو من أشهر كتب التاريخ، وقد ترجم إلى الفرنسية واللاتينية وقسم منه إلى الإنكليزية، وقد كانت له علاقة جيدة بالمماليك، حيث اتصل بالملك الناصر (من دولة المماليك) فأحبه الناصر وأقامه سلطانا مستقلا في (حماة) ليس لأحد أن ينازعه السلطة، وأركبه بشعار الملك، فانصرف إلى حماة، فقرّب العلماء ورتب لبعضهم المرتبات، وحسنت سيرته، واستمر إلى أن توفي بها، انظر: الدرر الكامنة 1:ـ 371 والبداية والنهاية 4:ـ 158 وفوات الوفيات 1: 16.

التتر، ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر)(1)

فهذا النص يبين أن كبار الدولة هم الذين اقترحوا عليه قطع رواتب الجند بسبب كثرتهم، ولم يذكر ابن العلقمي، وقد ذكرنا سابقا ما ذكره الذهبي من شكى ابن العلقمي من عدم الاهتمام برأيه.

وهذا ما ذكره القلقشندي (756 - 821 هـ) مؤيدا له، فقد قال: (وأبطل أكثر العساكر، وكان التتر من أولاد جنكزخان قد خرجوا على بلاد الإسلام على ما تقدم، وملكوا أكثر بلاد الشرق والشمال.. وكان عسكر بغداد قبل ولاية المستعصم مائة ألف فارس، فقطعهم المستعصم ليحمل الى التتر متحصل إقطاعاتهم! فصار عسكرها دون عشرين ألف فارس)(2)

وهذا ما ذكره ابن الطقطقي (3) (660 - 709 ه)، والذي كان مؤرخا معاصرا لابن تيمية، وكان الأصل أن يُعتمد قوله، لكن مرض الطائفية منع من ذلك، فقد قال واصفا ابن العلقمي: (وكان مؤيد الدين الوزير عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية متنزهاً مترفعاً. قيل إن بدر الدين صاحب الموصل أهدى إليه هدية تشتمل على كتب وثياب ولطائف قيمتها عشرة آلاف دينار، فلما وصلت إلى الوزير حملها إلى خدمة الخليفة، وقال: إن صاحب الموصل قد أهدى لي هذا واستحييت منه أن أرده إليه، وقد حملته وأنا أسأل قبوله فَقَبل. ثم إنه أهدى إلى بدر الدين عوض هديته شيئاً من لطائف بغداد قيمته اثنا عشر ألف دينار، والتمس منه ألا يهدي إليه شيئاً بعد ذلك! وكان خواص الخليفة جميعهم يكرهونه ويحسدونه! وكان الخليفة يعتقد فيه ويحبه وكثروا عليه عنده فكفَّ

1() تاريخ أبو الفداء/804.

2() مآثر الإنافة:2/89.

3() هو محمد بن علي بن محمد ابن طباطبا العلويّ، أبو جعفر، المعروف بابن الطقطقي: مؤرخ بحاث ناقد. من أهل الموصل، هو صاحب كتاب (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية)، انظر: الأعلام للزركلي (6/ 283)

يده عن أكثر الأمور ونسبه الناس إلى أنه خامر(تـآمر مـع هولاكـو) وليس ذلك بصحيح)[1]

فهذا نص صـريح من مـؤرخ معاصـر لابن تيميـة، وكـان يمكن اعتمـاد قولـه، أو كـان يمكن أن يوضـع قولـه مـع قـول ابن تيميـة ليترك الخيار للقارئ في اختيار ما يشاء، أو كان يمكن أن يتوقفـوا في المسألة باعتبار أن هناك اختلافا فيها.. لكن الطائفية تمنـع من كل ذلك.

وهكذا إن عدنا إلى مؤرخ آخر كان معاصرا للحادثة، وهـو ابن العـبري (المتـوفى: 685هـ)، والـذي ذكـر في تاريخـه أن ابن العلقمي حاول إنقاذ الخلافة فمنعوه.

فقد ذكر أنه عندما اقـتربت حملـة المغـول استشـار الخليفـة وزيره ابن العلقمي فأشـار عليـه أن يرسـل الى طـاغيتهم هولاكـو هدايا وفيرة، ويطمئنه بأنه يعترف به سـلطاناً كالسـلطان البـويهي والسلجوقي، ليعترف هولاكو بالخليفة ولا يهاجم بغداد! وقـد اقتنـع الخليفة بهذا الرأي وأمرهم فباشـروا بتهيئـة الهـدايا والرسل، لكن القائـد السـني الدويـدار وبقيـة البطانـة اسـتكثروا الهديـة ومنعـوا الخليفـة من إرسـالها فأطـاعهم، وأحبطـوا بـذلك محاولـة إنقـاذ الخلافة.

وقد عبر ابن العبري عن ذلك بقوله: (وفيها في شـهر شـوال رحل هولاكو عن حدود همـذان نحـو مدينـة بغـداد، وكـان في أيـام محاصرته قلاع الملاحدة قد سـيَّر رسـولاً إلى الخليفـة المستعصـم يطلب منـه نجـدة، فـأراد أن يسـيِّر ولم يقـدر، لم يمكنـه الـوزراء والأمراء وقـالوا: إن هولاكـو رجـل صـاحب احتيـال وخديعـة وليس محتاجاً إلى نجدتنا، وإنما غرضـه إخلاء بغـداد عن الرجـال فيملكهـا بسهولة. فتقاعدوا بسبب هذا الخيال عن إرسال الرجال! ولما فتح هولاكـو تلـك القلاع أرسـل رسـولاً آخـر إلى الخليفـة وعاتبـه على إهماله تسيير النجدة، فشاوروا الوزير فيما يجب أن يفعلوه فقـال: لا وجه غير إرضاء هذا الملك الجبار ببذل الأموال والهدايا والتحـف

[1] الآداب السلطانية/233.

لـه ولخواصه. وعنـدما أخـذوا في تجهـيز مايُسَـيِّرونه من الجـواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال، قال الدويدار الصـغير وأصـحابه: إن الـوزير إنمـا يدبر شأن نفسه مع التاتار وهو يروم تسـليمنا إليهم فلا نمكنـه من ذلك! فأبطل الخليفة بهذا السـبب تنفيـذ الهـدايا الكثـيرة، واقتصـر على شئ نزر لا قدر له، فغضب هولاكو وقال: لا بد من مجيئه هـو بنفسـه أو يسـيِّر أحـد ثلاثـة نفر: إمـا الـوزير وإمـا الدويـدار وإمـا سليمان شاه. فتقدم الخليفة إليهم بالمضي فلم يركنـوا إلى قوله، فسيَّر غيرهم مثل ابن الجوزي وابن محيي الدين، فلم يُجديا عنـه) (1)

وهكذا نجد الكثير من المتحررين المعاصرين يكتشـفون هـذه النتائج بسهولة، ومنهم باحث محترم كتب مقـالا تحت عنـوان [ابن العلقمي الخـائن الغـدار وابن خلـدون العاقـل الحصـيف.. وحـدة الفعل واختلاف الهوى]

وقد أشار فيه إلى ازدواجيـة التعامـل بين ابن العلقمي الـذي اتهم بتلك التهم الخطيرة في نفس الـوقت الـذي سـكت فيـه عن غـيره، وقـد قـال في بدايـة مقالـه: (كـان مؤيـد الـدين محمـد بن العلقمي وزيرا للخليفة العباسي المستعصم بالله كمـا كـان وزيـرا للخليفة الذي سبق المستعصم، وقد دامت وزارته لاكثر من ثلاثين عاما [626- 642هجرية]، ولم تكن الوزارة، يومذاك ولقرون قبلها ولقرون بعدها كذلك، تعني ماتعنيه اليـوم، فقـد كـان الـوزير، كمـا عرفـه التـاريخ العـربي الاسـلامي ليس سـوى مستشـار للخليفـة يستأنس برايه ويستفيد من خبرته وكان الوزراء، في الأغلب الأعم ينتقون من ذوي الخبرة والمعرفة والعلم والكياسة، ولم تكن قـوة الوزير يومذاك، أي وزير، تستند إلى قاعـدة سـوى رضـا وموافقـة واختيـار الخليفـة نفسـه، فهـو لم يكن يضـاهي أو يقـرب من قائـد الجند أو صاحب الشرطة، أو غيرهم ممن كانت قوتهم تسـتند إلى قاعدة حقيقية مؤثرة قد تفرض نفسها وتملي إرادتها على الخلفاء وخصوصا الضعفاء منهم، كما كان حـال خلفـاء دولـة بـني العبـاس

(1) تاريخ مختصر الدول/240.

في مرحلة شيخوختها)[1]

ثم ذكر حقيقة ما وقع بعيدا عن تلك الكتابات الطائفية، فقال: (والحقيقة أن هولاكو كان قد اجتاح في طريقه إلى بغداد العشرات من المدن والممالك شرق وشمال بغداد، وكانت حملته تجري وفقا لخطة إمبراطورية كلفه بها أخوه الملك مونكو خان، حفيد جنكيز خان وقد تضمنت ثلاثة محاور أساسية هي القضاء على مملكة لورستان جنوبي إيران، وتدمير قلعة الاسماعيلية في آالموت، وتدمير مركز الخلافة العباسية في بغداد، كمرحلة أولى ثم التوجه إلى الشام ومصر وبلاد السلاجقة الروم وحتى البحر الابيض المتوسط كمرحلة ثانية ولم يكن بحاجة لمراسلات أو تحريضات من ابن العلقمي أو غيره)

ثم ذكر كيف تنقل هولاكو وفق لتلك الخطة، فقال: (وقد اجتاح هولاكو بالفعل بلاد خراسان واذربيجان ولورستان والعراق والموصل والجزيرة وديار بكر والشام وبلاد السلاجقة الروم ولم يوقفه الا المصريين في عين جالوت. وقد حاصر هولاكو، قبل بغداد، قلعة الاسماعيلية في آلموت، وعندما استسلمت له أرسل زعيم الإسماعيلية ركن الدين خورشاه مع أهله ورجاله إلى أخيه في عاصمة الدولة المغولية الذي أمر بقتلهم جميعا وقد استباح هولاكو قلعة الموت وأعمل فيها القتل الذريع حتى شمل النساء والأطفال، ثم توجه نحو بغداد التي وجه إلى الخليفة فيها، كعادته في إثارة الرعب لدى خصمه،رسالة شديدة اللهجة ينذره فيها بالدخول في طاعته أو مواجهة العواقب الوبيلة، ثم اقتحمها ولم يستطع الخليفة أو جيشه الضعيف له دفعا واعمل في بغداد حرقا ونهبا وقتلا واحرق، فيما أحرق، اضافة إلى جامع الخليفة، مرقد الامام موسى الكاظم، واستباح الرصافة، وكان جل أهلها من السنة، وأعمل في اهلها القتل مثلما استباح الكرخ، التي كان جل سكانها من الشيعة، وأعمل فيهم القتل الذريع)

---

[1] ابن العلقمي الخائن الغدار وابن خلدون العاقل الحصيف .. وحدة الفعل واختلاف الهوى، دراسات وابحاث في التاريخ والتراث واللغات، رشيد عبد النور، الحوار المتمدن، 11/3/2007 .

ثم ذكر الرأي الذي طرحه ابن العلقمي، والذي أسيء فهمه، فقال: (وقد كان من رأي العلقمي أن تدخل بغداد في ملكه طوعا لا قسرا مما سيجنبها وأهليها الاستباحة والدمار، خصوصا وأن ليس لها أو لجيشها قبل بهذا الفاتح الذي اجتاح قبلها وفي طريقه إليها الممالك والمدن وأنه يحاصرها الآن من ثلاثة جهات بثلاثة جيوش إحدها جاءها من جهة الموصل، وآخر من جهة خوزستان، والآخر من جهة همذان وكان بقيادة هولاكو نفسه، وتقدر بعض المصادر التاريخية عديد جيشه ذاك بمئتي ألف مقاتل غير أن قائد جندها الشركسي الدوا دار وابن الخليفة رأوا غير هذا الرأي، وعند سقوطها واجتياحها أرجفوا هم وانصارهم بتلك الاشاعة ليجدوا كبش فداء وشماعة يعلقون عليها هزيمتهم وعجزهم، وكان من عوائد ذلك الزمان أن تختار المدن المحاصرة من قبل غاز لا قبل لها به وفدا من وجهائها وأعيانها وذوي الرأي فيها ليلتقي بالفاتحين عند أسوار المدينه ويسلمهم مفتاحا رمزيا يرمز إلى ان تلك المدينه ترغب في تجنب المواجهة والدخول في ملكهم طوعا. وهو الامر الذي بادرت اليه أتابكية الموصل ومملكة الارمن وانطاكية وطرابلس وأسرع صاحب حمص الايوبي بارسال الهدايا وطلب الامان والدخول في طاعة هولاكو وكذلك الملك المنصور صاحب حماه، وخرج من دمشق وفد برئاسة قاضيها محي الدين الزكي وسلمه مفاتيحها طلبا للامان، فخلع هولاكو على القاضي وعينه وكيلا له على دمشق في حين مانعت حلب ولم تستسلم فحاصرها هولاكو ودخلها بعد سبعة ايام فاعمل فيها قتلا ونهبا وسبيا) (2)

وبعد أن ذكر كل هذه الأحداث التاريخية الموثقة، راح يتساءل: (فإذا كانت خيانة ابن العلقمي هي السبب في سقوط بغداد فما هو شان دمشق ؟ وهل كان العلقمي وراء اجتياح واستباحة حلب ؟ وماهو القول بشأن إرسال الملك الايوبي الاشرف صاحب حمص وحفيد أسد الله شيركوه الهدايا والمعونات لهولاكو وقبوله الدخول في طاعته، بل إن أتابك الموصل ركن الدين اسماعيل انضم إليه هو وجيشه ليحاصر معه ويستبيح حلب،

(2) المرجع السابق .

وثمـة واقعـة شـبيهة أخـرى، ذات دلالـة سـاطعة، على المعـنى والغرض، فبعد خمسة وثلاثين سنة من ذلـك التـاريخ اجتـاح تيمـور لنك، حفيد هولاكـو المـدن والممالـك واقتحم بغـداد، وعنـد أسـوار دمشق تدلى له وفد من وجهاء دمشـق كـان على راسـهم قاضـي القضـاة تقي الـدين بن ابـراهيم بن مفلح الحنبلي، بعـد أن رفض بعض أهل دمشق وقادتها فتح الابواب لتيمور لنك، وفاوض، بمعيـة ابن خلدون، تيمورلنك على الصلح وأن تدخل دمشـق في طاعتـه، فطلب الأخير أن تجمع له الأمـوال وأن يسـلم إليـه السـلاح وتفتح لجنده الابواب وأن يـدفع اليـه كـل المقاتلـة والعسـاكر المصـريين الذين جاءوا دمشق لنجدتها منـه، فـاجيب إلى ذلـك وجمـع لـه من المال ألـوف ألـوف الـدنانير، ودفـع لـه المقاتلـة المصـريين غـدرا ليذبحهم، وخـرج لـه وفـد من أهـالي دمشـق يراسـه الحنبلي وابن خلـدون ومعهم مالـذ وطـاب من الماكـل والمشـرب والفـراش والدواب والتحف وصار ابن مفلح الحنبلي يخذل الناس ويثني على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناءا عظيما.. ويكف أهـل دمشـق عن قتاله وينادي أن من خالف ذلك قتل وهدر دمه .. ورغم ذلـك فقـد اجتـاح تيمورلنـك دمشـق بذريعـة أو اخـرى واعمـل في أهلهـا قتلا وذبحا وتمـثيلا واسـتحيا نسـاءها، حـتى أن كتب التـاريخ لـتروي مـا تقشعر منه الابدان وتشمئز منه النفوس فعلا، ولكن بعد ان اعطى لقاضي القضاة الحنبلي امرا باقراره في منصـبه وكـذلك لصـاحب الجند وكرم ابن خلدون على بلاغته وحذقه وحسن تدبيره) [1]

هذه بعض الحقائق التاريخية التي أشار إليها الكاتب، والمغيبة للأسف بسبب مرض الطائفية الذي يُحـل الكـذب وشـهادة الـزور، وكل الجرائم.

بعد كل هذا، نحب أن نختم هـذه المصـادر بالإشـادة ببـاحث سعودي متحرر هـو أ. د. سـعد بن حذيفـة الغامـدي أسـتاذ التـاريخ الإسلامي ودراساته الشرقية في كلية الآداب قسم التاريخ جامعــة الملك سـعود والـذي رد على الكثـير من الأوهـام الـتي يتعلـق بهـا الطـائفيون في هـذا الجـانب، وذلـك في كتابـه (سـقوط الدولـة

1() المرجع السابق .

العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والإتهام)، والذي نال بسببه حظه من النقد والطرد والحرمان السلفي الذي لا يفرق في الطرد بين المسائل العقدية والتاريخية.. ولو أن الذي صنفوا الكتب الأولى في العقائد عادوا إلى الوجود لوضعوا قصة ابن العلقمي والطوسي من ضمن العقائد التي يكفر جاحدها.. ولو عاش علماء الجرح والتعديل ورأوا أهمية سيف بن عمر وغيره من الكتبة الكذبة لحولوه ثقة عدلا ضابطا لا يتكلم فيه إلا مبتدع.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه سليمان بن صالح الخراشي في منتدى صيد الفوائد وردا على كتاب الدكتور الغامدي فقد كتب مقالا بعنوان: (دكتور في جامعة الملك سعود يردد أكذوبة شيعية)، ومما جاء فيه: (سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والإتهام) كتابٌ للأستاذ الدكتور سعد بن حذيفة الغامدي أحد منسوبي جامعة الملك سعود قسم التاريخ، صدر قريبًا وكتب على طرته (دراسة جديدة لفترة حاسمة من تاريخ أمتنا)وهذا ما أغراني لاقتنائه منتظرًا ماسيجود به قلم الدكتور من جديد في هذه القضية، إلا أنني تفاجأت عندما رأيته يردد ما ردده الشيعة الرافضة من تكذيب لأي خيانة لأسلافهم، وهو ما تتابع عليه ثقات المؤرخين، فهذا الجديد عنده، يقول الدكتور محاولاً دفع تهمة الخيانة عن الرافضة: (ومع هذا فإن سؤالاً يتبادر إلى الذهن وهذا السؤال هو: هل كان هولاكو محتاجاً إلى مساعدة المسلمين الشيعة ضد المسلمين السنة حتى نقبل أنهم كانوا أحد العوامل التي أدت إلى سقوط بغداد؟ في الحقيقة لم يكن هولاكو محتاجاً إلى مساعدة من أي فرد شيعياً كان أم سنياً، لذلك فإننا نجد كما يظهر لنا أنه من غير المحتمل إن لم يكن من المستحيل أن يكون لهذه الطائفة من المسلمين أي دور فعال، سواء من داخل أو من خارج بغداد في هجوم المغول ضد العاصمة العباسية بغداد وخلافتها السنية)

ومما ذكره هذا الباحث الفاضل المتحرر: (إن للمرء أن يقول بأن هذه الإتهامات لاأساس لها من الصحة؛ إذ لم تدعم أو تثبت بأي دليل قاطع، يقوم أساساً على تقرير شاهد عيان معاصر؛ كما أنها لم تظهر هذه الإتهامات أو الشائعات بمعنى أدق إلا بعد

سنوات طوال من بعد سقوط العاصمة بغداد، وانقراض أسرتها الحاكمة العباسية، جاءت هذه الإتهامات التي وجهت ضد أتباع المذاهب الشيعي عامة ووزير الخليفة المستعصم ابن العلقمي خاصة، في جميع المراجع السنية تقريباً والتي تسنى لنا الرجوع إليها، والتي كتبها مؤرخونا أولئك الذين جاؤا فيما بعد. إذ نجد أن كل مؤرخ يأخذ عن المؤرخ الذي سبقه ثم يضيف كما سبقت الإشارة إلى هذه الحقيقة إلى ما نقله من سلفه، ثم إضافة كلام من عنده هو إشاعات أكثر منه حقيقة تاريخية ثابتة، ولكننا نجد أن هذه الإتهامات تظهر أيضاً في مؤلف لمؤرخ غير مسلم وهذا المؤرخ هو المكين بن العميد جرجس المسيحي الديانة، حيث يقول بتآمر الوزير مع المغول ضد الخلافة العباسية، وقد أخذ بعض مؤرخينا الحديثين رواية ابن العميد تلك على أنها دليل قاطع بلا ريب أو شك عندهم، على أن الوزير مذنب! كان ابن العميد مؤرخاً مسيحياً معاصراً عاش في مصر وكتب تاريخه باللغة العربية عن بني أيوب. ولكننا عندما نرجع إلى حقيقة ما قاله ابن العميد في هذا الشأن فإن المرء سيجد أن هذا المؤرخ لم يكن على علم بما وقع فعلاً وأنه لم يكن يروي في كتابته عن هذه المسألة إلا مجرد شائعات وأقاويل جارية لم يثبتها تقرير من شاهد عيان، وفي هذا الخصوص يقول ابن العميد ما يلي: وقيل إن وزير بغداد كتب إلى هولاؤون(يعني بذلك هولاكو) بأن يصل إلى بغداد ويأخذ البلاد)(1)

هذه نماذج مما ذكرته المصادر والمراجع التاريخية، ونحن لا نطالب الطائفيين باعتمادها، ولكننا نطالبهم بأن يتقوا الله في التعامل مع الحقائق، وأن لا يتجاوزوا ما أمرنا به من العدل، حتى مع الأعداء، فكيف بإخوانهم المسلمين الذين ملأوا القلوب حقدا عليهم.

ويلحق بهذا أيضا تلك الأراجيف التي كذبوا بها على نصير الدين الطوسي من غير تحقيق ولا دراسة.. وإنما بمجرد الهوى الذي يستخدم شهادات الزور، كهذه الشهادة التي يذكر فيها ابن تيمية الطوسي بقوله: (هذا الرجل قد اشتهر عند الخاص والعام

1() نقلا عن: [دكتور في جامعة الملك سعود يردد أكذوبة شيعية !!] موقع صيد الفوائد.

أنّه كان وزيراً الملاحدة الباطنية الاسماعيليّة في الالموت، ثمّ لمّا قدم الترك المشركون إلى بلاد المسلمين، وجاؤوا إلى بغداد دار الخلافة، كان هذا منجّماً مشيراً لملك الترك المشركين هولاكو، أشار عليه بقتل الخليفة وقتل أهل العلم والدين، واستبقاء أهل الصناعات والتجارات الذين ينفعونه في الدنيا، وأنّه استولى على الوقف الذي للمسلمين، وكان يعطي منه ما شاء الله لعلماء المشركين وشيوخهم من البخشية السحرة وأمثالهم. وأنّه لمّا بنى الرصد الذي بمراغة على طريقة الصابئة المشركين، كان أبخس الناس نصيباً منه من كان إلى أهل الملل أقرب، وأوفرهم نصيباً من كان أبعدهم عن الملل، مثل الصابئة المشركين ومثل المعطلة وسائر المشركين)(1)

هذا كلام ابن تيمية عنه، ولسنا ندري من أين نقله لأن كل الذين عايشوا الحادثة، وعاصروها لم يذكروها مع كونهم من الثقاة لدى السلفية.

فممن عاصر الحادثة الشيخ ابن الفوطي الحنبلي البغدادي (المتوفى 723 هـ)، والذي ترجم له الذهبي قائلاً: (ابن الفوطي العالم البارع المتفنّن المحدّث المفيد، مؤرخ الافاق، مفخر أهل العراق، كمال الدين أبوالفضائل عبدالرزاق بن أحمد بن محمّد بن أبي المعالي الشيباني ابن الفوطي، مولده في المحرّم سنة 642 ببغداد، وأُسر في الوقعة وهو حَدَث ـ أُسر في الوقعة: وقعة بغداد ـ ثمّ صار إلى أُستاذه ومعلّمه خواجة نصير الدين الطوسي في سنة 660ـ فأخذ منه علوم الأوائل، ومهر على غيره في الأدب، ومهر في التاريخ والشعر وأيام الناس، وله النظم والنثر، والباع الأطول في ترصيع تراجم الناس، وله ذكاء مفرط، وخط منسوب رشيق، وفضائل كثيرة، سمع الكثير، وعني بهذا الشأن)(2)

وقال صاحب فوات الوفيات ابن شاكر الكتبي: (الشيخ الامام

1() منهاج السنة النبوية (3/ 445)

2() تذكرة الحفاظ 4/1493.

المحدّث المؤرّخ الاخباري الفيلسوف)[1]

أمّا ابن كثير، فقد قال عنه: (الامام المـؤرّخ كمـال الـدين ابن الفوطي أبوالفضل عبدالرزاق، ولـد سـنة 642 ببغـداد، وأُسـر في واقعــة التتــار، ثمّ تخلّص من الأسر، فكــان مشــرفاً على الكتب بالمستنصريّة، وقد صنّف تأريخاً في خمس وخمسين مجلّداً، وآخر ـ أي كتاباً آخر ــ في نحـو عشـرين، ولـه مصـنّفات كثـيرة، وشـعر حسن، وقد سمع الحديث من محي الدين ابن الجوزي، وتوفي في ثالث المحرّم في السنة التي ذكرناها)[2]

فهــذا المــؤرّخ، بشــهادة أعلام الســلفية ومــؤرخيهم شــاهد الحادثة، وهو إمام مؤرّخ معتمد، وله كتاب الحوادث الجامعة الـذي تعرّض فيه لسقوط بغداد على يـد هولاكو، ومـع ذلـك لم يـذكر أي علاقة لنصيرالدين بذلك مع أنه ألّف كتابه هـذا بعـد الحادثـة بسـنة واحدة، أي سنة 657 تاريخ تأليف كتاب الحوادث الجامعة.

ولعل من أسباب حنق ابن تيمية عليه بالإضافة إلى تشيعه هو اهتماماته العلمية الكثيرة بالرياضيات والفلـك وغيرها، والـتي كـان السلفية ولا زالوا يقفون منها موقفا متشددا.

1() فوات الوفيات 2/319.

2() البداية والنهاية 14 / 106.

الملك العضوض.. والصياغة البشرية للدين

في البدء.. كانت كل الأديان إلهية، ومملـوءة بـالقيم النبيلـة.. ولم يكن في مصادرها المقدسة أي مس بكرامة الإنسان أو حريته أو حقوقه.. ولم يكن فيها إلا التناسق الجميـل مـع حقـائق الحيـاة والكون؛ فكان العقل والعلم والفطرة والدين وجوها لذات واحـدة، يؤدي بعضها إلى بعض، ويبرهن بعضها على بعض.

وكان الرسل وورثتهم مثالا ناطقا مجسدا لكل تلـك التعـاليم، فلم يكونوا سوى مظاهر لرحمة ربهم وعدالته ولطفه بعباده.. ولم تكن شريعتهم إلا تلك الشريعة المتناسبة مع أسماء اللـه الحسـنى التي جعلها الله مفاتيح للكون والحياة والشريعة وكل شيء.

لكن ذلك كله لم يكن يعجب ورثة إبليس من أصـحاب الملـك العضوض، أو الممهدين لهم؛ فلذلك كـانوا يسـرعون كـل حين إلى ورثة الأنبياء؛ فيحجبونهم عن وظـائفهم الـتي وُكلت لهم، ويبحثـون عن لصوص الأديان، ويعطونهم ثمنـا قليلا، لينسـجوا لهم دينـا على مقاسهم، بحيث يتيح لهم التملك والسيطرة والاستبداد.

وحينها يبدأ اللصوص في تفسـير كلمـات ربهم المقدسـة بمـا ينسجم مع أهواء أصـحاب الملـك العضـوض، ثم يشـتغل التنـافس بينهم، أيهم يضـيف للـدين أكـثر، وهنـا تبـدأ العقـول المدنسـة في مزاحمة كلمات ربهـا المقدسـة.. لتملأهـا بالـدجل والخرافـة وكـل ألوان الأهوء.

ثم يشـتغل الخلاف بينهم، مثلمـا يشـتغل الخلاف بين قطـاع الطـرق، ليتحـول الـدين بعـدها لعبـة من اللعب، يضـيفون إليهـا وينقصون، ليرتاح الأمـراء في قصـورهم الـتي بنوهـا على جمـاجم المستضـعفين في الـوقت الـذي تتقاتـل فيـه الرعيـة بسـبب تلـك الإضافات والتلبيسات.

وهكذا تتحول الرعية التي سلمت دينها لأولئك اللصـوص، من الاشـتغال بـالبحث في أسـماء اللـه والتحقـق بهـا والسـير على

منهاجها، إلى البحث عن صورة إلهها وجهته ومكانه ومحل صعوده ونزوله.

وتنتقل من البحث عن القيم التي مثلها نبيها، أو دعا إليها، إلى تلك الإضافات الكثيرة التي وضعها اللصوص، والتي حولوا فيها النبي إلى بشر مثلهم ممتلئ بالأهواء التي تتناسب مع أصحاب الملك العضوض.

وهكذا تتحول الأديان الإلهية إلى أديان بشرية، وتسقط الرعية الخاضعة لأصحاب الملك العضوض في هاوية الانحرافات السلوكية والأخلاقية بسبب تلك المصادر الكثيرة التي زاحمت المصادر المقدسة.

هذا ما حصل في كل الأديان.. ولا يصح أن نستثني الإسلام منه؛ فسنة الله في خلقه واحدة، وكيف نستثنيه، وقد ورد في النصوص المقدسة ما يدل عليه، وورد في الواقع التاريخي ما يؤكده.

لكن أصحاب المجد المزيف، بدل أن يُعملوا النصوص المقدسة، راحوا ـ خوفا على معارفهم التي اكتسبوها من لصوص الأديان ـ يدافعون عن الملك العضوض، ولو على حساب وصايا ربهم وأنبيائهم وورثتهم.

ولهذا نجدهم يعرضون عن كل تلك الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ بصراحة ودقة عن أولئك الذين تبدأ بهم مسيرة التحريف الكبرى، والتي يجدونها في مصادرهم المعتمدة، لأن حرصهم على أصحاب الملك العضوض والممهدين لهم، صار أعظم من الحرص على تنفيذ وصايا نبيهم.

وحتى لا يكون كلامنا مجملا، وحتى نضع النقاط على الحروف، نحاول أن نتخلص من كل الرواسب النفسية والاجتماعية التي ملأنا بها المحرفون للأديان، ونقرأ قوله ﷺ، وهو الحريص على أمته، ومن لا ينطق عن الهوى: (أول من يبدل

سنتي رجل من بني أمية)[1]

وهذا الحديث الصحيح الذي صححه الألباني، يدل على سنة أصحاب الملك العضوض التي ذكرناها، والتي يتحول بسببها الدين من دين إلهي إلى دين بشري.

والواقع التاريخي أثبت من دون شك انطباق الحديث على معاوية، باعتباره قرب الكثير من لصوص الأديان، وأضاف تغييرات كثيرة للشريعة، كان لها آثارها الخطيرة على كل التحريفات التي جاءت بعده، والتي كان أعظمها تغيير نظام الحكم الإسلامي، وتحويله إلى نظام ملكي استبدادي ظل قرونا طويلة إلى أن سقط مع آخر خلفاء بني عثمان.

إلا أن حرص رسول الله ﷺ على أمته جعله يذكر الكثير من العلامات، حتى تتفطن إلى ما يراد بدينها، ومنها قوله ﷺ: (الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون الملك العضوض)[2]، وهم يتفقون على هذا الحديث، ولو أنهم حسبوا، لوجدوا أن الملك العضوض بدأ مع معاوية.

لكن لصوص الأديان، وخشية منهم من أن يكون لذلك الحديث أثره في التفطن للخديعة الكبرى، راحوا يضعون حديثا آخر بدله يقول: (أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكًا ورحمة، ثم يتكادمون عليها تكادم الحمير، فعليكم بالجهاد، وإن أفضل جهادكم الرباط، وإن أفضل رباطكم عسقلان) [3]

---

[1] () رواه ابن أبي شيبة في المصنف (35866)، وابن أبي عاصم (63)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (1/132)، وابن عدي في الكامل (3/164)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (18/160)

[2] () سنن الترمذي: 4/436 ـ سنن أبي داوود: 5/36، فضائل الصحابة- للامام أحمد بن حنبل ص 17، مسند احمد ج 5 ص 221.

[3] () رواه الطبرانى فى (المعجم الكبير 22/184 رقم591)

ولم يكتف رسول الله ﷺ بكل تلك الإشارات الصريحة، وإنما كان ـ بسب خطورة الأمر ـ ينبه كل حين إلى الحذر معاوية وفتنته، ومنها ما حدث به عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ فقال: (يطلع عليكم من هذا الفج رجل يموت على غير ملتى)، قال: وكنت تركت أبي قد وضع له وضوءا، فكنت كحابس البول مخافة أن يجىء، قال: فطلع معاوية، فقال النبي ﷺ: (هذا هو)[1]

ومنها قوله ﷺ: (معاوية فرعون هذه الأمة)، ومن رواياته ما رواه الخلال وغيره عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (لكل أمة فرعون، وفرعون هذه الأمة معاوية بن أبي سفيان)[2]

ومنها ما رواه نصر بن مزاحم عن عبد الله بن عمر قال: (ما بين تابوت معاوية وتابوت فرعون إلا درجة، وما انخفضت تلك الدرجة إلا أنه قال: (أنا ربكم الأعلى)[3]

ومن تلك الأحاديث التي تحذر من معاوية وفتنته قوله ﷺ: (لعن الله الراكب والقائد والسائق)، فعن البراء بن عازب، قال: أقبل أبو سفيان ومعه معاوية، فقال رسول الله ﷺ: (اللهم العن التابع والمتبوع اللهم عليك بالأقيعس)، فقال ابن البراء لأبيه: من

1() البلاذري في كتابه جمل من أنساب الأشراف (5 /ـ 1978) وغيره، وقد قال الشيخ حسن بن فرحان معلقا عليه: (وهو صحيح الإسناد وفق منهج أهل الحديث، إلا أن بعضهم إذا لم يلتزم بمنهجه الذي ارتضاه فهذا شأنه، كأي جماعة أو دولة، فإذا وضعت دولة لها قانوناً فيه معايير الفساد، ثم لا تطبقه على الفاسدين فهذا شأنها، ولا يعني أنهم غير فاسدين، والحديث قد روي بأسانيد على شرط الصحيح، في قوة الرجال والاتصال في السند، ورجاله كلهم رجال الشيخين، وأشهر طرقه طريق عبد الله بن عمرو بن العاص (وأرجح أنه أذاعه بعد موت معاوية وبعد توبته على يد الحسين بن علي بمكة في أواخر عهد معاوية)، وقد روي بأسانيد أقل صحة عن جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر، وله شواهد من طريق آخر عن ابن عمر (وبسبب ذلك هدد معاوية بقتل عمر)، ولو كان هناك إنصاف لكان من علامات النبوة)، انظر: مثالب معاوية في الأحاديث الصحيحة: 1/17.

2() المنتخب من علل الخلال: 1/32.

3() وقعة صفين: ج 1 / ص 211.

الأقيعس؟ قال: معاوية(1).

ولم يكتف رسول الله ﷺ بالتحذير من معاوية باعتباره الرأس الأكبر من رؤوس الفتنة، وإنما أخبر عن جميع المساهمين معه في الشركة التي تقوم بتحريف الإسلام، وتحويله إلى ما نراه اليوم من دين مملوء بالمحبة والسلام وكل القيم النبيلة، وإلى دين مملوء بالكراهية والصراع وكل الأهواء المدنسة، ففي الحديث المتفق على صحته قال ﷺ: (هلاك أمتي على يدي أغيلمة من قريش)(2)

ومع أن هذا الحديث واضح في الدلالة على تأثير أولئك المحرفين للدين وخطورتهم، وأنهم سبب كل الانحرافات التي وقعت في الأمة، إلا أن أولئك المتحذلقين من الخائفين على أصحاب الملك العضوض راحوا يجعلون هلاك الأمة على يد شخصيات وهمية كابن سبأ أو غيرهم حرصا على أولئك القرشيين الذين وكلوا أمر الدين إليهم.

وهكذا ورد حديث آخر لا يقل عنه صراحة، يخبر فيه ﷺ بالجهة التي يكون منها التحريف، ويأمر باعتزالها والابتعاد عنها وعن كل القرارات التي اتخذتها، ففي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يهلك الناس هذا الحى من قريش)، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: (لو أن الناس اعتزلوهم؟)(3)

1() وقعة صفين:217، وقد علق الشيخ حسن بن فرحان عليه بقوله: (ورد في معاوية وأبيه وأخيه، وله طرق كثيرة جداً، أغلبها صحيح لذاته، وفق منهج أهل الحديث، بل قد يصل هذا الحديث للتواتر، فهو مروي من طرق سفينة والحسن بن علي والبراء بن عازب وعاصم الليثي وابن عمر والمهاجر بن قنفذ، وكل هذه الطرق صحيحة الأسانيد مع أقرار بعض أصحاب معاوية كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، فالحديث يقترب من التواتر لأن الطرق كلها بين الصحيح والحسن، وسيتفاجأ هؤلاء الغلاة قطعاً بصحة الأسانيد، وإذا ضعفوها فأنا معهم بشرط أن نطرد ذلك، ثم ينظرون هل يبقى لنا حديث كثير بعد هذا التشدد)، انظر: مثالب معاوية في الأحاديث الصحيحة: 1/18.

2() أحمد (2/324) والبخاري (4/242).

3() صحيح البخاري: 4 / 242)

وهذا الحديث مع أحاديث أخرى يدل فيه رسول اللــه ﷺ على كيفية التعامل مع الفئة الباغية بعـد أن يتحقـق نصـرها على الفئـة المؤمنة الصادقة، وهي القيام بنـوع من العصـيان المـدني تجاهها حتى لا يمتد تأثيرها لباقي شـؤون الحيـاة، بعـد أن امتـد للسياسـة والاقتصاد.

هذه بعض الأحاديث التي وردت في شأن معاوية، تحذر منــه، وتبين خطورة التحريف الذي جاء به.. وهي أحـاديث متفقـة تمامـا مع حـرص رسـول اللـه ﷺ على هـذه الأمـة، ومن العجب أن تهتم الأمة بأحاديث التحذير من الدجال، ويبالغون فيهـا وفي الكثـير من الأساطير المرتبطة بها، بينما يتغافلون على أمثـال هـذه الأحـاديث التي ترتبط بالدين نفسه، وبالقيم النبيلة التي جاء بها.

وقد أكـدت تلـك الأحـاديث وغيرهـا بروايـات الصـحابة الـذين سمعوا تلك الروايات، وراحوا يفسرونها، ومن الأمثلة على ذلك مـا روي عن عبادة بن الصامت، أنه قال: (إني سمعت رسول اللــه ﷺ محمـدا أبـا القاسـم يقـول: (سـيلي أمـوركم من بعـدي رجـال يعرفونكم ما تنكرون، وينكرون عليكم ما تعرفـون، فلا طاعـة لمن عصى الله، فلا تعتبوا أنفسكم، فوالذي نفسي بيده، إن معاوية من أولئك) (1)

ومنها ما رواه الأصبهاني عن أبي ذر قال: قلت لمعاويـة، أمـا انا فأشهد إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أحدنا فرعون هـذه الأمة، فقال معاوية: أما أنا فلا(2).

1() رواه الحـاكم (3/401،ـ 402) والشاشـي (3/172) والـبزار (7/164) ثم أحمـد في المسند (8/415)، – مع بتره- قال الشيخ حسن: (قد تبرع بعض المحدثين كأحمد فحذف أول الحديث –قصة بقر روايا الخمر- وحذف آخره (قول عبادة: واللـه إن معاويـة لمنهم)!! وهـذه من أخطاء أحمد – وعلى منهجه شيخه سفيان بن عيينـة وتلميـذه البخـاري لكن أهـل الجـرح والتعديل لا يتكلمون!- وهؤلاء المحدثون يحذفون من الحـديث مايخـالف عقيـدتهم! فكـل مـا يخشون أنه قدح في فلان أو فلان! أو ما يخشـون أن يحتج بـه عليهم المخـالفون، حـذفوه أو بتروه وهم يعترفون بهذا ولا يـرون في ذلـك ضـرراً، فمن يجـرؤ على تضـعيفهم؟ وقـد صـرح أحمد في هذا الحديث بالحذف –حذف قصة الخمر- عندما قال)فـذكر الحـديث)-!! فهـو يلمح إلى أن الحديث معروف عند أهـل الحـديث لكنـه تحـرج من إيـراد هـذا) [مثـالب معاويـة في الأحاديث الصحيحة: 1/146.]

ومنها ما روي عن سعد بن حذيفة بن اليمان قال: قال عمار بن ياسر يوم صفين، وذكر أمرهم وأمر الصلح فقال: (والله ما أسلموا، ولكن استسلموا وأسروا الكفر فلما رأوا عليه أعواناً أظهروه) (1)

ومنها قول عمار بن ياسر: (يا أهل الإسلام أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما فلما أراد الله أن ينصر دينه وينصر رسوله أتى النبي ﷺ فأسلم وهو الله فيما يُرى راهب غير راغب وقبض رسول الله ﷺ وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم! ألا وإنه معاوية فالعنوه لعنه الله وقاتلوه فإنه ممن يطفي نور الله ويظاهر أعداء الله)(2)

ومنها ما روي عن عبد الله بن سلمة قال: رأيت عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً آدم طوالاً أخذ الحربة بيده ويده ترعد فقال: (والذي نفسي بيده لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة، والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعرفت أن مصلحينا على الحق وأنهم على الضلالة)(3)

2() أخبار أصبهان (ج7/ص40)، وهذا تعريض من أبي ذر بمعاوية، وقد كذب معاوية عندما قلب الحديث إلى ابي ذر، فهو يعلم أن ابى ذر أبعد عن أن يكون فرعون هذه الأمة.

1() رواه الطبراني في الكبير، ورواه ابن أبي خيثمة في تاريخه المسمى تاريخ ابن أبي خيثمة: 2 /ـ 991)، وانظر: الهيثمي في مجمع الزوائد (1/118)، وقد علق الشيخ حسن بن فرحان على هذا الحديث الخطير بقوله: (السند صحيح على شرط الشيخين إلا سعد بن حذيفة بن اليمان وهو تابعي كبير ثقة، بل يحتمل أن له صحبة.. فالسند صحيح ورجاله كلهم ثقات سمع بعضهم من بعض.. وعنعنة الأعمش في الصحيحين، وهذا القول قاله عمار بن ياسر يوم صفين، ومعناه واضح؛ فعمار بن ياسر ميزان تلك الحروب يقسم بالله أن معاوية وأمثاله من رموز أهل الشام لم يسلموا يوم فتح مكة، وإنما استسلموا وخضعوا حتى يجدوا على الحق أعواناً، وله شاهد من حديث ابن عمر في قصة التحكيم: (أولى بهذا الأمر من ضربك وأباك على الإسلام حتى دخلتم فيه كرهاً) واصله في صحيح البخاري، ويدل على هذا القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6] وأمثالها من الآيات التي ستتناول رؤوس الكفر أكثر من تناوله عوامهم، عدل الله يقول هكذا)، انظر: بحث في إسلام معاوية، ص67.

2() نصر (ص213)، تاريخ الطبري: 3 / 82)

ومنها ما روي عن عبد الله بن سلمة، قال: كنا عند عمار بصفين وعنده شاعر ينشده هجاء في معاوية وعمرو؛ وعمار يقول له: الصق بالعجوزين فقال له رجل: أيقال الشعر عندكم ويُسب أصحاب رسول الله ﷺ ويُسب أصحاب بدر؟! فقال: (إن شئت فاسمع، وإن شئت فاذهب، فإن معاوية وعمراً قعدا بسبيل الله يصدان عنه، فالله سابهما وكل مسلم، وإنه لما هجانا المشركون شكونا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: قولوا لهم كما يقولون لكم فإن كنا لنعلمه الإماء بالمدينة) [1]

ومن تلك الروايات، وهي تدل على شخصية عمار الذي رباه رسول الله ﷺ على يده وكان من نجباء أصحابه، ومن التلاميذ الصادقين للنبوة، ما حدث به عبد الملك بن أبي حرة الحنفي، أن عمار بن ياسر خرج إلى الناس، فقال: (اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته، اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في صدري ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهرت لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أن عملاً من الأعمال هو أرض لك منه لفعلته)[2]

ومن تلك الروايات التي يتستر عليها أحباب معاوية، وأنصار الملك العضوض، هذه الرواية الخطيرة التي تصور واقع الثورة المضادة التي قام بها معاوية، ووعي السابقين من الصحابة لذلك، فقد حدث أسماء بن الحكم الفزارى قال: كنا بصفين مع على بن أبى طالب تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى - استظللنا ببرد أحمر، إذ أقبل رجل يستقرى الصف حتى انتهى إلينا فقال:

---

[3]() قال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج 7 / ص 175): رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الله بن سلمة وهو ثقة، وقال البوصيري في كتابه: (إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة) (ج 8 / ص 5): رواه أبوداود الطيالسي وأبو يعلى وأحمد بن حنبل بسند صحيح.

[1]() أنساب الأشراف: 1 / 328)

[2]() تاريخ الرسل والملوك: ج 3 / ص 96)

أيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار بن ياسر: هذا عمار. قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم. قال: إن لى حاجة إليك فأنطق بها علانية أو سرا؟ قال: اختر لنفسك أي ذلك شئت. قال: لا، بل علانية. قال: فانطق. قال: إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذى نحن عليه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى كان ليلتي هذه صباح يومنا هذا، فتقدم منادينا فشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ونادى بالصلاة، فنادى مناديهم بمثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة، ودعونا دعوة واحدة، وتلونا كتابا واحدا، ورسولنا واحد، فأدركني الشك في ليلتي هذه، فبت بليلة لا يعلمها إلا الله حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر؟ قلت: لا. قال: فالقه فانظر ما يقول لك فاتبعه، فجئتك لذلك. قال له عمار: هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلتى فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة ما هي بخيرهن ولا أبرهن، بل هي شرهن وأفجرهن، أشهدتَ بدرا وأحدا وحنينا أو شهدها لك أب فيخبرك عنها؟ قال: لا. قال: فإن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدر، ويوم أحد، ويوم حنين، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، هل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ فوالله لوددت أن جميع من أقبل مع معاوية ممن يريد قتالنا مفارقا للذي نحن عليه كانوا خلقا واحدا فقطعته وذبحته، والله لدماؤهم جميعا أحل من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراما؟ قال: لا، بل حلال، قال: فإنهم كذلك حلال دماؤهم، أتراني بينت لك؟ قال: قد بينت لى، قال: فاختر أي ذلك أحببت. قال: فانصرف الرجل ثم دعاه عمار بن ياسر فقال: أما إنهم سيضربوننا بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولون: لو لم يكونوا على حق ما ظهروا علينا، والله ما هم من الحق على ما يقذى عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر لعرفت أنا على حق وهم على باطل، وأيم الله لا يكون سلما سالما أبدا حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق وأن قتلاهم في الجنة وموتاهم، ولا ينصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم

في الجنة، وأن موتى أعدائهم وقتلاهم في النار، وكان أحياؤهم على الباطل[1].

فهذه الرواية الخطيرة التي يصدقها كل شيء تدل على موقف السابقين الصادقين من الصحابة من الفتنة التي أحدثها معاوية ومن معه من الفئة الباغية، وأنها لم تكن قاصرة على موقف سياسي أو على مطالب بسيطة، وإنما كان الهدف منها تحريف الدين وتغييره تماما.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ما ذكره عمار بن ياسر في الحديث المشهور الذي أخبر فيه عن قتال الإمام علي لمن يريدون تحريف القرآن الكريم، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: كنا جلوسا ننتظر رسول الله ﷺ، فخرج إلينا قد انقطع شسع نعله، فرمى به إلى علي، فقال: (إن منكم رجلا يقاتل الناس على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله)، قال أبو بكر: أنا، قال: لا، قال عمر: أنا، قال: (لا، ولكن خاصف النعل) [2]

وفي رواية عن أبي سعيد قال: كنا نمشي مع النبي ﷺ، فانقطع شسع نعله، فتناولها علي يصلحها، ثم مشى، فقال: إن منكم لمن يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله، قال أبو سعيد: فخرجت فبشرته بما قال رسول الله ﷺ، فلم يكبر به فرحا، كأنه قد سمعه[3].

ونحب أن ننبه هنا إلى أنه لا تناقض بين هذه الروايات وبين ما روي من عدم تكفير عمار بن ياسر لأهل الشام الذين حاربوا الإمام علي[4]، لأن الكثير منهم كان من المغرر بهم، والجمع

1() نصر بن مزاحم في كتابه في وقعة صفين: ج 1 / ص 320)

2() تهذيب الخصائص ص 88.

3() فضائل الصحابة للإمام أحمد: 2 / 627، وانظر: مسند الإمام أحمد 3 / 82، المستدرك للحاكم 3 / 122.

4() ومن تلك الرويات ما ورد في مصنف ابن أبي شيبة (8/722) عن زياد بن الحارث

بينهما سهل يسير.

ونحب أن ننبه كذلك إلى أن أحاديث عمار الكثيرة في معاوية وموافقة كبار الصحابة بما فيهم الإمـام علي عليهـا، يـدل على مـا يسمى إجماعا سكوتيا.. وذلك لعلم الصحابة بكون رسـول اللـه ﷺ اعتـبر عمـارا علامـة ممـيزة بين الفئـة الصـادقة المحافظـة على أصالة الدين والفئة الباغية صاحبة الثورة المضادة، ويدل على ذلك ما ما حدث بـه أبـو عبـد الـرحمن السـلمي قـال: شـهدنا مـع علي صفين فرأيت عمار بن ياسـر لا يأخـذ في ناحيـة ولا واد من أوديـة صفين إلا رأيت أصحاب محمد ﷺ يتبعونه كأنه علم لهم[1].

ولم يكن أمـر التحـذير قاصـرا على عمـار بن ياسـر، بـل إن المحذرين منه كثـير، ومنهم سـعيد بن زيـد بن عمـرو، فقـد حـدث محارب بن دثار قال: كـان مـروان على المدينـة، فـأمر النـاس أن يبايعوا ليزيد وأرسـل إلى سـعيد بن زيـد بن عمـرو بن نفيـل أهـل الشام يدعوه إلى البيعة، قال: فخرج رجل أشعث أغبر رث الهيئـة فقال: (يأمرني مروان أن أبايع لقوم ضربتهم بسيفي حتى أسلموا ولكن استسلموا فقال أهل الشام مجنون) [2]

وفي رواية أن معاويـة كتب إلى مـروان بالمدينـة يبـايع لابنـه يزيد، فقال رجل من أهل الشام ما يحبسك؟ قال حتى يجئ سعيد بن زيد فيبايع فإنه سيد أهـل البلـد إذا بـايع بـايع النـاس قـال: أفلا أذهب فآتيك به، قال: فجاء الشـامي وأنـا مـع أبي في الـدار قـال: انطلـق فبـايع قـال: انطلـق فسـأجئ فأبـايع فقـال: لتنطلقن أو

قال: كنت إلى جنب عمـار بن ياسـر بصـفين، وركبـتي تمس ركبتـه، فقـال رجـل: كفـر أهـل الشام، فقال عمار: لا تقولوا ذلـك نبينـا ونـبيهم واحـد، وقبلتنـا وقبلتهم واحـدة، ولكنهم قـوم مفتونون جاروا عن الحق، فحق علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إليه.

[1] () الاستيعاب: ج 1 / ص 352)، وقد علق الشيخ حسن المالكي على الحديث بقوله: (والسند صحيح على شرط الشـيخين، وعلى هـذا فقـد كـان على رأي عمار ثمانون من أهل بدر وثمانمائة من أصحاب بيعة الرضوان، وهذه السلفية العتيقة، لا تقاومها سلفية ابن عمر ولا غـيره، مـع أن مـا ثبت عن المعـتزلين وهم قلة سعد وابن عمر يتفق مع علي وعمار وقد ندم المعتزلون وأبـرزهم سـعد وابن عمـر، مـع أن ابن عمـر ليس بـدرياً.. إلا أن السـلفية المحدثـة غلت فيـه بسبب حرصه على بيعة يزيد وتردده في بيعة علي وهذه من أخطائه رحمه الله وسامحه.. إلا أنهم لا ينقلون ندمه على ترك القتال مع علي، ولا تحديثـه بحـديث لعن معاوية ولا تهديد معاوية له بالقتل إن روى مثل هذه الأحاديث)، انظر: بحث في إسلام معاوية، ص86.

[2] () تاريخ دمشق: ج 21 / ص 89)

لأضرب عنقك قال: (تضرب عنقي؟ فوالله إنك لتدعوني إلى قوم أنا قاتلتهم على الإسلام، قال: فرجع إلى مروان فأخبره، فقال له مروان: اسكت[1].

ومن الصحابة الذين روي عنهم مثلما روي عن عمار بن ياسر عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: دخلت على حفصة، ونوساتها تنطف، قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين، فم يجعل لي من الأمر شيء. فقال: الحق، فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب. فلما تفرق الناس خطب معاوية فقال: من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق به منه ومن أبيه. قال حبيب بن مسلمة: فهلا أجبته؟ قال عبد الله: فحللت حبوتي، وهممت أن أقول: أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجميع، وتسفك الدم، وتحمل على غير ذلك. فذكرت ما أعد الله في الجنان. قال حبيب: حفظت وعصمت[2].

والحديث واضح وصريح، وفوق ذلك هو في صحيح البخاري، وفوق ذلك كله نرى معاوية فيه كيف يتهجم على كبار الصحابة من أمثال عمر وابن عمر، بل يرى نفسه أولى بالحكم منهم.

ومن الصحابة الذين روي عنهم مثلما روي عن عمار بن ياسر الإمام علي الذي تجاهل السلفية كل أحاديثه في الفتنة، بل وضعوه مع الطلقاء وأهل البغي في محل واحد، وكأنهما خصمان متساويان متعادلان.

بل نراهم يفضلون معاوية عليه حين يرمون بالكذب والبهتان كل من يتحدث بفضائل الإمام علي، أو كل من يروي أحاديثه وينقل خطبه، باعتباره شيعيا، بينما لا يتهمون بذلك من كان مع معاوية وفي المعسكر المعادي للإمام علي.

---

[1] () المرجع السابق، ج 21 / ص 88)

[2] () صحيح البخاري: (1 / 2025)

ولـذلك نـراهم يتهمـون كـل من يـروي مثـل هـذه الأحـاديث الـواردة عنـه في الفتنـة بكونـه شـيعيا، ومعـنى كونـه شـيعيا في التحقيق التاريخي هو كونه كـان في جيش الإمـام علي في صـفين أو قبلها أو بعدها، وهـل يمكن عقلا أن يـروي أحـد أحـاديث الإمـام علي، وهو لم يكن معه في جيشه؟ وهل يمكن لأهل الشام الـذين ملأ معاويـة قلـوبهم حقـدا على الإمـام علي أن يـرووا مثـل تلـك الأحاديث.

ولهـذا سـنذكر هنـا مـا ورد من روايـات عنـه في كتب السـنة وغيرها، ولا يهمنا الموقف الذي لا يطمئن إلا لأولئك الـرواة الـذين وثقتهم الفئة الباغية، ومن سار في صفها.

فمن تلك الروايـات قـول الإمـام علي: (انفـروا بنـا إلى بقيـة الأحزاب، انفروا بنا إلى ما قال الله ورسوله، إنا نقول: صدق اللـه ورسوله، ويقولون: كذب الله ورسوله)[1].

ومنها قوله: (انفروا إلى كـذا، انفـروا إلى بقيـة الأحـزاب إلى من يقول: كذب الله ورسوله ونحن نقول: صدق الله ورسوله) [2]

ومنها قوله: (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أسلموا، ولكن استسلموا وأسروا الكفر، فلما وجدوا أعوانـا رجعـوا إلى عـداوتهم منا إلا أنهم لم يدعوا الصلاة) [3]

ومنها هذه الرواية الخطيرة التي تبين سـنة اللـه في حصـول الثورات المضادة بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفيها أن رجلا جاء إلى على فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء القوم الذين نقـاتلهم: الدعوة واحدة، والرسول واحد، والصلاة واحـدة، والحج واحـد فبم نسميهم؟ قال: تسميهم بما سماهم الله في كتابه. قال: ما كل ما

1() مسند البزار (2 / 191)

2() السنة لعبد الله بن أحمد: ج 3 / ص 253

3() وقعة صفين (ص215)

في الكتاب أعلمه. قال: (أما سمعت الله قال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253]، فلما وقع الاختلاف كنا نحن أولى بالله وبالكتاب وبالنبي وبالحق، فنحن الذين آمنوا، وهم الذين كفروا، وشاء الله قتالهم فقاتلناهم هدى، بمشيئة الله ربنا وإرادته) (1)

ومنها كتاب كتبه إلى معاوية يقول فيه: (أما بعد، فإنا كنا نحن وأنتم على ما ذكرت من الالفة والجماعة، ففرق بيننا وبينكم أمس أنا آمنا وكفرتم، واليوم أنا استقمنا وفتنتم، وما أسلم مسلمكم إلا كرها، وبعد أن كان أنف الاسلام كله لرسول الله ﷺ حربا) (2)

ومن خطبة له يوم صفين في حواره مع وفد معاوية: (ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم، فقالوا لي: بايع، فأبيت عليهم، فقالوا لي: بايع، فإن الأمة لا ترضى إلا بك!، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس، فبايعتهم، فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني، وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عز وجل له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، حزب من هذه الأحزاب، لم يزل لله عز وجل ولرسوله ص وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين، فلا غرو إلا خلافكم معه، وانقيادكم له، وتدعون آل نبيكم ص الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحدا ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ص وإماتة الباطل، وإحياء معالم الدين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ولكل مومن ومؤمنة، ومسلم ومسلمه)(3)

1() المرجع السابق، ج 1 / ص 322.

2() شرح نهج البلاغة: 17 / 250.

ومن كتاب له إلى معاوية: (ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبوسفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق، ولا الصريح كاللصيق، ولا المحق كالمبطل، ولا المؤمن كالمدغل، ولبئس الخلف خلف يتبع سلفا هوى في نار جهنم..) (1)

ومن الصحابة الذين روي عنهم مثلما روي عن عمار بن ياسر الحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة، فقد وردت الروايات الكثيرة عنه، والتي تدل على موقفه من معاوية، ومن الفئة الباغية معه، ومنها ما رواه حبيب بن أبي ثابت، قال: لما بويع معاوية خطب فذكر عليا، فنال منه، ونال من الحسن، فقام الحسين ليرد عليه فأخذ الحسن بيده فأجلسه، ثم قام فقال: أيها الذاكر عليا، أنا الحسن، وأبي علي، وأنت معاوية، وأبوك صخر، وأمي فاطمة، وأمك هند، وجدي رسول الله ﷺ، وجدك حرب، وجدتي خديجة، وجدتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكرا، وألأمنا حسبا، وشرنا قدما، وأقدمنا كفرا ونفاقا. فقال طوائف من أهل المسجد: آمين) (2)

ومن كتاب له معاوية جاء فيه: (وقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا، وسلطان نبيّنا ﷺ وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزا يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب لما أرادوا به من فساده، فاليوم فليعجب المتعجب من توثّبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ، ولكنّ الله خيّبك وستردّ فتعلم لمن عقبى الدار، تالله لتلقينّ عن قليل ربّك، ثم ليجزينّك بما

3() تاريخ الطبري (5/ 8)

1() شرح نهج البلاغة: 15 / 117)

2() الأصبهاني في مقاتل الطالبيين (1/19)

قدمت يداك، وما الله بظلّام للعبيد) (3)

ومن الصحابة الذين روي عنهم مثلما روي عن عمار بن ياسر الإمام الحسين بن علي سبط رسـول اللـه ﷺ وسـيد شـباب أهـل الجنة، فقد أرسل رسالة إلى معاويـة يقـول فيهـا: (..ألسـت قاتـل حجر بن عدي وأصحابه المصـلين العابـدين، الـذين ينكـرون الظلم ويستعظمون البدع، ولا يخافون في الله لومة لائم، ظلما وعدوانا، بعد إعطائهم الأمان بالمواثيق والأيمان المغلظـة؟ أو لسـت قاتـل عمـرو بن الحمـق صـاحب رسـول اللـه ﷺ الـذي أبلتـه العبـادة وصفرت لونه وأنحلت جسمه؟! أو لست المـدعي زيـاد بن سـمية المولود على فراش عبيد عبـد ثقيـف، وزعمت أنـه ابن أبيـك وقـد قال رسول الله ﷺ: (الولد للفراش وللعاهر الحجر)، فتركت سـنة رسول الله ﷺ وخالفت أمره متعمـدا، وابتعت هـواك مكـذبا، بغـير هدى من الله، ثم سلطته على العـراقين فقطـع أيـدي المسـلمين وسمل أعينهم، وصلبهم على جذوع النخل، كأنـك لسـت من الأمـة وكأنها ليست منك، وقد قال رسول الله ﷺ: (من ألحق بقوم نسـبا ليس لهم فهو ملعون)، أو لسـت صـاحب الحضـرميين الـذين كتب إليـك ابن سـمية أنهم على دين علي، فكتبت إليـه: اقتـل من كـان على دين علي ورأيــه، فقتلهم ومثــل بهم بــأمرك، ودين علي دين محمد ﷺ الذي كان يضرب عليه أباك، والذي انتحالك إياه أجلسـك مجلسك هذا، ولولا هـو كـان أفضـل شـرفك تجشـم الرحلـتين في طلب الخمور، وقلت: انظر لنفسك ودينك والأمة واتق شـق عصـا الألفة وأن ترد الناس إلى الفتنـة، فلا أعلم فتنـة على الأمـة أعظم من ولايتك عليها، ولا أعلم نظرا لنفسي وديني أفضل من جهـادك، فإن أفعله فهو قربة إلى ربي، وإن أتركه فذنب أسـتغفر اللـه منـه في كثير من تقصيري، وأسأل اللـه تـوفيقي لأرشـد أمـوري؛ وأمـا كيدك إياي فليس يكون على أحد أضر منـه عليـك، كفعلـك بهـؤلاء النفر قتلتهم ومثلت بهم بعد الصلح من غير أن يكونـوا قـاتلوك ولا نقضوا عهدك، إلا مخافـة أمـر لـو لم تقتلهم مت قبـل أن يفعلـوه، وأمـاتوا قبـل أن يـدركوه، فأبشـر يـا معاويــة بالقصــاص، وأيقن بالحســاب، واعلم أن اللــه كتابــا لا يغــادر صــغيرة ولا كبــيرة إلا

(3) مقاتل الطالبيين (ص: 65)

أحصاها، وليس الله بناس لك أخـذك بالظنـة، وقتلـك أوليـاءه على الشبهة والتهمة، وأخذك الناس بالبيعـة لابنـك، غلام سـفيه يشـرب الشراب، ويلعب بالكلاب، ولا أعلمـك إلا خسـرت نفسـك، وأوبقت دينك، وأكلت أمانتك، وغششت رعيتك، وتبـوأت مقعـدك من النـار فبعدا للقوم الظالمين)[1]

ومن الصحابة الذين روي عنهم مثلما روي عن عمار بن ياسر عبد الله بن عباس، فمن خطبة لـه ألقاهـا في البصـرة جـاء فيهـا: (أيها الناس، استعدوا للمسير إلى إمامكم، وانفروا في سبيل اللــه خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم، فإنكم تقـاتلون المحلين القاسطين، الذين لا يقرءون القرآن ولا يعرفـون حكم الكتـاب، ولا يدينون دين الحـق، مـع أمـير المؤمـنين وابن عم رسـول اللـه ﷺ، الآمـر بـالمعروف، والنـاهي عن المنكـر والصـادع بـالحق، والقيم بالهـدى، والحـاكم بحكم الكتـاب، الـذى لا يرتشـى في الحكم، ولا يـداهن الفجـار، ولا تأخـذه في اللـه لومـة لائم)، فقـام الأحنـف بن قيس فقـال: نعم، واللــه لنجيبنــك، ولنخــرجن معــك على العســر واليسر، والرضا والكره، نحتسب في ذلك الخـير، ونأمـل من اللـه العظيم من الأجر[2].

ومن خطبة له بصفين: (إن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طغام أهل الشام أعوانا على علي بن أبي طالب ابن عم رسول اللــه ﷺ وصهره، وأول ذكر صلى معه، بدري قد شـهد مـع رسـول اللـه ﷺ كل مشاهده الـتي فيهـا الفضـل، ومعاويـة وأبـو سـفيان مشـركان يعبدان الأصنام، واعلموا: والله الذي ملـك الملـك وحـده فبـان بـه وكان أهله، لقد قاتل علي بن أبي طالب مع رسول الله ﷺ، وعلي يقول: صدق الله ورسوله، ومعاوية وأبو سفيان يقولان: كذب اللـه ورسوله. فما معاوية في هـذه بـأبر ولا أتقى ولا أرشـد ولا أصـوب منه في تلكم، فعليكم بتقـوى اللـه والجـد والحـزم والصـبر، وإنكم

---

[1] () انظر: طبقات ابن سعد (ترجمة الحسين)، والأخبار الطوال للدينوري، وتاريخ دمشق، وتهـذيب المـزي، ونبلاء الـذهبي، والبدايـة لابن كثـير وغـيرهم، وأكمل صيغة للرسالة رواها البلاذري في أنساب الأشراف (ج 2 / ص 119)

[2] () وقعة صفين (ص: 116)

لعلى الحق وإن القوم لعلى الباطل)[1]

وهكذا كان موقف كبار التابعين الذين أقصتهم الفئة الباغية لوقوفهم مع الإمام علي، ومن بينهم محمد بن أبي بكر ــ ربيب الإمام علي وابن أسماء بنت عميس ــ فمن أقواله في معاوية رسالة مشهورة جاء فيها: (وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله ﷺ الغوائل، وتجهدان في إطفاء نور الله، تجمعان على ذلك الجموع، وتبذلان فيه المال، وتؤلبان عليه القبائل، وعلى ذلك مات أبوك، وعليه خلفته، والشهيد عليك من تدني ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق..)[2]

ومنهم محمد بن الحنفية الذي روي عنه قوله: (لما أتاهم – يعني أتى أهل مكة- رسول الله ﷺ من أعلى الوادي ومن أسفله وملأ الأودية كتائب استسلموا حتى وجدوا أعوانا)[3]

لكن الحريصين على الملك العصوص راحوا يضربون هذه الأحاديث وغيرهم، بأولئك الذين قربهم معاوية، وأدناهم، ووهب لهم من الصلات ما جعلهم يسبحون بحمده حتى أن بعضهم، وهو قتادة قال: (لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم هذا المهدي)[4]

ومثله مجاهد الذي يروون عنه قوله: (لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي)[5]

---

[1] المرجع السابق، (ص: 318)

[2] مروج الذهب: 1 / 352)

[3] وقعة صفين(ص216)

[4] السنة؛ للخلال (1/438)

[5] المرجع السابق، (1/438)

ومثله الزهري الذي يروون عنه قوله: (عمل معاوية بسيرة عمر بن الخطاب سنين لا يخرم منها شيئاً)[1]

ومثله الأعمش الذي ذكر عنده عمر بن عبدالعزيز وعدله فقال: (فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: يا أبا محمد يعني في حلمه؟ قال: لا والله، بل في عدله) [2]

ومثله المعافى الذي قيل له: معاوية أفضل أو عمر بن عبدالعزيز؟ فقال: (كان معاوية أفضل من ستمائة مثل عمر بن عبدالعزيز) [3]

بناء على هذا سنحاول في هذا الفصل ذكر الأسس الكبرى التي قام عليها الدين البشري الذي صاغه أصحابه الملك العضوض وأعوانهم من لصوص الأديان، والتي رأينا أنها يمكن أن تجتمع في أساسين:

الأول ـ تحريف القيم العقدية.

الثاني: تحريف القيم الأخلاقية.

وسنضرب عليهما بعض الأمثلة والنماذج من خلال المبحثين التاليين:

1 ـ الملك العضوض.. وتحريف القيم العقدية

بما أن العقائد هي الأساس الذي تقوم عليه الأديان في كل جوانبها؛ فإذا ما حُرفت سهل تحريف كل شيء بعدها، فإن أصحاب الملك العضوض يولونها الأهمية الكبرى، بل ينطلقون منها في صياغة الدين بحسب ما تملي عليهم مصالحهم، لتحويله إلى أفيون للشعوب، يسيطرون به عليها، بعد أن يعزلوا الله عن ولايته

1() المرجع السابق، (1/444)

2() المرجع السابق، (1/437)

3() المرجع السابق، (1/435)

على خلقه، ويتحولوا بدله إلى أنداد من دون الله.

وهم يستغلون في ذلك ضعف الأتباع الذين في قلوبهم مرض، أو الذين لم يتمكن الدين من قلوبهم، أو الذين لا تزال رواسب الشرك لم تنقلع عنهم، فيستخفونهم، ويتلاعبون بعقولهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك عندما ذكر بني إسرائيل، واستعجالهم عبودية العجل، بمجرد غياب موسى عليه السلام، مع كون هارون عليه السلام بينهم إلا أنهم عزلوه، وراحوا يلتفتون للسامري، باعتباره ـ عندهم ـ أكثر صحبة وأرفع درجة من هارون.

وهكذا وقع التحريف في العقائد الإسلامية عندما التف الجماهير ـ بتأييد وتشجيع من أصحاب العضوض ــ بكعب الأحبار ووهب بن المنبه ومقاتل بن سليمان وغيرهم، تاركين الصادقين السابقين الذين ضحوا بكل شيء في سبيل الإسلام، ثم كان مصيرهم العزل من كل شيء.

ولهذا تسللت كل خرافات الأمم إلى هذه الأمة، بسبب تلك المجالس التحريفية للقرآن الكريم، والتي كانوا يوهمون الناس أنها مجالس علم، وأن الملائكة تحيط بها، بينما لم يكن يحيط بها سوى الشياطين.

وكيف لا تحيط بها الشياطين، وهي تملأ العقول التي هذبها القرآن، بذلك التراث المدنس الذي جاء الإسلام لمواجهته.. لكن ما هي إلا فترة قصيرة حتى صار تفسير القرآن الكريم مفتوحا لمن هب ودب، وراح العلماء الذين وكل إليهم حماية التنزيل من أن تتسرب إليه خرافات التأويل يتهاونون في ذلك، ويتساهلون، ويرددون ما قاله الإمام أحمد: (ثلاثة كتب ليس لها أصول المغازي والملاحم والتفسير)[1]

ويعنون بذلك أن التشدد في النقل ارتبط فقط بفروع الأحكام الفقهية، وخاصة ما تعلق بكيفية الطهار والصلاة ونحوها، أما في حقائق القرآن الكريم، وقصصه وعقائده، فالأمر فيها يسير وسهل.

---

[1] البرهان في علوم القرآن (2/ 156)

ولذلك امتلأت كتب التفسير والحديث والسيرة بكل أصناف الخرافات، وأصبح القرآن الكريم مطية لها، حيث تُترك معانيه الواضحة الظاهرة إلى ما قاله أولئك المحرفون الذين كانوا جميعا من زبانية وجنود أصحاب الملك العضوض يستخدمونهم لتشويه الدين وتحريفه وجعله متناسبا مع أهوائهم.

وهكذا حصل مع النبوة التي تساهلوا في الروايات المرتبطة بها، بل ورد ما يدل على تدخل أصحاب الملك العضوض في صياغة الكثير من الأحداث، حتى تصبح النبوة بالصورة التي يرتضونها، ولذلك أدخل في السيرة والسنة الكثير من الروايات والأحاديث التي تشوه النبوة أعظم تشويه.

وبناء على هذا حصل التشويه الكبير في العقائد الإسلامية، وبرعاية خاصة من أصحاب الملك العضوض الذين قربوا المجسمة والمخطئة للأنبياء في نفس الوقت الذي أبعدوا فيه المنزهة والقائلين بعصمة الأنبياء، بل اعتبروهم مبتدعة، وحكموا بتضليلهم وابتداعهم.

وهو نفس ما فعله قسطنطين الأول في المسيحية عندما قرب المحرفين للمسيحية في نفس الوقت الذي اتهم فيه الموحدين منهم، والمحافظين على منهج المسيح عليه السلام بالهرطقة.

وسنذكر هنا باختصار بعض ما فعله قسطنطين الأول بالمسيحية لنعرف من خلاله ما فعل معاوية والمتوكل والقادر بالله وغيرهم من أصحاب الملك العضوض بالإسلام.

ونعتمد في ذلك على ما قاله المسيحيون أنفسهم، والذين يقر الكثير من باحثيهم بالجرائم التي ارتكبها قسطنطين في حق المسيحية، وهي لا تختلف كثيرا عن الجرائم التي ارتكبها أصحاب الملك العضوض في حق الإسلام، وتحويله من دين إلهي مملوء بالقداسة والقيم النبيلة إلى دين بشري مدنس بالكثير من الأهواء والقيم التي لا تتناسب مع فطرة الله التي فطر الناس عليها.

فقد جاء في بعض المواقع المسيحية المرتبطة بشهود يهوه،

إقرارات بما فعله قسنطين الأول، نحب ذكرها هنا، لأنها تعبر عن الحقيقة التي دلت عليها المصادر التاريخية أحسن تعبير، فقد جاء فيه: (قسطنطين هو أول إمبراطور روماني يعلن اهتداءه إلى المسيحية، مغيِّرا بذلك مجرى التاريخ. فأيَّد هذا الدين الذي عانى الظلم والقهر في الماضي، ووضعه على طريق أدَّت في النهاية إلى نشأة العالم المسيحي، وعليه، أصبحت هذه المسيحية أقوى العناصر الاجتماعية والسياسية التي تلعب دورا في المسرح العالمي، بحسب دائرة المعارف البريطانية) (1)

وهذا كلام لاشك فيه، فالمسيحية قبل قسطنطين كانت مضطهدة، وكان له دور في إنقاذها إن صح التعبير، ولكن كان له دور أيضا في تشويهها، ولذلك فإن الذين يفتخرون بأصحاب الملك العضوض باعتبارهم ساهموا في الفتوح، لا يلتفتون إلى أنهم أيضا ساهموا في التشويه.. مع العلم أن الدين الإلهي لا يحتاج إلى التوسع بقدر ما يحتاج إلى الصفاء.

وقد ذكر صاحب المقال أهمية البحث حول شخصية قسطنطين وآثاره على المسيحية، وأن ذلك ليس مجرد بحث عن شخصية تاريخية، وإنما هو بحث عن الجذور التي نبت منها تشويه الدين، وكأنه بذلك يرد على أولئك الذين يرددون كل حين قوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: 134] من غير أن يفهموا معناها، ولا أن يدركوا أن تلك الأمة التي خلت هي التي تتحكم في التصورات التي يحملونها عن الدين، يقول في ذلك متسائلا: (لمَ يجب أن يهمك أمر هذا الإمبراطور الروماني؟)

ثم أجاب بقوله: (لأن مناوراته السياسية والدينية تؤثر إلى الآن في معتقدات وعادات كنائس كثيرة)(2)

ثم راح يفصل بعض مظاهر ذلك، فقال: (سنة ٣١٣ م، كان

---

(1) وقائع وشخصيات تاريخية، قسطنطين، موقع شهود يهوه، شباط/فبراير ٢٠١٤..

(2) المرجع السابق.

قسـطنطين متربعا على عــرش الإمبراطورية الرومانية الغربيـة، فيما حكم ليسينيوس ومكسيمينوس الإمبراطورية الشـرقية. وفي تلك السـنة، منح قسـطنطين وليسـينيوس حرية العبـادة للجميـع، بمَن فيهم المسيحيون. كما حمى قسطنطين المسيحية معتقدا أن وحدة إمبراطوريته من وحـدة الاديـان فيهـا، فقـد هالتـه النزاعـات التي قسَّمت الكنائس. وإذ رغب في توحيـد الصـف، أرسـى لا بـل فرض عقيدة [قويمة]، أما الاساقفة من جهتهم فلـزم أن يسـايروا على حساب إيمانهم في سبيل استرضائه، فأغدق هذا الإمـبراطور الهبات والعطايا على مَن ساير، وأعفاهم أيضا من الضرائب)[1]

ثم نقل عن المؤرخ تشـارلز فريمـان قولـه: (إن تبـني صـيغة العقيـدة المسـيحية ‹القويمـة› لم يخـوِّل [القـادة الـدينيين] الامـر والنهي في السماء فحسب بل على الارض أيضا)، وعن المـؤرخ أ. ه. م. جونز قوله: (لم تكتسب الكنيسة مدافعا عنهـا فحسـب، بـل سيدا متسلطا عليها أيضا) [2]

وبذلك تحولت المسيحية ــ كمـا يـذكر صـاحب المقـال ــ إلى دين آخر، وقد قال معـبرا عن ذلـك: (أدى تحـالف قسـطنطين مـع الاساقفة إلى نشوء ديانة جمعت عقائدها بين المسـيحية والوثنيـة، وكـانت هـذه النتيجـة حتميـة، بمـا أن الإمـبراطور عقـد النيـة على تحقيق التعددية الدينيـة، وكـان الحـق آخـر همـه، فهـو أولا وأخـيرا إمبراطور وثني، وليرضي الطرفين، انتهج (الغمـوض في تصـرفاته وسياسـته عمومـا)، كمـا يقـول أحـد المـؤرخين، وفيمـا رجَّح كفـة المسـيحية، لم يتوقــف عن تأديــة الشــعائر الوثنيــة. على ســبيل المثـال، تعـاطى التنجيم والعرافـة، ممارسـتين سـحريتين يـدينهما الكتاب المقدس. (تثنية ١٨: ١٠ـ١٢) كما يصوِّره قــوس قسـطنطين في رومــا وهــو يقــدِّم الــذبائح إلى الآلهــة الوثنيــة، وظــل هــذا الإمبراطور يكرم إله الشمس، واضعا نقشـه على النقـود ومروِّجـا عبادته. وفي أواخر حياته، أذن ببناء معبد في بلدة صغيرة بمنطقـة

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

أمبريا الايطالية تكريما لعائلته وشخصه، وسمح بتعيين كهنة للخدمة فيه، ولم يعتمد قسطنطين ويصر (مسيحيا) حتى سنة ٣٣٧ ب‍م حين كان على فراش الموت.. ويرى علماء عديدون أنه ظل يقدِّم رِجلا ويؤخر أخرى حتى تستمر الفئات المسيحية والوثنية على السواء في دعمه سياسيا. على كل حال، إن سيرة حياته وتأخُّر معموديته يقوِّضان مصداقية إيمانه بالمسيح) [1]

ثم بين صاحب المقال النتيجة التي آلت إليها المسيحية بعد ذلك التدخل الذي قام به قسطنطين الأول، فقال: (الاكيد أن الكنيسة التي شرَّعها غدت كيانا ذا نفوذ سياسي وديني أدار ظهره للمسيح واندمج في العالم.. وخلاصة القول إذًا أننا لا يجب أن نسلِّم جدلا أن الكنائس اليوم تعلِّم تعاليم المسيح، بل علينا بفحص الكتاب المقدس بغية التعرف على تعاليمه الحقة)[2]

وهكذا ورد في مقال آخر ذكر ما فعله قسطنطين الأول بالمسيحية، وتحويلها من دين إلهي إلى دين بشري، وهو يشابه كثيرا ما فعله أصحاب الملك العضوض في الإسلام، والذي لم يبتل بقسطنطين واحد، وإنما ابتلي بالكثير، ولا يزال للأسف يبتلى.

وقد ذكر صاحب المقال الوسيلة التي اعتمدت في ذلك، وهي ذلك التقديس الذي لا يزال يحظى به قسطنطين في المسيحية، بحيث صار من الرموز التي لا يحل نقدها أو تشريحها أوالتساؤل عن أعمالها، أو الشك فيها، مثلما فعلنا نحن مع الرموز الكثيرة التي جعلناها أندادا نعبدها من دون الله، فقال: (الإمبراطور الرومانى قسطنطين هو بين الرجال القليلين الذين زين التاريخ أسماءهم بلقب [الكبير] وأضاف العالم المسيحى الالقاب [القديس]، [الرسول الثالث عشر]، [المقدس المساوى للرسل]، والمختار بواسطة العناية الالهية لينجز أكبر تحول فى

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق.

العالم بأسره) (1)

ثم ذكر نظرة أكثر المسيحيين لقسطنطين، فقال: (تعلم كثيرون من مدعي المسيحية بأن قسطنطين الكبير هو أحد أبرز المحسنين إلى المسيحية، وينسبون إليه إنقاذ المسيحيين من بؤس الاضطهاد الرومان وإعطاءهم الحرية الدينية، وعلاوة على ذلك، يعتقد على نطاق واسع أنه كان تابعا أمينا لخطوات يسوع المسيح، وذا رغبة شديدة فى ترويج المسيحية، وقد أعلنت الكنيسة الارثوذكسية الشرقية والكنيسة القبطية كلا من قسطنطين وأمه هيلانه قديسا، ويحتفل بعيدهما أما فى 3 حزيران او 21 ايار، وذلك حسب التقويم الذى تستخدمه الكنيسة)(2)

ثم أخذ يذكر ما تقوله المصادر التاريخية عن هذ االقسطنطين وجرائمه في حق شعبه وحق المسيحية، واستغلاله لها لتثبيت سلطانه، ومنها ما نقله عن كتاب [تاريخ الأمة اليونانية] والذي ذكر الانطباع العام الذى تركه الدين لدى الاباطرة الرومان فى القرنين الثالث والرابع: (حتى عندما لم تكن للذين تربعوا على العرش الإمبراطورى ميول دينية عميقة، فقد استسلموا للجو السائد فى عصرهم، إذ وجدوا أنه من الضرورى منح الدين مكانة مهمة ضمن نطاق خططهم السياسية، ليضفوا على الأقل مسحة دينية على أعمالهم، ولا شك أن قسطنطين كان رجلا جارى عصره. ففى بداية مسعاه احتاج إلى رعاية إلهية، وهذا ما لم تكن آلهة روما التى يضمحل تأثيرها قادرة على تزويده، وراحت الإمبراطورية، ومن ضمنها الدين ومؤسسات أخرى تنهار، وكانت هنالك حاجة إلى شئ جديد ومنشط لإعادتها إلى ما كانت عليه، تقول دائرة المعارف اليونانية ايدريا: (كان قسطنطين مهتما بشكل خاص بالمسيحية لأنها لم تدعم انتصاره وحسب، بل ودعمت أيضا إعادة تنظيم إمبراطوريته، وصارت الكنائس المسيحية الموجودة فى كل مكان بمثابة دعم سياسى له..

(1) قسطنطين الكبير - هل كان نصيرا للمسيحية؟، دراسات وابحاث في التاريخ والتراث واللغات، مجدى زكريا، الحوار المتمدن، 2/11 /2012.

(2) المرجع السابق.

فأحـاط نفسـه بكبـار أسـاقفة ذلـك الزمـان.. وطلب منهم صـون وحدتهم) (1)

ثم ذكر صاحب المقال نوع الاستثمار الذي قام به قسطنطين للمسيحية، فقال: (شعر قسطنطين بأن المسـيحية ــ رغم تفشـى الارتداد وكثير من الفساد فيها آنذاك ـ يمكن أن يستخدمها بفعالية كقـوة تمنح العـزم فى سـبيل تنفيـذ خطتـه الكبـيرة لكى تسـود إمبراطوريته، واذ تبنى أسس المسيحية المرتدة لـيربح التأييـد من أجل بلوغ أهدافه السياسية، قرر أن يوحد النـاس تحت دين جـامع أو عـالمى، واحـد. فـأعطيت العـادات والاحتفـالات الوثنيـة أسـماء مسيحية. وأعطى رجال الدين المسيحيون مراكز، ورواتب، ونفـوذ الكهنة الوثنيين) (2)

ثم بين الأدوار القذرة التي قام بها في القضاء على الممثلين الحقيقـيين للمسـيحية في نفس الـوقت الـذي قـرب فيـه كـل الانتهـازيين، فقـال: (واذ كـان قسـطنطين يبحث عن الانسـجام الـدينى لأسـباب سياسـية، قضـى بسـرعة على جميـع أصـوات المعارضة. ليس على أسـاس العقائـد الحقـة بـل على أسـاس مـا تقبلـه الغالبيـة. والاختلافـات العقائديـة العميقـة داخـل الكنيسـة المسيحية المقسمة كثيرا، أتاحت له فرصة التدخل بصفته وسـيطا [مبعوثا من الله] ومن خلال تعاملاتـه مـع الـدوناطيين فى إفريقيـا الشـمالية وأتبـاع أريـوس فى الجـزء الشـرقى من الإمبراطوريـة، سرعان ما اكتشـف أن الاقنـاع لم يكن كافيـا لتشـكيل دين صـلب وموحد)(3)

ثم ذكر كيف راح يقنن للدين بالصيغة التي تحاول الجمـع بين الوثنية والمسيحية، فقال: (أى دور لعبه الإمـبراطور غـير المعتمـد

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

فى مجمع نيقية؟ تـذكر دائـرة المعـارف البريطانيـة [قسـطنطين] نفسه أشرف موجها المناقشات بفعاليـة.. وإذ كـانوا يرتـاعون من الإمبراطور فإن الأساقفة باسـتثناء اثـنين فقـط، وقعـوا الدسـتور، وكثـيرون منهم ضـد رغبتهم، وبعـد شـهرين من الجـدال الـدينى العنيف تدخل هذا السياسى الوثنى، واتخـذ قـرارا لمصـلحة الـذين قالوا إن المسيح هو الله، وكل مافهمه قسطنطين من المناقشات أن الانشقاق الدينى يهدد إمبراطوريته)(1)

وقد نقل محمد أبو زهرة عن ابن البطريق المسيحي وصفا للمجتمعين في مجمع نيقية وعددهم فقال: (بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطاركة والأساقفة فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة. وكانوا مختلفين في الآراء والأديان، فمنهم من كان يقول أن المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم البربرانية، ويسمون المريميين، ومنهم من كان يقول أن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، وهي مقالة سابليوس وشيعته، ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهي مقالة البيان وأشياعه)(2)

ونقـل عنـه مـا ذكـره عن دور قسـطنطين في تـرجيح كفـة المختلفين، مـع عـدم علاقتـه بالـدين أصـلا، فقـال: (اجتمـع أولئـك المختلفون، وسمع قسطنطين مثال كل فرقة من ممثليهـا، فعجب أشد العجب مما رأي وسـمع، فـأمرهم أن يتنـاظروا لينظـر الـدين الصحيح مع من، وأخلى داراً للمناظرة، ولكنـه جنح أخـيراً إلى رأي بولس، وعقد مجلسـاً خاصـاً للأسـاقفة الـذين يمثلـون هـذا الـرأي وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة) (3)

---

(1) المرجع السابق.

(2) محاضرات في النصرانية (ص: 124)

ونقل عن ابن البطريق قوله: (وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه، وسيفه، وقضيبه. فدفعه إليهم وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتي، لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين، وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك، وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية، وذب عنه، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع، منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به) (1)

وذكر كيف طبقت بعد ذلك تلك القوانين الدينية، وكيف امتحن الناس في دينهم على أساسها، فنقل عن كتاب تاريخ الأمة القبطية ما نصه: (إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه، وإنه لم يوجد قبل أن يولد، وإنه وجد من لا شيء. أو من يقول أن الابن وجد من مادة أو جوهر غير الله الأب، وكل من يؤمن إنه خلق، أو من يقول إنه قابل للتغيير، ويعتريه ظل دوران) (2)

وعلق عليه أبو زهرة بقوله: (إذن قرر المجمع أُلوهية المسيح، وإنه من جوهر الله، وإنه قديم بقدمه، وإنه لا يعتريه تغيير ولا تحول، وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين قاطبة مؤيدة سلطان قسطنطين، لاعنة كل من يقول غير ذلك والذين فرضوا هذا القول 318 أسقفاً، ويخالفهم في ذلك نحو سبعمائة وألف أسقف، وإن لم يكونوا متفقين فيما بينهم على نحلة واحدة، فهل ذلك المجمع لم يخل من نقد؟ إن باب النقد فيه متسع) (3)

وهكذا يذكر المؤرخون دوره في صياغة الكثير من العقائد

3() المرجع السابق، (ص: 124)

1() المرجع السابق، (ص: 124)

2() المرجع السابق، (ص: 124)

3() المرجع السابق، (ص: 124)

المسيحية التي تحولت بسببها من دين إلهي ممتلئ بالتنزيه والقيم النبيلة إلى دين بشري ممتلئ بالوثنية والصراع والعنف الذي ظل فترة طويلة إلى أن أقصيت المسيحية من الحياة، لفشلها في تسييرها.

ونفس الشيء تقريبا حصل للأسف في الإسلام بسبب أولئك الملوك الظلمة الذي أُعطوا قداسة خاصة، وأتيح لهم أن يتحكموا في قضايا الدين والدنيا جميعا، والذين راحوا يستعملون تلك السيوف ـ التي سلطوها على الأمم يقتلونها ويذبحونها ـ على كل مفكر وباحث، بدل أن يتيحوا الحرية الفكرية والدينية التي دعا إليها القرآن الكريم.

ومن الأمثلة على ذلك تلك الجرائم التي ارتكبها من سمى نفسه المهدي العباسي والد هارون، والذي سلط سيف الظلم على كل معارض له بتهمة الزندقة، وقد وصفه الذهبي بقوله: (إنه خائف من الله، معادٍ لأولي الضلالة، حَنِق عليهم)[1]

وقد كان من وصيته لابنه موسى (الهادي) الذي ورثه الحكم من بعده قوله له: (يا بني، إن صار لك هذا الأمر، فتجرّد لهذه العصابة ـ يعني من يتهمهم بالزندقة ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم، وترك قتل الهوام تحرّجاً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين، أحدهما: النور، والآخر: الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات.. فارفع فيها الخشب، وجرّد فيها السيف، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له)[2]

ولذلك أثنى عليه ابن تيمية كثيرا، بل اعتبره من الخلفاء الراشدين الصالحين، بسبب الدماء التي سفكها، ومن أقواله فيه: (وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوي كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب

1() سير إعلام النبلاء 7/403 ، وانظر: تاريخ الإسلام 10/444 .

2() تاريخ الطبري 8/220 ، وانظر : تاريخ الاسلام للذهبي 10/444 .

ذلك مثل: دولة المهدي والرشيد ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان ويغزو أعداءه من الكفار والمنافقين. كان أهل السنة في تلك الأيام أقوى وأكثر وأهل البدع أذل وأقل. فإن المهدي قتل من المنافقين الزنادقة من لا يحصي عدده إلا الله.. وكان المهـدي من خيار خلفاء بني العباس وأحسنهم إيمانا وعدلا وجـودا فصـار يتتبـع المنافقين الزنادقة كذلك)[1]

وهكذا فعل هارون، والذي رأينا نماذج عن جرائمه في الفصل المخصص له، وقد وصف ابن كثـير دوره في حمايـة العقائـد الـتي بثها أصحاب الملك العضوض من التجسيم وغيره، بقوله: (فضـائل الرشيد ومكارمه كثيرة جداً، قد ذكر الأئمـة من ذلـك شـيئاً كثـيراً، وقد كان الفضيل بن عياض يقول: ليس موت أحـد أعـز علينـا من موت الرشيد، لما أتخوف بعده من الحوادث، وإني لأدعـو اللـه أن يزيد في عمره من عمري، وقـالوا: فلمـا مـات الرشـيد، وظهـرت تلك الفتن والحـوادث والاختلافـات، وظهـر القـول بخلـق القـرآن، فعرفنا ما كان تخوفه الفضيل من ذلك) [2]

وقـد روي أن أبـا معاويـة الضـرير حـدّث هـارون بحـديث أبي هريـرة: (احتج آدم وموسـى، فقـال لـه موسـى: يـا آدم أنت أبونـا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال لـه آدم: يـا موسـى اصـطفاك اللـه بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قـدره اللـه علي قبـل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسـى، فحج آدم موسـى. ثلاثـا) [3]، فقال أحد الحاضرين: كيف هذا وبين آدم وموسـى مـا بينهمـا! فـوثب بـه هـارون، وغضـب غضـباً شـديداً، وقـال: أتعـترض على الحديث؟ عليّ بالنطع والسيف، فأحضـر ذلـك، فقـام النـاس إليـه، يشفعون فيه، فقال الرشيد: هذه زندقـة، ثم أمـر بسـجنه وأقسـم أن لا يخرج حتى يخـبره من ألقى إليـه هـذا، فأقسـم ذلـك الرجـل

1() مجموع الفتاوى (4/ 20)

2() البداية والنهاية، 10/221 .

3() رواه البخاري، (6614) ، مسلم ، (2652)

بالأيْمان المغلظة ما قال هذا له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة منه، وأنه يستغفر الله ويتوب إليها منها، فأطلقه)(1)

وقد علق الصابوني (2) على القصة بقوله: (هكذا ينبغي للمرء أن يعظم أخبار رسول الله ﷺ، ويقابله بالقبول والتسليم والتصديق، وينكر أشد الإنكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون الرشيد مع من اعترض على الخبر الصحيح الذي سمعه بكيف، على طريق الإنكار له والابتعاد عنه، ولم يتلقه بالقبول)(3)

وهكذا فعل المتوكل، والذي رأينا نماذج عن جرائمه في الفصل المخصص له، ولذلك وصفه ابن كثير بقوله: (لما ولي المتوكل على الله الخلافة استبشر الناس بولايته، فإنه كان محباً للسنة وأهلها، ورفع المحنة عن الناس، وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن)(4)

وقال: (كتب المتوكل إلى الآفاق بالمنع من الكلام في مسألة الكلام، والكف عن القول بخلق القرآن، وأن من تعلم علم الكلام لو تكلم فيه فالمطبق مأواه إلى أن يموت، وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير، ثم أظهر إكرام الإمام أحمد بن حنبل.. وارتفعت السنة جداً في أيام المتوكل عفا الله عنه، وكان لا يولي أحداً إلا بعد مشورة الإمام أحمد)(5)

1() البداية لابن كثير 10/215.

2() إسماعيل بن عبدالرحمن النيسابوري الصابوني الشافعي، محدث، فقيه، مفسر، واعظ، نصر السنة في خراسان، ولقِّب شيخ الإسلام، توفي سنة 449هـ . نظر : طبقات الشافعية 4/271 ، وسير أعلام النبلاء 18/40 .

3() عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص 321 .

4() البداية والنهاية 10/337 ، وانظر : 10/351 ، وسير أعلام البنلاء 12/31 .

5() البداية والنهاية 10/316 .

وهـو طبعـا لا يقصـد بالكتـاب والسـنة العـودة إلى المصـادر المقدسة، كمـا هي صـافية نقيـة، وإنمـا يقصـد بهـا تلـك التـأويلات والتحريفـات الـتي تحـولت بهـا المصـادر المقدسـة إلى مصـادر للتجسـيم والخرافـة وكـل أنـواع الضـلال، بـدليل أنـه ــ كمـا يـذكر المشيدون به ـ (أمر الفقهاء والمحـدثين أن يجلسـوا للنـاس، وأن يحـدثوا بالأحـاديث الـتي فيهـا الـردّ على المعتزلـة والجهميـة، وأن يحدثوا بالأحاديث في الرؤية والصفات) [1]

وهم يذكرون ـ بكل حقد ــ مـا فعلـه من جـرائم في حـق من يخـالفون تلـك القـوانين الدينيـة الـتي سـنها لـه من ارتضـاهم من الفقهـاء، مثلمـا فعـل أولئـك الـذين أحـاطوا بقسـطنطين، وراحـوا يعذبون المخالفون لهم، وقد ذكروا من ذلـك أنـه أن صـادر أمـوال أحمـد بن أبي داود، وسـجن أصـحابه.. وقتـل رجلاً كـان نصـرانياً فأسلم، ومكث سنين كثيرة، ثم ارتد فاستتيب، فـأبى الرجـوع إلى الإسلام، فضربت عنقه [2]، ولما ظهر شخص يزعم أنه ذو القرنين ويدّعي النبوة، أمر المتوكل بضربه بالسياط، فضرب ضرباً شديداً، فمات من بعد ضربه ذلك[3].

وهكــذا فعــل من بعــدهم من أصــحاب الملــك العضــوض، فالمعتضـــد نهى عن بيـــع كتب الكلام والفلســـفة والجـــدل بين الناس[4].

وهكـذا فعـل من قبلهم من الأمـويين، ولعـل أحسـن النمـاذج على ذلك ما فعله الظالم المستبد خالد القسري الـذي كـان واليـا علي العراق لهشام بن عبدالملك، والذي ذبح الجعد بن درهم يــوم

1() سير أعلام النبلاء 12/34 .

2() انظر : تاريخ الطبري 9/207، والمنتظم 11/296 .

3() انظـر : تـاريخ الطـبري 9/175 ، والكامـل 7/50 ، والمنتظم 11/223 ، والبدايـة 10/314 .

4() انظر : المنتظم 12/305 ، والبداية 11/64 .

العيد بسبب بعض آرائه العقدية، ثم خطب الناس وقال: (أيها الناس! ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما)، ثم نزل وذبحه أمام الناس[1].

وقد أثنى على هذا السلوك الداعشي الإجرامي كل الممجدين للملك العضوض من أمثال ابن تيمية وابن القيم وانتهاء بابن عثيمين الذي قال في درس من دروسه العمومية: (جزاه الله خيرا، فالناس يضحون بالغنم والشاة والمعز والبعير والبقر.. وهذا ضحي بشر منها، فإنه شر من الإبل والغنم والحمير والخنازير.. وإني أسأل الآن: البعير عن سبع، والبقر عن سبع، وهذا الرجل عن كم.. عن آلاف آلاف وقي الله شرا كبيرا، لكن بعض الناس _ والعياذ بالله_ يقولون إن هذا العمل من خالد بن عبد الله القسري ليس دينا، ولكنه سياسي، ونقول لهم هذا كذب، لأن الرجل صرح أمام الناس أنه قتله من أجل هذه البدعة)[2]

بناء على هذا سنذكر هذا نموذجا للتقنين السياسي للدين، وهو أقرب النماذج إلى قسطنطين، ذلك أنه أصدر قانونا للعقائد لا يزال ساريا إلى اليوم، بل لا يزال الكثير يمتحن عقائد الناس على أساسه.

وهذا القانون السياسي للعقائد الإسلامية هو ما يطلق عليه [الاعتقاد القادري]، والذي يهتم به السلفيون وغيرهم، ويعتبرون ما فيه من بيانات بشرية حقائق قطعية لا يجوز الجدال فيها، مع أن الذي تبناها ودافع عنها وقررها لم يكن إلا رجلا من رجال الملك العضوض.

وقد قال بعضهم في كتابه الذي خصصه له، مبينا دوافع اهتمامه به: (تميّزت سيرة الخليفة العباسي القادر بالله بمزايا ومواقف رائعة تقتضي البحث والتصنيف، فقد أظهر الإسلام وأقام

---

[1] البخاري في (خلق أفعال العباد) ص 69..

[2] هذا الكلام للشيخ محمد بن صالح العثيمين في شرح العقيدة الواسطية..

السنة، فألزم أهل الذمة الشروط العمرية، وهتك أستار الباطنيــة، وطعن في نسب العبيديين، وذلك في وقت استفحل شـأنهم وكـثر دعاتهم، كما استتاب المبتدعة وقمعهم، وانتصر لأهل السـنة، ومن مآثره أنـه كتب الاعتقـاد القـادري، وهـو اعتقـاد يسـتحق الدراسـة والتأليف لجملة أمور، منها أن هذا الاعتقاد على طريقة أهل السنة والجماعة، وقد أثنى عليه أئمة من أهل السنة كابن تيمية والذهبي وابن كثير وغيرهم.. ولهذا الاعتقاد أثـره الإيجـابي ونفعـه المتعـدي في إظهار مذهب أهل السنة ومدافعة أهل البدعة، بل إن آثاره لم تقف عند بلد معيّن أو عصر محدد)[1]

وهذا النص وحده كاف للدلالة على مدى الارتباط بين القــادر بالله وقسطنطين الكبير، ذلـك أن كليهمـا وجـدا مـذاهب متعـددة، وبدل أن يتركا الحرية الدينية، ويشـرعا لشـعبهما مبـادئ التعـايش بين المختلفين، أو مبـادئ الحـوار والجـدال بـالتي هي أحسـن، أو يبحثا عن المشـتركات، فيعتبراهـا أصـلا، ويتركـا للرعيـة بعـد ذلـك الاختيار فيما اختلف فيه، راحا ينصران فئة على أخرى، لأنها كـانت أطوع لهم، وأقرب إلى طباعهم.

ولهـذا نجـد الطـائفيين يبـالغون في الثنـاء عليـه، وعلى تلـك الجرائم التي ارتكبها في حق المخالفين للعقائد التي أقرهــا، وراح يمتحن أصحاب الطوائف المختلفة بها، ويعاقبهم على خلافها.

فقـد ذكـر المؤرخـون أنـه في سـنة 408هــ (اسـتتاب فقهـاء المعتـزلة، فأظهروا الرجوع، وتـبرأوا من الاعتــزال، ثم نهـاهم عن الكلام والتـدريس والمنـاظرة في الاعتــزال والـرفض والمقـالات المخالفة للإسلام، وأنهم متى خالفوه حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم)[2]

وقد أثنى عليه سبب هذا الموقف كل الطائفيون، ولا يزالــون

---

[1] () الاعتقاد القادري (ص: 226)

[2] () انظر : المنتظم 15/125، 176 ، والكامل 9/305، وتاريخ الإسلام 28/27، والبداية 12/6 .

يمجدونه بسببه، يقول ابن تيمية: (ولهذا اهتم كثير من الملوك والعلماء بأمر الإسلام، وجهاد أعدائه، حتى صاروا يلعنون الرافضة والجهمية وغيرهم على المنابر، حتى لعنوا كل طائفة رأوا فيها بدعة..وكذلك الخليفة القادر ربما اهتم بذلك، واستتاب المعتزلة من الفقهاء)[1]

وقال: (وكانت قد انتشرت إذ ذاك دعوة الملاحدة المنافقين ـ يقصد الفاطميين ـ وكان هذا مما دعا القادر إلى إظهار السنة، وقمع أهل البدع، فكتب الاعتقاد القادري.. وأمر باستتابة من خالف ذلك من المعتزلة وغيره)[2]

وقال الذهبي: (وفيها استتاب القادر بالله ـ وكان صاحب سنّة ـ طائفة من المعتزلة والرافضة، وأخذ خطوطهم بالتوبة)[3]

وقال ابن القيم: (وكان [القادر] قد استتاب من خرج عن السنة من المعتزلة والرافضة ونحوهم.. فتحرك ولاة الأمور لإظهار السنة)[4]

وهكذا أثنوا على عزله لعلماء الشيعة من الخطابة في الأماكن التي يتواجدون فيها، يقول ابن كثير مثنيا عليه بسبب ذلك: (وعزل خطباء الشيعة، وولى خطباء السنة، ولله الحمد وعلى ذلك وغيره) [5]

وهكذا، وبدل أن يقيم علاقات طيبة مع الدولة الفاطمية،

1() نقض المنطق ص 13.

2() نقض التأسيس 2/331.

3() العبر 3/98 .

4() الصواعق المرسلة 4/1286 .

5() البداية 12/26 .

حتى يجتمع الجميع على حماية الدولة الإسلامية من الأخطار الـتي تهددها، راح يجمع أولئك الفقهـاء الـذين أحـاطوا بـه للتشـكيك في نسب الفاطميين، ولست أدري ما يجديه ذلك.

فقد ذكـر المؤرخـون في أحـداث (402هـ) أن القـادر باللـه، ومن أجل مواجهـة الفـاطميين شـكل محضـراً يتضـمن الطعن في أنسابهم، وأنهم زنادقة كفّار، (وكتب هذا المحضر، وأقره جمـع من الأشـراف والقضـاة والمحـدثين والفقهـاء والعـدول، وخلاصـة هـذا المحضر: أن الفـاطميين ملـوك مصـر، منسـوبون إلى ديصـان بن سعيد الخرّمي، فليسوا من أهل البيت، ولا نسب لهم في ولد عليّ بن أبي طالب.. وأن هذا الحـاكم بمصـر هـو وسـلفه كفـار فسّـاق فجار، ملحـدون زنادقـة، معطلـون، وللإسـلام جاحـدون، ولمـذهب المجوسية والثنوية معتقدون، قد عطلوا الحـدود، وأحلـوا الخمـور، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنـوا السـلف، وادّعـوا الربوبيـة)(1)

وقد ذكر الذهبي دور القادر بالله في كتابة التاريخ وفرض مـا يشاء من أحكام، فقال: (وفي هذا الوقت انبثت دعـاة الحـاكم في الأطـراف، فـأمر القـادر بعمـل محضـر يتضـمن القـدح في نسـب العبيدية)(2)

وللأسف، فإن ابن تيمية وغـيره بـدل أن ينتهج المنهج العلمي في البحث عن حقيقة ما ذكره ذلـك المحضـر، راح يعتـبره حقيقـة مثل كل تلك الأباطيل الـتي حولهـا أصـحاب الملـك العضـوض إلى حقـائق، وقـد قـال في ذلـك، على طريقتـه في حصـر الأمـة فيمـا يتبناه، وتتبناه طائفته: (قد علم أن جمهور الأمة تطعن في نسبهم، ويـذكرون أنهم من أولاد المجـوس، أو اليهـود، هـذا مشـهور من شـهادة علمـاء الطوائـف من الحنفيـة، والمالكيـة، والشـافعية، والحنابلة، وأهل الحديث، وأهل الكلام، وعلمـاء النسـب، والعامـة، وغـيرهم، وهـذا أمـر قـد ذكـره عامـة المصـنفين لأخبـار النـاس

(1) انظر : المنتظم 15/82، 83 ، وتاريخ الإسلام 28/11، وسير أعلام النبلاء 15/177.

(2) سير أعلام النبلاء 15/132 .

وأيامهم)[1]

ولم يتوقف صراع القادر بالله مع الطوائف الإسلامية فقط، بل إنه تعداها للمسيحيين الذين استعمل كل وسائل إذلالهم كما هي عادة جميع أصحاب الملك العضوض، وقد أثنى عليه ابن تيمية بسبب ذلك، فقال: (وكان في أيام المتوكل قد عز الإسلام حتى ألزم أهل الذمة بالشروط العمرية، وألزموا الصغار، فعزت السنة والجماعة، وقمعت الجهمية والرافضة ونحوهم، وكذلك في أيام المعتضد والمهدي والقادر، وغيرهم من الخلفاء الذين كانوا أحمد سيرة، وأحسن طريقة من غيرهم، وكان الإسلام في زمنهم أعز، وكانت السنة بحسب ذلك)[2]

وفوق ذلك، فإن فتنته لم تبق قاصرة على عصره، بل إنها تعدتها إلى كل العصور التي تلته، بما فيها عصرنا هذا الذي نعيشه، وذلك عندما وضع قانونا للإيمان الإسلامي، كما وضع قسطنطين قانونا للإيمان المسيحي.

وقد كان ذلك القانون يقرأ في المساجد وغيرها، ويفرض على الرعية فرضا، يقول الذهبي في حوادث سنة 420هـ: (وفي شعبان جُمع العلماء والقضاة في دار الخلافة، وقريء عليهم كتاب طويل عمله القادر بالله، يتضمن الوعظ، وتفصيل مذهب السنة، والطعن على المعتزلة، وفيه أخبار كثيرة في ذلك، وفي رمضان جُمعوا أيضاً، وقريء عليهم كتاب طويل عمله القادر بالله، فيه أخبار وفاة النبي ﷺ، وفيه ردّ على من يقول بخلق القرآن، وحكاية ما جرى بين عبدالعزيز وبشر المريسي ثم ختمه بالوعظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وفي ذي القعدة جمعوا الكتاب الثالث في فضل أبي بكر وعمر، وسبّ من يقول بخلق القرآن، وأعيد فيه ما جرى بين عبدالعزيز وبشر المريسي، وأقام الناس إلى بعد العتمة حتى فرغ، ثم أخذ خطوطهم بحضورهم وسماع ما

1() مجموع الفتاوى 35/128 ، 130 ، 131 .

2() نقص المنطق ص 20 .

سمعوا)[1]

وقد نوه ابن تيمية بذلك القانون، وكيف صار يُعلن عنه في المساجد وغيرها، واعتباره من يخالفه مبتدعا ومهرطقا، فقال متحدثا عن كاتبه الذي كتبه للخليفة، وصار ينسب إليه: (قال الشيخ أبو أحمد الكرخي، الإمام المشهور في أثناء المائة الرابعة، في العقيدة التي ذكر أنها اعتقاد أهل السنة والجماعة، وهي العقيدة التي كتبها للخليفة القادر بالله، وقرأها على الناس، وجمع الناس عليها، وأقرتها طوائف أهل السنة، وكان قد استتاب من خرج عن السنة من المعتزلة والرافضة ونحوهم، سنة ثلاث عشرة وأربعمائة)[2]

وذكر كيف انتشر ذلك الاعتقاد، وكيف امتحن به الناس، بل حتى العلماء، وقتلوا بسبب مخالفتهم له، فقال متحدثا عن السلطان محمود بن سبكتكين الذي أيده القادر بالله، واعتبره من جنده وأنصاره، فقال: (وأظهر السلطان محمود بن سبكتكين لعنة أهل البدع على المنابر، وأظهر السنة، وتناظر عنده ابن الهيصم وابن فورك في مسألة العلو، فرأى قوة كلام ابن الهيصم، فرجح ذلك، ويقال إنه قال لابن فورك: فلو أردت تصف المعدوم كيف كنت تصفه بأكثر من هذا؟ أو قال: فرق لي بين هذا الرب الذي تصفه وبين المعدوم؟ وأن ابن فورك كتب إلى أبي إسحق الأسفراييني يطلب الجواب عن ذلك، فلم يكن الجواب إلا أنه لو كان فوق العرش للزم أن يكون جسماً، ومن الناس من يقول: إن السلطان لما ظهر له فساد قول ابن فورك سقاه السم حتى قتله، وتناظر عنده فقهاء الحديث من أصحاب الشافعي وغيرهم، وفقهاء الرأي، فرأى قوة مذهب أهل الحديث فرجحه) [3]

---

[1] تاريخ الإسلام 28/268 .

[2] درء تعارض العقل والنقل (6/ 252)

[3] درء تعارض العقل والنقل (6/ 253)

وهكذا استعمل السلطان محمود نفس ما استعمله القادر بالله من امتحان الناس في عقائدهم، وقتل من رأى فيه التنزيه، مثلما فُعل بالموحدين في المسيحية واتهامهم بالهرطقة.

وحتى لا يكون حديثنا مجرد دعوى كذلك، فسنذكر هنا عقيدتين من العقائد التي وردت في ذلك القانون العقدي الذي شرعه القادر بالله، وكلتاهما كان لها آثارها الخطيرة التي لا نزال نراها إلى اليوم في كتب العقائد الإسلامية.

أ ـ الاعتقاد في كلام الله تعالى وربطه بالتجسيم:

وقد نص على هذا الاعتقاد ذلك القانون بهذا النص الذي يدعو إلى التجسيم بكل المعاني، ويفرضه فرضا، بل يحكم بالقتل على من لم يقل به، فقد ورد فيه: (والله متكلم بكلام، لا بآلة مخلوقة كآلة المخلوقين، لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه عليه السلام، وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله فهي صفة حقيقية لا مجازية، ويعلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق، تكلّم به تكليماً، وأنزله على رسوله ﷺ على لسان جبريل بعد ما سمعه جبريل منه، فتلا جبريل على محمد ﷺ،وتلاه محمد على أصحابه، وتلاه أصحابه على الأمة، ولم يصر بتلاوة المخلوقين مخلوقاً؛ لأنه ذلك الكلام بعينه الذي تكلم الله به فهو غير مخلوق بكل حال، متلواً ومحفوظاً ومكتوباً ومسموعاً، ومن قال إنه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر حلال الدم بعد الاستتابة منه)[1]

وهذا نص خطير، لأنه يحكم بالكفر على أكثر الأمة، ما عدا الطائفة السلفية، فكل الأمة تنزه الله تعالى عن أن يكون لكلامه حرف أو صوت، على عكس المدرسة السلفية التي أملت تلك العقيدة على القادر بالله، وراح يفرضها على الأمة.

فالأشاعرة، والذين يشكلون النسبة الأكبر في الأمة، لو طبقنا عليهم ذلك القانون القادري، لحكمنا عليهم بالكفر والقتل جميعا، فقد قال الشيخ العثيمين مبينا اتفاق الأشاعرة مع المعتزلة

[1] () الاعتقاد القادري (ص: 247)

في صفة الكلام: (وقالت الأشعرية الذين تذبذبوا بين أهل السنة والمعتزلة قالوا: إن كلام الله تعالى هو المعنى القائم في نفسه، وما يُسمع فإنه مخلوق خلقه الله تعالى ليعبر عما في نفسه. فما الفرق إذن بين المعتزلة والأشعرية؟ الفرق: أن المعتزلة يقولون: لا ننسب الكلام إليه وصفا، بل فعلا وخلقا. والأشاعرة يقولون: ننسب الكلام إليه وصفا لا باعتبار أنه شيء مسموع، وأنه بحروف، بل باعتبار أنه شيء قائم بنفسه، وما يسمع أو يكتب فهو مخلوق؛ فعلى هذا يتفق الأشاعرة والمعتزلة في أن ما يُسمع أو يكتب مخلوق، فالأشاعرة يقولون: القرآن مخلوق، والمعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، لكن المعتزلة يقولون: إنه كلامه حقيقة، كما أن السموات خلقه حقيقة، وقالت الأشاعرة: ليس هو كلام الله تعالى حقيقة، بل هو عبارة عن كلام الله!!، فصار الأشاعرة من هذا الوجه أبعد عن الحق من المعتزلة، وكلتا الطائفتين ظالم، لأن الكلام ليس شيئا يقوم بنفسه، والكلام صفة المتكلم، فإذا كان الكلام صفة المتكلم، كان كلام الله صفة، وصفات الله تعالى غير مخلوقة، إذ إن الصفات تابعة للذات، فكما أن ذات الرب عز وجل غير مخلوقة، فكذلك صفاته غير مخلوقة، وهذا دليل عقلي واضح)[1]

وقال الشيخ محمد أمان الجامي: (ما الفرق إذن بين الأشاعرة وبين المعتزلة في صفة الكلام؟ خلاف لفظي غير حقيقي كلهم يتفقون على أن هذا القرآن الذي نقرأه ونحفظه ونكتبه مخلوق وليس بكلام الله، تتفق الأشاعرة مع المعتزلة على هذا بل موقف الأشاعرة أخطر لأن موقف المعتزلة واضح)[2]

وهكذا ينطبق على الأشاعرة كل تلك الأحكام القاسية التي حكم بها عليهم الاعتقاد القادري، والذي نشأ أصلا من تلك العقائد التي كان يبثها كعب الأحبار وغيره في كيفية تكليم الله تعالى

---

[1] الشيخ محمد بن صالح العثيمين في شرح كتابه عقيدة أهل السنة والجماعة : الفائدة 8.

[2] محمد أمان الجامي في محاضرة مفرغه بعنوان [الرد على الأشاعرة والمعتزلة].

لموسى عليه السلام، والتي كان يشجعه عليها من عاصره من أصحاب الملك العضوض.

وقد كان السند الأكبر الذي اعتمد عليه القادر بالله لوضع تلك المواد الخاصة بتكفير القائلين بخلق القرآن، ما وصله من تلك النصوص التكفيرية التي أعطي لها ولأصحابها من القداسة ما لم يعط الأنبياء أنفسهم.

ومنها ما روي عن يحيى بن خلف المقرئ أنه قال: (أتيت الكوفة فلقيت أبا بكر بن عياش؛ فسألته: ما تقول في من قال: القرآن مخلوق؟ فقال: كافر، وكل من لم يقل: إنه كافر؛ فهو كافر. ثم قال: أيُشك في اليهودي والنصراني؛ أنهما كافران؟ فمن شك في هؤلاء أنهم كفار؛ فهو كافر، والذي يقول: القرآن مخلوق. مثلهما)(1)

ويروون عن يزيد بن هارون قوله: (من قال: القرآن مخلوق. فهو كافر، ومن لم يكفره؛ فهو كافر، ومن شك في كفره؛ فهو كافر)(2)

ويروون عن سفيان بن عيينة قوله: (القرآن كلام الله عز وجل؛ من قال: مخلوق. فهو كافر، ومن شك في كفره؛ فهو كافر)(3)

ويروون عن أحمد بن حنبل قوله: (من قال: القرآن مخلوق. فهو كافر، ومن شك في كفره؛ فهو كافر)(4)

وبناء على هذا كله ينقلون الإجماع على ذلك، قال ابن أبي

1() السنة لحرب الكرماني، 375.

2() الإبانة ، 257.

3() السنة لعبدالله بن أحمد 25.

4() طبقات الحنابلة 1/173.

حاتم: (سألت أبي وأبا زرعة؛ عن مـذاهب أهـل السـنة في أصـول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقـدان من ذلك؛ فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً وشـاماً ويمنـاً؛ فكـان من مـذهبهم: الإيمـان قـول وعمـل يزيـد وينقص، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته.. ومن زعم أن القـرآن مخلوق؛ فهو كافر بالله العظيم كفـراً ينقـل عن الملـة. ومن شـك في كفره ـ ممن يفهم ولا يجهل ـ فهو كافر)[1]

وهكـذا قـال ابن بطـة: (ونحن الآن ذاكـرون شـرح السـنة، ووصفها، مما أجمع على شرحنا له أهل الإسلام، وسائر الأمة، منذ بعث الله نبيه ﷺ، إلى وقتنا هذا.. من قال: مخلـوق، أو قـال: كلام الله، ووقف، أو شـك، أو قـال بلسـانه، وأضـمره في نفسـه، فهـو كافر بالله حلال الدم، بريء من الله، والله منـه بـريء، ومن شـك في كفره، ووقف عن تكفيره، فهو كافر)[2]

وهذه الكلمات الممتلئة بالتكفير تنطبق على جميع المـدارس الإسلامية من دون حاجة لأي تعيين أو تسمية.

ب ـ الاعتقاد في الصحابة ومراتبهم:

وهي من العقائـد الغريبـة، الـتي لم تـرد لا في كتـاب ولا في سنة، وإنما كان القصد منها مواجهة الشيعة الذين يـرون الصـحابة كسائر الناس، يخطّئون من أخطأ منهم، ويصوّبون من أصاب، لكن الطائفيين اعتبروا العقيدة في الصحابة الـركن السـابع من أركـان الإيمان، إن لم تكن الركن الأول منه، ذلك أن النبي ﷺ عندما ذكـر الأركان الست للإيمان في حديث جبريل نسي أو أخطأ ــ باعتبـاره بشرا في تصورهم ـ فلم يذكر هذه العقيـدة الخطـيرة الـتي تعتـبر أهم العقائد، فراحوا يستدركونها عليه.

ولذلك نص الاعتقاد القادري على هذه العقيـدة الـتي لم ينص عليها الكتاب والسنة، وقد ورد فيه بخصوص هذه العقيـدة: (ويجب

[1] شرح أصول الاعتقاد 321.

[2] الشرح والإبانة 251.

أن يحبّ الصحابة من أصحاب النبي ﷺ كلهم، ونعلم أنهم خير الخلق بعد رسول الله ﷺ، وأن خيرهم كلهم وأفضلهم بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ويشهد للعشرة بالجنة ويترحم على أزواج رسول الله ﷺ، ومن سبّ عائشة فلا حظ له في الإسلام، ولا يقول في معاوية إلا خيراً، ولا يدخل في شيء شجر بينهم، ويترحم على جماعتهم)[1]

وقد كان في إمكان هذا الاعتقاد أن ينص على احترام الصحابة باعتبار صحبتهم لرسول الله ﷺ من غير تسمية، ولا ترتيب، ذلك أن لكل طائفة صحابة تفضلهم، وترى أنهم أولى من غيرهم.. وبذلك تنتفي المشكلة، لكن القادر بالله عالج القضية بما عالجها به قسطنطين، فراح يحارب الطوائف بعضها ببعض، لتنشغل عن الإيمان بالله، وبالبحث عن أسمائه الحسنى، بالبحث في أسماء الصحابة، وأيهم أفضل من غيره.

وقد تحولت هذه العقيدة الجديدة بعد ذلك إلى عقيدة أكبر من كل العقائد حتى أن كل أعمال المؤمن تحبط عندهم إن قال بفضل علي على أبي بكر.. وكأن رسول الله ﷺ لم يُرسل إلا لأجل أن يفاضل الناس بين أصحابه.

وقد كان سند القادر بالله على هذه العقيدة الغريبة ما ورثه من أصحاب الملك العضوض الذين سبقوه، ومنها قول أيوب السختياني: (من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان استنار بنور الله عز وجل، ومن أحب عليا فقد أخذ بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب رسول الله ﷺ فقد برئ من النفاق ومن ينتقص أحدا منهم أو يبغضه لشيء كان منه فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، والخوف عليه أن لا يرفع له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعا ويكون قلبه لهم سليما) [2]

---

[1] () الاعتقاد القادري (ص: 248)

[2] () الاعتصام (1/60-68)، الكبائر للذهبي (1/236)، كتاب الشفا (2/47)

ولست أدري من أين له كل هذه الأحكام الخطيرة التي تحتاج إلى معصوم لإثبات أي حرف منها، فهل صارت إقامة الدين جميعا متوقفة على حب أبي بكر.. وهل صار حب عثمان سببا للاستنارة بنور الله.. ومن أين استنبط كل هذه الأنواع العجيبة من الجزاء والعقوبة، أم أن الجزاء والعقوبة محل اجتهاد، ويحق للسلف أن يتحدثوا فيها بما شاءوا، ويفرضوا على الله أن يجزي بها من شاءوا؟

ومثل ذلك ما رواه ابن كثير عن بعض السلف قال: (بينما أنا على جبل بالشام إذ سمعت هاتفا يقول: من أبغض الصديق فذاك زنديق، ومن أبغض عمر فإلى جهنم زمر، ومن أبغض عثمان فذاك خصمه الرحمن، ومن أبغض علي فذاك خصمه النبي، ومن أبغض معاوية سحبته الزبانية، إلى جهنم الحامية، يرمى به في الحامية الهاوية)[1]

ومثل ذلك أو أخطر منه ما يروونه كل حين عن أبي زرعة من قوله: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم انه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة) [2]

وعند تتبعنا لحقيقة كلامهم ومرادهم منها لا نجد اهتماما كبيرا بأولئك الصادقين السابقين الذين أوذوا في الله، والذين لا يعيرهم الممجدين للملك العضوض أي اهتمام، بل إنهم مجهولون عندهم، لا قيمة لتضحياتهم، ولا عبرة بجهادهم.. وإنما العبرة عندهم بأولئك الطلقاء الذين قضوا حياتهم في حرب رسول الله ﷺ.

ولذلك نراهم يؤلفون الكتب الكثيرة في فضل معاوية وهو الطليق بن الطليق الذي قضى حياته كلها في حرب رسول الله

1() البداية والنهاية 6/184.

2() الكفاية في علم الرواية (1/49)

ﷺ هو وأبوه وأمه وأهلـه جميعا، لكنهم لم يؤلفـوا ولا نصـف كتـاب في عمار بن ياسر ذلك الرجل العظيم الذي اعتبره رسول الله ﷺ محكا ومعيارا لتميـيز الفئـة الباغيـة الظالمـة من الفئـة المحافظـة على دين الله الأصيل.

ولهذا ـ أيضا ـ نـراهم في كتب العقائـد الـتي وضـعها سـلفهم يضمنون العقائد في معاويـة إلى جـانب العقيـدة في اللـه ورسـله وملائكته، كمـا قـال الآجـري في (الشـريعة): (معاويـة رحمـه اللـه كاتب رسول الله ﷺ على وحي الله عز وجل وهو القرآن بأمر الله عز وجل وصاحب رسول اللـه ﷺ ومن دعـا لـه النـبي ﷺ أن يقيـه العذاب ودعـا لـه أن يعلمـه اللـه الكتـاب ويمكن لـه في البلاد وأن يجعله هادياً مهدياً.. وهو ممن قال الله عـز وجـل ﴿ يَـوْمَ لا يُخْـزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ (التحريم: 8) فقد ضمن الله الكريم له أن لا يخزيه لأنه ممن آمن برسول الله ﷺ)(1)

وقال ابن بطة في (الإبانـة الصـغرى): (تـترحم على أبي عبـد الرحمن معاوية بن أبي سفيان أخي أم حبيبـة زوج النـبي ﷺ خـال المؤمنين أجمعين وكاتب الوحي وتذكر فضائله)(2)

ولهذا ـ أيضا ـ نراهم يجيزون نقد عمار والطعن فيه وتأويل ما ورد في فضله من نصوص، بينما يعتبرون الكلام في معاوية طامـة كبرى، وزندقة عظمى، وبدعة ليس لصاحبها قرار سوى في النار.. لأن سـلفهم هـو الـذي قـرر ذلك، ولا راد لقـراره، فقـد رووا عن سـلفهم عبـد اللـه بن المبـارك قوله: (معاويـة عنـدنا محنة، فمن رأيناه ينظـر إلى معاويـة شَـزْراً؛ اتهمنـاه على القـوم، أعـني على أصحاب محمد ﷺ)(3)

وكما أن كل عقيـدة تحتـاج إلى تفاصـيل وفـروع، فقـد وضـع

---

(1) الشريعة [3 / 496.

(2) الإبانة الصغرى [ص: 299].

(3) تاريخ دمشق59/209.

الممجـدون للملـك العضـوض الكثـير من الفـروع لهـذه العقيـدة الجديــدة، ومنهــا عقيــدة وجــوب الســكوت عن تلــك الحــروب المستعرة التي راح ضـحيتها عشـرات الآلاف من النـاس، لأن كـل الذين كانوا يحاربون كانوا يسـتعملون سـيوفهم فقط، أمـا قلـوبهم فقـد كـانت ممتلئـة بالطهـارة والنبـل والصـفاء.. فقـد رروا وعن شهاب بن خراش قوله: (أدركت من أدركت من صـدر هـذه الأمـة وهم يقولون: اذكروا مجالس أصحاب رسول الله ﷺ ما تألف عليـه القلوب، ولا تذكروا الذي شجر بينهم فتحرشوا عليهم الناس) (1)

ويقـول ابن حجـر بجـرأة عجيبة: (واتفـق أهـل السـنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسـبب مـا وقـع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقـاتلوا في تلـك الحـروب إلا عن اجتهاد وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهـاد بـل ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا وان المصيب يؤجر أجرين)(2)

وهكذا أصبح القاتل الظالم المحرف لـدين اللـه مـأجورا على ذلك رغم أنف كل الأحاديث المطهرة الـتي تحـذر من تلـك الفتنـة العظيمة التي حولت دين الله إلى دين البشر.

ومن تلك العقائد عقيدة التفاضل بين الصحابة.. فلا يحل لأحد عند الممجدين للملك العضوض أن يختـار من يشـاء من الصـحابة، ويعطيــه المزيــد من المحبة، بــل عليــه أن يعطيهم من المحبــة بحسب ما تمليه العقيدة السلفية، فقد رووا أن الإمام أحمـد سـئل عن رجل ذكر أنه يحب أصحاب رسول اللـه ﷺ ولا يفضـل بعضـهم على بعض، فقال: (السنة أن يفضل أبا بكـر وعمـر وعثمـان وعلي من الخلفاء)(3)

وبناء على هذا فقد وضعوا سلما للتفاضـل بين الصـحابة عـبر

1() سير أعلام النبلاء (8/285)

2() فتح الباري(13/34)

3() رواه الخلال في (السنة) (2/ 372)

عنـه ابن كثـير بقوله: (وأفضـل الصـحابة، بـل أفضـل الخلـق بعـد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ: أبـو بكـر الصـديق ثم من بعـده عمـر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب)[1]

وقــد حصــل الخلاف بين الســلف الأول في المفاضــلة بين عثمان وعلي، لكن ذلك الخلاف ترجح أخيرا لصـالح عثمـان، وهـذا شيء طبيعي، لأن سلف السلفية لا يعيرون اهتماما كبيرا لعلي بن أبي طالب، ويجيزون سبه خلافا لسائر الصحابة، بل إنه لولا توليــه الخلافة لتلك الفترة القصيرة لكان شأنه شأن عمـار وبلال وزنـيرة وسمية وغيرهم من الصحابة الذين لا يسمع بهم أحد.

وقال ابن تيمية في (منهاج السنة) في ذكـر الخلاف الحاصـل بين أيهما أفضـل علي أم عثمـان؟: (وأمـا جمهـور النـاس ففضـلوا عثمان، وعليه استقر أمر أهل السـنة، وهـو مـذهب أهـل الحـديث ومشايخ الزهد والتصوف وأئمة الفقهاء كالشافعي وأصحابه وأحمد وأصــحابه وأبي حنيفــة وأصــحابه وإحــدى الروايــتين عن مالــك وأصحابه، وذكر أن هذا هو مذهب جمـاهير أهـل الكلام، ونقـل عن أبي أيـوب السـختياني قوله: من لم يقـدم عثمـان على علي فقـد أزرى بالمهاجرين والأنصـار قـال: وهكـذا قـال أحمـد والـدارقطني وغيرهما)[2]

ويفسر ابن تيمية سر ذلـك التقـديم بأنه: (لـو لم يكن عثمـان أحق بالتقديم وقد قدموه كانوا إما جـاهلين بفضـله، وإمـا ظـالمين بتقديم المفضول من غـير تـرجيح ديـني، ومن نسـبهم إلى الجهـل والظلم فقد أزرى بهم)[3]

هـذه نمـاذج عن آثـار أصـحاب الملـك العضـوض في تحريـف العقائـد، وتوجيههـا خلاف وجهتهـا الـتي جـاء بهـا القـرآن الكـريم،

---

[1] الباعث الحثيث (ص: 183)

[2] منهاج السنة، (4/ 202)

[3] مجموع الفتاوى، (4/ 428)

ولذلك أصبحت أسماء الله الحسنى مهجورة، وعوضت بأسماء أخرى كثيرة، من بينها أسماء أصحاب الملك العضوض أنفسهم.. والذين يهتز أتباعهم لأي نقد لهم، أو دعوة لمراجعة آثارهم في الدين، في نفس الوقت الذي لا يهتزون لمن يسب الله وأسماءه الحسنى..

2 ــ الملك العضوض.. وتحريف القيم الأخلاقية

لقد كان من الآثار الكبرى لتلك البدع والمستحدثات التي أضافها أصحاب الملك العضوض للدين، استدراكا على المصادر المقدسة، نشر الكثير من القيم التي تتنافى مع الدين، ومن أبرزها قيم الصراع والعنف، والذي جعل من الإسلام دينا مليئا بمظاهر العنف، سواء مع المخالف في المذهب والطائفة، أو المخالف غير المسلم.

ولذلك استبدل الحوار والجدال بالتي هي أحسن بالسيف، وصار السيف هو الوسيلة الوحيدة المستعملة، ليس مع غير المسلمين فقط، وإنما مع المسلمين أيضا.

وليت الأمر اقتصر في ذلك على اجتهادات الفقهاء، بل إنه تعداه إلى المصادر المقدسة نفسها، ليمحو منها كل ما فيها من قيم الرحمة والتسامح والعفو، لا بمحو ألفاظها، فالقرآن الكريم قد تكفل الله بحفظه، ولهذا لم يستطع أصحاب الملك العضوض من هذه الأمة أن يحرفوه كما فعل أصحاب الملك العضوض من الأمم الأخرى، ولذلك استبدلوا تحريف التنزيل بتحريف التأويل.

ومن الأمثلة على ذلك العبث بالقيم القرآنية ذلك التلاعب الذي جرى باسم الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ونحوها من علوم القرآن الكريم التي ابتدعها الممجدون للملك العضوض، وقيدوا بها المعاني القرآنية أو عطلوها، أو حرفوها.

ومن الأمثلة على ذلك العبث بالآية الكريمة التي تضع قانون التعامل مع المخالف في الدين أيا كان كتابيا أو غير كتابي، وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ

يُخْرِجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أَنْ تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ [الممتحنـة: 8]، فالآيـة الكريمـة تـدعو إلى الـبر والقسط بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان المختلفة، بل حتى مع الملحدين منهم، لأن القيد فيها مرتبط بالمحاربة، ولا علاقة له بالدين، وهي بذلك تقسم الناس إلى معتدين ومسالمين، كما تقسمهم آيات أخرى إلى مستضعفين ومستكبرين.

لكن أصحاب الملك العضوض ـ وباسم علم أسباب النزول ـ عطلوا الآية الكريمة تعطيلا تاما، حيث أنهم جعلوها خاصة بقوم مخصوصين في زمان مخصوص، وأن علاقتنا بها لا تتعدى الترتيل مع اشتراط أن يكون الترتيل متناسبا مع مخارج الحروف وأحكامها.

وسأنقل هنا ما ذكره المفسرون من الأقوال في تفسير الآية الكريمة، أو بالأخرى في تحريفها، ومنها قول مجاهد أنهم (الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا) (1)

ومنها قول عبد الله بن الزبير، أنه (عني بها من غير أهل مكة من لم يهاجر)(2)، وقد روى عنه الطبري وغيره في سبب نزول الآية قوله: (نزلت في أسماء بنت أبي بكر، وكانت لها أم فى الجاهلية يقال لها قتيلة ابنة عبد العزى، فأتتها بهدايا وصناب وأقط وسمن، فقالت: لا اقبل لك هدية، ولا تدخلي علي حتى يأذن رسول الله ﷺ فذكرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ، فأنزل الله لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [الممتحنة: 8])(3)

ومنها قوله بأنه (عني بها من مشركي مكة من لم يقاتل

---

(1) تفسير الطبري (23/ 322)

(2) المرجع السابق، (23/ 322)

(3) المرجع السابق، (23/ 322)

المؤمنين، ولم يخرجوهم من ديارهم؛ ونسخ الله ذلك بعد بالأمر بقتالهم)، وهو قول ابن زيد، فقد قال: (هذا قد نسخ، نسخه، القتال، أمروا أن يرجعوا إليهم بالسيوف، ويجاهدوهم بها، يضربونهم، وضرب الله لهم أجل أربعة أشهر، إما المذابحة، وإما الإسلام)[1]

وبناء على هذا فقد عطلت هذه الآية الكريمة تعطيلا تاما.. وعطل بنفس السبب قوله تعالى في شأن رقة النصارى مقارنة باليهود: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُون ﴾ [المائدة: 82]، فقد ذكروا عن سلفهم أن هذا ليس عاما بكل النصارى، بل خاص بالنجاشي ووفده الذين أسلموا لما قدموا على النبي ﷺ وهم اثنان وثلاثون أو أربعون أو سبعون أو ثمانون رجلا، وليس المراد كل النصارى لأنهم في عداوتهم كاليهود[2].

وهكذا عطلت هذه الآيات الكريمة باستخدام سلاح أسباب النزول.. وهكذا راحوا يستعملون ما وضعوه من علوم نسبوها للقرآن الكريم يستخدمونها مع كل الآيات الكريمة التي تدعو إلى التسامح والرحمة والعلاقات الطيبة بين البشر جميعا مسلمين وغير مسلمين.

ومن تلك العلوم، أو من تلك الأسلحة، وهو أخطرها سلاح النسخ، وقد قال الشيخ مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلى (المتوفى: 1033هـ)، وهو من مشايخ السلفية الكبار في قوله تعالى: ﴿ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ [البقرة:109]: (أصل العفو الترك والمحو والصفح الإعراض والتجاوز نسخ بقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: 29]، وأمر الله القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني

[1] المرجع السابق، (23/ 323)

[2] قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (ص: 100)

النضير، قال المحققون: إن مثل هذا لا يسمى منسوخا، لأن الله جعل العفو والصفح مؤقتا بغاية، وهو إتيان أمره بالقتال، ولو كان غير مؤقت بغاية لجاز أن يكون منسوخا)(1)

ومثل ذلك قالوا في قوله تعالى: قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُون [البقرة:139]، فقد اعتبروها أيضا منسوخة، نسختها آية السيف(2).. فما حاجة المسلمين إلى محاجة خصومهم ومجادلتهم وحوارهم بعد أن أمدهم الله بقوة السيف؟ فكفى بالسيف شافيا، وكفى بالسيف محاورا.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ [البقرة:256]، فهي مثل سابقاتها يذكرون أنها منسوخة بآية السيف(3)..

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: أولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا [النساء:63]، فقد ذكروا أن هذا (كان في بدء الإسلام، ثم صار الوعظ والإعراض منسوخاً بآية السيف)(4)

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين [المائدة:13]، فقد ذكروا أن سلفهم ذكر أنها (نزلت في اليهود، ثم نسخ العفو والصفح بآية السيف)(5)

1() المرجع السابق، (ص: 54)

2() الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص44-45.

3() المرجع السابق، ص 96 -97..

4() المرجع السابق، ص 135.

5() المرجع السابق، ، ص 150.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم ﴾ [الأنفال:61]، فقد نص سلفهم على أنها منسوخة بآية السيف (1).. فما حاجة المسلمين للسلام، وقد أعطاهم الله القوة التي يقهرون بها أعداءهم.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين ﴾ [النحل:125]، فقد نصوا على أنها منسوخة نسختها آية السيف(2).. فما حاجة المسلمين للحكمة والموعظة وقد من الله عليهم بنعمة القوة والعزة والتسلط.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُون ﴾ [المؤمنون:96]، فقد نصوا على أنها نسختها آية السيف(3).. وذكروا أن ذلك واضح لكل عاقل.. فمن أعطاه الله القوة التي يقهر بها أعداءه لا يحتاج إلى أن يدفع بالتي هي أحسن.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيل ﴾ [يونس:108]، فقد نصوا على أن معناها نسخ لا لفظها بآية السيف(4).

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي

---

(1) قلائد المرجان، ص 176-177.

(2) المرجع السابق، ص 210..

(3) المرجع السابق، ص 235..

(4) المرجع السابق، ص 252..

الْجَـاهِلِين ﴾ [القصـص:55]، فهي الأخـرى نسـخت عنـدهم بآيـة السيف(1).. ويذكرون أن ذلك واضح لمن تأملـه.. أليس الإعـراض نوعا من الضعف.. والمسلم قوي عزيز لا يحتاج أن يذل نفسه؟

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى:﴿ يَاأَيُّهَـا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَـلْنَاكَ شَـاهِدًا وَمُبَشِّـرًا وَنَـذِيرًا ﴾ [الأحـزاب:45]، فهي مثـل سـابقاتها منسوخة عندهم بآيـة السـيف(2).. وهي واضـحة عنـدهم لا تحتـاج إلى شرح يبين نسخها.

ومثل ذلك قولهم في قولـه تعـالى:﴿ وَلاَ تَسْـتَوِي الْحَسَـنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ فَـإِذَا الَّذِي بَيْنَـكَ وَبَيْنَـهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم ﴾ [فصلت:34]، فقـد نص سـلفهم على أنهـا منسـوخة بآية السيف(3).

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى:﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَـا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِـرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير ﴾ [الشـورى:15]، فقـد نصـوا على أنها منسوخة بآية السيف (4).

وهكـذا اسـتطاعت آيـة واحـدة أسـاء أتبـاع الملـك العضـوض فهمها أن ينسخوا بها كل قيم السماحة والرحمة التي جـاء القـرآن الكريم للدعوة إليها، ولهـذا يـذكرون في فضـل آيـة السـيف قـول الحسن بن فضل: (نسخت هذه الآية كل آية في القرآن فيهـا ذكـر الإعراض والصـبر على أذى الأعـداء..)، وقـال ابن حـزم في كتابـه الناسخ والمنسوخ: (في القرآن مائـة وأربـع عشـرة آيـة في ثمـان

(1) المرجع السابق ص 253.

(2) المرجع السابق ص 258.

(3) المرجع السابق ص 268.

(4) المرجع السابق ص 270.

وأربعين سـورة نسـخت الكـل بقولـه: {اقْتُلَـوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة: 5]..)[1]

ولهذا أباح أصـحاب الملـك العضـوض لأنفسـهم غـزو شـعوب العالم، واستعمال كل أنـواع الجـرائم في حقهـا، وباسـم الإسـلام، وباسم الفتح.. ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا إلى المواطنين من أهل الأديان الأخرى الذين يسكنون معهم وطنـا واحـدا يتعـاملون معهم بكل أنواع الإذلال، كما رأينا ذلك سابقا.

ولهــذا يعتــبرون من محامــد هــارون والمتوكــل والمعتضــد والمهدي والقادر وغيرهم من أصحاب الملك العضـوض من الـذين أحيوا سنة قهر أهل الذمة وإذلالهم، ولذلك أثنى عليهم ابن تيميــة، فقال: (وكان في أيام المتوكـل قـد عـز الإسـلام حـتى ألـزم أهـل الذمة بالشروط العمرية، وألزموا الصغار، فعزت السنة والجماعة، وقمعت الجهميـة والرافضـة ونحـوهم، وكـذلك في أيـام المعتضـد والمهدي والقادر، وغيرهم من الخلفـاء الـذين كـانوا أحمـد سـيرة، وأحسن طريقة من غيرهم، وكان الإسلام في زمنهم أعـز، وكـانت السنة بحسب ذلك)[2]

وقــال: (ولمــا ألــزم المتوكــل أهــل الكتــاب بشــروط عمــر الفاروق، استفتى علماء وقته في هدم الكنـائس والـبيع، فأجـابوه، فبعث بـأجوبتهم إلى الإمـام أحمـد، فأجابـه بهـدم كنـائس سـواد العراق)[3]

وقال ابن كثير مؤرخـا لـذلك: (أمـر المتوكـل أهـل الذمـة أن يتمـيزوا عن المسـلمين في لباسـهم وعمـائمهم وثيـابهم.. وأن لا يُستعملوا في شيء من الدواوين الـتي يكـون لهم فيهـا حكم على مسلم، وأمر بتخريب كنائسـهم المحدثـة.. وأمـر بتسـوية قبـورهم

1() الناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص: 12)

2() . نقض المنطق ص 20 .

3() . انظر : جامع المسائل لابن تيمية 3/270 ، وأحكام أهل الذمة 2/691 ، 693، 700 .

بالأرض، وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والآفاق)[1]

ولو أن الأمر اقتصر على أصحاب الملك العضوض لما كان لنا كبـير اهتمـام بالمسـألة، لكن المشـكلة أن تلـك الأحكـام الظالمـة الجائرة، التي تخالف النصوص المقدسـة، تحـولت إلى دين جديـد، نسخ دين السماحة والرحمة.

وقد أشـار ابن القيم إلى بعض تشـريعات هـذا الـدين الجديـد الذي شيده أصحاب الملك العضوض بقوله: (وللإمـام أن يسـتولي على كل وقف وقـف على كنيسـة أو بيت نـار أو بيعـة كمـا لـه أن يستولي على ما وقف على الحانات والخمارات وبيوت الفسق بل أولى فإن بيوت الكفر أبغض إلى الله ورسـوله من بيـوت الفسـق وشعار الكفر أعظم من شعائر الفسق وأضر على الدين. وإن كنـا نقر بيوت الكفر الجائز إقرارها ولا نقر بيوت الفسق فما ذاك لأنها أسهل منها وأهون بل لأن عقد الذمة اقتضـى إبـرارهم عليهـا كمـا نقر الكـافر على كفـره ولا نقـر الفاسـق على فسـقه فللأمـام أن ينتزع تلك الأوقاف ويجعلها على القربات)[2]

وهذه الفتوى تتناقض تماما مع ما ورد في النصوص المقدسة من إتاحة الحرية الدينيـة لهم، والقيـاس على الفسـقة قيـاس مـع الفارق، فالفاسق لم يقـر في أي دين على فسـقه، بـل اعتـبر في حال نشره الرذائـل محاربـا للـه ورسـوله بخلاف الكتـابي المتعبد، فإن أمره إلى الله، وقد منعنا الله من التعرض له.

ووجه الاستدلال الذي استدل به ابن القيم في هـذه المسـألة يـدل على مـدى تغليب المواقـف والفهـوم الشخصـية والقياسـات البعيدة على النصوص القطعية.

ولم يكتف ابن القيم وسلفه بهذا، بل نراهم يتدخلون في كـل صغيرة وكبيرة تتعلق بالمجاورين لهم من أهل الكتاب، فمما ذكره

1() . البداية والنهاية، 10/313 ، 314 ، وانظر: تاريخ الطبري 9/196 ، والكامل لابن الأثير 7/52 ، والمنتظم 11/222 ، 238 ، 265 ، وسير أعلام النبلاء 12/34 .

2() أحكام أهل الذمة (1/ 340)

ابن القيم من أحكامهم قوله: (أما حكم أبنيتهم ودورهم فإن كانوا في محلة منفردة عن المسلمين لا يجاورهم فيها مسلم تركوا وما يبنونه كيف أرادوا، وإن جاوروا المسلمين لم يمكنوا من مطاولتهم في البناء سواء كان الجار ملاصقا أو غير ملاصق بحيث يطلق عليه اسم الجار قرب أو بعد) [1]

وعلل هذا الحكم بقوله: (وهذا المنع لحق الإسلام لا لحق الجار حتى لو رضي الجار بذلك لم يكن لرضاه أثر في الجواز.. وليس هذا المنع معللا بإشرافه على المسلم بحيث لو لم يكن له سبيل على الإشراف جاز، بل لأن الإسلام يعلو ولا يعلى) [2]

وبين عموم هذا الحكم على كل الأحوال، فقال: (والذي تقتضيه أصول المذهب وقواعد الشرع أنهم يمنعون من سكنى الدار العالية على المسلمين بإجارة أو عارية أو بيع أو تمليك بغير عوض، فإن المانعين من تعلية البناء جعلوا ذلك من حقوق الإسلام واحتجوا بالحديث وهو قوله: (الإسلام يعلو ولا يعلى)[3] [4]

ولسنا ندري علاقة الحديث الشريف بالموضوع، فالحديث في حال صحته يدل على علو المسلم بأخلاقه وقيمه الرفيعة، وهذا العلو يدل على المعاني لا على المحسوسات، فالمسلم يعلو بخلقه وعلمه وتفكيره ومنهجه في الحياة، لا بالتطاول بالبنيان على غيره.

وللأسف نجد التطبيق الخاطئ لهذا الحديث ساريا في الكثير من المسائل حتى في المجالس التي يجلسون فيها، قال ابن القيم: (واحتجوا بأن في ذلك إعلاء رتبة لهم على المسلمين وأهل

1() أحكام أهل الذمة (3/ 225)

2() المرجع السابق، (3/ 226)

3() سنن الدارقطني ، ج4، ص371.

4() أحكام أهل الذمة (3/ 226)

الذمـة ممنوعـون من ذلك.. ولهـذا يمنعـون من صـدور المجـالس ويلجـؤون إلى أضـيق الطـرق فـإذا منعـوا من صـدور المجـالس والجلوس فيها عارض فكيـف يمكنـون من السـكنى اللازمـة فـوق رؤوس المسلمين) [1]

وهكذا نرى ابن القيم وسلفه وخلفه يتدخلون في حرية لباس أهل الكتاب، كما تدخلوا في حرية لباس المسلمين، فقد نقـل عن أبي القاسـم قوله: (وجـوب اسـتعمال الغيـار لأهـل الملـل الـذين خـالفوا شـريعته صـغارا وذلا وشـهرة وعلمـا عليهم ليعرفـوا من المسلمين في زيهم ولباسهم ولا يتشبهوا بهم)[2]

ومن مقتضيات هذا الغيار الذي هو نوع من التميـيز العنصـري منعهم من اللبـاس الطيب الجميل، فقـال: (ولا يـترك أهـل الذمـة يلبسـون طيالسـهم فـوق عمـائمهم، لأن هـذا يفعلـه أشـراف المسـلمين وعلمـاؤهم للتميـيز عمن دونهم في العلم والشـرف وليس أهل الذمة أهلا لذلك فيمنعون منه)[3]

ومن مقتضياته أن (تكـون نعـالهم مخالفـة لنعـال المسـلمين ليحصل كمال التمييز وعدم المشابهة في الزي الظاهر ليكون ذلك أبعد من المشابهة في الـزي البـاطن فـإن المشـابهة في أحـدهما تـدعو إلى المشـابهة في الآخـر بحسـبها وهـذا أمـر معلـوم بالمشاهدة)[4]

ومن مقتضياته ما نقله ابن القيم عن عمر بن عبد العزيز أنـه كتب إلى أمصار الشام: (لا يمشي نصراني إلا مفروق الناصـية ولا يلبس قبـاء ولا يمشـي إلا بزنـار من جلـد ولا يلبس طيلسـانا ولا

---

[1] () المرجع السابق، (3/ 226)

[2] () المرجع السابق، (3/ 249)

[3] () المرجع السابق، (3/ 262)

[4] () المرجع السابق، (3/ 257)

يلبس سـراويل ذات خدمة، ولا يلبس نعلا ذات عذبـة ولا يـركب على سرج ولا يوجد في بيته سلاح إلا انتهب ولا يدخل الحمام يـوم الجمعة يهودي ولا نصراني حتى تصلى الجمعة)[1]

أمـا المـرأة، فينقـل ابن القيم عن أبي القاسـم الطـبري هـذا الاجتهاد الغريب، الـذي عـبر عنـه بقوله: (وأمـا المـرأة إذا خـرجت فيكون أحد خفيها أحمر حتى يعرف بأنها ذمية)[2]

والعجب ليس في كـون الخـف أحمر، ولكن العجب في كـون أحد الخفين أحمر، بينما الآخر بلون مختلف.

بل إن الأمر لم يقتصر على الشروط المرتبطة باللبـاس، بـل تعداه إلى شؤون خاصة جدا كتسريحة الشعر، فقد عقـد ابن القيم فصلا حول أحكام شعر أهل الذمة جـاء فيه: (والمقصـود أن أهـل الذمـة يؤخـذون بتميـيزهم عن المسـلمين في شـعورهم إمـا بجـز مقادم رؤوسهم وإما بسدلها، ولو حلقوا رؤوسـهم لم يعـرض لهم)[3]

وهكذا نراهم ـ كما حرموا أبناء المسـلمين من التعلم بسـبب الاختلاط وغيره ـ يحرمون أبنـاء غـير المسـلمين في مجتمعهم من تعلم اللغة العربية، فمما ذكـره ابن القيم مؤيـدا لـه من اجتهـادات في هذا الباب قوله تعليقا على ما ورد في المعاهـدة العمرية: (ولا نتكلم بكلامهم): (هذا الشرط في أهل الكتاب الذي لغتهم غير لغة العرب كنصـارى الشـام والجزيـرة إذ ذاك وغيرهمـا من البلاد دون نصارى العرب الذين لم تكن لغتهم غير العربية، فمنعهم عمــر من التكلم بكلام العـرب لئلا يتشـبهوا بهم في كلامهم كمـا منعـوا من التشــبه بهم في زيهم ولباســهم ومــراكبهم وهيئــات شــعورهم فألزمهم التكلم بلسانهم ليعرفوا حين التكلم أنهم كفار فيكون هذا

---

[1] () المرجع السابق، (3/ 254)

[2] () المرجع السابق، (3/ 269)

[3] () المرجع السابق، (3/ 261)

من كمال التميز مع ما في ذلك من تعظيم كلام العرب ولغتهم حيث لم يسلط عليها الأنجاس والأخابث بذلونها ويتكلمون بها.. كيف وقد أنزل الله بها أشرف كتبه ومدحه بلسان عربي.. فصان أمير المؤمنين هذا اللسان عن أهل الجحيم وغار عليه أن يتكلموا به، وهذا من كمال تعظيمه للإسلام والقرآن والعرب الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث الله ورسوله من أنفسهم مع ما في تمكينهم من التكلم بها من المفاسد التي منها جدلهم فيها واستطالتهم على المسلمين)[1]

ولسنا ندري كيف يفهم هؤلاء الذين طولبنا بدعوتهم بالقرآن الكريم، وهم لا يعرفون العربية، ثم نجد من يحرم الترجمة، مع أن القرآن الكريم في أكثر خطابه يخاطب الإنسان مجردا من أي دين أو مذهب.

بل إن الأمر تعداه إلى ما هو أخطر من ذلك، حيث أن من الفقهاء من ذهب إلى حرمة تعلمهم القرآن الكريم، قال الباجي: (ولو أن أحدا من الكفار رغب أن يرسل إليه بمصحف يتدبره لم يرسل إليه به، لأنه نجس جنب ولا يجوز له مس المصحف، ولا يجوز لأحد أن يسلمه إليه ذكره ابن الماجشون، وكذلك لا يجوز أن يعلم أحد من ذراريهم القرآن، لأن ذلك سبب لتمكنهم منه، ولا بأس أن يقرأ عليهم احتجاجا عليهم به، ولا بأس أن يكتب إليهم بالآية ونحوها على سبيل الوعظ)[2]

بل إن ابن القيم وسلفه يضعون من الشروط المجحفة المميزة بين الأكثرية والأقلية ما يسميه بشرط الضيافة، وهو شرط لم يدل عليه أي نص من النصوص القطعية، وقد عبر ابن القيم عن أدلته والأحكام المرتبطة به، فقال: (وهذا الضيافة قدر زائد على الجزية، ولا تلزمهم إلا بالشرط.. واحتج الفقهاء بالشروط العمرية وأوجبوا اتباعها. هذا هو الصحيح.. كما أن شرطه عليهم في الجزية مستمر وإن لم يجدده عليهم إمام

[1] () المرجع السابق، (3/ 270)

[2] () المنتقى، ج3، ص165.

الوقت، وكذلك عقد الذمة لمن بلـغ من أولادهم وإن لم يعقـد لهم الإمام الذمة) (1)

ومن التفاصيل المرتبطة بهذا ما نقلـه عن الشـافعي من أنـه (وتقسم الضيافة على عدد أهل الذمة وعلى حسـب الجزيـة الـتي شرطها فيقسم ذلـك بينهم على السـواء. وإن كـان فيهم الموسـر والمتوسط والمقل قسـطت الضـيافة على ذلك.. قـال الشـافعي: ويذكر ما يعلـف بـه الـدواب من التبن والشـعير وغـير ذلك.. قـال: ويشترط عليهم أن ينزلوا في فضول منازلهم وكنائسهم ما يكنـون فيه من الحر والبرد منها إذ الضيف محتاج إلى موضـع يسـكن فيـه ويأوي إليه ما يحتاج إلى طعام يأكله) (2)

ولو أن مثـل هـذه الشـروط طبقت على المسـلمين إذا نـزل عليهم أهل الكتاب لكان في ذلك نوعا من العدالة، لكن المؤسـف قصر ذلك على الذميين بحيث يتحملون رغم أنـوفهم طـول السـنة وحدهم كل ضيف يمر عليهم، ليس وحده، بل حتى بهائمه.

بل إن الشروط أكثر من ذلك، قال ابن القيم: (ومن نزل بهم لم يخـل من ثلاثـة أحـوال: الأول إمـا أن يـنزل بهم وهـو مـريض، الثاني أو ينزل بهم وهو صـحيح، الثـالث أو يـنزل بهم وهـو صـحيح فيمرض. فإن نزل بهم وهو مريض فـبرىء فيمـا دون الثلاث فهـذا يجري مجـرى الضـيف وكمـا يجب عليهم إطعـام الضـيف وخدمتـه يجب عليهم القيام على المريض ومصالحه فإنه أحوج إلى الخدمـة والتعاهد من الصحيح. فإن زاد مرضه على ثلاثة أيام وله مـا ينفـق على نفسه لم يلزمهم القيام بنفقته، ولكن تلزمهم معونته وخدمته وشراء ما يحتاج إليه من ماله، وإن لم يكن له ما ينفق على نفسه لزمهم القيام عليـه إلى أن يـبرأ أو يمـوت. فـإن أهملـوه وضـيعوه

1() أحكام أهل الذمة (3/ 285)

2() المرجع السابق، (3/ 285)

حتى مات ضمنوه)(1)

وهـذا يجعـل من الـذميين مجـرد عبيـد مسـخرين للمسـلمين الذين يفدون عليهم شاءوا أم أبوا.

وهكذا انتكس الأمر، فتحول المسـالمون الـذين دعـا القـرآن الكريم إلى تأليف قلوبهم والمعاملة الحسنة معهم إلى محاربين لا يمكننا أن نتـدين التـدين الصـحيح إلا إذا أرينـاهم وجوهنـا الكالحـة، تحت اسم [الولاء والبراء]

ولم يبق ذلك محصورا في كتب الفقه والتـاريخ، وإنمـا انتقـل إلى المعاصـرين الـذين لا يزالـون يفتـون من تلـك المصـادر، ومن الأمثلة على ذلـك مـا أجـاب بـه الشـيخ ابن بـاز عن سـؤال يقـول صاحبه: (يسكن معي شخص مسيحي،وهو يقول لي:يا أخي، ونحن إخوة، ويأكل معنا ويشرب، فهل يجوز هذا العمل أم لا؟)

فأجاب الشيخ بقوله: (الكافر ليس أخا للمسلم، والله يقــول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:10]، ويقـول ﷺ: (المسـلم أخـو المسلم)(2)، فليس الكافر -يهوديا أو نصـرانيا أو وثنيـا أو مجوسـيا أو شيوعيا أو غيرهم- ليس أخـا للمسـلم، ولا يجـوز اتخـاذه صـاحبا وصــديقا، لكن إذا أكــل معكم بعض الأحيــان من غــير أن تتخــذوه صاحبا وصديقا، وإنما يصادف أن يأكـل معكم، أو في وليمـة عامـة فلا بأس، أما اتخاذه صـاحبا وصـديقا وجليسـا وأكيلا فلا يجـوز، لأن الله قطع بيننا وبينهم المحبة والموالاة)(3)

وهذه المعاملة القاسية التي عومل بهـا غـير المسـلمين، هي نفسـها الـتي قـام أهـل الملـك العضـوض بتشـريعها للتعامـل مـع المسلمين المخالفين لهم في المذهب، ومن الأمثلة على ذلـك مـا

1() المرجع السابق، (3/ 286)

2() صحيح البخاري (2310) ،صحيح مسلم (2580)

3() فتاوى نور على الدرب لابن باز بعناية الطيار (ص: 370)

قاله أبو إسماعيل الصابوني (توفي 449 هـ) عن خصائص أهل السنة المتمسكين بهدي السلف: (ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الديني، ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان قَرّت بالآذان وقرت بالقلوب ضرّت وجرّت إليها من الوساوس والخطرات الفاسدة ما جَرَّت، وفيه أنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 68]) [1]

ثم ذكر علامات أهل البدع، وعلامات أهل السنة، ثم قال: (واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم وإقصائهم، والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم والتقرب إلى الله عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم...) [2]

ولهذا نراهم يتركون الاستدلال بالقرآن الكريم الذي يدعو إلى الإخوة الإيمانية والإنسانية، ويتركون هدي رسول الله ﷺ الممتلئ بالسماحة، أو هدي ورثته الذي عبر الإمام علي عن منهجهم في التعامل مع المسلم وغير المسلم بقوله في عهده لمالك الأشتر لما ولاه مصر: (.. وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزّلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه)[3]

---

[1] () عقيدة السلف أصحاب الحديث: 100، 112.

[2] () المرجع السابق،: 100، 112.

[3] () نهج البلاغة: 53.

لكن أصحاب الملك العضوض، المفتخرين بالأمجـاد المزيفـة، يتركون كل هذه التعاليم المقدسة، ويروون لأتباعهم قول الفضـيل بن عياض: (من جلس مع صـاحب بدعـة فاحـذره، ومن جلس مـع صاحب البدعة لم يُعطَ الحكمة، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب بدعة حصن من حديد، آكل مـع اليهـودي والنصـراني أحب إليَّ من أن آكل مع صاحب البدعة)[1].

ويروون عنه قوله: (من أتاه رجل فشاوره فدلـه على مبتـدع فقـد غش الإسـلام، واحـذروا الـدخول على صـاحب البـدع فـإنهم يصدون عن الحق)[2]

ويـروون عن ابن المبـارك قوله: (وإيـاك أن تجـالس صـاحب بدعة)[3]

ويــروون عن سـفيان الثــوري قوله: (من أصـغى بإذنــه إلى صاحب بدعة خرج من عصمة الله ووكل إليها يعني إلى البدع)[4]

ويـــروون عن ابن أي الجـــوزاء قوله: (لأن يجـــاورني قـــردة وخنــازير، أحب إليَّ من أن يجــاورني أحـــد منهم يعــني أصــحاب الأهواء)[5]

ويروون من أفعال سلفهم المثبتة لذلك ما حدث به ابن زرعة عن أبيه قال: (لقد رأيت صبيغ بن عسل بالبصرة كأنه بعير أجــرب يجيء إلى الحِلَق، فكلمــا جلس إلى حلقــة قــاموا وتركــوه، فــإن

1() الحلية لأبي نعيم 8/103.

2() شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 261.

3() الآجري في الشريعة 1/64.

4() البربهاري في شرح السنة /60.

5() شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 231.

جلس إلى قوم لا يعرفونه ناداهم أهل الحلقة الأخرى: عزمة أمــير المؤمنين)(1)

ويروون عن طاوس أنـه (جعـل إصـبعيه في أذنيـه لمـا سـمع معتزليًا يتكلم)(2)

وعن عبد الرزاق أنه (امتنع من سماع إبـراهيم بن أبي يحـيى المعتزلي، وقال: لأن القلب ضعيف وإن الدين ليس لمن غلب)(3)

وعن وعبـد اللـه بن عمـر السرخسـي أن ابن المبـارك هجـر رجلا مدة لما أكل عند صاحب بدعة(4).

وقال سلاَّم: وقال رجل من أصـحاب الأهـواء لأيـوب: أسـألك عن كلمة، فولى أيوب وهـو يقـول: ولا نصـف كلمة، مـرتين يشـير بإصبعيه(5).

وهكـذا اسـتطاع أصـحاب الملـك العضـوض ومن تبعهم من علماء السلاطين أن يؤسسـوا قيمـا أخلاقيـة جديـدة بـدلا من تلـك القيم التي جـاءت بهـا المصـادر المقدسـة، وقـد كـان لتلـك القيم آثارهــا السـلبية الكثـيرة على الواقــع الإسـلامي، حيث انتشــرت الطائفية، والصراع بين المذاهب، لأن كل مـذهب يتصـور أنـه على الحق، وغيره على الباطل.

وقد أعانهم أصحاب الملك العضوض على ذلك الصراع، حيث أنهم بــدل أن يوجــدوا قيمــا مشــتركة للتعــايش بين المــذاهب

1() شرح أصول اعتقاد أهل السنة 3/636.

2() ابن بطة في الإبانة 1/40.

3() ابن بطة في الإبانة 1/40.

4() شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 274.

5() شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 291.

والطوائف راحوا ينتصرون لمذهب دون مذهب أو طائفة دون طائفة، وبذلك تدخلت السياسة في الدين بكل قوة، لتملأه بكل أنواع التشويه.

ومن الأمثلة على ذلك ما قام به بعض أتباع الملك العضوض من أهل الحديث باستغلال نفوذه لدى الخليفة المعتمد على الله (256-279هـ)، فراح يضيّق على الصوفية، ويتهمهم بالزندقة، ويطالب الخليفة المعتمد بأن يسن فيهم سنن أجداده في المبتدعة من القتل والتنكيل.

وقد ذكر الهجويري بعض الأحداث المرتبطة بذلك، فقال بلغته الشاعرية الصوفية: (من المشهور أنه لما اتهم غلام خليل رجال الصوفية بالزندقة، ألقى القبض على الشيخ النورى وأبى حمزة والرقام، وجئ بهم إلى مجلس الخليفة. قال غلام خليل: هؤلاء قوم من الزنادقة ولو أمر الخليفة بقتلهم لاجتثت الزندقة من أصلها، فهم زعماء هذه الفرقة، ولو تم هذا الأمر على يديه لضمنت له حسن الجزاء. فأمر الخليفة فى الوقت بقتلهم، فلما اقترب الجلاد من الرقام تقدم النورى وقدم نفسه بدل الرقام بمزيد الفرح والسرور، فعجب لذلك الحاضرون وقال الجلاد له: يا أيها الشاب، إن السيف ليس بالشئ الذى يرغب فيه الناس، ويتقدمون إليه بمثل هذا الفرح، ولم يأت دورك بعد. فقال له النورى: نعم، قد فعلت ذلك لأن مذهبى مؤسس على الإيثار. الحياة هى أثمن شئ فى هذه الدنيا، وإننى أحب أن أضحى بنفسى ليحظى أخى ببضع من الدقائق الباقيات)(1)

ومن الأمثلة عليها ذلك الصراع (استغلال الحنابلة وأهل الحديث لنفوذهم في الدولة العباسية زمن الخليفتين القادر بالله (381-422هـ) وابنه القائم بأمر لله (422-467هـ)، فضيقوا على الأشاعرة وطاردوهم ببغداد واستطالوا عليهم)(2)

1() كشف المحجوب ، الهجويري، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1980 ، ص : 421 .

2() الفروع ، ابن مفلح، ج 2 ص: 14 .

بل إن الصراع لم يقتصر على الخلافات العقدية، وإنما تعـداه إلى فـروع فقهيـة بسـيطة، لكنهـا كـانت تملأ حيـاة المسـلمين بالغصص، وكـان للحكـام دور كبـير في ذلـك، بسـبب ميلهم لبعض الطوائف، واسـتغلال نفـوذهم في نصـرتها، وهـو مـا يزيـد الأحقـاد شـدة، ويزيـد كـذلك التنـافس بينهم للوصـول إلى مراكـز النفـوذ، واستثمارها في ضرب الخصوم.

ومن الأمثلـة على ذلـك أن السـلطان محمـود بن سـبكتكين، وهـو من أتبـاع القـادر باللـه، لمـا أراد أن يُفاضـل بين المـذهبين الحنفي والشافعي ليتمذهب بأحـدهما، جمـع الفقهـاء بمدينـة مـرو وأمرهم بـالبحث في أي المـذهبين أقـوى، فوقـع الاختيـار على أن يصلي كـل طـرف ركعـتين يـدي السـلطان على المـذهبين، فقـام الفقيه الشافعي أبو بكـر القفـال وصـلى بوضـوء مُسـبغ، وسـترة، وطهـارة، وقبلـة، وبـاقي الأركـان الـتي لا يُجـوّز الشـافعي الصـلاة دونها، ثم صلى ـ أي القفال ــ صـلاة (على مـا يُجـوّزه أبـو حنيفـة، فلبس جلـد كلب مـدبوغ قـد لُطخ رُبعـه بنجاسـة، وتوضـأ بنبيـذ، فاجتمع عليه الذباب، وكان وضوءا مُنكسا، ثم كبّر بالفارسية، وقرأ بالفارسية: دو بركك سبز. ونقر ولم يطمئن، ولا رفـع من الركـوع، وتشهّد وأخرج الريح بلا سـلام)، فقـال لـه السـلطان: (إن لم تكن هذه الصلاة يُجيزها الإمام قتلتك)، فـأنكرت الحنفيـة تلـك الصـلاة، فأمر القفال بإحضار كتبهم فوجدوا الأمر كما قال القفـال، وتحـوّل السلطان محمود إلى المذهب الشافعي(1).

ولو أن هذا السلطان أحضـر حنفيـا، وطلب منـه أن يـذكر لـه فتاوى الشافعية الشاذة، لذكر له ما ينفره منه، وهذا ما حصل في فـترات كثـيرة، وخاصـة في عهـد الدولـة العثمانيـة، حين أصـبح المذهب الحنفي هو السائد والمسيطر بسبب تبني العثمـانيين لـه، وانتقـامهم من الشـافعية الـذين تبنـاهم السـلطان صـلاح الـدين الأيوبي(ت 589هـ)، الذي كان شافعي الفـروع، أشـعري الأصـول، وانتصر لهذين المذهبين انتصـارا كبـيرا علانيـة وتعصـب لهمـا على حساب مذاهب الطوائف الأخرى، فـأعطى القضـاء للشـافعية في

1() الذهبي: السير ، ج17 ص: 486 .

دولته، ومكّن للأشعرية في مملكته، وعلى نهجه سار أولاده من بعده في التمكين للأشعرية التي حرص على تربيتهم عليها(1).

وهكذا كانت تحصل الفتن كل حين بين المذاهب الفقهية وبسبب فروع فقهية بسيطة، ومن الأمثلة عليها ما ذكره المؤرخون من الصراع الشديد بين الحنفية والشافعية إلى الدرجة التي استعانوا فيها بأعدائهم، فقد ذكروا في أحداث سنة 633 هـ أنه (اختلف أهل أصبهان.. وهم طائفتان حنفية وشافعية، وبينهم حروب متصلة وعصبية ظاهرة ! فخرج قوم من أصحاب الشافعي إلى من يجاورهم ويتاخمهم من ممالك التتار فقالوا لهم: أقصدوا البلد حتى نسلمه إليكم ! فنقل ذلك إلى قاآن بن جنكيز خان بعد وفاة أبيه والملك يومئذ منوط بتدبيره، فأرسل جيوشاً من المدينة المستجدة التي بنوها وسموها قراحرم، فعبرت جيحون مغربة وانضم إليها قوم ممن أرسله جرماغون على هيئة المدد لهم، فنزلوا أصفهان في سنة633 المذكورة وحصروها، فاختلف سيفا الشافعية والحنفية في المدينة حتى قتل كثير منهم، وفتحت أبواب المدينة فتحها الشافعية على عهد بينهم وبين التتار أن يقتلوا الحنفية ويعفوا عن الشافعية ! فلما دخلوا البلد بدؤوا بالشافعية فقتلوهم قتلاً ذريعاً ولم يفوا مع العهد الذي عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفية ثم قتلوا سائر الناس)(2)

وللأسف فإن مثل هذه الأحداث لا تذكر، ويطوى عليها كل سرابيل الكتمان، في نفس الوقت الذي يشاع فيه بأن ابن العلقمي هو الخائن الوحيد الذي اتصل بالتتر من غير أي تحقيق تاريخي.

ولم تكن تلك الأحداث هي الوحيدة، بل كان الصراع بين المختلفين على أبسط الفروع يشتد كل حين، ومن الأمثلة على ذلك ما حصل من صراع بسبب الجهر بالبسملة في الصلاة، ومن الأمثلة عنها (أن جماعة من الحنابلة ببغداد أحدثوا فتنة في

1() أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج 4 ص: 382 . و المقريزي : الخطط ، ج 2 ص: 343 ، 358 .

2() ابن أبي الحديد في شرح النهج:8/237.

المجتمع سنة 323هجرية، عندما اعترضوا على كل ما يرونه مخالفا للشرع حسب مذهبهم، كاعتراضهم على من يجهر بالبسملة في الصلاة، والأمر استدعى تدخل الشرطة ضدهم، فأمرت بأن لا يُصلي حنبلي بالناس إلا إذا جهر بالبسملة في صلاتي الصبح والعشاء، فلم يرتدع الحنابلة واستمروا في عنفهم ومشاغباتهم تجاه الشافعية، ولم يُوقفوا ذلك إلا بعدما أصدر الخليفة الراضي بالله (322-329هـ) توقيعا عنيفا زجرهم فيه، وهددهم بالقتل والتنكيل، والتشريد وحرق البيوت)(1)

وهذا ما ذكره المؤرخون أيضا في سنة 447 هـ، حيث ذكروا أنه (حدثت فتنة بين الحنابلة والشافعية الأشاعرة ببغداد، كان من أسبابها جهر الشافعية بالبسملة في الصلاة، فانقسمت العامة بين مؤيد ومخالف لهم، ثم انحازت كل طائفة إلى الطرف الذي مالت إليه، ولم تفلح مساعي ديوان الخليفة في التوفيق بين الفريقين وبقي الخلاف قائما، ثم توجه الحنابلة إلى أحد مساجد الشافعية، ونهوا إمامه عن الجهر بالبسملة، فأخرج مصحفا وقال لهم: (أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها)، ثم تطور النزاع إلى الاقتتال، فتقوى جانب الحنابلة وتقهقر جانب الشافعية الأشاعرة، حتى أُلزموا البيوت،و لم يقدروا على حضور صلاة الجمعة ولا الجماعات، خوفا من الحنابلة)(2)

ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، بل وصل عند الوهابية ودولتهم التي شكلوها في نجد إلى ما هو أخطر من ذلك بكثير، فقد صرح ابن عبد الوهاب في رسالة أرسها إلى شريف مكة، مجيبا له عن سؤاله عن سبب قتاله للناس، فأجاب: (أركان الإسلام الخمسة، أولها الشهادتان، ثم الأركان الأربعة، فالأربعة إذا أقر بها، وتركها تهاونا، فنحن وإن قاتلناه على فعلها، فلا نكفره بتركها.. وأيضا: نكفره بعد التعريف إذا عرف وأنكر.. [وأيضا] من

1() ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 182 ، والصياغة منقولة من كتاب: التعصب المذهبي في التاريخ، ص89.

2() ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 163 .و ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ص: 73 . و ابن كثير : البداية و النهاية ، وانظر: التعصب المذهبي في التاريخ، ص89.

عرف أن التوحيد دين الله ورسوله، الذي أظهرناه للناس، وأقر أيضا أن هذه الاعتقادات في الحجر، والشجر، والبشر، الذي هو دين غالب الناس، أنه الشرك بالله، الذي بعث الله رسوله ﷺ ينهى عنه، ويقاتل أهله، ليكون الدين كله لله، ومع ذلك لم يلتفت إلى التوحيد، ولا تعلمه، ولا دخل فيه، ولا ترك الشرك، فهو كافر، نقاتله بكفره؛ لأنه عرف دين الرسول فلم يتبعه، وعرف الشرك فلم يتركه، مع أنه لا يبغض دين الرسول، ولا من دخل فيه، ولا يمدح الشرك، ولا يزينه للناس.. [وأيضا] من عرف ذلك، ولكنه تبين في سب دين الرسول، مع ادعائه أنه عامل به، وتبين في مدح من عبد يوسف، والأشقر، ومن عبد أبا علي، والخضر، من أهل الكويت، وفضلهم على من وحد الله، وترك الشرك، فهذا أعظم من الأول.. [وأيضا] من عرف التوحيد، وأحبه، واتبعه، وعرف الشرك، وتركه، ولكن يكره من دخل في التوحيد، ويحب من بقي على الشرك، فهذا أيضا: كافر.. [وأيضا] من سلم من هذا كله، ولكن أهل بلده يصرحون بعداوة أهل التوحيد، واتباع أهل الشرك، وساعين في قتالهم، ويتعذر أن ترك وطنه يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده، ويجاهد بماله، ونفسه، فهذا أيضا كافر; فإنهم لو يأمرونه بترك صوم رمضان، ولا يمكنه الصيام إلا بفراقهم، فعل ; ولو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه، ولا يمكنه ذلك إلا بفراقهم، فعل، وموافقتهم على الجهاد معهم)[1]

وهكذا صرح ابنه عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، فقال: (لا نكفر إلا من بلغته دعوتنا للحق، ووضحت له المحجة، وقامت عليه الحجة، وأصر مستكبرا معاندا، كغالب من نقاتلهم اليوم، يصرون على ذلك الإشراك، ويمتنعون من فعل الواجبات، ويتظاهرون بأفعال الكبائر والمحرمات ; وغير الغالب إنما نقاتله لمناصرته من هذه حاله، ورضاه به، ولتكثير سواد من ذكر، والتأليب معه، فله حينئذ حكمه في قتاله، ونعتذر عمن مضى بأنهم مخطئون معذورون، لعدم عصمتهم من الخطأ، والإجماع في ذلك ممنوع قطعا، ومن شن الغارة فقط غلط، ولا بدع أن يغلط، فقد

1() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (1/ 102)

غلط من هو خير منه)[1]

وهذان النصان وحدهما كافيان في الرد على الذين يدعون أن الوهابية طائفة مسالمة، وأنها لا تنتهج العنف، مع أن فتاواها تلك، وهي غيض من فيض لم تترك أحدا إلا وأباحت دمه.

وبناء على هذه الفتاوى سار الوهابيون في الأرض يسفكون الدماء، ويخربون كل ما يمرون به من آثار حفظت لأجيال كثيرة.

يقول عثمان بن بشر، وهو من مؤرخي الوهابية المعتبرين يصف هزيمة أهل الرياض سنة 1187 هـ: (فَرَّ اهل الرياض، الرجال والنساء والاطفال لا يلوي أحد على أحد هربوا على وجوههم إلى البرية في السهال قاصدين الخرج، وذلك في فصل الصيف، فهلك منهم خلق كثير جوعاً وعطشا.. وتركوها خاوية على عروشها، الطعام واللحم في قدوره والسواني واقفة في المناحي، وأبواب المنازل لم تغلق، وفي البلد من الاموال ما لا يحصر، فلما دخل عبد العزيز الرياض وجدها خالية من أهلها الاّ قليلاً فساروا في اثرهم يقتلون ويغنمون)[2]

ويتحدث ابن غنام عن استحلال الوهابية لأموال من يقاتلونهم، فقال: (استولى ابن سعود على جميع ما في الرياض من أموال ونخيل فيئا من الله لأنه لم يوجف عليها خيل ولا ركاب)[3]

وهكذا فعل سنة 1206 و1207 حيث (هجم سعود على القطيف والأحساء، وقتل وأباد نحو ألف وخمسمائة رجل، واقام مجازر رهيبة بحق السكان)[4]

1() المرجع السابق، (1/ 235)

2() عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن عبدالله بن بشر النجدي الحنبلي، ص 120.

3() تاريخ نجد المسمى (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام)، الحسين بن غنام، المحقق: ناصر الدين الأسد، ص 138.

وقد وصف عثمان بن بشر، وهو مـؤرخ وهـابي، (وقعـة الرقيّقة) التي حدثت عام 1210، فقال: (ثور المسـلمون بنـادقهم دفعة واحدة، فأرجفت الأرض، وأظلمت السماء، وثـار عج الـدخان في الجو، وأسقطت كثير من الحوامل في الأحساء، ثم نزل سعود في (الرقيقة) المـذكورة.وأقـام مـدة أشـهر يقتـل من أراد قتلـه، ويجلي من أراد جلاءه، ويحبس من أراد حبسه، ويأخذ من الاموال، ويهدم من المحال، ويبني ثغورا ويهدم دورا، وضـرب عليهم ألوفـاً من الدراهم وقبضها منهم، وأكثر فيهم سعود القتل.. فهذا مقتـول في البلد، وهـذا يخرجونـه إلى الخيـام ويضـرب عنقـه عنـد خيمـة سـعود، حـتى أفنـاهم الاّ قليلاً، وحـاز سـعود من الامـوال في تلـك الغزوة ما لايعد ولا يحصى) ويقول ابن بشـر: ان ابن سـعود قتـل من أهل قرية واحدة هي (الفضول) ثلاثمائـة رجـل، حـتى صـارت تلك القرية مضرب الأمثال)(5)

ولم يكتف الوهابيون بموطنهم نجد أو ما يحيـط بـه من أرض الجزيرة، بل قصدوا كربلاء المقدسة غـير مـراعين لحرمتهـا، فقـد شن سـعود بن عبـد العزيـز صـحبة الوهـابيين هجومـا مباغتـاً على كربلاء المقدسة، فأقاموا مجزرة رهيبة فيها، في شهر ذي القعـدة من سنة 1216 هـ (المصادف 20 نيسان 1802م)

وقـد وصـفها المـؤرخ الوهـابي عثمـان ابن بشـر في كتابـه (عنوان المجد)، فقال: (إن سعود سار بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة، من جميع حاضر نجد وباديها، والجنوب والحجـاز وتهامة وغير ذلك، وقصدوا أرض كربلاء ونازل أهـل بلـد الحسـين، فحشد عليها المسلمون وتسوروا جدرانها ودخلوها عنـوة، وقتلـوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت، وهدموا القبة الموضـوعة بـزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين، وأخذوا ما في القبة ومـا حولهـا، وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بـالزمرد والياقوت والجواهر، وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من الاموال

4() تاريخ نجد، ص 182- 183.

5() عنوان المجد، ص 216.

والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر، ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الاموال، وقتل من أهلها قريب الفي رجل، ثم ان سعودا ارتحل منها فجمع الغنائم وعزل أخماسها، وقسم باقيها على المسلمين غنيمة للرجل سهم وللفارس سهمان)[1]

وكان يمكن أن يكون هذا المصير هو نفسه مصير مكة المكرمة لولا أن أهلها استجابوا لرسالته، والتي جاء فيها: (أما بعد، فأنتم جيران الله وسكان حرمه آمنون بأمنه. إنما ندعوكم لدين الله ورسوله (قل يا اهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فان تولوا فقولوا: اشهدوا باننا مسلمون " فأنتم في أمان الله ثم في أمان أمير المسلمين سعود بن عبد العزيز وأميركم عبد المعين بن مساعد، فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله والسلام)[2]

وعندما دخل مكة المكرمة في اليوم الثامن من محرم 1218هـ خطب في أهلها قائلا: (احمدوا الله الذي هداكم للاسلام وأنقذكم من الشرك. أطلب منكم أن تبايعوني على دين الله ورسوله وتوالوا من والاه وتعادوا من عاده في السراء والضراء والسمع والطاعة)[3]

ثم بادر الوهابيون لهدم القباب التي كانت على محل مولد النبي ﷺ ومولد الإمام علي والسيدة خديجة، فهدموها، وهدموا

1() المرجع السابق، ص 257 - 258

2() عنوان المجد، ص 261

3() سراة الليل هتف الصباح، عبد العزيز التويجري، ص 49.

الكثير من الآثار الإسلامية[1].

ثم قصـــدوا العلمـــاء والوجهـــاء من علمـــاء الحـــرمين ومن الشريف فطلبوا منه التوقيع على بيـان بـالاعتراف بالـدين الجديـد والتبرؤ من دينهم السابق والإفتاء بكفر عامـة المسـلمين، فأصـدر علمـاء مكـة المكرمـة هـذا البيـان: (نحن علمـاء مكـة الواضـعون خطوطنا في هذا الرقيم: ان هذا الدين الذي قام به الشـيخ محمـد بن عبد الوهاب رحمه الله، ودعـا اليـه إمـام المسـلمين سـعود بن عبـد العزيـز، من توحيـد اللـه ونفي الشـرك الـذي ذكـره في هـذا الكتاب، أنه هو الحق الذي لا شـك فيـه. ولا ريب وأن مـا وقـع في مكة والمدينة سابقا ومصر والشام وغيرهما من البلدان، إلى الآن، من أنواع الشرك المـذكورة في هـذا الكتـاب، أنـه: الكفـر المـبيح للدم والمال، والموجب للخلود في النـار. ومن لم يـدخل في هـذا الدين ويعمل به ويوالي أهله ويعادي أعداءه فهو عندنا كـافر باللـه واليوم الآخر. وواجب على إمـام المسـلمين، والمسـلمين، جهـاده وقتاله حتى يتوب إلى الله مما هو عليـه، ويعمـل بهـذا الـدين)[2]، وهكذا فعل في المدينة المنورة حين دخلها[3].

هذه أمثلة عما فعله أصحاب الملك العضوض بسبب تحويلهم للإســلام من دين إلهي ممتلئ بالســماحة والنبــل وجميــع الأخلاق الكريمة إلى دين ممتلئ بالعنف والتطرف والإرهاب.

ولذلك لا يمكن لأحد من الناس أن يعرف دين اللــه الحقيقي، وهـو يتشـبث بأولئـك الملـوك المسـتبدين الظلمـة، وأعـوانهم من سدنة معابد السلاطين.. أو ذلك الذي يـزال يتشـبث بتلـك الأمجـاد المزيفة التي راحت تحطم كل المعاني النبيلـة الـتي جـاء الإسـلام للدعوة إليها.

1() المرجع السابق، ص 46

2() الدرر السنية والأجوبة النجدية، ج1 ص 314

3() المرجع السابق، ج1 ص 317

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1. الإبانة الكبرى لابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري المعروف بابن بطة العكبري (المتوفى: 387هـ)، المحقق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
2. الإبانة الكبرى لابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري المعروف بابن بطة العكبري (المتوفى: 387هـ)، حققه رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ج 1، 2 حققه حققه: رضا بن نعسان معطي، الطبعة الأولى، 1409 هـ.
3. آثار ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ)، المحقق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى (عام 1388 هـ)
4. أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
5. الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: 763هـ)، عالم الكتب.
6. أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية - عرض ونقد -، ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، دار النشر: بدون، الطبعة: الأولى، 1414 هـ.
7. أطلس تاريخ الإسلام، موسوعة تاريخية جغرافية مصرية، لجنة من العلماء المختصين بإشراف الدكتور حسين مؤنس، دار الزهراء للإعلام العربي، عام 1986.
8. الإعتصام بحبل الله المتين، القاسم بن محمد بن علي الزيدي، مطابع الجمعية ـ عمان ـ الأردن، سنة 1403 هـ.
9. الاعتقاد القادري، أبو طاهر أحمد بن الحسن الكرجي، الباقلاني، البغدادي (المتوفى: 489هـ)، كتبه وجمع الناس عليه: الخليفة القادر بالله (المتوفى: 22هـ)، دراسة وتحقيق: عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج 18، ع 39، ذو الحجة 1427 ه]
10. الإعلام بأن العزف والغناء حرام. أبوبكر جابر الجزائري، مكتبة دار الوفاء للنشر، 1407 هـ.
11. الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، 1989م.

12. أعيان الشيعة، الامين، محسن، حققه وأخرجه حسن الأمين، بيروت، دارالتعاريف للمطبوعات، 0341 هـ، 1983 م.
13. الإماء الشواعر، أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي، د. يونس أحمد السامرائي، دار النشر: عالم الكتب، بيروت/لبنان، 1404هـ.
14. الأمالي، الشيخ الطوسي، قم، مؤسسة البعثة.
15. الإنباء في تاريخ الخلفاء، محمد بن على بن محمد المعروف بابن العمرانى (580 هـ)، تحقيق: قاسم السامرائى، دار النشر: دار الآفاق العربية القاهرة، الطبعة الأولى 1421 / 2001.
16. انبعاث الإسلام في الأندلس، علي بن محمد المنتصر بالله الكتاني (المتوفى: 1422هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م.
17. الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية، سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين (المتوفى: 716هـ)، سالم بن محمد القرني، مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة: الأولى، 1419هـ.
18. أنساب الأشراف، البلاذري، مؤسسة الأعلمي ــ بيروت. ــ لبنان بتحقيق المحمودي سنة 1394 ه و1397 هـ.
19. الباعث الحثيث شرح إختصار علوم الحديث لأحمد محمد شاكر (ط دار الكتب العلمية ـ بيروت. ـ لبنان).
20. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، العلامة المجلسي، تحقيق عدة من الأفاضل، دار الكتب الإسلامية، طهران.
21. البداية والنهاية لابن كثير، دار إحياء التراث العربي سنة 1413 هـ.
22. البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي (ط القاهرة ـ مصر سنة 1373 هـ).
23. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ)، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، 1326هـ.
24. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (المتوفى: نحو 695هـ)، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، 1983 م.
25. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (الخلفاء) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، 1407 ه دار الكتاب العربي، بيروت.
26. تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، بيروت، دار الكتب العلمية.
27. تاريخ الخلفاء للسيوطي (ط مكتبة السعادة بمصر سنة 1371).

28. تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد (بك) ابن أحمد فريد (باشا)، المحامي (المتوفى: 1338هـ)، المحقق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1401 - 1981، دار النفائس – بيروت.
29. تاريخ العلويين، محمد امين غالب الطويل، اللاذقية سنه 1924.
30. تاريخ بغداد ــ الخطيب البغدادي، ط الأولى عام 1417 هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
31. تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ، 1995 م.
32. تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ط الثانية عام 1404، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
33. تذكرة الحفاظ لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي (نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت. ـ لبنان).
34. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف لعبد العظيم بن عبد القوي المنذري الشامي (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت. ـ لبنان).
35. التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي خلال العصر الإسلامي، مظاهره، آثاره، أسبابه، علاجه، د. خالد كبير علال، دار المحتسب، 1429/ 2008.
36. الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني، المحقق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى 1426 ه - 2005 م.
37. جمع الجواهر في الملح والنوادر، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحصري، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع.
38. الحبل المتين، بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد (الشيخ البهائي) (953، 1030ق)، قم المقدسة: مكتبة بصيرتي.
39. الحرب الصليبية الثانية حرب الغرب المستعرة مجددا ضد الإسلام، جون فيفر، ترجمة: محمد هيثم نشواتي، الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية، 2015م.
40. حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس، المسمى الفتح القسي في الفتح القدسي، عماد الدين الكاتب الأصبهاني (المتوفى: 597هـ)، دار المنار، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م.
41. حضارة العرب، جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م.
42. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية.

43. الخطط (المواعظ والاعتبار) تقى الدين المقريزي، ت845ه، دار صادر بيروت.
44. خلق أفعال العباد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: 256هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف السعودية، الرياض.
45. الدرر السنية في الأجوبة النجدية، علماء نجد الأعلام، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة: السادسة، 1417هـ/1996م.
46. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (المتوفى: 1406هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة:، ج 1، 2، 5/ الرابعة، 1417 ه - 1997 م، ج3، 4/ الثانية، 1411 ه - 1990 م.
47. الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية.
48. الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، شاحاك، إسرائيل، ترجمة وتحقيق: حسن خضر، سينا للنشر، 1994.
49. الرسول: حياة محمد، رونالد ف بودلي، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، القاهرة: مكتبة مصر، بدون تاريخ.
50. السلطان سليمان القانونى.. أكبر ملوك الإسلام، محمود حافظ، دط، دت.
51. سنن الترمذي (الجامع الكبير)، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)، حققه بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة النشر 1998 م.
52. سنن الدارقطني، أبو الحسن علي البغدادي الدارقطني، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004.
53. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، 1410 ه بيروت.
54. الشافعي، محمد أبو زهرة، ار الفكر العربي – القاهرة.
55. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
56. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: 418هـ)، حققه أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، السعودية، الطبعة الثامنة، 1423ه / 2003م.
57. شرح السنة، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: 516هـ)، حققه شعيب الأرنؤوط،

محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، 1403ه، 1983م.
58. شرح حديث النزول، تقي الدين ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة: الخامسة، 1397ه/1977م.
59. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، 1386 ه بيروت.
60. الشيعة هم العدو فاحذرهم، شحاتة محمد صقر، مكتبة دار العلوم، البحيرة (مصر)
61. الشيعة والحاكمون، الشيخ محمد جواد مغنية، تحقيق سامي الغريري، المكتبة الأهلية للطبع والنشر.
62. الشيعة والسنة، إحسان إلهي ظهير الباكستاني (المتوفى: 1407هـ)، إدارة ترجمان السنة، لاهور - باكستان، الطبعة: الثالثة، 1396 ه - 1979 م.
63. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دمشق وبيروت: دار ابن كثير واليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، 1414هـ.
64. طبقات الحنابلة لأبي يعلى (مطبعة السنة المحمدية ــ القارهرة ــ مصر سنة 1371 هـ).
65. طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، حققه محمد الطناجي ط 2، الجيزة، دار هجر، 1992.
66. طبقات الفقهاء الشافعية، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح، المحقق: محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1992م.
67. الطبقات الكبرى لابن سعد (ط صادر سنة 1388 هـ)
68. العبر في خبر من غبر، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت.
69. العرش وما روي فيه، محمد بن عثمان ابن أبي شيبة العبسي أبو جعفر، تحقيق: محمد بن حمد الحمود، مكتبة المعلا - الكويت، الطبعة الأولى، 1406.
70. عيون اخبار الرضا، محمد بن على بن الحسين الصدوق، مكتبة طوس، قم المقدسة.
71. الفاضح لمذهب الشيعة الإمامية، حامد مسوحلي الإدريسي، مكتبة الرضوان، مصر، الطبعة: الأولى، 1428 ه - 2007 م.
72. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ابن الطقطقى، مصر، مكتبة عز للتوريدات.

73. فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية للطباعة والنشر والتسويق، جدة، الطبعة: الرابعة، 1422 ه - 2001 م.
74. فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل حققه محمد عباس، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.
75. فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، خليل عثامنة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
76. فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1421هـ.
77. قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن، مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي، تحقيق: سامي عطا حسن، دار القرآن الكريم - الكويت، 1400.
78. قمع الدجاجلة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، عبد العزيز بن فيصل الراجحي، مطابع الحميضي - الرياض، الطبعة: الأولى، 1424 هـ.
79. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1417هـ / 1997م.
80. كشف المحجوب، الهجويري، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.
81. الكفاية في علم الرواية، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، المحقق: أبو عبدالله السورقي، إبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.
82. الله ليس كذلك زيجريد هونكه، ترجمة د. غريب محمد غريب، القاهرة: دار الشروق، ط2 (1996م)
83. مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ، جهاد الترباني، تقديم: الشيخ محمد بن عبد الملك الزغبي، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، 1431 هـ - 2010 م.
84. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 هـ، 1994 م.
85. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جمعه ابن القاسم، الرياض، 1381.
86. محاضرات في النصرانية، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ)، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة: الثالثة 1381 ه - 1966 م.

87. مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (نشر دار الأندلس ـ بيروت. لبنان سنة 1965 م)
88. مسألة في الكنائس، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: علي بن عبدالعزيز الشبل، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة: الأولى 1416هـ.
89. المستدرك على الصحيحين للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري (ط الهند ـ سنة 1342 هـ) و(تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي).
90. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ، 2001 م.
91. مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر البزار (المتوفى: 292هـ)، حققه محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى.
92. المصباح الكبير (مصباح المتهجد) لأبي جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي (الطبعة الأولى مؤسسة فقه الشيعة ـ بيروت. ـ لبنان سنة 1411 هـ ـ 1991 م).
93. المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، تقديم كمال يوسف الحوت، 7 مجلدات، دار التاريخ، الطبعة الأولى، بيروت.
94. معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ط دار صادر ـ بيروت سنة 1388 هـ)
95. مقاتل الطالبيين لعلي بن الحسين (أبي الفرج الإصبهاني) (الطبعة الثانية أوفست عن الطبعة المصرية الأولى في القاهرة سنة 1368 هـ ـ 1949 م)
96. المنتظم في تاريخ المملوك والأمم، ابن الجوزي، الطبعة الأولى، حيدر آباد الدكن.
97. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1406 هـ، 1986 م.
98. موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش - المغرب، الطبعة: الأولى.
99. موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، 1415 ه / 1995 م.
100. الناسخ والمنسوخ - وتنزيل القرآن بمكة والمدينة، محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري (المتوفى: 124هـ)، رواية: أبي عبد

الرحمن محمد بن الحسين السلمي (412 هـ)، المحقق: حـاتم صـالح الضامن، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، 1418 ه - 1998 م.
101. نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، التنوخي، دار صادر، بيروت، 1971.
102. نفح الطيب مـع غصـن الأنـدلس الـرطيب لأحمـد بن محمـد المقـري التلمساني (ط دار صادر ـ بيروت ـ سنة 1388 هـ 1968 م).
103. نقض الإمام أبي سـعيد عثمـان بن سـعيد على المريسـي الجهمي العنيـد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد، أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالـد بن سـعيد الـدارمي السجسـتاني، مكتبـة الرشـد للنشـر والتوزيع، المحقق: رشيد بن حسـن الألمعي، الطبعـة: الطبعـة الأولى 1418هـ، 1998م.
104. الوافي بالوفيات لصـلاح الـدين خليـل بن أيبـك الصـفدي (نشـر دار إحيـاء التراث ـ بيروت. سنة 1420 هـ ـ 2000 م)
105. وجـاءوا يركضـون مهلا يـا دعـاة الضـلالة، أبـو بكـر جـابر الجزائـري، دار الحرمين، 1413.
106. وفيات الاعيان، لابن خلكان، 681ه، دار التعارف، بيروت.
107. وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق عبد السلام محمـد هـارون الطبعة الثالثة، 1404 هـ.

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب ـ من خلال النماذج السبعة المختارة، ومن خلال العودة للمصادر التاريخية ـ أن يدرس الواقـع الحقيقي لتلـك الأمجاد التي يفتخر بها الكثـير من النـاس من غـير وعي لحقيقتهـا المزيفــة، والــتي لم تــزد المســلمين إلا تخلفــا، ولم تــزد القيم الإسلامية إلا تشويها.

وقد حاولنا أن تكون النماذج متفرقة، نتعلم من خلالها دراسة التــاريخ وفــق المنهج الإســلامي الأصــيل، لا وفــق ذلــك المنهج التــبريري الــذي يحــاول أن يضــع ركامــا من الرمــال على أخطــاء الملوك الذي سـموا أنفسـهم خلفـاء.. وعلى أخطـاء المسـتعمرين الذين سموا أنفسهم فاتحين.. وهذه النماذج السبعة هي:

1. لمــاذا يحب الصــهاينة صــلاح الــدين الأيــوبي.. ويتمنــون عودته؟
2. هل كان هارون العباسي رشيدا.. أم سفيها؟
3. هل كان المتوكل ناصرا للسنة.. أم عدوا لها؟
4. هل كان دخول المسلمين إلى الأندلس فتحا؟
5. أيهما أكثر جرما: العثمانيون أم الصفويون؟
6. من أسقط بغداد: الخليفة أم وزيره؟
7. الملك العضوض.. والصياغة البشرية للدين

وقـد اعتمـدنا فيهـا جميعـا المصـادر التاريخيـة الـتي يعتمـدها المتغنـون بالأمجـاد المزيفـة، فلم نرجـع لكتب المستشـرقين، ولا الحداثيين، ولا غيرهم، بل اكتفينا بكل تلك المصادر التي يعتبرونهــا تجمع أحداث التاريخ الإسلامي بإنصاف واعتدال.